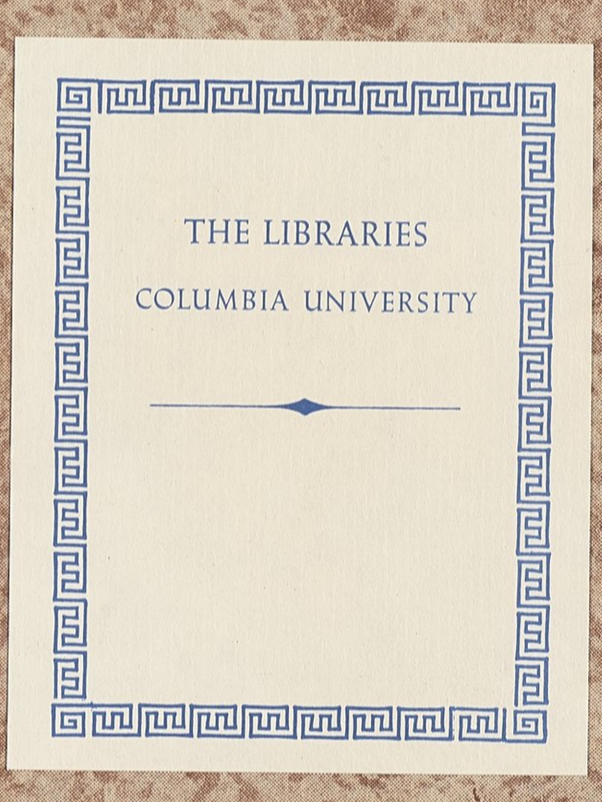
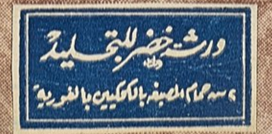
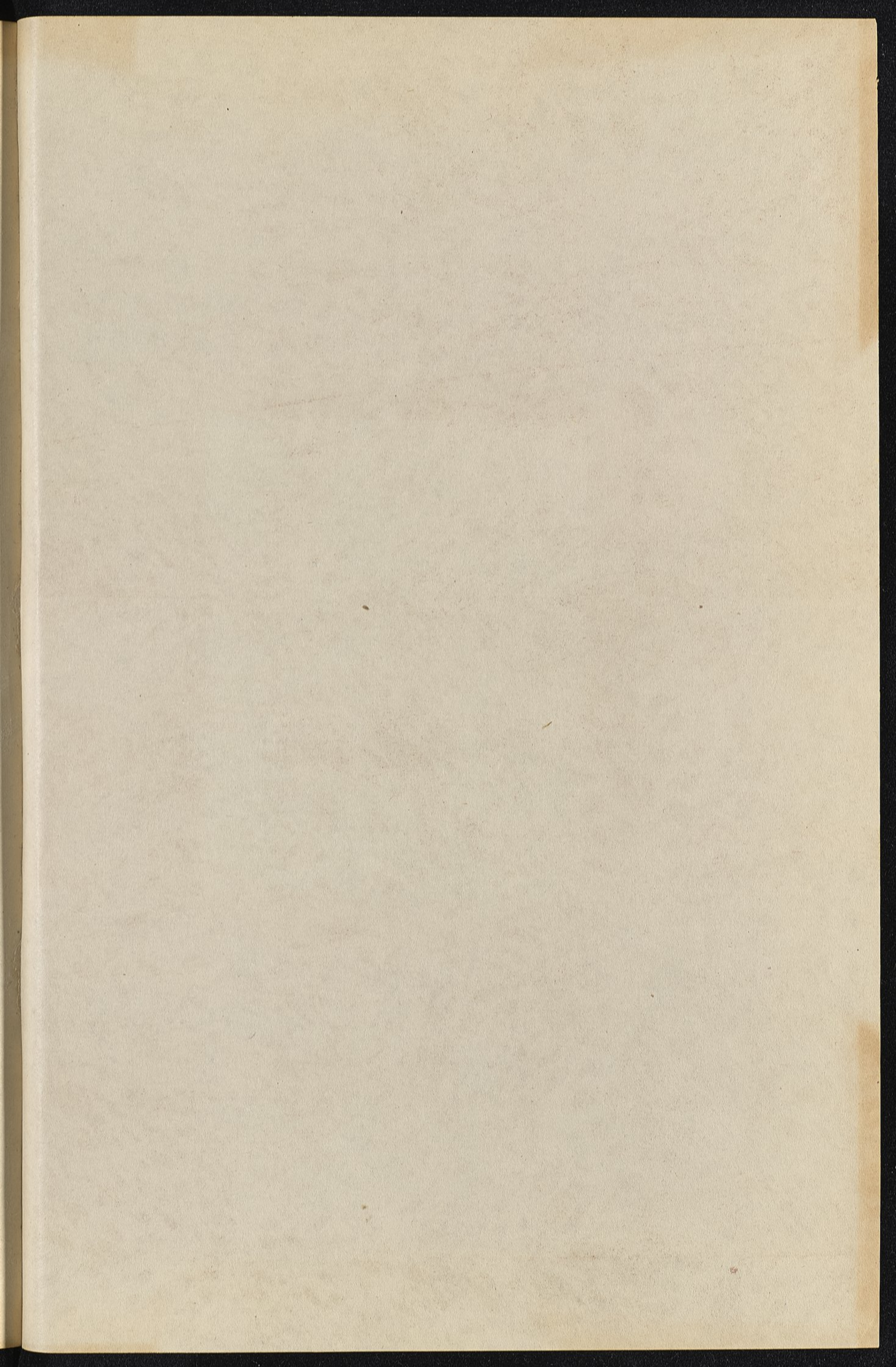



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY


ورشة خضر للتجليد





دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الرابع عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية

فهـرس الجـزء الرابـع عشر

سـورة الـروم

سورة لقمان

صفحة

سورة السجدة

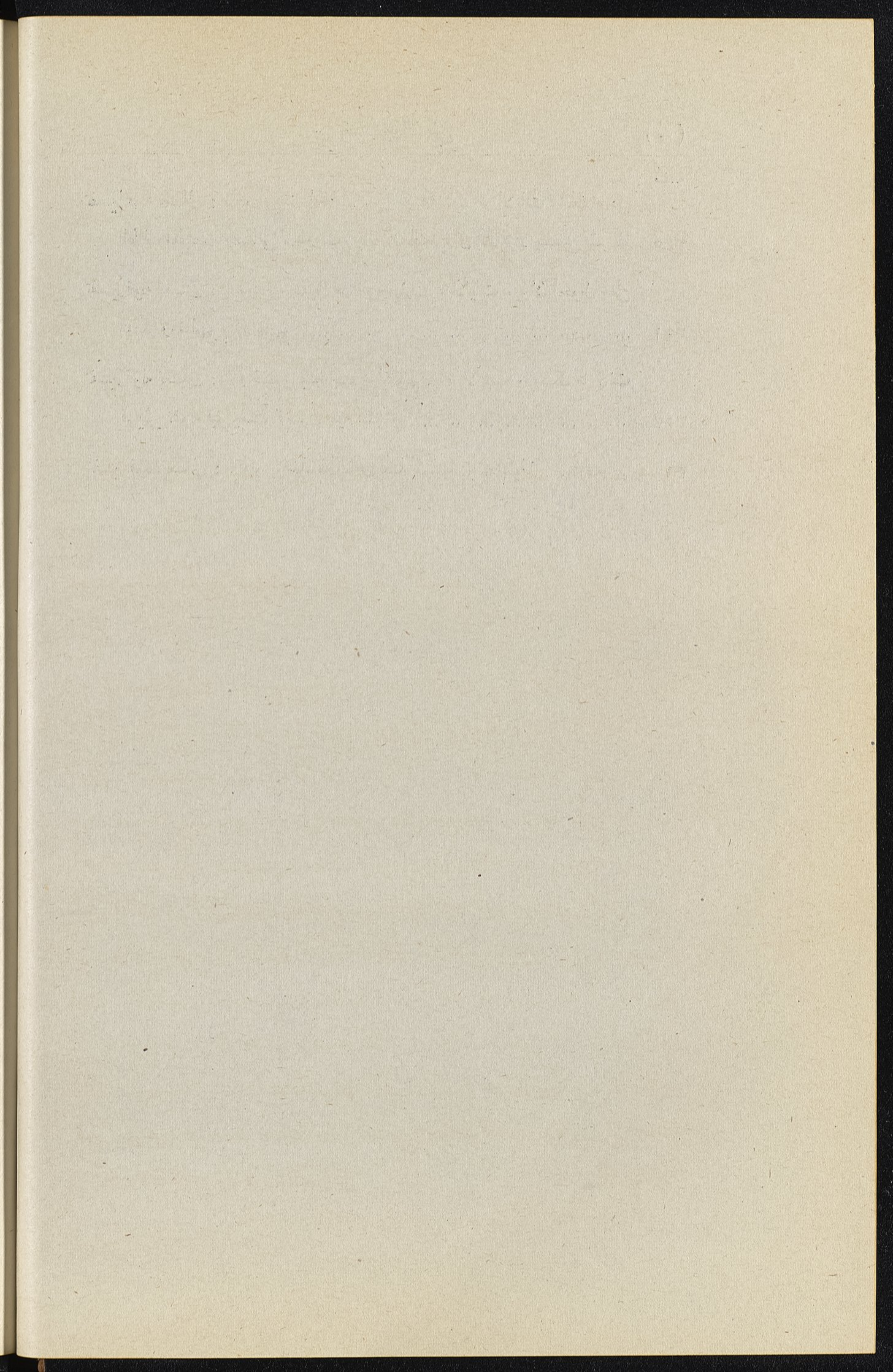
سورة الأحزاب

بيان أنها نزلت فى المنافقين وإيذائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعنهم فيه وفى مناكحته

*

صفحة

سورة فاطر



بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الروم

سورة الروم مكية كلها من غير خلاف، وهى ستون آية

قوله تعالى: الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٥)

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ روى الترمذىّ عن أبى سعيد الخُدرىّ قال: لما كان يوم بدرٍ ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت: «الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ — إلى قوله — يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ ٱللَّهِ». قال: ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس. قال: هذا حديث غريب[1] من هذا الوجه، هكذا قرأ نصر بن علىّ الجَهْضَمِىّ «غَلَبَتِ الروم». ورواه أيضا من حديث ابن عباس بأتمّ منه، قال ابن عباس فى قول الله عز وجل: «الم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض» قال: غَلَبَت وغُلِبت، قال: كان المشركون يحبّون أن يظهر أهل فارسَ على الروم لأنهم وإيّاهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبّون أن تظهر الروم على فارسَ لأنهم أهل كتاب؛ فذكروه لأبى بكر فذكره أبو بكر لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: "أَمَا إنّهم سيَغْلِبون" فذكره أبو بكر لهم فقالوا: اجعلْ بيننا وبينك أجلا، فإن ظهرنا كان لنا كذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا؛ فجعل أجلَ خمس سنين، فلم يظهروا؛ فذكر ذلك للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: "ألَا جعلته

(١) فى نسخة الترمذى: «هذا حديث حسن غريب ...».

إلى دُونَ — أراه قال العشر — قال أبو سعيد : والبِضع ما دون العشر . قال : ثم ظهرت الروم بعدُ، قال : فذلك قوله « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ — إلى قوله — وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ » . قال سفيان : سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بَدْر . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب . و رواه أيضا عن نِيَار بن مُكْرَم الأسْلَمِيّ قال : لما نزلت « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ » وكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم و إياهم أهل كتاب، وذلك قول الله تعالى : « وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » وكانت قريش تحب ظهور فارسَ لأنهم و إياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمانٍ ببعثٍ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضى الله عنه يصيح فى نواحى مكة : « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ » . قال ناس من قريش لأبى بكر : فذلك بيننا و بينكم، زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين ! أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى . وذلك قبل تحريم الرهان ، فآرتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان . وقالوا لأبى بكر : كم نجعل البِضع ؟ ثلاث سنين أو تسع سنين ؟ فسمّ بيننا و بينك وسطا تنتهى إليه ؛ قال : فسمَّوا بينهم ستّ سنين؛ قال : فمضت الست سنين قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبى بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبى بكر تسمية ستّ سنين ، قال : لأن الله تعالى قال « فى بضع سنين » قال : وأسلم عند ذلك ناس كثير . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب . و روى القُشَيْرِيّ وآبن عطية وغيرهما : أنه لما نزلت الآيات خرج أبو بكر بها الى المشركين فقال : أسرّكم أن غلبت الروم؟ فإن نبينا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون فى بضع سنين ؟ فقال له أُبَيّ بن خَلَف وأُمَيّة أخوه — وقيل أبو سفيان بن حرب — : يا أبا فصيل ! (١) — يعرّضون بكُنْيَته يا أبا بكر — فَلْنَتَنَاحَب — أى نتراهن

(١) الفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه .

فى ذلك فراهنهم أبو بكر . قال قتادة : وذلك قبل أن يَحْرُم القِمار، وجعلوا الرّهان خمس قلائص[1] والأجل ثلاث سنين . وقيل : جعلوا الرهان ثلاث قلائص . ثم أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : " فهلّا احتطت فإن البِضْع ما بين الثلاث والتسع والعشر ولكن ٱرجع فزدهم فى الرهان وٱستزدهم فى الأجل " . ففعل أبو بكر، فجعلوا القلائص مائة والأجل تسعة أعوام ؛ فغلبت الروم فى أثناء الأجل . وقال الشعبيّ : فظهروا فى تسع سنين . القُشَيْرِىّ : المشهور فى الروايات أن ظهور الروم كان فى السابعة من غلبة فارسَ للروم ، ولعل رواية الشعبيّ تصحيف من السبع إلى التسع من بعض النَّقَلة . وفى بعض الروايات : أنه جعل القلائص سبعا إلى تسع سنين . ويقال : إنه آخر فتوح كسرى أَبْرَوِيْز فتح فيه القُسْطنطينية حتى بنى فيها بيت النار؛ فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءه ذلك ، فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين . وحكى النقاش وغيره أن أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه لما أراد الهجرة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم تعلّق به أُبَىّ بن خَلَف وقال له : أعطنى كفيلا بالخَطَر[2] إن غلبت ؛ فكفل به ٱبنه عبد الرحمن، فلما أراد أُبَىّ الخروج إلى أُحُد طلبه عبد الرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلا ، ثم مات أُبَىّ بمكة من جرح جرحه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وظهرت الروم على فارس يوم الحُدَيبية على رأس تسع سنين من مناحبتهم . وقال الشعبيّ : لم تمض تلك المدّة حتى غلبت الروم فارس ؛ وربطوا خيلهم بالمدائن، وبنوا رُومِيَة ؛ فقَمَر[3] أبو بكر أُبَيًّا وأخذ مال الخَطَر من ورثته، فقال له النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : " تصدّق به " فتصدّق به . وقال المفسرون : إن سبب غلبة الروم فارس ٱمرأةٌ[4] كانت فى فارس لا تلد إلا الملوك والأبطال ، فقال لها كسرى : أريد أن أستعمل أحد بَنِيك على جيش أجهزه إلى الروم ؛ فقالت : هذا هُرْمُز أَرْوَغ من ثَعْلَب وأحذر من صقر، وهذا فَرُّخان أحدّ من سِنان وأنفذ من نَبْل، وهذا شهربزان[5] أحلم من كذا، فٱختر؛ فٱختار الحليم وولّاه، فسار إلى الروم بأهل فارس فظهر على

---

(١) القلائص : جمع القلوص ، وهى الفتية من الإبل . (٢) الخطر (بالتحريك) : الرهن ، وما يخاطر عليه .
(٣) قمرت الرجل : غلبته . (٤) راجع هـذا الخبر فى تاريخ الطبرى (جـ ٤ ص ١٠٠٥ من القسم الأوّل طبع أوربا) . (٥) هكذا ورد فى كتب التفسير . والذى فى تاريخ الطبرى : « شهربراز » .

الروم . وقال عكرمة وغيره : إن شهربزان لما غلب الروم خرّب ديارها حتى بلغ الخليج، فقال أخوه فَرّخان : لقد رأيتنى جالسا على سرير كِسْرى؛ فكتب كسرى إلى شهربزان أرسل إلىّ برأس فَرّخان فلم يفعل؛ فكتب كسرى إلى فارس : إنى قد استعملت عليكم فَرّخان وعزلت شهربزان، وكتب إلى فَرّخان إذا ولى أن يقتل شهربزان؛ فأراد فرخان قتل شهربزان فأخرج له شهربزان ثلاث صحائف من كسرى يأمره بقتل فَرّخان، فقال شهربزان لفرخان: إن كسرى كتب إلىّ أن أقتلك ثلاث صحائف وراجعته أبدا فى أمرك ، أفتقتلنى أنت بكتاب واحد؟ فرد المُلْك إلى أخيه، وكتب شهربزان إلى قيصر ملك الروم فتعاونا على كسرى؛ فغلبت الروم فارس ومات كسرى . وجاء الخبر الى النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ففرح من معه من المسلمين؛ فذلك قوله تعالى : « ألم . غُلبت الروم . فى أدنى الأرض» يعنى أرض الشام. عكرمة : بأذرعات ، وهى ما بين بلاد العرب والشام . وقيل : إن قَيْصر كان بعث رجلا يدعى يحنّس و بعث كسرى شهربزان فالتقيا بأذرعات و بُصْرى وهى أدنى بلاد الشام إلى أرض العرب والعجم . مجاهد : بالجزيرة، وهو موضع بين العراق والشام . مقاتل : بالأُرْدُنّ وفلسطين . و « أدْنَى » معناه أقرب . قال ابن عطية : فإن كانت الوقعة بأذرعات فهى من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة ، وهى التى ذكرها امرؤ القيس فى قوله :

تَنَوّرتها من أذرعات وأهلُها * بيَثْرِبَ أدْنَى دارِها نَظَر عالِ

وإن كانت الوقعة بالجزيرة فهى أدنى بالقياس إلى أرض كِسرى ، و إن كانت بالأُرْدُنّ فهى أدنى إلى أرض الروم . فلما طرأ ذلك وغلبت الروم سُرّ الكفار فبشر الله عباده بأن الروم سيغلبون وتكون الدّولة لهم فى الحرب .

وقد مضى الكلام فى فواتح السور . وقرأ أبو سعيد الخُدْرىّ وعلىّ بن أبى طالب ومعاوية بن قُرّة « غَلَبت الروم » بفتح الغين واللام . وتأويل ذلك أن الذى طرأ يوم بدر إنما كانت الروم غلبت فعزّ ذلك على كفار قريش وسرّ بذلك المسلمون ، فبشّر الله تعالى عباده أنهم سيغلبون أيضا فى بضع سنين؛ ذكر هذا التأويل أبو حاتم. قال أبو جعفر النحاس :

« قراءة أكثر النـاس « غُلِبت الروم » بضم الغين وكسر اللام . وروى عن ابن عمر وأبى سعيد الخُدْرى أنهما قرأا « غَلَبت الروم » وقرأا « سيُغلبون » . وحكى أبو حاتم أن عِصمة روى عن هارون : أن هـذه قراءة أهل الشام؛ وأحمد بن حنبل يقـول : إن عصمة هذا ضعيف، وأبو حاتم كثير الحكاية عنه، والحديث يدل على أن القراءة « غُلبت » بضم الغين، وكان فى هذا الاخبار دليل على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الروم غلبتها فارس ، فأخبر الله عز وجل نبيّــه محمدا صلى الله عليه وسـلم أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين ، وأن المؤمنين يفرحون بذلك ، لأن الروم أهل كتاب ، فكان هـذا من علم الغيب الذى أخبر الله عز وجل به ممـا لم يكن [علموه] (١) ، وأمر أبا بكر أن يراهنهم على ذلك وأن يبالغ فى الرهان ، ثم حُرّم الرهان بعدُ ونسخ بتحريم القِمار» . قال ابن عطية : والقراءة بضم الغين أصح ، وأجمع الناس على « سيغلِبون » أنه بفتح اليـاء ، يراد به الروم . ويروى عن ابن عمر أنه قرأ أيضا بضم اليـاء فى « سيغلبون » ، وفى هذه القراءة قلب للمعنى الذى تظاهرت الروايات به . قال أبو جعفر النحاس : ومن قرأ « سيُغلبون » فالمعنى عنده : وفارس من بعد غلبهم ، أى من بعـد أن غَلَبوا ، سيُغلبون . وروى أن إيقـاع الروم بالفرس كان يوم بدر؛ كما فى حديث أبى سعيد الخُدرى حديثِ الترمذى ، وروى أن ذلك كان يوم الحُدَيبية ، وأن الخبر وصل يوم بيعـة الرّضوان؛ قاله عكرمة وقتادة . قال ابن عطية : وفى كِلَا اليومين كان نصر من الله للؤمنين . وقـد ذكر الناس أن سبب سرور المسلمين بغلبة الروم وهمّهم أن تغلب إنمـا هو أن الروم أهل كتاب كالمسلمين ، وفارس من أهل الأوثان؛ كما تقدّم بيانه فى الحديث . قال النحاس : وقول آخر وهو أولى أن فرحهم إنمـا كان لإنجاز وعد الله تعالى؛ إذ كان فيــه دليل على النبـوّة لأنه أخبر تبارك وتعالى بمـا يكون فى بضع سنين فكان فيـه . قال ابن عطية : ويشـبه أن يعلّل ذلك بمـا يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدوّ الأصغر لأنه أيسر مؤنة ، ومتى غلب الأكبر كثر الخوف منه ؛ فتأمّل هذا المعنى مع ما كان رسـول الله

(١) زيادة عن النحاس .

صلى الله عليه وسلم ترجّاه من ظهور دينه وشَرْعِ الله الذى بعثه به وغلبته على الأمم ، و إرادة كفار مكة أن يرميَه الله بملِك يستأصله و يريحهم منه . وقيل : سرورهم إنما كان بنصر رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين ، لأن جبريل أخبر بذلك النبىّ عليه السلام يوم بدر ؛ حكاه القُشَيْرِىّ .

قلت : و يحتمل أن يكون سرورهم بالمجموع من ذلك ، فسُرّوا بظهورهم على عدوّهم و بظهور الروم أيضا و بإنجاز وعد الله . وقرأ أبو حَيْوة الشامىّ ومحمد بن السَّمَيْقَع « من بعد غَلْبهم » بسكون اللام، وهما لغتان ؛ مثل الظَّعْن والظَّعَن . وزعم الفرّاء أن الأصل « من بعد غلبتهم » فحذفت التاء كما حذفت فى قوله عز وجل « و إقام الصلاة » وأصله و إقامة الصلاة . قال النحاس : «وهذا غلط لا يُخِيل[1] على كثير من أهل النحو؛ لأن «إقام الصلاة» مصدر قد حذف منه لاعتلال فعله ، فجعلت التاء عوضا من المحذوف ، و « غَلَب » ليس بمعتلّ ولا حذف منه شىء، وقد حكى الأصمعِىّ : طَرَد طَرَدًا وجَلَب جَلَبًا وحَلَب حلَبًا وغَلَب غَلَبًا ؛ فأىّ حذف فى هذا، وهل يجوز أن يقال : فى أكل أكْلًا وما أشبهه حُذف منه » .

﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ حذفت الهاء من « بِضْع » فرقا بين المذكر والمؤنث ، وقد مضى الكلام فيه فى « يوسف »[2] . وفتحت النون من « سِنِينَ » لأنه جمع مسلّم . ومن العرب من يقول « فى بضع سنين » كما يقول فى « غِسلِين » . وجاز أن يُجمع سنة جمع من يعقل بالواو والنون والياء والنون ؛ لأنه قد حذف منها شىء فجعل هذا الجمع عوضا من النقص الذى فى واحده؛ لأن أصل « سَنَة » سَنْهة أو سَنوة ، وكسرت السين منه دلالة على أن جمعه خارج عن قياسه ونمطه ؛ هذا قول البصريين . و يلزم الفرّاء أن يضمها لأنه يقول: الضمة دليل على الواو وقد حذف من سنة واو فى أحد القولين، ولا يضمها أحد علمناه .

قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ أخبر تعالى بانفراده بالقدرة وأن ما فى العالم من غلبة وغيرها إنما هى منه و بإرادته وقدرته فقال « لله الأمر » أى إنفاذ الأحكام .

---

(١) أى لا يشكل؛ وهو من أخال الشىءُ اشتبه . (٢) راجع جـ ٩ ص ١٩٧

« مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » أى من قبل هذه الغلبة ومن بعدها . وقيل : من قبلِ كل شيء ومن بعد كل شيء . و « مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ» ظرفان بُنيا على الضم؛ لأنهما تعرّفا بحذف ما أضيفا إليهما وصارا متضمنين ما حذف فخالفا تعريف الأسماء وأشبها الحروف فى التضمين فبُنيا، وخُصّا بالضم لشبههما بالمنادى المفرد فى أنه إذا نُكّر وأضيف زال بناؤه، وكذلك هما فضُمّا. ويقال: «من قبلٍ ومِن بعدٍ». وحكى الكسائى عن بعض بنى أسد «لِلهِ الأمر من قَبْلٍ ومن بعدُ» الأول مخفوض منوّن، والثانى مضموم بلا تنوين . وحكى الفرّاء « مِن قبلِ ومن بعـدِ » مخفوضين بغير تنوين . وأنكره النحاس وردّه . وقال الفرّاء فى كتابه : فى القرآن أشياء كثيرةٌ، الغلطُ فيها بيّن، منها أنه زعم أنه يجوز «من قبلِ ومن بعدِ» و إنما يجوز «من قبلٍ ومن بعدٍ» على أنهما نكرتان. قال الزجاج: المعنى من متقدّم ومن متأخر. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ تقدم ذكره . ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعنى من أوليائه؛ لأن نصره مختص بغلبة أوليائه لأعدائه، فأما غلبة أعدائه لأوليائه فليس بنصر، و إنما هو ٱبتلاء وقد يسمّى ظَفَرا . ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فى نقمته ﴿الرَّحِيمُ﴾ لأهل طاعته .

قوله تعالى : وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لأن كلامه صدق . ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم الكفار وهم أكثر . وقيـل : المراد مشركو مكة . وانتصب « وَعْدَ اللهِ » على المصدر؛ أى وعد ذلك وَعْدا . ثم بيّن تعالى مقدار ما يعلمون فقال : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعنى أمر معايشهم ودنياهم، متى يزرعون ومتى يحصدون، وكيف يغرسون وكيف يبنون؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة . وقال الضحاك : هو بنيان قصورها وتشقيق أنهارها وغرس أشجارها؛ والمعنى واحد . وقيل : هو ما تلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا

عند استراقهم السمع من سماء الدنيا؛ قاله سعيد بن جبير . وقيل : الظاهر والباطن؛ كما قال في موضع آخر «أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ»(١) .

قلت : وقول ابن عباس أشبه بظاهر الحياة الدنيا ، حتى لقد قال الحسن : بلغ والله من علم أحدهم بالدنيا أنه يَنْقُد الدرهم فيخبرك بوزنه ولا يحسن أن يصلي . وقال أبو العباس المبرّد : قسّم كسرى أيامه فقال : يصلح يوم الريح للنوم ، ويوم الغيم للصيد ، ويوم المطر للشرب واللهو ، ويوم الشمس للحوائج . قال ابن خالويه : ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا . ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ﴾ أي عن العلم بها والعمل لها ﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ قال بعضهم :

ومن البليّة أن ترى لك صاحبا * في صورة الرجل السميع المبصر
فطنٍ بكل مصيبة في ماله * وإذا يصاب بدينه لم يشعر

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله : ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ظرف للتفكر وليس بمفعول، تعدّى إليه « يتفكروا » بحرف جرّ؛ لأنهم لم يؤمروا أن يتفكروا في خلق أنفسهم، إنما أمروا أن يستعملوا التفكر في خلق السموات والأرض وأنفسهم، حتى يعلموا أن الله لم يخلق السموات وغيرها إلا بالحق . قال الزجاج : في الكلام حذف ، أي فيعلموا ؛ لأن في الكلام دليلا عليه . ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قال الفرّاء : معناه إلا للحق؛ يعني الثواب والعقاب . وقيل : إلا لإقامة الحق . وقيل : « بالحق » بالعدل . وقيل : بالحكمة ؛ والمعنى متقارب . وقيل : « بالحق » أي أنه هو الحق وللحق خلقها ، وهو الدلالة على توحيده وقدرته . ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي للسموات والأرض أجل

(١) آية ٣٣ سورة الرعد . جـ ٩ ص ٣٢٣

ينتهيان إليه وهو يوم القيامة . وفى هـذا تنبيه على الفناء وعلى أن لكل مخـلوق أجلا ، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسىء . وقيل : « وأجلٍ مُسَمًّى » أى خلق ما خلق فى وقت سماه لأن يخلق ذلك الشيء فيه . ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ اللام للتوكيد ، والتقدير : لكافرون بلقاء ربهم ، على التقديم والتأخير ؛ أى لكافرون بالبعث بعد الموت . وتقول : إن زيدا فى الدار لجالس . ولو قلت : إن زيدا لفى الدار لجالس جاز . فإن قلت : إن زيدا جالس لفى الدار لم يجز؛ لأن اللام إنما يؤتى بها توكيدا لاسم إن وخبرها، وإذا جئت بها لم يجز أن تأتى بها . وكذا إن قلت : إن زيدا لجالس لفى الدار لم يجز .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ﴾ ببصائرهم وقلوبهم . ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ ﴾ أى قلبوها للزراعة ؛ لأن أهل مكة لم يكونوا أهل حرث ؛ قال الله تعالى : « تُثِيرُ الأرض »(١) . ﴿ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ أى وعمـروها أولئك أكثر مما عمروها هؤلاءِ فلم تنفعهـم عمارتهم ولا طول مدتهـم . ﴿ وَجَاءَتْهُـمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالمعجزات . وقيل : بالأحكام فكفروا ولم يؤمنوا . ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ بأن أهلكهم بغير ذنب ولا رسل ولا حجة . ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالشرك والعصيان .

قوله تعالى : ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

---

(١) آية ٧١ سورة البقرة ج ١ ص ٤٥٣ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءوا السُّوءَى ﴾ السُّوءى فُعْلَى من السوء تأنيث الأسوإ وهو الأقبح ، كما أن الحسنى تأنيث الأحسن . وقيل : يعنى بها هاهنا النار ؛ قاله ابن عباس . ومعنى « أساءوا » أشركوا ؛ دل عليه « أن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ » . «السوءى» : اسم جهنم ؛ كما أن الحسنى اسم الجنة . ﴿ أن كذبوا بِآيَاتِ اللهِ ﴾ أى لأن كذبوا ؛ قاله الكسائى. وقيل : بأن كذبوا . وقرأ نافع وابن كَثير وأبو عمرو « ثم كان عاقبةُ الذين » بالرفع اسم كان ، وذُكّرت لأن تأنيثها غير حقيقى . و «السوءى» خبر كان . والباقون بالنصب على خبر كان . « السوءى » بالرفع ٱسم كان . ويجوز أن يكون ٱسمها التكذيب ؛ فيكون التقدير : ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساءوا ؛ ويكون السوءى مصدرا لأساءوا ، أو صفة لمحذوف ؛ أى الخَلّة السوءى . وروى عن الأعمش أنه قرأ « ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء » برفع السوء . قال النحاس : السوء أشدّ الشر ؛ والسوءى الفُعلَى منه . ﴿ أَنْ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللهِ ﴾ قيل بمحمد والقرآن ؛ قاله الكلبى . مقاتل : بالعذاب أن ينزل بهم . الضحاك : بمعجزات محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾

قرأ أبو عمرو وأبو بكر « يرجعون » بالياء . الباقون بالتاء . ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمىّ « يُبْلَس » بفتح اللام : والمعروف فى اللغة : أبلس الرجل إذا سكت وٱنقطعت حجته ، ولم يؤمّل أن تكون له حجة . وقريب منه : تحيّر ؛ كما قال العجاج :

يا صاحِ هل تعرِفُ رَسْمًا مُكْرَسا * قال نعـم أعرفـه وأبْلَسا[1]

(١) المكرس : الذى قد بعرت فيه الابل و بولت فركب بعضه بعضا .

وقد زعم بعض النحويين أن إبليس مشتق من هذا ، وأنه أبلس لأنه انقطعت حجته . النحاس : ولو كان كما قال لوجب أن ينصرف، وهو فى القرآن غير منصرف . وقال الزجاج : المُبْلِس الساكت المنقطع فى حجته، اليائس من أن يهتدىَ إليها . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ ﴾ أى ما عبدوه من دون الله . ﴿ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ قالوا : ليسوا بآلهة؛ تبرءوا منها وتبرّأت منهم؛ حسبما تقدم فى غير موضع .

قوله تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ يعنى المؤمنين من الكافرين ؛ ثم بيّن كيف تفريقهم فقال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قال النحاس : سمعت الزجّاج يقول : معنى « أمّا » دع ما كنا فيه وخذ فى غيره . وكذا قال سيبويه : إن معناها مهما كنا فى شىء فخُذْ فى غير ما كنا فيه . ﴿ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال الضحاك : الروضة الجنة، والرياض الجنان . وقال أبو عبيد : الروضة ما كان فى تسفُّل، فإذا كانت مرتفعة فهى تُرْعة . وقال غيره أحسن ما تكون الروضة إذا كانت فى موضع مرتفع غليظ، كما قال الأعشى :

ما رَوْضَةٌ من رياض الحَزْن مُعْشِبَةٌ * خَضْراءُ جاد عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ[1]
يضاحِكُ الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ * مُؤَزَّر بعميم النَّبْتِ مُكْتَهِلُ[2]
يومًا بأطيَبَ منها نشْـرَ رائحـةٍ * ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأُصُلُ[3]

إلا أنه لا يقال لها روضة إلا إذا كان فيها نبت ، فإن لم يكن فيها نبت وكانت مرتفعة فهى ترعة . وقد قيل فى الترعة غير هذا . وقال القُشَيْرىّ : والروضة عند العرب ما ينبت حول

(١) رياض الحزن أحسن من رياض الخفوض لارتفاعها . (٢) قوله : « يضاحك الشمس » أى يدور معها حيثما دارت . وكوكب كل شىء معظمه ؛ والمراد هنا الزهر . ومؤزر : مفعل من الإزار . والشّرِق : الريان الممتلىء ماء . والعميم : التام السن . والمكتهل : الذى قد بلغ وتم . (٣) النشر : الرائحة الطيبة . والأُصُل : جمع أصيل ؛ وخص هنا الوقت لأن المنبت يكون فيه أحسن ما يكون لتباعد الشمس والفىء عنه .

الغَدير من البقول ؛ ولم يكن عند العرب شيء أحسن منه . الجوهري : والجمع رَوْض ورِياض ، صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها . والرّوض : نحوٌ من نصف القِرْبة ماء . وفى الحوض رَوْضة من ماء إذا غطّى أسفله . وأنشد أبو عمرو :

* ورَوْضةٍ سَقيتُ منها نِضْوتِي[1] *

﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ قال الضحاك وابن عباس : يكرمون . وقيل ينعّمون ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقيل يسرّون . السُّدّي : يفرحون . والحَبْرة عند العرب : السرور والفرح ؛ ذكره الماوَرْدي . وقال الجوهري : والحَبْر : الحُبُور وهو السرور ؛ ويقال : حبره يحبره (بالضم) حَبْرًا وحَبْرة ؛ قال تعالى : «فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ» أي ينعّمون ويكرمون ويُسرّون . ورجل يَحْبُور[2] يفعول من الحبور . النحاس : وحكى الكسائي حبرته أى أكرمته ونعّمته . وسمعت عليّ بن سليمان يقول : هو مشتق من قولهم على أسنانه حَبْرة أى أثر ؛ فـ « يحبرون » يتبين عليهم أثر النعيم . والحِبْر مشتق من هذا . قال الشاعر :

لا تمـلأ الدّلو وعَرِّق[3] فيهـا * أما ترَى حَبارَ مَن يَسْـقيها

وقيل : أصله من التحبير وهو التحسين ؛ فـ « يحبرون » يحسّنون . يقال : فلان حَسَن الحبر والسِّبْر إذا كان جميلا حسن الهيئة . ويقال أيضا : فلان حسن الحَبْر والسَّبْر (بالفتح) ؛ وهذا كأنه مصدر قولك : حَبَرته حَبْرا إذا حسّنته . والأول آسم ؛ ومنه الحديث "يخرج رجل من النار ذهب حِبْره وسِبْره" وقال يحيى بن أبى كثير «فى رَوْضَة يُحْبَرُون» قال : السماع[4] فى الجنة ؛ وقاله الأوزاعِيّ ، قال : إذا أخذ أهل الجنة فى السماع[4] لم تبق شجرة فى الجنة إلا وردّت الغناء بالتسبيح والتقديس . وقال الأوزاعِيّ : ليس أحد من خلق الله أحسنَ صوتا من إسرافيل ، فإذا أخذ فى السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم . زاد غير الأوزاعِيّ : ولم تبق شجرة فى الجنة إلا وردّت ، ولم يبق سِتر ولا باب إلا آرْتجّ وآنفتح ، ولم تبـق حَلْقة

(١) النضو : الدابة التى أهزلتها الأسفار . (٢) اليحبور : الناعم من الرجال .
(٣) أعرقت الكأس وعرّقتها : أقللت ماءها . (٤) السماع : الغناء .

إلا طنّت بألوان طنينها، ولم تبق أَجَمة من آجام الذهب إلا وقع أهبوب الصوت فى مقاصبها فزَمَرت تلك المقاصب بفنون الزمر، ولم تبق جارية من جوار الحور العينِ إلا غنّت بأغانيها والطير بألحانها ، ويوحِى الله تبارك وتعالى إلى الملائكة أن جاوِبوهم وأسمِعوا عبادى الذين نزّهوا أسماعهم عن مزامير الشيطان فيجاوبون بألحان وأصواتٍ روحانيين فتختلط هذه الأصوات فتصير رجة واحدة، ثم يقول الله جل ذكره يا داود قم عند ساق عَرْشى فمجّدنى؛ فيندفع داود بتمجيد ربّه بصوت يغمر الأصوات ويجليها (١) وتتضاعف اللذة؛ فذلك قوله تعالى « فَهُمْ فى رَوْضَــةٍ يُحْبَرُون » . ذكره الترمذىّ الحكيم رحمه الله . وذكر الثعلبىّ من حديث أبى الدّرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم كان يذكّر الناس ، فذكر الجنــة وما فيها من الأزواج والنعيم؛ وفى أخريات القوم أعرابىّ فقال : يا رسول الله، هل فى الجنة من سماع؟ فقـال : " نعم يا أعرابىّ إن فى الجنة لنهرا حافتاه الأبكار من كل بيضاءَ خُمْصانيّــة يتغنّيْن بأصوات لم تسمع الخـلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنــة " فسأل رجل أبا الدّرداء : بمـاذا يتغنّين ؟ فقال : بالتسبيح . والخُمصانيّة : المُرْهفة الأعلى ، الخمصانة البطن الضخمة الأســفل .

قلت : وهذا كله من النعيم والسرور والإكرام، فلا تعارض بين تلك الأقوال، وأين هذا من قوله الحق : «فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ» (٢) على ما يأتى . وقولِه عليه السلام "فيها مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمِعت ولا خطر على قلب بشر" . وقد روى : " إن فى الجنة لأشجارا عليها أجراس من فضة فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحا من تحت العرش فتقع فى تلك الأشجار (٣) فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لمـاتوا طربا " . ذكره الزَّمَخْشَرِىّ .

---

(١) فى بعض نسخ الأصـل « ويحليها » بالحاء المهملة . وفى كتاب التذكرة : « ويخليها » بالخاء المعجمة .

(٢) آية ١٧ سورة السجدة .		(٣) فى الأصول : « الأجراس » .

قوله تعالى : وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ تقدّم الكلام فيه . ﴿ وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ ﴾ أى بالبعث . ﴿ فَأُولَئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أى مقيمون . وقيل مجموعون . وقيل معذبون . وقيل نازلون ؛ ومنه قوله تعالى : « إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ الْمَوْتُ » أى نزل به ؛ قاله ابن شجرة ، والمعنى متقارب .

قوله تعالى : فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : الأول — أنه خطاب للؤمنين بالأمر بالعبادة والحضّ على الصلاة فى هذه الأوقات . قال ابن عباس : الصلوات الخمس فى القرآن ؛ قيل له : أين ؟ فقال : قال الله تعالى « فسبحان الله حين تمسون » صلاة المغرب والعشاء « وحين تُصبحُونَ » صلاة الفجر « وَعَشِيًّا » العصر « وَحِينَ تُظْهِرُونَ » الظهر ؛ وقاله الضحاك وسعيد بن جبير . وعن ابن عباس أيضا وقتادة أن الآية تنبيه على أربع صلوات : المغرب والصبح والعصر والظهر ؛ قالوا : والعشاء الآخرة هى فى آية أخرى «وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ» (1) وفى ذكر أوقات العورة . وقال النحاس : أهل التفسير على أن هذه الآية « فسبحان الله حين تُمْسُونَ وحين تُصْبِحون » فى الصلوات . وسمعت علىّ بن سليمان يقول : حقيقته عندى فسبّحوا الله فى الصلوات ، لأن التسبيح يكون فى الصلاة ؛ وهو القول الثانى . والقول الثالث — فسبّحوا الله حين تمسون وحين تصبحون ؛ ذكره الماوَرْدىّ . وذكر القول

---

(1) آية ١١٤ سورة هود .

الأوّل، ولفظه فيه : فصلوا لله حين تمسون وحين تصبحون . وفى تسمية الصلاة بالتسبيح وجهان : أحدهما — لما تضمّنها من ذكر التسبيح فى الركوع والسجود . الثانى — مأخوذ من السُّبْحة والسبحةُ الصلاة ؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " تكون لهم سُبْحة يوم القيامة " أى صلاة .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ اعتراض بين الكلام بدءوب الحمد على نعمه وآلائه . وقيل : معنى «وله الحمد» أى الصلاة له لاختصاصها بقراءة الحمد . والأوّل أظهر؛ فان الحمد لله من نوع تعظيم الله تعالى والحضّ على عبادته ودوام نعمته فيكون نوعا آخر خلاف الصلاة ، والله أعلم . و بدأ بصلاة المغرب لأن الليل يتقدّم النهار . وفى سورة «سبحان»(١) بدأ بصلاة الظهر إذ هى أوّل صلاة صلاها جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم . الماوَرْدىّ : وخصّ صلاة الليل باسم التسبيح وصلاة النهار باسم الحمد لأن للانسان فى النهار متقلّباً فى أحوالٍ توجب حمد الله تعالى عليها ، وفى الليل على خلوة توجب تنزيه الله من الأسواء فيها؛ فلذلك صار الحمد بالنهار أخص فسُمّيت به صلاة النهار، والتسبيح بالليـل أخصّ فسُمّيت به صلاة الليل .

الثالثــة — قرأ عكرمة « حِينًا تُمْسُونَ وحِينًا تُصبحون » والمعنى : حينا تمسون فيـه وحينا تصبحون فيه ؛ فحذف «فيه» تخفيفا ، والقول فيه كالقول فى « وَٱتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شيئا »(٢) . ﴿ وَعَشِيًّا ﴾ قال الجَوْهرِىّ : العَشِىّ والعَشِيّة من صـلاة المغرب إلى العَتَمة؛ تقول : أتيته عِشِيَّةَ أمْسِ وَعَشِىّ أمْسِ . وتصغير العشِىّ : عُشَيّانٌ ، على غير [قياس] مُكَبَّرِه ؛ كأنهم صـغّروا عَشْيانًا ، والجمع عُشَيّانات . وقيـل أيضا فى تصغيره : عُشَيْشِيَان ، والجمـع عُشَيْشِيات . وتصغير العَشِيّة عُشَيْشِية ، والجمـع عُشَيْشِيات . والعِشاء (بالكسر والمد) مثل العشِىّ . والعِشاءان المغرب والعَتَمة . وزعم قوم أن العِشاء من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، وأنشدوا :

غَدَوْنا غُدْوَةً سَحَـرًا بليْـلٍ * عِشاءً بعـد ما آنتصف النهارُ

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢١٠   (٢) راجع جـ ١ ص ٣٧٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

الماوَرْديّ : والفرق بين المَساء والعِشاء أن المساء بدوّ الظلام بعد المغيب، والعِشاء آخر النهار عند مَيل الشمس للغَيب ، وهو مأخوذ من عَشا العين وهو نقص النور من الناظر كنقص نور الشمس .

قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

بيّن كمال قدرته؛ أى كما أحيا الأرض بإخراج النبات بعد همودها كذلك يحييكم بالبعث . وفى هذا دليل على صحة القياس؛ وقد مضى فى «آل عمران» بيان «يخرج الحى من الميت»[1] .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ٥٦

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ أى من علامات رُبُوبِيّته ووحْدانيّته أن خلقكم من تراب؛ أى خلق أباكم منه والفرع كالأصل، وقد مضى بيان هذا فى « الأنعام »[١]. و « أنْ » فى موضع رفع بالابتداء، وكذا « أنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أنفُسِكُمْ أزْوَاجًا » .

﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ثم أنتم عقلاء ناطقون تتصرفون فيما هو قِوام معايشكم، فلم يكن ليخلقكم عبثًا؛ ومن قدر على هذا فهو أهل للعبادة والتسبيح . ومعنى : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى نساء تسكنون إليها . ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى من نطف الرجال ومن جنسكم. وقيل : المراد حوّاء، خلقها من ضلع آدم؛ قاله قتادة . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : المودّة الجماع، والرحمة الولد؛ وقاله الحسن . وقيل : المودّة والرحمة عطفُ قلوبهم بعضهم على بعض . وقال السُّدّى : المودّةُ المحبةُ، والرحمةُ الشفقةُ؛ ورُوى معناه عن ابن عباس قال: المودّة حبُّ الرجل امرأتَه، والرحمةُ رحمته إياها أن يصيبها بسوء. ويقال: إن الرجل أصله من الأرض، وفيه قوّة الأرض، وفيه الفرج الذى منه بُدِئ خلقه فيحتاج إلى سَكَن، وخُلقت المرأة سكنًا للرجل؛ قال الله تعالى : « ومِنْ آياتِهِ أنْ خَلَقَكُم مِنْ تُرَابٍ » الآية . وقال : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا » فأول ارتفاق الرجل بالمرأة سكونه إليها مما فيه من غليان القوّة ، وذلك أن الفرج إذا تحمل[٢] فيه هيج ماء الصلب إليه، فإليها يسكن وبها يتخلص من الهِياج، وللرجال خُلق البُضْع منهنّ، قال الله تعالى: وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكم[٣]» فأعلم الله عز وجل الرجال أن ذلك الموضع خلق منهن للرجال ، فعليها بذله فى كل وقت يدعوها الزوج ، فإن منعته فهى ظالمة وفى حرج عظيم ؛ ويكفيك من ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها " . وفى لفظ آخر : " إذا باتت المرأة هاجرة فِراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح " . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدّم

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ (٢) كذا فى الأصل . (٣) راجع جـ ١٣ ص ١٣٢

فى « البقرة »[1] وكانوا يعترفون بأن الله تعالى هو الخالق . ﴿ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ اللّسان فى الفم؛ وفيه اختلاف اللغات : من العربيّة والعجمية والتركية والرومية . واختلاف الألوان فى الصور : من البياض والسواد والحمرة ، فلا تكاد ترى أحدا إلا وأنت تفرّق بينه وبين الآخر، وليس هذه الأشياء من فعل النُّطفة ولا من فعل الأبوين؛ فلا بد من فاعل، فعُلِم أن الفاعل هو الله تعالى ؛ فهذا من أدلّ دليل على المدبر البارئ . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ[2] ﴾ أى للبَرّ والفاجر . وقرأ حَفْص « للعالمين » بكسر اللام جمع عالم . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ قيل : فى هذه الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار ؛ فحُذف حرف الجر لاتصاله بالليل وعطفه عليه ، والواو تقوم مقام حرف الجر إذا اتصلت بالمعطوف عليه فى الاسم الظاهر خاصة؛ فجعل النوم بالليل دليلا على الموت ، والتصرفُ بالنهار دليلا على البعث.﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ يريد سماع تفهّم وتدبّر . وقيل : يسمعون الحق فيتبعونه . وقيل: يسمعون الوعظ فيخافونه . وقيل : يسمعون القرآن فيصدّقونه ؛ والمعنى متقارِب . وقيل : كان منهم من إذا تُلِى القرآن وهو حاضر سدّ أذنيه حتى لا يسمع ، فبيّن الله عز وجل هذه الدلائل عليه . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ قيل : المعنى أن يريكم ، فحذف « أن » لدلالة الكلام عليه؛ قال طَرَفة :

ألَا أيّهذا اللائمى أحْضُرُ الوَغَى * وأنْ أشهَدَ اللّذاتِ هل أنت مُخْلِدِى

وقيل : هو على التقديم والتأخير ؛ أى ويريكم البرق من آياته . وقيل : أى ومن آياته آيةٌ يريكم بها البرق ؛ كما قال الشاعر[3] :

وما الدّهر إلا تارتان فمنهما * أموتُ وأخرى أبتغى العيش أكْدَحُ

وقيل : أى من آياته أنه يريكم البرق خوفا وطمعا من آياته ؛ قاله الزجاج ، فيكون عطف جملة على جملة . ﴿ خَوْفًا ﴾ أى للمسافر . ﴿ وَطَمَعًا ﴾ للمقيم ؛ قاله قتادة . الضحاك :

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٥١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) بفتح اللام قراءة نافع ، وبها كان يقرأ المؤلف .
(٣) هو ابن مقبل ؛ كما فى شواهد سيبويه والخزانة .

« خوفا » من الصـــواعق، « وطمعا » فى الغيث . يحيى بن ســـلام : « خوفا » من البرد أن يهلك الزرع ، « وطمعا » فى المطر أن يحيي الزرع . ابن بحر : « خوفا » أن يكون البرق بَرْقاً خُلَّباً لا يمطر ، « وطمعا » أن يكون ممطرا ؛ وأنشد قول الشاعر :

لا يكن بَرْقُك برقاً خُلَّبا * إن خير البرق ما الغيث معه

وقال آخـــر :

فقــد أَرِد المياه بغـــير زاد * ســوى عدّى لها برق الغمام

والبرق الخُلَّب : الذى لا غيث فيــه كأنه خادع ؛ ومنه قيــل لمن يَعِد ولا يُنْجِز : إنمــا أنت كبرقِ خُلَّب . والخُلَّب أيضا : السحاب الذى لا مطر فيـــه . ويقال : بَرْقُ خُلَّبٍ ، بالإضافة . ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ تقــدم . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ « أن » فى محل رفع كما تقدم ؛ أى قيامها واستمساكها بقدرته بلا عمد . وقيل : بتدبيره وحكمته ؛ أى يمسكها بغير عمد لمنافع الخلق . وقيل : «بأمره» بإذنه ؛ والمعنى واحد . ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ أى الذى فعل هذه الأشياء قادر على أن يبعثكم من قبوركم ؛ والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث ؛ كما يجيب الداعىَ المطاعَ مَدْعوه ؛ كما قال القائل :

دَعَـوْتُ كليبا باسمـــه فكأنمـا * دعوت برأس الطَّوْد أو هو أسرع[1]

يريد بآبن الطود[2] : الصَّـدى أو الحجـر إذا تَدَهْـده . وإنمـا عطف هـذا على قيام السموات والأرض بـ « ثم » لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثـله ؛ وهو أن يقول يأهل القبور قوموا ؛ فلا تبقى نســمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر ؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ »[3] . و « إذا » الأولى فى قوله تعـالى :

---

(١) رواية البيت كما فى اللسان :

دعوت جليـــدا دعـــوة فكأنمـا * دعوت به ابن الطود أو هو أسرع

قال : وآبن الطود : الجلمود الذى يتدهدى من الطود . والطود : الجبل العظيم . وتدهده الحجر : تدحرج . وفى كتاب ما يعول عليه : دعوت خليدا ... بالخاء المعجمة .

(٢) فى الأصـــول : « برأس » .

(٣) آية ٦٧ ســـورة الزمر .

« إذا دعاكم » للشرط ، والثانية فى قوله تعالى : « إذا أنتم » للفاجأة ، وهى تنوب مناب الفاء فى جواب الشرط . وأجمع القراء على فتح التاء هنا فى « تخرجون » . واختلفوا فى التى فى « الأعراف » فقرأ أهل المدينة « ومنها تُخرجون »(١) بضم التاء، وقرأ أهل العراق بالفتح، وإليه يميل أبو عبيد . والمعنيان متقاربان ، إلا أن أهل المدينة فرّقوا بينهما لنسق الكلام ، فنسقُ الكلام فى التى فى « الأعراف » بالضم أشبه إذ كان الموت ليس من فعلهم ، وكذا الإخراج . والفتح فى سورة الروم أشبه بنسق الكلام ؛ أى إذا دعاكم خرجتم أى أطعتم ؛ فالفعل [بهم](٢) أشبه . وهذا الخروج إنما هو عند نفخة إسرافيل النفخة الآخرة؛ على ما تقدّم ويأتى . وقرئ « تخرجون » بضم التاء وفتحها ، ذكره الزَّمَخْشَرِىّ ولم يزد على هذا شيئا، ولم يذكر ما ذكرناه من الفرق ، والله أعلم . ﴿ وَلَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقا وملْكا وعبدا . ﴿ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ رُوى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " كلّ قنوت فى القرآن فهو طاعة " . قال النحاس : مطيعون طاعة انقياد . وقيل : « قانتون » مقرّون بالعبودية ، إما قالة وإما دلالة ؛ قاله عكرمة وأبو مالك والسُّدّى . وقال ابن عباس « قانتون » مصلّون . الربيع بن أنس : « كل له قانتون » أى قائم يوم القيامة ؛ كما قال : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ »(٣) أى للحساب . الحسن : كل له قائم بالشهادة أنه عبد له . سعيد بن جُبير : « قانتون » مخلصون .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أمّا بدء خلقه فبعلوقه فى الرّحم قبل ولادته ، وأمّا إعادته فإحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث ؛ فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلا على ما يخفى من إعادته ؛ استدلالا بالشاهد على الغائب ، ثم أكّد ذلك بقوله

(١) آية ٢٥ (٢) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس . (٣) آية ٦ سورة المطففين .

﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وقرأ ابن مسعود وابن عمر « يُبْدِئ الخلق » من أبدأ يبدئ؛ دليله قوله تعالى : « إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ »(١) . ودليل قراءة العامة قوله سبحانه : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »(٢) . و « أَهْوَن » بمعنى هيّن ؛ أى الإعادة هين عليه؛ قاله الرّبيع بن خُثيم والحسن . فأهون بمعنى هين ؛ لأنه ليس شيء أهونَ على الله من شيء . قال أبو عبيدة : ومن جعل أهون يعبر عن تفضيل شيء على شيء فقوله مردود بقوله تعالى : « وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً » وبقوله « وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا » . والعرب تحمل أفعل على فاعل، ومنه قول الفرزدق :

إن الذى سَمَكَ السماء بنى لنا * بيتا دعائمه أعزّ وأطول

أى دعائمه عزيزة طويلة . وقال آخر(٣) :

لَعَمْرُكَ ما أدرِى وإنى لأَوْجَل * على أيّنا تَعْــدُو المنّية أوّل

أراد : إنى لوجِل . وأنشد أبو عبيدة أيضا :

إنى لأَمْنَحُك الصّدود وإننى * قَسَماً إليك مع الصُّدود لأَمْيَلُ(٤)

أراد لمائل . وأنشد أحمد بن يحيى :

تمنّى رجال أن أموت وإن أَمُتْ * فتلك سبيلٌ لست فيها بأَوْحَدِ

أراد بواحد . وقال آخر :

لعمرك إن الزّبرقان لباذل * لمعروفه عند السنينَ وأفضل

أى وفاضل . ومنه قولهم : الله أكبر؛ إنما معناه الله الكبير . وروى معمر عن قتادة قال : فى قراءة عبد الله بن مسعود « وهو عليه هين » . وقال مجاهد وعكرمة والضحاك : إن المعنى أن الإعادة أهون عليه — أى على الله — من البداية؛ أى أيسر وإن كان جميعه على الله تعالى هينا؛ وقاله ابن عباس . ووجهه أن هذا مَثَل ضربه الله تعالى لعباده؛ يقول : إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه؛ فينبغى أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم

(١) آية ١٣ سورة البروج . (٢) آية ٢٩ سورة الأعراف . (٣) القائل هو معن بن أوس .
(٤) البيت للأحوص بن محمد الأنصارى .

اهونَ عليه من الإنشاء . وقيل : الضمير فى «عليه» للمخلوقين؛ أى وهو أهون عليه، أى على الخلق، يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ويقال لهم : كونوا فيكونون؛ فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نُطَفًا ثم عَلَقا ثم مُضَغا ثم أجِنّة ثم أطفالا ثم غلمانا ثم شبانا ثم رجالا أو نساء . وقاله آبن عباس وقُطْرُب . وقيل : أهون أسهل؛ قال :

وهان على أسماء أن شطّت النّوَى * يحنّ إليها والِهٌ ويتـوق

أى سهل عليها، وقال الربيع بن خُثَيم فى قوله تعالى «وهو أهون عليه» قال : ما شىء على الله بعزيز. عِكْرِمة : تعجّب الكفار من إحياء الله الموتى فنزلت هذه الآية . ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ أى ما أراده جلّ وعزّ كان . وقال الخليل: المَثَل الصفة؛ أى وله الوصف الأعلى ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كما قال : «مَثَلُ الجَنّةِ الّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ» أى صفتها . وقد مضى الكلام فى ذلك (١) .
وعن مجاهد : «المثل الأعلى» قولُ لا إله إلا الله؛ ومعناه : أى الذى له الوصف الأعلى، أى الأرفع الذى هو الوصف بالوحدانية . وكذا قال قتادة : إن المثل الأعلى شهادةُ أن لا إله إلا الله؛ ويَعْضُده قوله تعالى : «ضَرب لكم مَثَلاً مِن أنفسِكم» على ما نبيّنه آنفا إن شاء الله تعالى . وقال الزجاج : «وله المثل الأعلى فى السموات والأرض» أى قوله «وهو أهون عليه» قد ضربه لكم مثلا فيما يصعب و يسهل؛ يريد التفسير الأوّل . وقال ابن عباس : أى ليس كمثله شىء . ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدم (٢) .

قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨)﴾

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٤ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة، وجـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ثم قال ﴿ مِنْ شُرَكَاءَ ﴾ ؛ ثم قال ﴿ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ فـ « مِن » الأولى للابتداء ؛ كأنه قال : أخذ مثلا وآنتزعه من أقرب شيء منكم وهى أنفسكم . والثانية للتبعيض ، والثالثة زائدة لتأكيد الاستفهام . والآية نزلت فى كفار قريش ، كانوا يقولون فى التَّلْبية : لَبَّيْك لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك ؛ قاله سعيد بن جبير . وقال قتادة : هذا مَثَل ضربه الله للشركين ؛ والمعنى : هل يرضى أحدكم أن يكون مملوكه فى ماله ونفسه مثله ، فإذا لم ترضوا بهذا لأنفسكم فكيف جعلتم لله شركاء .

الثانيــة ــ قال بعض العلماء : هـذه الآية أصل فى الشركة بين المخلوقين لافتقار بعضهم إلى بعض ونفيها عن الله سبحانه ، وذلك أنه لما قال جلّ وعزّ : «ضرب لكم مَثَلًا من أنفسكم هل لكم مِمَّا ملكت أيمانكم » الآية فيجب أن يقولوا : ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقتنا ! فيقال لهم : فكيف يتصوّر أن تنزّهوا نفوسكم عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا عبيدى شركائى فى خلقى ؛ فهذا حكم فاسد وقلة نظر وعَمَى قلب ، فإذا بطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة والخلق كلهم عبيد لله تعالى فيبطل أن يكون شيء من العالَم شريكا لله تعالى فى شيء من أفعاله ؛ فلم يبق إلا أنه واحد يستحيل أن يكون له شريك ، إذ الشركة تقتضى المعاونة ، ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضا بالمال والعمل ، والقديمُ الأزليّ منزّه عن ذلك جلّ وعزّ . وهـذه المسألة أفضل للطالب من حفظ ديوان كامل فى الفقه ؛ لأن جميع العبادات البدنية لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة فى القلب ، فافهم ذلك .

قوله تعالى : بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٢٩)

قوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ لما قامت عليهم الحجة ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم فى عبادتها وتقليد الأسلاف فى ذلك . ﴿ فَمَنْ يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللهُ ﴾ أى لا هادى لمن أضله الله تعالى . وفى هذا ردّ على القدرية ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ .

قوله تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال الزجاج : « فِطرةَ » منصوب بمعنى آتبع فطرة الله . قال : لأن معنى « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ » آتبع الدّين الحنيف وآتبع فطرة الله . وقال الطبرى : « فطرة الله » مصدر من معنى « فأقم وجهك » لأن معنى ذلك : فطر الله الناس على ذلك فِطرة . وقيل : معنى ذلك آتبعوا دين الله الذى خلق النّاس له ؛ وعلى هـذا القول يكون الوقف على « حنيفا » تاما . وعلى القولين الأوّلين يكون متصلا ، فلا يوقف على « حنيفا » . وسميت الفِطْرة دِيناً لأن النـاس يخلقون له ، قال جلّ وعز : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »[(١)] . و يقال « عليها » بمعنى لها ؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا »[(٢)] . والخطاب بـ« أقم وجهك » للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، أمره بإقامة وجهه للدين المستقيم ؛ كما قال : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ »[(٣)] وهو دين الإسلام . و إقامة الوجه هو تقويم المقصد والقوّة على الجِدّ فى أعمال الدِّين ؛ وخصّ الوجه بالذكر لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفه . ودخل فى هـذا الخطاب أمّتُه باتفاق من أهل التأويل . و « حنيفا » معناه معتدلا مائلا عن جميع الأديان المحرّفة المنسوخة .

الثانيـة — فى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلا يولد على الفِطرة — فى رواية : على هذه الملة — أبواه يُهَوّدانه ويُنَصّرانه ويُمَجّسانه كما تُنْتَج البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء[(٤)] هل تُحِسّون فيهـا من جدعاء " ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم « فِطْرَةَ اللهِ التى فَطَرَ الناس عليها لا تبديل لخلق الله » ، فى رواية : " حتى

---

(١) آية ٥٦ سورة الذاريات . (٢) آية ٧ سورة الإسراء . (٣) آية ٤٣ من هذه السورة .

(٤) أى سليمة من العيوب مجتمعة الأعضاء كاملتها .

تكونوا أنتم تجدعونها " قالوا يا رسول الله ، أفرأيتَ من يموت صغيرا؟ قال : " الله أعلم بمـا كانوا عاملين " . لفظ مسلم .

الثالثـــة — واختلف العلمـاء فى معنى الفطرة المذكورة فى الكتاب والسنة على أقوال متعدّدة ، منها الإسـلام ، قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرهمـا ، قالوا : وهو المعروف عند عامّة السلف من أهل التأويل ، واحتجوا بالآية وحديث أبى هريرة ، وعَضَدوا ذلك بحديث عِياض بن حِمار المُجاشِعىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال للناس يوما : " ألا أحدّثكم بمـا حدّثنى الله فى كتابه أن الله خلق آدم و بنيه حنفاء مسلمين وأعطاهم المـال حلالا لا حرام فيه فجعلوا مما أعطاهم الله حلالا وحراما ... " الحديث . وبقوله صلى الله عليه وسلم : " خمس من الفطرة ... " فذكر منها قصّ الشارب ، وهو من سنن الإسلام ، وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحـديث : أن الطفل خلق سليما من الكفر على الميثاق الذى أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه وأنهم اذا ماتوا قبـل أن يُدرِكوا فى الجنة ، أولادَ مسـلمين كانوا أو أولادَ كفار . وقال آخرون : الفطرة هى البداءة التى ابتدأهم الله عليها ، أى على مافطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء ، و إلى ما يصيرون إليه عند البلوغ . قالوا : والفطرة فى كلام العرب البداءة . والفاطر : المبتدئ ، واحتجوا بما روى عن ابن عباس أنه قال : لم أكن ما أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى ابتدأتها . قال المَرْوَزِىّ : كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول ثم تركه . قال أبو عمر فى كتاب التمهيد له : ما رسمه مالك فى موطّئـه وذكر فى باب القدر فيه من الآثار يدل على أن مذهبه فى ذلك نحو هذا ، والله أعلم . ومما احتجوا به ما رُوى عن كعب القُرَظى فى قول الله تعالى : « فَرِيقًا هَـدَى وفَرِيقًا حَقَّ عليهمُ الضَّـلَالَةُ »[1] قال : من ٱبتدأ الله خلقه للضلالة صيره إلى الضلالة و إن عمل بأعمال الهُدَى ، ومن ابتدأ الله خلقه على الهُدَى صيّره إلى الهدى و إن عمل بأعمال الضلالة ، ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة ، ثم ردّه الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه ، قال : وكان من الكافرين .

(١) آية ٣٠ سورة الأعراف ، راجع جـ ٧ ص ١٨٨

قلت : قد مضى قول كعب هذا فى «الأعراف» وجاء معناه مرفوعا من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : دُعى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة غلام من الأنصار فقلت : يا رسول الله، طُوبَى لهـذا عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه . قال : "أو غير ذلك ياعائشة إن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم" خرّجه ابن ماجه فى السنن. وخرّج أبو عيسى الترمذىّ عن عبد الله بن عمرو قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده كتابان فقال : "أتدرون ما هذان الكتابان" ؟ فقلنا : لا يارسول الله، إلّا أن تخبرنا؛ فقال للذى فى يده اليمنى : "هـذا كتاب من ربّ العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا — ثم قال للذى فى شماله — هـذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا ..." وذكر الحديث وقال فيه : حديث حسن . وقالت فرقة : ليس المراد بقوله تعالى «فَطَرَ النَّاسَ عليها» ولا قولِه عليه السلام : "كل مولود يولد على الفطرة" العمومَ، وإنما المراد بالناس المؤمنون؛ إذ لو فُطر الجميع على الإسلام لما كفر أحد، وقد ثبت أنه خلق أقواما للنار؛ كما قال تعالى : «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ»[1] وأخرج الذرّية من صلب آدم سوداء وبيضاء . وقال فى الغلام الذى قتله الخضِر : طبع يوم طبع كافرا . وروى أبو سعيد الخُدْرِى قال : صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر بنهار[2]؛ وفيه : وكان فيما حفِظْنا أن قال : "ألَا إن بنى آدم خُلقوا طبقات شتّى فمنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت مؤمنا ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت كافرا ومنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت كافرا ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت مؤمنا ومنهم حسن القضاء حَسَن الطلب". ذكره حماد بن سلمة فى مسند الطيالسى قال : حدثنا علىّ بن زيد عن أبى نضرة عن أبى سعيد . قالوا : والعموم بمعنى الخصوص كثير فى لسان العرب؛ ألا ترى إلى قوله

(١) آية ١٧٩ سورة الأعراف . (٢) أى والشمس عالية .

عز وجل : « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ »(١) ولم تدمّر السموات والأرض . وقوله « فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ »(٢) ولم تفتح عليهـم أبواب الرحمة . وقال إسحاق بن رَاهْوَيْه الحنظلى : تمّ الـكلام عند قوله « فأقم وجهك للدِّين حَنِيفا » ثم قال « فِطْرَةَ اللهِ » أى فطر الله الخلق فطرة إمّا بجنة أو نار ، و إليه أشار النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى قوله "كل مولود يولد على الفطرة" ولهـذا قال : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ قال شيخنا أبو العباس : من قال هى سابقة السعادة والشقاوة فهذا إنما يليق بالفِطرة المذكورة فى القرآن ؛ لأن الله تعالى قال « لا تبـديل لخلق الله » وأما فى الحديث فلا ؛ لأنه قـد أخبر فى بقية الحديث بأنها تبدّل وتغيّر . وقالت طائفة من أهـل الفقه والنظر : الفطرة هى الخِلقة التى خلق عليها المولود فى المعرفة بربّه ؛ فكأنه قال : كل مولود يولد على خِلْقة يعرف بها ربّه إذا بلغ مبلغ المعرفة ؛ يريد خِلقة مخالفة لخلقة البهائم التى لا تصل بخلقتها إلى معرفتـه . واحتجوا على أن الفطرة الخِلْقةُ ، والفاطر الخالق ؛ لقول الله عز وجل « الحمـدُ لله فاطرِ السَّموَات والأرض » يعنى خالقهن ، و بقوله « ومَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي »(٣) يعنى خلقنى ، و بقوله « الَّذى فَطَرَهُنَّ »(٤) يعنى خلقهن . قالوا : فالفطرة الخِلقة ، والفاطر الخالق ؛ وأنكروا أن يكون المولود يُفْطَر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار . قالوا : و إنما المولود على السلامة فى الأغلب خِلْقةً وطبعا و بِنْية ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة ؛ ثم يعتقدون الكفر والإيمان بعـد البلوغ إذا ميّزوا . واحتجوا بقوله فى الحديث "كما تُنْتَجُ البَهِيمةُ بهيمةً جَمعاءَ — يعنى سالمة — هل تُحِسّون فيها من جَدْعاء" يعنى مقطوعة الأذن . فمثّـل قلوبَ بنى آدم بالبهائم لأنها تولد كاملة الخَلْق ليس فيها نقصان ، ثم تقطع آذانها بعـدُ وأنوفها ؛ فيقال : هذه بحائر وهذه سوائب(٥) . يقول : فكذلك قلوب الأطفال فى حين ولادتهم ليس لهم كفر ولا إيمان ولا معرفة ولا إنكار كالبهائم السائمة ، فلما بلغوا ٱستهوتهم الشياطين فكفر أكثرهم ، وعصم الله أقلّهم . قالوا : ولو كان الأطفال قد فطروا على شىء من الكفر والإيمان فى أوّليـة أمورهم ما ٱنتقلوا عنه أبدا ، وقد نجـدهم يؤمنون ثم يكفرون . قالوا :

(١) آية ٢٥ سورة الأحقاف . (٢) آية ٤٤ سورة الأنعام . (٣) آية ٢٢ سورة يس .
(٤) آية ٥٦ سورة الأنبياء . (٥) راجع ج ٦ ص ٣٣٥ فى معنى البحيرة والسائبة .

ويستحيل فى المعقول أن يكون الطفل فى حين ولادته يعقل كفرا أو إيمانا ، لأن الله أخرجهم فى حال لايفقهون معها شيئا ، قال الله تعالى : « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا [(١)] » فمن لا يعلم شيئا استحال منه كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار . قال أبو عمر بن عبد البر : هذا أصح ما قيل فى معنى الفطرة التى يولد الناس عليها . ومن الحجة أيضا فى هذا قوله تعالى : « إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [(٢)] » و « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ [(٣)] » ومن لم يبلغ وقت العمل لم يرتهن بشىء . وقال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا [(٤)] » . ولما أجمعوا على دفع القَود والقصاص والحدود والآثام عنهم فى دار الدنيا كانت الآخرة أولى بذلك . والله أعلم . ويستحيل أن تكون الفِطرة المذكورةُ الإسلامَ ، كما قال ابن شهاب ؛ لأن الإسلام والإيمان قولٌ باللسان واعتقادٌ بالقلب وعملٌ بالجوارح ، وهذا معدوم من الطفل ، لا يجهل ذلك ذو عقل ؛ وأما قول الأوزاعى : سألت الزهرىّ عن رجل عليه رَقَبة أيجزى عنه الصبىّ أن يعتقه وهو رضيع ؟ قال نعم ؛ لأنه وُلد على الفِطرة يعنى الإسلام ؛ فإنما أجزى عتقه عند من أجازه لأن حكمه حكمُ أبويه . وخالفهم آخرون فقالوا : لا يجزى فى الرقاب الواجبة إلا من صام وصلى ، وليس فى قوله تعالى : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ [(٥)] » ولا فى "أن يختم الله للعبد بما قضاه له وقدّره عليه" دليل على أن الطفل يولد حين يولد مؤمنا أو كافرا ، لما شهدت له العقول أنه فى ذلك الوقت ليس ممن يعقل إيمانا ولا كفرا ، والحديث الذى جاء فيه : "أن الناس خلقوا على طبقات" ليس من الأحاديث التى لامطعن فيها ؛ لأنه انفرد به علىّ بن زيد بن جُدْعان ، وقد كان شعبة يتكلّم فيه . على أنه يحتمل قوله "يولد مؤمنا" أى يولد ليكون مؤمنا ، ويولد ليكون كافرا على سابق علم الله فيه ، وليس فى قوله فى الحديث "خلقت هؤلاء للجنة وخلقت هؤلاء للنار" أكثرُ من مراعاة ما يختم به لهم ؛ لا أنهم فى حين طفولتهم ممن يستحق جنة أو نارا ، أو يعقل كفرا أو إيمانا .

---

(١) آية ٧٨ سورة النحل . (٢) آية ١٦ سورة الطور . (٣) آية ٣٨ سورة المدثر .
(٤) آية ١٥ سورة الإسراء . (٥) آية ٢٩ سورة الأعراف .

قلت : وإلى ما اختاره أبو عمـر واحتج له ذهب غير واحد من المحققين منهم ابن عطية في تفسيره في معنى الفطرة، وشيخنا أبو العباس . قال ابن عطية : والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخِلقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدّة ومهيأة لأن يميّز بها مصنوعات الله تعالى، ويستدل بها على ربّه ويعرف شرائعه ويؤمن به ؛ فكأنه تعالى قال أقم وجهك للدِّين الذي هو الحنيف، وهو فِطْـرة الله الذي على الإعداد له فطـر البشر، لكن تَعرِضهـم العوارض؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه" فذكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة . وقال شيخنا في عبارته : إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودينَ الإسلام وهو الدين الحق . وقد دلّ على صحة هذا المعنى قوله "كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء هل تُحِسّون فيها من جَدْعاء" يعني أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلقة سليما من الآفات، فلو تُرِك على أصل تلك الخلقة لبقي كاملا بريئا من العيوب، لكن يُتصرَّف فيه فيُجدع أذنه ويُوسم وجهه فتطرأ عليه الآفات والنقائص فيخرج عن الأصل . وكذلك الإنسان، وهو تشبيه واقع ووجهه واضح .

قلت : وهذا القول مع القول الأول موافق له في المعنى ، وأن ذلك بعد الإدراك حين عقلوا أمر الدنيا وتأكدت حجة الله عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة من خلق السموات والأرض والشمس والقمر والبر والبحر واختلاف الليل والنهـار ، فلما عملت أهواؤهم فيهم أتتهم الشياطين فدعتهم إلى اليهودية والنصرانية فذهبت بأهوائهم يمينا وشمالا، وأنهم إن ماتوا صغارا فهم في الجنـة، أعني جميع الأطفال ، لأن الله تعالى لمـا أخرج ذريّة آدم من صلبـه في صورة الذّر أقرّوا له بالرّبوبية وهو قوله تعالى : «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِم[1] وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنا[2]» . ثم أعادهم في صُلْب آدم بعد أن أقرّوا له بالربوبية، وأنه الله لا إله غيره، ثم يُكتب العبد في بطن أمّه شقيًا أو سعيدا على

(١) قراءة نافع، وبها كان يقرأ المؤلف .		(٢) آية ١٧٢ سورة الأعراف .

الكتاب الأول ؛ فمن كان فى الكتاب الأول شقيا عُمِّـر حتى يجرى عليه القلم فينقض الميثاق الذى أخذ عليه فى صلب آدم بالشرك ، ومن كان فى الكتاب الأول سـعيدا عُمِّر حتى يجرى عليه القلم فيصير سعيدا ، ومن مات صغيرا من أولاد المسلمين قبـل أن يجرى عليه القلم فهم مع آبائهم فى الجنة ، ومن كان من أولاد المشركين فمات قبل أن يجرى عليه القلم فليس يكونون مع آبائهم ؛ لأنهم ماتوا على الميثاق الأول الذى أخذ عليهم فى صلب آدم ولم ينقض الميثاق . ذهب إلى هـذا جماعة من أهل التأويل ، وهو يجمع بين الأحاديث ، ويكون معنى قوله عليه السلام لما سئل عن أولاد المشركين فقال : "الله أعلم بما كانوا عاملين" يعنى لو بلغوا . ودل على هذا التأويل أيضا حديث البخارىّ عن سَمُرة بن جُنْدُب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم الحـديثُ الطويل حديثُ الرؤيا ، وفيـه قوله عليـه السلام : "وأما الرجل الطـويل الذى فى الروضـة فإبراهيم عليـه السلام وأما الوِلْدان حوله فكل مولود يولد على الفطـرة" . قال فقيل : يا رسـول الله ، وأولاد المشركين ؟ فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "وأولاد المشركين" . وهذا نصّ يرفع الخلاف ، وهو أصح شىء رُوى فى هذا الباب وغيره من الأحاديث فيها علل وليست من أحاديث الأئمة الفقهاء ؛ قاله أبو عمر بن عبد البر . وقد روى من حديث أنس قال : سئل رسـول الله صلى الله عليـه وسلم عن أولاد المشركين فقال : "لم تكن لهم حسنات فيجزَوْا بها فيكونوا من ملوك الجنـة ولم تكن لهم سيئات فيعاقبوا عليها فيكونوا من أهل النار فهم خدم لأهل الجنة" ذكره يحيى بن سلام فى التفسير له . وقد زدنا هذه المسألة بيـانا فى كتاب التـذكرة ، وذكرنا فى كتاب المقتبس فى شرح موطأ مالك بن أنس ما ذكره أبو عمر من ذلك ، والحمد لله . وذكر إسحاق بن راهْوَيه قال : حدّثنا يحيى بن آدم قال أخبرنا جرير بن حازم عن أبى رجاء العُطارِدىّ قال سمعت ابن عباس يقول : لا يزال أمر هذه الأمة مواتيا أو متقاربا — أو كلمة تشبه هاتين — حتى يتكلموا أو ينظروا فى الأطفال والقَدَر . قال يحيى بن آدم فذكرته لابن المبارك فقال : أيسكت الإنسان على الجهل؟ قلت : فتأمر بالكلام؟ قال فسكت . وقال أبو بكر الوراق : « فِطْرَةَ اللهِ التى فَطَر الناس عليها » هى الفقر والفاقة ؛ وهذا حسن ؛ فانه منذ ولد إلى حين يموت فقير محتاج ، نعم ! وفى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ أى هـذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخالق . ولا يجيء الأمر على خلاف هـذا بوجه؛ أى لا يشقى من خَلَقه سعيدا ، ولا يَسْعَد من خلقه شقيًّا . وقال مجاهد : المعنى لا تبديل لدين الله ؛ وقاله قتادة وابن جُبير والضحاك وابن زيد والنَّخَعِىّ ، قالوا : هـذا معناه فى المعتقدات . وقال عكرمة : وروى عن ابن عباس وعمـر ابن الخطاب أن المعنى لا تغيير لخلق الله من البهائم أن تخصى فحولها ؛ فيكون معناه النهى عن خِصاء الفحول من الحيـوان . وقد مضى هـذا فى « النساء »[1] . ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى ذلك القضاء المستقيم؛ قاله ابن عباس . وقال مُقاتل : ذلك الحساب البَـيِّن . وقيل : «ذلك الدِّين القيِّم» أى دين الإسلام هو الدين القيم المستقيم . ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالقا معبودا ، وإلٰهًا قديما سبق قضاؤه ونَفَذ حكمه .

قوله تعالى : ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى : ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ اختلِف فى معناه ، فقيل : راجعين إليه بالتوبة والإخلاص . وقال يحيى بن سلام والفَرّاء : مقبلين إليه . وقال عبد الرحمن بن زيد : مطيعين له . وقيل : تائبين إليه من الذنوب؛ ومنه قول [أبى] قيس بن الأَسْلَت :

فإن تابـوا فإن بنى سـليم * وقومهم هوازن قد أنابوا

والمعـنى واحد ؛ فإن « ناب وتاب وثاب وآب » معناه الرجوع . قال الماوَرْدِىّ : وفى أصل الإنابة قولان : أحدهما — أن أصله القطع ؛ ومنه أخِذ اسم الناب لأنه قاطع ، فكأن الإنابة هى الانقطاع إلى الله عزّ وجلّ بالطاعة . الثـانى — أصله الرجوع ؛ مأخوذ من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد أخرى ؛ ومنها النَّوْبة لأنها الرجوع إلى عادة . الجوهرى :

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٨٩ وما بعدها .

وأناب إلى الله أقبل وتاب . والنَّوْبة واحدة النُّوَب ، تقول : جاءت نَوْبتك ونيابتك ، وهم يتناوبون النَّوْبة فيما بينهم فى الماء وغيره . وانتصب على الحال . قال محمد بن يزيد : لأن معنى « أَقِمْ وجهَكَ » فأقيموا وجوهكم منيبين . وقال الفَرّاء : المعنى فأقم وجهك ومن معك منيبين . وقيل : انتصب على القطع ؛ أى فأقم وجهك أنت وأمتك المنيبين إليه ؛ لأن الأمر له أمرٌ لأمته ، فحسُن أن يقول منيبين إليه ، وقد قال الله تعالى : « يَأَيُّها النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ » . ﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾ أى خافوه وامتثلوا ما أمركم به . ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ بيّن أن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص ؛ فلذلك قال « ولا تكونوا من المشركين » . وقد مضى هذا مبيّناً « فى النساء والكهف »(١) وغيرهما . ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ تأوله أبو هريرة وعائشة وأبو أمامة أنه لأهل القبلة من أهل الأهواء والبِدَع . وقد مضى « فى الأنعام »(٢) بيانه . وقال الربيع بن أنس : الذين فرقوا دينهم أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى ؛ وقاله قتادة ومَعْمَر . وقرأ حمزة والكسائى « فارقوا دينهم » ، وقد قرأ بذلك علىّ ابن أبى طالب ؛ أى فارقوا دينهم الذى يجب اتباعه ، وهو التوحيد . ﴿ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ أى فِرقا ؛ قاله الكلبىّ . وقيل أديانا ؛ قاله مُقاتل . ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أى مسرورون معجَبون ؛ لأنهم لم يتبيّنوا الحق وعليهم أن يتبينوه . وقيل : كان هذا قبل أن تنزل الفرائض . وقول ثالث : أن العاصى لله عز وجل قد يكون فرحا بمعصيته ، فكذلك الشيطان وقُطّاع الطريق وغيرهم ، والله أعلم . وزعم الفرّاء أنه يجوز أن يكون التمام « ولا تكونوا مِن المشرِكين » ويكون المعنى : من الذين فارقوا دينهم « وكانوا شِيَعًا » على الاستئناف ، وأنه يجوز أن يكون متصلا بما قبله . النحاس : وإذا كان متصلا بما قبله فهو عند البصريين على البدل بإعادة الحرف ؛ كما قال جل وعز : « قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ »(٣) ولو كان بلا حرف لجاز .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١٨٠ و جـ ١١ ص ٦٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٤٩ .
(٣) آية ٧٥ سورة الأعراف .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ أى قحط وشدّة ﴿دَعَوْا رَبَّهُم﴾ أن يرفع ذلك عنهم ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن عباس : مقبلين عليه بكل قلوبهم لا يشركون . ومعنى هذا الكلام التعجب، عجب نبيّه من المشركين فى ترك الإنابة إلى الله تعالى مع تتابع الحجج عليهم ؛ أى إذا مسّ هؤلاء الكفارَ ضرٌّ من مرض وشدّة دعوا ربّهم ؛ أى استغاثوا به فى كشف ما نزل بهم، مقبلين عليه وحده دون الأصنام، لعلمهم بأنه لا فرج عندها . ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ أى عافية ونعمة . ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أى يشركون به فى العبادة .

قوله تعالى : ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ قيل : هى لام كى . وقيل : هى لام أمر فيه معنى التهديد ؛ كما قال جل وعز : « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ »[1] . ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد ووعيد . وفى مصحف عبد الله « وليتمتعوا » ؛ أى مكّناهم من ذلك لكى يتمتعوا، فهو إخبار عن غائب ؛ مثل « ليكفروا » . وهو على خط المصحف خطاب بعد الإخبار عن غائب ؛ أى تمتعوا أيها الفاعلون لهذا .

قوله تعالى : ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى : ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ استفهام فيه معنى التوقيف . قال الضحاك : « سلطانا » أى كتابا ؛ وقاله قتادة والربيع بن أنس . وأضاف الكلام إلى الكتاب توسّعا . وزعم الفرّاء أن العرب تؤنّث السلطان ؛ تقول : قضَتْ به عليك السلطان . فأما البصريون فالتذكير عندهم أفصح، وبه جاء القرآن، والتأنيث عندهم جائز لأنه بمعنى الحجة ؛ أى حجة

(١) آية ٢٩ سورة الكهف .

تنطق بشرككم ؛ قاله ابن عباس والضحاك أيضا . وقال عليّ بن سليمان عن أبى العباس محمد ابن يزيد قال : سلطان جمع سَليط ؛ مثل رَغيف ورُغفان ، فتذكيره على معنى الجمع وتأنيثه على معنى الجماعة . وقد مضى فى «آل عمران» الكلام فى السلطان أيضا مستوفى[1] . والسلطان : ما يدفع به الإنسان عن نفسه أمرا يستوجب به عقوبة ؛ كما قال تعالى : « أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ[2] » .

قوله تعالى : وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ﴾ يعنى الخِصْب والسَّعة والعافية ؛ قاله يحيى بن سلام . النّقاش : النعمة والمطر . وقيل : الأمن والدَّعة ؛ والمعنى متقارب . ﴿ فَرِحُوا بِهَا ﴾ أى بالرحمة . ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أى بلاء وعقوبة ؛ قاله مجاهد . السُّدّى : قحط المطر . ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى بما عملوا من المعاصى . ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ أى ييأسون من الرحمة والفرج ؛ قاله الجمهور . وقال الحسن : إن القنوط ترك فرائض الله سبحانه وتعالى فى السرّ . قَنِط يَقْنَط ، وهى قراءة العامة ، وقَنَط يَقْنِط ، وهى قراءة أبى عمرو والكسائى ويعقوب . وقرأ الأعمش « قَنِطَ يَقْنِط » بالكسر فيهما ؛ مثل حَسِب يَحْسِب[3] . والآية صفة للكافر، يقنط عند الشدّة ويبطَر عند النعمة ؛ كما قيل :

كحمار السَّوء إن أعلفته * رَمَح الناس وإن جاع نهق

وكثير ممن لم يرسخ الإيمان فى قلبه بهذه المثابة ؛ وقد مضى فى غير موضع . فأما المؤمن فيشكر ربّه عند النعمة ويرجوه عند الشدّة .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٣ (٢) آية ٢١ سورة النمل . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٦

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى يوسع الخير فى الدنيا لمن يشاء أو يضيق ؛ فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قوله تعالى : فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨)

قوله تعالى : ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما تقدّم أنه سبحانه يبسط الرزق ويقدر أمر مَن وسع عليه الرزق أن يوصل إلى الفقير كفايته ليمتحن شكر الغنىّ . والخطاب للنبىّ عليه السلام والمراد هو وأمته ؛ لأنه قال « ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ » . وأمر بإيتاء ذى القربى لِقُرب رَحِمه ؛ وخيرُ الصدقة ما كان على القريب ، وفيها صلة الرّحِم . وقد فضّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب ، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدةً : " أمَا إنّك لو أعطيْتِها أخوالَك كان أعظمَ لأجرك " .

الثانيــة — واختلف فى هذه الآية ؛ فقيل : إنها منسوخة بآية المواريث . وقيل : لا نسخ ، بل للقريب حقّ لازم فى البِرّ على كل حال ؛ وهو الصحيح . قال مجاهد وقتادة : صِلة الرّحِم فرض من الله عز وجل ، حتى قال مجاهد : لا تُقبل صدقة من أحد ورَحِمُه محتاجة . وقيل : المراد بالقربى أقرباء النبىّ صلى الله عليه وسلم . والأوّل أصح ؛ فإن حقهم مبيّن فى كتاب الله عز وجل فى قوله : « فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ »[1] . وقيل : إن الأمر بالإيتاء لذى القربى على جهة الندب . قال الحسن : «حقَّه» المواساة فى اليسر ، وقول ميسور فى العسر . ﴿ وَالْمِسْكِينَ ﴾ قال ابن عباس : أى أطعم السائل الطوّاف وابن السبيل الضيف ؛ فجعل الضيافة فرضا ، وقد مضى جميع هذا مبسوطا مبيَّنًا فى مواضعه[2] والحمد لله .

---

(١) آية ٤١ سورة الأنفال .	(٢) راجع جـ ٢ ص ١٥ و ٢٤١ طبعة ثانية . و جـ ٨ ص ١١ و جـ ٩ ص ٦٤ طبعة أولى أو ثانية .

الثالثة — ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ﴾ أى إعطاء الحق أفضل من الإمساك إذا أريد بذلك وجهُ الله والتقرّبُ إليه . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى الفائزون بمطلوبهم من الثواب فى الآخرة . وقد تقدّم فى « البقرة »(١) القول فيه .

قوله تعالى : وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِى أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — لمّا ذكر ما يراد به وجهه ويثيب عليه ذكر غير ذلك من الصفة وما يراد به أيضا وجهه . وقرأ الجمهور « آتيتم » بالمد بمعنى أعطيتم . وقرأ ابن كثير ومجاهد وحُميد بغير مدّ بمعنى ما فعلتم من رِبًا لِيَرْبُوَ ؛ كما تقول : أتيت صوابا وأتيت خطأ . وأجمعوا على المدّ فى قوله « وما آتيتم من زكاة » . والربا الزيادة ، وقد مضى فى « البقرة »(٢) معناه ، وهو هناك محرّم وهاهنا حلال . وثبت بهذا أنه قسمان : منه حلال ومنه حرام . قال عكرمة فى قوله تعالى « وما آتيتم من رِبًا لِيَرْبُوَ فِى أموالِ الناسِ » قال : الرِّبَا رِبَوان ، ربا حلال وربا حرام ؛ فأما الربا الحلال فهو الذى يُهْدَى ، يُلتمس ما هو أفضل منه . وعن الضحاك فى هذه الآية : هو الربا الحلال الذى يُهْدَى لِيُثاب ما هو أفضل منه ، لا له ولا عليه ، ليس له أجر وليس عليه فيه إثم . وكذلك قال ابن عباس « وما آتيتم من ربًا » يريد هديّة الرجل الشىء يرجو أن يثاب أفضل منه ، فذلك الذى لا يربو عند الله ولا يؤجر صاحبه ولكن لا إثم عليه ، وفى هذا المعنى نزلت الآية . قال ابن عباس وابن جُبير وطاوس ومجاهد : هذه آية نزلت فى هبة الثواب . قال ابن عطية : وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازَى عليه كالسلام وغيره فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى . وقاله القاضى أبو بكر بن العربى . وفى كتاب النّسائى

---

(١) راجع ج ١ ص ١٨١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع ج ٣ ص ٣٤٨ وما بعدها .

عن عبد الرحمن بن علقمة قال: قدم وفد ثَقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم هديّة فقال: "أهدية أم صدقة فإن كانت هدية فإنما يُبْتَغى بها وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقضاء الحاجة وإن كانت صدقة فانما يُبْتَغى بها وجه الله عز وجل" قالوا: لا بل هدية؛ فقبلها منهم وقعد معهم يسائلهم ويسألونه. وقال ابن عباس أيضا وإبراهيم النَّخَعِي: نزلت فى قوم يُعطون قراباتهم وإخوانهم على معنى نفعهم وتمويلهم والتفضّل عليهم، وليزيدوا فى أموالهم على وجه النفع لهم. وقال الشّعْبي: معنى الآية أن ما خدم الإنسان به أحدا وخف له لينتفع به فى دنياه فان ذلك النفع الذى يَجزِى به الخدمة لا يربو عند الله. وقيل: كان هذا حراما على النبيّ صلى الله عليه وسلم على الخصوص؛ قال الله تعالى: «وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ»(١) فنهى أن يعطى شيئا فيأخذ أكثر منه عِوضا. وقيل: إنه الربا المحرّم؛ فمعنى «لا يربو عند الله» على هذا القول لا يحكم به لآخذه بل هو للمأخوذ منه. قال السُّدّى: نزلت هذه الآية فى ربا ثَقيف؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش.

الثانيـــة — قال القاضى أبو بكر بن العربى: صريح الآية فيمن يَهَب يطلب الزيادة من أموال الناس فى المكافأة. قال المُهَلَّب: اختلف العلماء فيمن وَهَب هبة يطلب ثوابها وقال إنما أردت الثواب؛ فقال مالك: ينظر فيه؛ فإن كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله ذلك؛ مثل هبة الفقير للغنيّ، وهبـة الخادم لصاحبه، وهبة الرجل لأميره ومَن فوقه؛ وهو أحد قولى الشافعى. وقال أبو حنيفـة: لا يكون له ثوابٌ إذا لم يشـترط؛ وهو قول الشافعى الآخر. قال: والهبة للثواب باطلة لا تنفعه؛ لأنها بيع بثمن مجهول. واحتج الكوفى بأن موضوع الهبـة التبرع، فلو أوجبنا فيها العِوض لبطل معنى التبرع وصارت فى معنى المعاوضات، والعرب قد فرّقت بين لفظ البيع ولفظ الهبة، فجعلت لفظ البيع على ما يستحق فيه العوض، والهبـة بخلاف ذلك. ودليلنا ما رواه مالك فى مُوَطّئـه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: أيّمـا رجل وهب هبـة يرى أنها للثواب فهو على هبته حتى يرضى

(١) آية ٦ سورة المدثر.

منها . ونحوه عن علىّ رضى الله عنه قال : المواهب ثلاثة، مَوْهبة يراد بها وجه الله، وموهبة يراد بها وجوه الناس ، وموهبة يراد بها الثواب؛ فموهبة الثواب يرجع فيها صاحبها إذا لم يُثَب منها . وترجم البخارِىّ رحمه الله (باب المكافأة فى الهبة) وساق حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويُثيب عليها ، وأثاب على لِقْحة(1) ولم ينكر على صاحبها حين طلب الثواب ، وإنما أنكر سخطه للثواب وكان زائدا على القيمة . خرّجه الترمذى .

الثالثة — ما ذكره علىّ رضى الله عنه وفضّله من الهبة صحيح ؛ وذلك أن الواهب لا يخلو فى هبته من ثلاثة أحوال : أحدها — أن يريد بها وجه الله تعالى ويبتغى عليها الثواب منه . والثانى — أن يريد بها وجوه الناس رياء ليَحْمَدوه عليها ويُثْنُوا عليه من أجلها . والثالث — أن يريد بها الثواب من الموهوب له ؛ وقد مضى الكلام فيه ، وقال صلى الله عليه وسلم : " الأعمال بالنيات وإنما لكل آمرئ ما نوى " . فأما إذا أراد بهبته وجه الله تعالى وآبتغى عليه الثواب من عنده فله ذلك عند الله بفضله ورحمته ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ .

وكذلك من يصل قرابته ليكون غنيًّا حتى لا يكون كَلًّا فالنية فى ذلك متبوعة ؛ فإن كان ليتظاهر بذلك دنيا فليس لوجه الله ، وإن كان لما له عليه من حق القرابة وبينهما من وشيجة الرحم فإنه لوجه الله .

وأما من أراد بهبته وجوه الناس رياء ليَحْمَدوه عليها ويُثْنُوا عليه من أجلها فلا منفعة له فى هبته ؛ لا ثواب فى الدنيا ولا أجر فى الآخرة؛ قال الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ(2) » الآية .

وأما من أراد بهبته الثواب من الموهوب له فله ما أراد بهبته، وله أن يرجع فيها مالم يثب بقيمتها ، على مذهب ابن القاسم ، أو ما لم يرض منها بأزيد من قيمتها ، على ظاهر قول عمر

(1) اللقحة (بكسر اللام وفتحها) . الناقة الحلوب . (2) آية ٢٦٤ سورة البقرة .

وعلىّ، وهو قول مُطَرِّف فى الواضحة أن الهبة ما كانت قائمـة العين ، و إن زادت أو نقصت فللواهب الرجوع فيها و إن أثابه الموهوب فيها أكثر منها . وقد قيل : إنها إذا كانت قائمة العين لم تتغير فإنه يأخذ ما شاء . وقيل : تلزمه القيمة كنكاح التفويض ، وأما إذا كان بعد فوت الهبة فليس له إلا القيمة إتفاقا؛ قاله ابن العربى .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ لِيَرْبُوَ ﴾ قرأ جمهور القرّاء السبعة «ليربو» باليـاء و إسناد الفعل إلى الربا . وقرأ نافع وحده بضم التاء [والواو] ساكنة على المخاطبة؛ بمعنى تكونوا ذوى زيادات ، وهى قراءة ابن عباس والحسن وقتادة والشَّعْبى . قال أبو حاتم : هى قراءتنـا . وقرأ أبو مالك « لتربوها » بضمير مؤنث . ﴿ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى لا يزكو ولا يثيب عليه؛ لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه وكان خالصا له؛ وقد تقدّم فى «النساء»[1] . ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ ﴾ قال ابن عباس : أى من صدقة . ﴿ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ أى ذلك الذى يقبله و يضاعفه له عشرة أضعافه أو أكثر؛ كما قال : « مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً »[2] . وقال : « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ »[3] . وقال : « فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ » ولم يقل فأنتم المضعفون لأنه رجع من المخاطبة إلى الغيبة؛ مثل قوله : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ »[4] . وفى معنى المُضْعِفين قولان : أحدهمـا — أنه تضاعف لهم الحسنات كما ذكرنا . والآخر — أنهم قد أضعف لهم الخير والنعيم ؛ أى هم أصحاب أضعاف، كما يقال : فلان مُقْوٍ إذا كانت إبله قويّة، أو له أصحاب أقوياء، ومُسْمِن إذا كانت إبله سمان، ومُعْطِش إذا كانت إبله عِطاش ، ومضعِف إذا كانت إبله ضعيفة ؛ ومنه قول النبىّ صـلى الله عليه وسلم : ” اللهم إنى أعوذ بك من الخبيث المخبِث الشيطان الرجيم “ . فالمخبث الذى أصابه خبث، يقال : فلان ردىء أى هو ردىء فى نفسه . ومردِئ : أصحابُه أردئاء .

(١) راجع جـ ٥ ص ٤١٠ .   (٢) آية ٢٤٥ سورة البقرة .   (٣) آية ٢٦٥ سورة البقرة .
(٤) آية ٢٢ سورة يونس .

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ ابتداء وخبر . وعاد الكلام إلى الاحتجاج على المشركين وأنه الخالق الرازق المميت المحيي . ثم قال على جهة الاستفهام : ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَىْءٍ ﴾ لا يفعل . ثم نزّه نفسه عن الأنداد والأضداد والصاحبة والأولاد بقوله الحق : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وأضاف الشركاء إليهم لأنهم كانوا يسمونهم بالآلهة والشركاء، ويجعلون لهم من أموالهم .

قوله تعالى : ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ اختلف العلماء فى معنى الفساد والبر والبحر ؛ فقال قَتادة والسُّدّى : الفساد الشرك، وهو أعظم الفساد . وقال ٱبن عباس وعِكرمة ومجاهد : فساد البر قتلُ ٱبن آدم أخاه؛ قابيلُ قتل هابيل . وفى البحر بالملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا . وقيل : الفساد القحط وقلّة النبات وذهاب البركة . ونحوه قال ابن عباس قال : هو نقصان البركة بأعمال العباد كى يتوبوا . قال النحاس : وهو أحسن ما قيل فى الآية . وعنه أيضا : أن الفساد فى البحر انقطاع صيده بذنوب بنى آدم . وقال عطية : فإذا قل المطر قل الغَوْص عنده، وأخفق الصيادون، وعميت دواب البحر . وقال ٱبن عباس : إذا مطرت السماء تفتحت الأصداف فى البحر، فما وقع فيها من السماء فهو لؤلؤ . وقيل : الفساد كساد الأسعار وقلّة المعاش . وقيل : الفساد المعاصى وقطعُ السبيل والظلم؛ أى صار هذا العمل مانعا من الزرع والعمارات والتجارات؛ والمعنى كله متقارب . والبر والبحر هما المعروفان المشهوران فى اللغة وعند الناس؛ لا ما قاله بعض العُبّاد أن البر اللسانُ والبحر القلبُ، لظهور

ما على اللسان وخفاء ما فى القلب . وقيــل : البر الفيافى ، والبحر القــرى ؛ قاله عكرمة . والعــرب تسمى الأمصار البحار . وقال قتادة : البر أهــل العمود ، والبحر أهــل القرى والريف . وقال آبن عباس : إن البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر ، والبحر ما كان على شط نهر ؛ وقاله مجاهد ، قال : أما والله ما هو بحركم هذا ، ولكن كل قرية على ماء جارٍ فهى بحر . وقال معناه النحاس ، قال : فى معناه قولان : أحدهما — ظهر الجَــدْب فى البر ؛ أى فى البوادى وقراها ، وفى البحر أى فى مدن البحر ؛ مثــل « وآسألِ القرية » . أى ظهر قلة الغيث وغلاء الســعر . ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ ﴾ أى عقاب بعض ﴿ الَّذِى عَمِلُوا ﴾ ثم حذف . والقول الآخر — أنه ظهرت المعاصى من قطع السبيل والظلم ، فهــذا هو الفساد على الحقيقة ، والأول مجاز إلا أنه على الجواب الثانى ، فيكون فى الكلام حذف واختصار دل عليه ما بعده ، ويكون المعنى : ظهرت المعاصى فى البر والبحر فحبس الله عنهما الغيث وأغلى سعرهم ليــذيقهم عقاب بعض الذى عمــلوا . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعلهم يتوبون . وقال : « بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا » لأن معظم الجزاء فى الآخرة . والقراءة « ليذيقهم » بالياء . وقرأ آبن عباس بالنون ، وهى قراءة السُّلَمِىّ وآبن مُحَيْصِن وقُنْبُل و يعقوب على التعظيم ؛ أى نذيقهم عقوبة بعض ما عملوا .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ (٤٢)

قوله تعــالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ ﴾ أى قل لهم يا محمد ســيروا فى الأرض ليعتبروا بمن قبلهم ، و ينظروا كيف كان عاقبــة من كذّب الرســل ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ أى كافرين فأهلكوا .

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ (٤٣)

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ قال الزجاج : أى أقم قصدك ، واجعل جهتك اتباع الدّين القيّم ؛ يعنى الإسلام . وقيل : المعنى أوضح الحق و بالغ فى الإعذار ، واشتغل بما أنت فيه ولا تحزن عليهم . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى لا يردّه الله عنهم ، فإذا لم يردّه لم يتهيأ لأحد دفعه . ويجوز عند غير سيبويه « لا مَرَدٌّ له » وذلك عند سيبويه بعيد ، إلا أن يكون فى الكلام عطف . والمراد يوم القيامة . ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ قال ابن عباس : معناه يتفرّقون . وقال الشاعر :

وكنّا كَنَدْمَانَىْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً * من الدهر حتى قِيل لن يَتَصدّعا (١)

أى لن يتفرقا ؛ نظيره قوله تعالى : « يومئذٍ يتفرقون » فريق فى الجنة وفريق فى السعير . والأصل يتصدّعون ؛ و يقال : تصدّع القوم إذا تفرّقوا ؛ ومنه اشتقّ الصُّداع ، لأنه يفرق شُعب الرأس .

قوله تعالى : مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ فعليه كُفْرُهُ ﴾ أى جزاء كفره . ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ أى يوطّئون لأنفسهم فى الآخرة فراشا ومسكنا وقرارا بالعمل الصالح؛ ومنه : مهدُ الصبيّ . والمهاد الفراشُ ، وقد مَهَدت الفراش مَهْدًا بسطته ووطّأته . وتمهيد الأمور تسويتها و إصلاحها . وتمهيد العذر بسطُه وقبوله . والتمهّد التمكن . وروى ابن أبى نَجِيح عن مجاهد « فلأنفسهم يَمْهَدُون » قال فى القبر .

قوله تعالى : لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ج إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

(١) البيت لمتمم بن نويرة اليربوعى من قصيدة يرثى بها أخاه مالكا مطلعها :

لعمرى وما دهرى بتأبين هالك * ولا جزع مما أصاب فأوجعا

وقوله « كندمانى جذيمة » يعنى جذيمة الأبرش وكان ملكا . ونديماه : يقال لهما مالك وعقيل . و يضرب بهما المثل لطول ما ندماه، فقد نادماه أربعين سنة ما أعادا عليه حديثا .

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي يمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله . وقيل يصدّعون ليجزيهم الله ؛ أي يميز الكافر من المسلم ﴿ إِنه لا يحب الكافرين ﴾ .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ أي ومن أعلام كمال قدرته إرسال الرياح مبشّرات أي بالمطر لأنها تتقدمه . وقد مضى في « الحِجْر » (١) بيانه . ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ يعني الغيث والخصب . ﴿ ولِتَجْرِيَ الْفُلْكُ ﴾ أي في البحر عند هبوبها . وإنما زاد « بأمره » لأن الرياح قد تَهُبّ ولا تكون مواتية ، فلا بدّ من إرساء السفن والاحتيال بحبسها ، وربما عصفت فأغرقتها بأمره . ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يعني الرزق بالتجارة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ هذه النعم بالتوحيد والطاعة . وقد مضى هذا كله مبيناً (٢) .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي المعجزات والحجج النيّرات ﴿ فَانْتَقَمْنَا ﴾ أي فكفروا فانتقمنا ممن كفر . ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ « حقًّا » على خبر كان ، « ونصرُ » اسمها . وكان أبو بكر يقف على « حقا » أي وكان عقابنا حقا ، ثم قال « علينا نصر المؤمنين » ابتداء وخبر ؛ أي أخبرنا به ولا خُلْف في خبرنا . وروى من حديث أبي الدّرداء قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من مسلم يَذُبّ عن عرض أخيه إلا كان حقًّا على الله تعالى أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة — ثم تلا وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين " . ذكره النحاس والثعلبيّ والزّمخشريّ وغيرهم .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥ (٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٨ و ٣٩٧ و جـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن وابن كثير وحمزة والكسائى « الريح » بالتوحيد . والباقون بالجمع . قال أبو عمرو : وكل ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع ، وما كان بمعنى العذاب فهو موحد . وقد مضى فى « البقرة »(١) معنى هذه الآية وفى غيرها . « كِسَفًا » جمع كِسْفة وهى القطعة . وفى قراءة الحسن وأبى جعفر وعبد الرحمن الأعرج وابن عامر « كِسْفا » بإسكان السين ، وهى أيضا جمع كسفة ؛ كما يقال : سِدْرة وسِدْر ؛ وعلى هذه القراءة يكون المضمر الذى بعده عائدا عليه ؛ أى فترى الوَدْق أى المطر يخرج من خلال الكسف ؛ لأن كل جمع بينه وبين واحده الهاء فالتذكير فيه حَسَن . ومن قرأ « كِسَفًا » فالمضمر عنده عائد على السحاب . وفى قراءة الضحاك وأبى العالية وابن عباس « فترى الودق يخرج من خَلَله » ويجوز أن يكون خَلَل جمع خِلال ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ ﴾ أى بالمطر . ﴿ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يفرحون بنزول المطر عليهم . ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أى يائسين مكتئبين قد ظهر الحزن عليهم لاحتباس المطر عنهم . و « مِنْ قَبْلِهِ » تكرير عند الأخفش معناه التأكيد ؛ وأكثر النحويين على هذا القول ؛ قاله النحاس . وقال قُطْرُب : إن « قبل » الأولى للإنزال والثانية للطر ؛ أى وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر . وقيل : المعنى من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع ، ودل على الزرع المطر إذ بسببه يكون . ودل عليه أيضا « فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا » على ما يأتى . وقيل : المعنى من قبل السحاب من قبل رؤيته ؛ واختار هذا القول النحاس ، أى من قبل رؤية السحاب(٢) ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أى ليائسين . وقد تقدم ذكر السحاب .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٧ وما بعدها طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٢ ص ٢٠٠ طبعة ثانية .

قوله تعالى : فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ أَثَرِ رَحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ يعنى المطر ؛ أى انظروا نظر استبصار واستدلال ؛ أى استدلوا بذلك على أن من قدر عليه قادر على إحياء الموتى . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى « آثار » بالجمع . الباقون بالتوحيد ؛ لأنه مضاف إلى مفرد . والأثر فاعل « يُحْيِي » ويجوز أن يكون الفاعل آسم الله عز وجل . ومن قرأ « آثار » بالجمع فلأن رحمة الله يجوز أن يراد بها الكثرة ؛ كما قال تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا[1] » . وقرأ الجَحْدَرِى وأبو حَيْوَة وغيرهما « كيف تحيي الأرض » بتاء ؛ ذهب بالتأنيث إلى لفظ الرحمة ؛ لأن أثر الرحمة يقوم مقامها فكأنه هو الرحمة ؛ أى كيف تحيي الرحمة الأرض أو الآثار . « ويحيي » أى يحيي الله عز وجل أو المطر أو الأثر فيمن قرأ بالياء . و﴿ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ ﴾ فى موضع نصب على الحال على الحمل على المعنى لأن اللفظ لفظ الآستفهام والحال خبر ؛ والتقدير : فانظر إلى أثر رحمة الله محيية للأرض بعد موتها . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ استدلال بالشاهد على الغائب .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ يعنى الريح ، والريح يجوز تذكيره . قال محمد بن يزيد : لا يمتنع تذكير كل مؤنث غير حقيقى ، نحو أعجبنى الدار وشبهه . وقيل : فرأوا السحاب . وقال ابن عباس : الزرع ، وهو الأثر ؛ والمعنى فرأوا الأثر مصفرًّا ؛ واصفرار الزرع بعد اخضراره يدل على يبسه ، وكذا السحاب يدل على أنه لا يمطر والريح على أنها لا تُلقح ﴿ لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أى لَيَظَلُّنَّ ؛ وحسن وقوع الماضى فى موضع المستقبل لما فى الكلام من معنى المجازاة ، والمجازاة لا تكون إلا بالمستقبل ؛ قاله الخليل وغيره .

(١) آية ٣٤ سورة ابراهيم .

قوله تعالى : فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ أى وَضحت الحجج يامجد لكنهم لإلفهم تقليد الأسلاف فى الكفر ماتت عقولهم وعميت بصائرهم ، فلا يتهيأ لك إسماعهم وهدايتهم . وهذا ردّ على القدرية . ﴿ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أى لا تسمع مواعظ الله إلا المؤمنين الذين يصغون إلى أدلة التوحيد وخلقت لهم الهداية . وقد مضى هذا فى « النمل »[1] ووقع قوله « بِهَادِ العُمْيِ » هنا بغير ياء .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ﴾ ذكر استدلالا آخر على قدرته فى نفس الإنسان ليعتبر . ومعنى « مِن ضَعْفٍ » من نطفة ضعيفة . وقيل : « من ضعف » أى فى حال ضعف ؛ وهو ما كانوا عليه فى الابتداء من الطفولة والصغر . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ يعنى الشبيبة . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا ﴾ يعنى الهرم . وقرأ عاصم وحمزة بفتح الضاد فيهن ، الباقون بالضم ، لغتان ، والضم لغة النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقرأ الجَحْدَرِىّ : « من ضَعْف ثم جعل من بعد ضَعْف » بالفتح فيهما « ضُعْفًا » بالضم خاصة . أراد أن يجمع بين اللغتين . قال الفراء : الضم لغة قريش ، والفتح لغة تميم . الجوهرى : الضَّعْف والضُّعْف : خلاف القوّة . وقيل : الضعف بالفتح فى الرأى ، و بالضم فى الجسد ؛ ومنه الحديث فى الرجل

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٣

الذى كان يخدع فى البيوع : " أنه يبتاع وفى عُقدته ضَعف(١) " . ﴿ وَشَيْبَةً ﴾ مصدر كالشَّيب ، والمصدر يصلح للجملة ، وكذلك القول فى الضعف والقوّة . ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ يعنى من قوة وضعف . ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بتدبيره . ﴿ الْقَدِيرُ ﴾ على إرادته . وأجاز النحويون الكوفيون « من ضَعَف » بفتح العين ، وكذا كل ما كان فيه حرف من حروف الحلق ثانيا أو ثالثا .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى يحلف المشركون . ﴿ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ ليس فى هذا رد لعذاب القبر ، إذ كان قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من غير طريق أنه تعوّذ منه ، وأمر أن يتعوّذ منه ؛ فمن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال : سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّ حبيبة وهى تقول : اللّهمّ أمتعنى بزوجى رسول الله ، وبأبى أبى سفيان ، وبأخى معاوية ؛ فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لقد سألت الله لآجال مضروبة وأرزاق مقسومة ولكن سَليه أن يعيذك من عذاب جهنم وعذاب القبر" فى أحاديث مشهورة خرجها مسلم والبخارِى وغيرهما . وقد ذكرنا منها جملة فى كتاب (التذكرة) . وفى معنى « ما لبثوا غَيْرَ ساعة » قولان : أحدهما — أنه لا بدّ من خمدة قبل يوم القيامة ؛ فعلى هذا قالوا ما لبثنا غير ساعة . والقول الآخر — أنهم يعنون فى الدنيا لزوالها وانقطاعها ، كما قال تعالى : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا(٢) » كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، وإن كانوا قد أقسموا على غيب وعلى غير ما يدرون . قال الله عز وجل : ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ أى كانوا يكذبون فى الدنيا ؛ يقال : أُفِك الرجلُ إذا صُرف عن الصّدق والخير . وأرض مأفوكة : ممنوعة من المطر . وقد زعم جماعة من أهل النظر أن القيامة لا يجوز أن يكون فيها كذب لما هم فيه ، والقرآن يدل على غير ذلك ، قال الله عز وجل : « كَذَٰلِكَ كَانُوا

---

(١) أى فى رأيه ونظره فى مصالح نفسه . (٢) آخر سورة النازعات .

يُؤْفَكُونَ » أى كما صُرفوا عن الحق فى قَسَمهم أنهم ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يُصرفون عن الحق فى الدنيا ؛ وقال جل وعز : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ »(١) وقال : « ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا »(٢) .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ اختلف فى الذين أوتوا العلم ؛ فقيل الملائكة . وقيل الأنبياء . وقيل علماء الأمم . وقيل مؤمنو هذه الأمة . وقيل جميع المؤمنين ؛ أى يقول المؤمنون للكفار ردًّا عليهم لقد لبثتم فى قبوركم إلى يوم البعث . والفاء فى قوله «فهذا يومُ البعث» جواب لشرط محذوف دلّ عليه الكلام ؛ مجازه : إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث . وحكى يعقوب عن بعض القراء وهى قراءة الحسن «إلى يوم البَعَث» بالتحريك ؛ وهذا مما فيه حرف من حروف الحلق . وقيل : معنى « فى كتاب الله » فى حكم الله . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ أى وقال الذين أوتوا العلم فى كتاب الله والإيمانَ لقد لبثتم إلى يوم البعث ؛ قاله مقاتل وقتادة والسُّدّى . القشيرى : وعلى هذا «أوتوا العلم» بمعنى كتاب الله . وقيل : الذين حكم لهم فى الكتاب بالعلم ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ أى اليوم الذى كنتم تنكرونه .

قوله تعالى : فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

---

(١) آية ١٨ سورة المجادلة . (٢) آية ٢٣ سورة الأنعام .

قوله تعـالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أى لا ينفعهم العلم بالقيامة ولا الاعتذار يومئذ. وقيل: لما ردّ عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يعذروا. ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أى ولا حالهم حال من يستعتب و يرجع؛ يقـال : استعتبته فأعتبنى ؛ أى استرضيته فأرضانى، وذلك إذا كنت جانيا عليه . وحقيقة أعتبته: أزلت عَتبه . وسيأتى فى «فُصِّلت»[1] بيانه . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى «فيومئذٍ لا ينفع» بالياء، والباقون بالتاء .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى مِن كل مَثَل يدلهم على مايحتاجون إليه، وينبّههم على التوحيد وصدق الرسل . ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ أى معجزة؛ كفلق البحر والعصا وغيرهما ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ ﴾ يامعشر المؤمنين . ﴿ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ أى تتبعون البـاطل والسحر ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى كما طبع الله على قلوبهم حتى لا يفهموا الآيات عن الله فكذلك ﴿ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أدلّة التوحيد ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ أى اصـبر على أذاهم فإن الله ينصرك ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ أى لا يستفزّنّك عن دينك ﴿ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ قيل : هو النضر بن الحارث. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته؛ يقال : استخفّ فلان فلانا أى آستجهله حتى حمله على آتباعه فى الغىّ . وهو فى موضع جزم بالنهى، أُكّد بالنون الثقيلة فبُنِىَ على الفتح كما يبنى الشيئان إذا ضم أحدهما إلى الآخر. «الذِين لا يوقِنون» فى موضـع رفع، ومن العرب من يقول : اللذون فى موضع الرفع . وقد مضى فى « الفاتحة »[2] .

(١) فى آية ٢٤ (٢) راجع جـ ١ ص ١٤٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

تفسير سورة لقمان

وهى مكية ، غير آيتين قال قتادة : أولهما « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقلام » إلى آخر الآيتين[1] . وقال ابن عباس : ثلاث آيات ، أولهن « ولو أن ما فى الأرض » . وهى أربع وثلاثون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ مضى الكلام فى فواتح السُّوَر . و « تلك » فى موضع رفع على إضمار مبتدأ ، أى هذه تلك . ويقال : « تِيكَ آياتُ الكتاب الحكيم » بدلا من تلك . والكتاب : القرآن . والحكيم : المحكم ؛ أى لا خلل فيه ولا تناقض . وقيل ذو الحكمة . وقيل الحاكم . ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ بالنصب على الحال ؛ مثل : « هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً[2] » وهـذه قراءة المدنيّين وأبى عمـرو وعاصم والكسائى . وقرأ حمـزة « هُدًى ورحمةٌ » بالرفع ، وهو من وجهين : أحدهما — على إضمار مبتدأ ؛ لأنه أول آية . والآخر — أن يكون خبر « تلك » . والمحسن : الذى يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإنه يراه . وقيل : هم المحسنون فى الدِّين وهو الإسلام ؛ قال الله تعالى : « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ[3] » الآية . ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ فى موضـع الصفة ، ويجوز الرفع على القطع بمعنى : هم الذين ، والنصب بإضمار أعنى . وقد مضى الكلام فى هـذه الآية والتى بعـدها فى « البقرة[4] » وغيرها .

(١) آية ٢٧ و ٢٨ . (٢) آية ٧٣ سورة الأعراف . (٣) آية ١٢٥ سورة النساء .

(٤) راجع جـ ١ ص ١٥٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . وجـ ٦ ص ٢٢١ .

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦)

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ « مَن » في موضع رفع بالابتداء . و « لهو الحديث » : الغناء؛ في قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما . النحاس : وهو ممنوع بالكتاب والسنة؛ والتقدير : من يشترى ذا لهو أو ذات لهو؛ مثل « وٱسأل القرية » . أو يكون التقدير : لما كان إنما اشتراها يشتريها ويبالغ فى ثمنها كأنه اشتراها للهو .(١)

قلت : هذه إحدى الآيات الثلاث التى ٱستدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه .

والآية الثانية قوله تعالى : « وَأَنْتُمْ سامِدون »(٢) . قال ابن عباس : هو الغناء بالحِمْيرِيّة؛ اسمدى لنا؛ أى غنّى لنا .

والآية الثالثة قوله تعالى : « وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ »(٣) قال مجاهد : الغناء والمزامير . وقد مضى فى « سبحان »(٤) الكلام فيه . وروى الترمذيّ عن أبى أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تبيعوا القَيْنات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام فى مثل هذا أنزلت هذه الآية : ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله " إلى آخر الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، إنما يُروى من حديث القاسم عن أبى أمامة ، والقاسم ثقة وعليّ بن يزيد يضعّف فى الحديث ؛ قاله محمد بن إسماعيل . قال ابن عطية : وبهذا فسر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد ، وذكره أبو الفرج الجَوْزى عن الحسن وسعيد بن جُبير وقَتادة والنَّخَعيّ .

(١) كذا فى جميع نسخ الأصل . وفى كتاب النحاس : «أو يكون التقدير : لما كان إنما يشتريها ويبالغ فى ثمنها كأنه اشترى اللهو» . وفى العبارتين غموض ، ولعل العبارة هكذا : أو يكون التقدير أنه لما كان إنما يشتريها ويبالغ فى ثمنها لأجل لهوها كان كأنه اشترى اللهو . (٢) آية ٦١ سورة النجم . (٣) آية ٦٤ سورة الإسراء .
(٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٩٠ .

قلت : هذا أعلى ما قيل فى هـذه الآية ، وحلف على ذلك ابن مسعود بالله الذى لا إله إلا هو ثلاث مرات أنه الغناء . روى سعيد بن جبير عن أبى الصّهباء البكرى قال : سـئل عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ » فقال : الغناء والله الذى لا إله إلا هو ، يرددها ثلاث مرات . وعن ابن عمر أنه الغناء ، وكذلك قال عكرمة وميمون بن مِهران ومكحول . وروى شـعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن إبراهيم قال قال عبد الله بن مسعود : الغناء ينبت النفاق فى القلب ، وقاله مجاهد ، وزاد : إن لهو الحديث فى الآية الاستماع إلى الغناء وإلى مثله من الباطل . وقال الحسن : لهْـو الحديث المعازِف والغناء . وقال القاسم بن محمد : الغناء باطل والباطل فى النار . وقال ابن القاسم سألت مالكا عنه فقال : قال الله تعالى « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ »(١) أفحق هو ؟ ! وترجم البخارى (٢) (باب كلُّ لهو باطلٌ إذا شـغل عن طاعة الله ، ومن قال لصاحبه تعال أقامِرْك ، وقولُه تعـالى : وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْـوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا) فقوله « إذا شَـغَل عن طاعة الله » مأخوذ من قوله تعـالى : « لِيُضِلَّ عَن سَـبِيلِ اللَّهِ » . وعن الحسن أيضـا : هو الكفر والشرك . وتأوله قـوم على الأحاديث التى يَتَلهّى بهـا أهلُ الباطل واللعِب . وقيـل : نزلت فى النضر بن الحـارث ؛ لأنه اشـترى كتب الأعاجم : رسـتم ، واسفنديار ؛ فكان يجلس بمكة ، فإذا قالت قريش إن محمدا قال كذا ضحك منه ، وحدثهم بأحاديث ملوك الفرس ويقول : حديثى هذا أحسن من حديث محمد ؛ حكاه الفرّاء والكلْبى وغيرهما . وقيل : كان يشترى المغنّيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قَيْنَته فيقول : أطعميه وآسـقيه وغنّيه ؛ ويقول : هـذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصـيام وأن تقاتل بين يديه . وهـذا القول والأوّل ظاهر فى الشراء . وقالت طائفة : الشراء فى هذه الآية مستعار ، وإنما نزلت الآية فى أحاديث قريش وتلهّيهم بأمر الإسلام وخوضهم فى الباطل . قال ابن عطية : فكان ترك ما يجب فعله وامتثال هذه المنكرات

---

(١) آية ٣٢ سورة يونس . راجع جـ ٨ ص ٣٣٥ وما بعدها . (٢) فى آخر كتاب الاستئذان .

شراءً لها؛ على حدّ قوله تعالى: « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى »[1]؛ اشتروا الكفر بالإيمان؛ أى استبدلوه منه واختاروه عليه . وقال مُطَرِّف : شراء لهو الحديث استحبابه . قتادة : ولعله لا ينفق فيه مالا ، ولكن سماعه شراؤه .

قلت : القول الأوّل أولى ماقيل به فى هذا الباب؛ للحديث المرفوع فيه، وقول الصحابة والتابعين فيه . وقد زاد الثعلبي والواحدي فى حديث أبى أمامة : "ومامن رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المَنكِب فلا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يكون هو الذى يسكت". وروى الترمذى وغيره من حديث أنس وغيره عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "صوتان ملعونان فاجران أنهى عنهما صوت مزمار ورنّة شيطان عند نغمة ومَرَح ورنّة عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب" . وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عن عليّ عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بُعثت بكسر المزامير" خرّجه أبو طالب الغَيْلانى . وخرج ابن بشران عن عكرمة عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " بُعثت بهدم المزامير والطبل" . وروى الترمذى من حديث عليّ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا فعلت أمّتى خمس عشرة خَصْلة حلّ بها البلاء — فذكر منها : إذا اتخذت القَيْنات والمعازف " . وفى حديث أبى هريرة : " ظهرت القِيان والمعازِف " . وروى ابن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المُنْكَدِر عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من جلس إلى قَينة يسمع منها صُبّ فى أذنه الآنُك[2] يوم القيامة " . وروى أسد بن موسى عن عبد العزيز بن أبى سلمة عن محمد بن المنكدِر قال : بلغنا أن الله تعالى يقول يوم القيامة : " أين عبادى الذين كانوا ينزّهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان أحِلّوهم رياض المسك وأخبروهم أنى قد أحللت عليهم رضوانى " . وروى ابن وهب عن مالك عن محمد بن المنكدر مثله ، وزاد بعد قوله " المسك : ثم يقول للملائكة أسمعوهم حمدى وشكرى وثنائى وأخبروهم ألّا خوف عليهم ولاهم يحزنون" . وقد روى مرفوعا هذا المعنى من حديث أبى موسى الأشعرى أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٠ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) الآنك : الرصاص .

" من ٱستمع الى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع الروحانيين " . فقيل : ومَن الروحانيون يارسول الله؟ قال : " قراء أهل الجنة" خرجه الترمذى الحكيم أبو عبدالله فى نوادر الأصول، وقد ذكرناه فى كتاب التذكرة مع نظائره : " فمن شرب الخمر فى الدنيا لم يشربها فى الآخرة ومن لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الاخرة " . إلى غير ذلك . وكل ذلك صحيح المعنى على ما بيناه هناك . ومن رواية مكحول عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من مات وعنده جارية مغنية فلا تصلّوا عليه " . ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء . وهى المسألة : —

الثانيـة — وهو الغناء المعتاد عند المشتهرين به الذى يحرّك النفوس و يبعثها على الهوى والغَزَل والمُجُون الذى يحرك الساكن و يبعث الكامن؛ فهذا النوع إذا كان فى شعر يُشَبَّب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهن وذكر الخمور والمحرّمات لا يُختلف فى تحريمه؛ لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق . فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح؛ كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان فى حفر الخَنْدق وحَدْوِ أَنْجَشَة[(١)] وسَلَمة بن الأكوع . فأما ما ابتدعتـه الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغانى بالآلات المطربة من الشبابات[(٢)] والطار والمعازف والأوتار فحرام . ابن العربى : فأما طبل الحـرب فلا حرج فيه؛ لأنه يقيم النفوس ويُرهب العدوّ . و فى اليراعة[(٣)] تردّد . والدف مباح . الجوهرى : و ربما سمّوا قصبة الراعى التى يزمر بها هيرعة و يراعة . قال القشيرى : ضُرب بين يدى النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم دخل المدينة، فهمّ أبو بكر بالزجر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح " فكنّ يضربن و يقلن : نحن بنات النجار، حبذا محمد من جار . وقد قيل : إن الطبل فى النكاح كالدُّف، وكذلك الآلات المشهِرة للنكاح يجوز استعمالها فيـه بما يحسن من الكلام ولم يكن فيه رَفَث .

(١) هو عبد أسـود كان يسوق أو يقود بنساء النبيّ صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع، وكان حسن الحداء، وكانت الإبل تزيد فى الحركة بحدائه . (٢) الشبابة (بالتشديد) : قصبة الزمر، وهى مولدة .
(٣) اليراعة : مزمار الراعى .

الثالثة — الاشتغال بالغناء على الدوام سفه تُرَدّ به الشهادة، فان لم يدم لم تردّ . وذكر إسحاق بن عيسى الطباع قال : سألت مالك بن أنس عما يُرخِّص فيه أهل المدينة من الغناء فقال : إنما يفعله عندنا الفساق . وذكر أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبرىّ قال : أما مالك بن أنس فإنه نهى عن الغناء وعن استماعه، وقال : إذا اشترى جارية ووجدها مغنّية كان له ردّها بالعيب ؛ وهو مذهب سائر أهل المدينة ؛ إلا إبراهيم بن سعد فانه حكى عنه زكريا الساجى أنه كان لا يرى به بأسا . وقال ابن خُوَيْز منداد : فأما مالك فيقال عنه : إنه كان عالما بالصناعة وكان مذهبه تحريمها . وروى عنه أنه قال : تعلمت هذه الصناعة وأنا غلام شاب، فقالت لى أمى : أىْ بنىّ ! إن هذه الصناعة يصلح لها من كان صبيح الوجه ولستَ كذلك ، فاطلب العلوم الدينية ، فصحبت ربيعة فجعل الله فى ذلك خيرا . قال أبو الطيب الطبرىّ : وأما مذهب أبى حنيفة فانه يكره الغناء مع إباحته شرب النّبيذ ، ويجعل سماع الغناء من الذنوب . وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة : إبراهيم والشعبىّ وحماد والثورىّ وغيرِهم ، لا اختلاف بينهم فى ذلك . وكذلك لا يعرف بين أهل البصرة خلاف فى كراهية ذلك والمنع منه ؛ إلا ما روى عن عبيد الله بن الحسن العنبرى أنه كان لا يرى به بأسا . قال : وأما مذهب الشافعىّ فقال : الغناء مكروه يشبه الباطل ، ومن استكثر منه فهو سفيه تُرَدّ شهادته . وذكر أبو الفرج الجَوْزى عن إمامه أحمد بن حنبل ثلاثَ روايات قال : وقد ذكر أصحابنا عن أبى بكر الخَلّال وصاحبِه عبد العزيز إباحةَ الغناء، وإنما أشاروا إلى ما كان فى زمانهما من القصائد الزُّهْديّات ؛ قال : وعلى هذا يحمل ما لم يكرهه أحمد؛ ويدل عليه أنه سئل عن رجل مات وخلف ولدا وجارية مغنية فاحتاج الصبي إلى بيعها فقال : تباع على أنها ساذجة لا على أنها مغنية . فقيل له : إنها تساوى ثلاثين ألفا؛ ولعلها إن بيعت ساذجة تساوى عشرين ألفا ؟ فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة . قال أبو الفرج : وإنما قال أحمد هذا لأن هذه الجارية المغنية لا تغنى بقصائد الزهد، بل بالأشعار المطربة المثيرة إلى العشق .

وهذا دليل على أن الغناء محظور ؛ إذ لو لم يكن محظورا ما جاز تفويت المال على اليتيم . وصار هذا كقول أبى طلحة للنبىّ صلى الله عليه وسلم : عندى خمر لأيتام ؟ فقال : " أرقها " . فلو جاز استصلاحها لما أمر بتضييع مال اليتامى . قال الطبرىّ : فقد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه . وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبيد الله العنبرى ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عليكم بالسواد الأعظم . ومن فارق الجماعة مات مِيتة جاهلية " . قال أبو الفرج : وقال القفال من أصحابنا : لا تقبل شهادة المغنى والرقاص .

قلت : وإذ قد ثبت أن هذا الأمر لا يجوز فأخذ الأجرة عليه لا تجوز . وقد ادّعى أبو عمر بن عبد البر الإجماع على تحريم الأجرة على ذلك . وقد مضى فى الأنعام عند قوله : « وعنده مفاتح الغيب »[1] وحسبك .

الرابعة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : وأما سماع القينات فيجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته ؛ إذ ليس شىء منها عليه حراما لا من ظاهرها ولا من باطنها ، فكيف يُمنع من التلذذ بصوتها . أمّا أنه لا يجوز انكشاف النساء للرجال ولا هتك الأستار ولا سماع الرَّفث ، فاذا خرج ذلك إلى ما لا يحل ولا يجوز منع من أوّله واجتثّ من أصله . وقال أبو الطيب الطبرىّ : أما سماع الغناء من المرأة التى ليست بمحرَم فإن أصحاب الشافعىّ قالوا لا يجوز ، سواء كانت حرّة أو مملوكة . قال : وقال الشافعىّ : وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه تردّ شهادته ؛ ثم غلّظ القول فيه فقال : فهى دِياثة . وإنما جعل صاحبها سفيها لأنه دعا الناس إلى الباطل ومن دعا الناس الى الباطل كان سفيها .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قراءة العامة بضم الياء ؛ أى ليضل غيره عن طريق الهدى وإذا أضل غيره فقد ضل . وقرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وحُميد وأبو عمرو ورُوَيْس وابن أبى إسحاق (بفتح الياء) على اللازم ؛ أى ليَضل هو نفسه .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣

﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ قراءة المدنيّين وأبى عمرو وعاصم بالرفع عطفا على « مَنْ يَشْتَرِى » ويجوز أن يكون مستأنفا . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائىّ « ويتخذها » بالنصب عطفا على « لِيُضِلَّ » . ومن الوجهين جميعا لا يحسن الوقف على قوله : « بِغَيْرِ عِلْمٍ » والوقف على قوله : « هُزُوًا » والهاء فى « يتخذها » كناية عن الآيات . ويجوز أن يكون كناية عن السبيل ؛ لأن السبيل يؤنث ويذكر . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أى شديد يهينهم . قال الشاعر :

ولقد جزعت إلى النصارى بعد ما * لقى الصليبُ من العذاب مهينا (١)

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَلَّى ﴾ أى أعرض . ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ نصب على الحال . ﴿ كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ ثقلا وصمما . وقد تقدّم (٢) . ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ تقدّم أيضا (٣) .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ لما ذكر عذاب الكفار ذكر نعيم المؤمنين . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى دائمين . ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ أى وعدهم الله هذا وعدا حقا لا خُلف فيه . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدّم أيضا (٤) .

---

(١) هذا البيت لجرير من قصيدة يهجو بها الأخطل ، مطلعها :

أمسيت إذ رحل الشباب حزينا * ليت الليالى قبل ذاك فنينا

(٢) راجع جـ ٦ ص ٤٠٤   (٣) راجع جـ ١ ص ١٩٨ و ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٤) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ و جـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

قوله تعالى : خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ تكون « ترونها » فى موضع خفض على النعت لـ« عمد » فيمكن أن يكون ثَمّ عَمَد ولكن لا تُرَى . ويجوز أن تكون فى موضع نصب على الحال من « السموات » ولا عَمَـد ثَمّ ألبتّة . النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول : الأولى أن يكون مستأنفا ، ولا عَمَد ثَمّ . قل مكيّ : ويكون « بِغَيْرِ عَمَدٍ » التمام . وقد مضى فى « الرعد »(١) الكلام فى هذه الآية . ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أى جبالا ثوابت . ﴿ أَنْ تَمِيدَ ﴾ فى موضع نصب ؛ أى كراهية أن تميد . والكوفيون يقدّرونه بمعنى لئلا تميد . ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ عن ابن عباس : من كل لون حَسَن . وتأوله الشعبيّ على الناس ؛ لأنهم مخلوقون من الأرض ؛ قال : من كان منهم يصير إلى الجنة فهو الكريم ، ومن كان منهم يصير إلى النار فهو اللئيم . وقد تأوله غيره أن النطفة مخلوقة من تراب ، وظاهر القرآن يدل على ذلك .

قوله تعالى : ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ مبتدأ وخبر . والخلق بمعنى المخلوق ؛ أى هـذا الذى ذكرته مما تعاينون « خلق الله » ، أى مخلوق الله ، أى خلقها من غير شريك . ﴿ فَأَرُونِي ﴾ معاشر المشركين . ﴿ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعنى الأصنام . ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ ﴾ أى المشركون . ﴿ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى خسران ظاهر . و « ما » استفهام فى موضع رفع بالابتداء وخبره « ذا » وذا بمعنى الذى . و « خلق » واقع على هاء محذوفة ؛ تقديره فأرونى أى شىء خلق الذين من دونه ؛ والجملة فى موضع نصب بـ« أرونى » وتضمر الهاء مع « خلق »

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٧٩ .

تعود على الذى ؛ أى فأرونى الأشياء التى خلقها الذين من دونه . وعلى هذا القول تقول : ماذا تعلمت ، أنحوٌ أم شعر . ويجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ«أرونى و « ذا » زائد ؛ وعلى هذا القول تقول : ماذا تعلّمت ، أنحوا أم شعرا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ مفعولان . ولم ينصرف « لقمان » لأن فى آخره ألفا ونونا زائدتين ؛ فأشبه فُعلان الذى أنثاه فَعلَى فلم ينصرف فى المعرفة لأن ذلك ثقل ثان ، وآنصرف فى النكرة لأن أحد الثقلين قد زال ؛ قاله النحاس . وهو لقمان بن باعوراء ابن ناحور بن تارح ، وهو آزر أبو إبراهيم ؛ كذا نسبه محمد بن إسحاق . وقيل : هو لقمان ابن عنقاء بن سرون وكان نوبيا من أهل أيلة ؛ ذكره السهيلى . قال وهب : كان آبن أخت أيوب . وقال مقاتل : ذكر أنه كان ابن خالة أيوب . الزّمخشرى : وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته ، وقيل كان من أولاد آزر ، عاش ألف سنة وأدركه داود عليه الصلاة والسلام وأخذ عنه العلم ، وكان يُفتى قبل مبعث داود ، فلما بعث قطع الفتوى فقيل له ، فقال : ألا أكتفى إذ كُفيت . وقال الواقدى : كان قاضيا فى بنى إسرائيل . وقال سعيد ابن المسيّب : كان لقمان أسود من سودان مصر ذا مشافر ، أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه النبوة ؛ وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان وليًّا ولم يكن نبيا . وقال بنبوّته عِكرمة والشعبى . وعلى هذا تكون الحكمة النبوّة . والصواب أنه كان رجلا حكيما بحكمة الله تعالى — وهى الصواب فى المعتَقدات والفِقه فى الدِّين والعقل[1] — قاضياً فى بنى إسرائيل ، أسود مشقّق الرِّجلين ذا مشافر ، أى عظيم الشفتين ؛ قاله ابن عباس وغيره . وروى من حديث ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لم يكن لقمان نبيًّا ولكن كان عبدا كثير التفكر

---

(١) فى تفسير ابن عطية : « ... والعمل » .

حسن اليقين ، أحب الله تعالى فأحبه ، فمنّ عليه بالحكمة ، وخيره فى أن يجعله خليفة يحكم بالحق؛ فقال : ربّ ، إن خيّرتنى قبلتُ العافية وتركتُ البلاء، وإن عزمتَ علىّ فسمعا وطاعة فإنك ستعصمنى؛ ذكره ابن عطية. وزاد الثعلبىّ : فقالت له الملائكة بصوت لا يراهم : لِمَ يا لقمان ؟ قال : لأن الحاكم بأشدّ المنازل وأكدرها، يغشاه المظلوم من كل مكان ، إن يُعَنْ فبالحَرَى[1] أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة . ومن يكن فى الدنيا ذليلا [فذلك][2] خير من أن يكون فيها شريفا . ومن يَخْتَرِ الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا يصيب الآخرة . فعجبت الملائكة من حسن منطقه؛ فنام نومة فأعطى الحكمة فانتبه يتكلّم بها . ثم نودى داود بعده فقبلها — يعنى الخلافة — ولم يشترط ما اشترطه لقمان، فهوَى فى الخطيئة غير مرة، كل ذلك يعفو الله عنه . وكان لقمان يوازره بحكمته؛ فقال له داود : طُوبَى لك يا لقمان ! أعطيت الحكمة وصرف عنك البلاء ، وأعطى داود الخلافة وآبتلى بالبلاء والفتنة . وقال قتادة : خيّر الله تعالى لقمان بين النبوّة والحكمة ؛ فاختار الحكمة على النبوّة ، فأتاه جبريل عليه السلام وهو نائم فذرّ عليه الحكمة فأصبح وهو ينطق بها؛ فقيل له : كيف اخترت الحكمة على النبوّة وقد خيّرك ربك؟ فقال : إنه لو أرسل إلىّ بالنبوّة عَزْمَة[3] لرجوْت فيها العون منه، ولكنه خيّرنى فخفت أن أضعُف عن النبوّة، فكانت الحكمة أحبّ إلىّ .

واختلف فى صنعته؛ فقيل : كان خياطا؛ قاله سعيد بن المسيّب، وقال لرجل أسود : لا تحزن من أنك أسود ، فإنه كان من خير الناس ثلاثةٌ من السودان : بلال ومِهْجَع مولى عمر ولقمان . وقيل : كان يحتطب كل يوم لمولاه حُزْمة حطب . وقال لرجل ينظر إليه : إن كنت ترانى غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق، وإن كنت ترانى أسود فقلبى أبيض . وقيل : كان راعيا، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال له : ألست عبدَ بنى فلان؟ قال بلى . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قدَر الله ، وأدائى الأمانة، وصدق الحديث،

---

(١) يقال : فلان حَرِىّ بكذا ، وحَرًى بكذا ، وحَرٍ بكذا ، وبالحَرَى أن يكون كذا ؛ أى جدير وخليق .
(٢) زيادة يقتضيها السياق . (٣) عزائم الله : فرائضه التى أوجبها على عباده .

وترك ما لا يعنيني ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد بن جابر . وقال خالد الرَّبَعي : كان نجارا ؛ فقال له سيده : اذبح لي شاة وائتني بأطيبها مُضغتين ؛ فأتاه باللسان والقلب ؛ فقال له : ما كان فيها شيء أطيب من هذين؟ فسكت ، ثم أمره بذبح شاة أخرى ثم قال له : ألق أخبثها مضغتين ؛ فألق اللسان والقلب ؛ فقال له : أمرتك أن تأتيني بأطيب مضغتين فأتيتني باللسان والقلب ، وأمرتك أن تلق أخبثها فألقيت اللسان والقلب ؛ فقال له : إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا .

قلت : هـذا معناه مرفوع في غير ما حديث ؛ من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " ألا وإن في الجسد مُضْغة إذا صَلُحت صَلَح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " . وجاء في اللسان آثار كثيرة صحيحة وشهيرة ؛ منها قوله عليه السلام : " من وقاه الله شر اثنتين وَلَجَ الجنة : ما بين لَحْيَيه[1] ورجليه ... " الحديث . وحِكَم لقمان كثيرةٌ مأثورة هذا منها . وقيل له : أيّ الناس شر؟ قال : الذي لا يبالي أن رآه الناس مسيئا .

قلت : وهـذا أيضا مرفوع معنى ، قال صلى الله عليه وسلم : " كلّ أمتي معافًى إلا المجاهرون وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يا فلان عمِلت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربّه ويصبح يَكْشِف سِتر الله عنه " . رواه أبو هريرة خرجه البخاري . وقال وهب بن مُنَبّه : قرأت من حكمة لقمان أرجح من عشرة آلاف باب . وروى أنه دخل على داود عليه السلام وهو يَسْرُد الدروع ، وقد ليّن الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله ، فأدركته الحكمة فسكت ؛ فلما أتمها لبسها وقال : نِعم لَبُوسُ الحرب أنتِ . فقال : الصمت حكمة ، وقليل فاعله . فقال له داود : بحقٍّ ما سُمِّيت حكيما .

قوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ فيه تقديران : أحدهما أن تكون «أن» بمعنى أيّ مفسرة ؛ أي قلنا له اشكر . والقول الآخر أنها في موضع نصب والفعل داخل في صلتها ؛ كما حكى سيبويه : كتبت إليه أن قم ؛ إلا أن هـذا الوجه عنده بعيد . وقال الزجاج : المعنى ولقد آتينا لقمان

---

(١) اللحيان : حائطا الفم ، وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم من كل ذي لحى .

الحكمة لأن يشكر الله تعالى . وقيل : أى بأن آشكر لله تعالى فشكر؛ فكان حكيما بشكره لنا .
الشكر لله : طاعته فيما أمر به . وقد مضى القول فى حقيقته لغة ومعنًى فى « البقرة »(١) وغيرها .
﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى من يطع الله تعالى فإنما يعمل لنفسه؛ لأن نفع الثواب
عائد إليه . ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ أى كفر النعم فلم يوحّد الله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ ﴾ عن عبادة خلقه
﴿ حَمِيدٌ ﴾ عند الخلق؛ أى محمود . وقال يحيى بن سلام : «غنىّ» عن خلقه «حميد» فى فعله .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾ قال السُّهَيْلِى : اسم ابنه ثاران؛ فى قول
الطبرى والقُتَبِىّ . وقال الكلبى : مشكم . وقيل أنعم ؛ حكاه النقاش . وذكر القشيرى أن
ابنه وامرأته كانا كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما .

قلت : ودل على هذا قوله « لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » . وفى صحيح مسلم
وغيره عن عبد الله قال : لما نزلت « الذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بِظلم »(٢) شقّ ذلك على
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : أينا لا يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : "ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه : يا بنىّ لا تشرك بالله إن الشرك
لظلم عظيم" . واختلف فى قوله «إن الشِّركَ لَظُلْمٌ عظيم» فقيل : إنه من كلام لقمان . وقيل :
هو خبر من الله تعالى منقطعا من كلام لقمان متصلا به فى تأكيد المعنى؛ ويؤيد هذا الحديث
المأثور أنه لما نزلت : « الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بِظُلْم» أشفق أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم وقالوا : أينا لم يظلم؛ فأنزل الله تعالى «إن الشِّرك لظلم عظيم» فسكن إشفاقهم
وإنما يسكن إشفاقهم بأن يكون خبرا من الله تعالى، وقد يسكن الاشفاق بأن يذكر الله ذلك
عن عبد قد وصفه بالحكمة والسداد . و « إذ » فى موضع نصب بمعنى اذكر . وقال الزجاج

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٨٢ سورة الأنعام .

فى كتابه فى القرآن : إن « إذ » فى موضع نصب بـ « آتينا » والمعنى : ولقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال . النحاس : وأحسبه غلطا ؛ لأن فى الكلام واوا تمنع من ذلك . وقال ﴿ يَا بُنَيِّ ﴾ بكسر الياء ؛ لأنها دالة على الياء المحذوفة ، ومن فتحها فلخفة الفتحة عنده ؛ وقد مضى فى « هود »(١) القول فى هذا . وقوله « يابنى » ليس هو على حقيقة التصغير وإن كان على لفظه ، وإنما هو على وجه الترقيق ؛ كما يقال للرجل : يا أُخَىّ ، وللصبى هو كُوَيّس .

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

فيه ثمانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ هاتان الآيتان اعتراض بين أثناء وصيّة لقمان . وقيل : إن هذا مما أوصى به لقمان ٱبنه ؛ أخبر الله به عنه ؛ أى قال لقمان لابنه لا تشرك بالله ولا تطع فى الشرك والديك ، فإن الله وصّى بهما فى طاعتهما مما لا يكون شركا ومعصية لله تعالى . وقيل : أى وإذ قال لقمان لابنه ؛ فقلنا للقمان فيما آتيناه من الحكمة ووصينا الإنسان بوالديه ؛ أى قلنا له آشكر لله ، وقلنا له ووصينا الإنسان . وقيل : وإذ قال لقمان لابنه لا تشرك ، ونحن وصينا الإنسان بوالديه حُسْنًا ، وأمرنا الناس بهذا ، وأمر لقمان به ٱبنه ؛ ذكر هذه الأقوال القشيرى . والصحيح أن هاتين الآيتين نزلتا فى شأن سعد بن أبى وقّاص ؛ كما تقدم فى « العنكبوت »(٢) وعليه جماعة المفسرين .

---

(١) فى نسخ الأصل : « يوسف » وهو تحريف . راجع جـ ٩ ص ٣٩   (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٨

وجملة هـذا الباب أن طاعة الأبوين لا تراعى فى ركوب كبيرة ولا فى ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتهما فى المباحات، ويستحسن فى ترك الطاعات الندب، ومنه أمر الجهاد الكفاية، والإجابة للأم فى الصلاة مع إمكان الإعادة؛ على أن هـذا أقوى من الندب؛ لكن يعلل بخوف هلكة عليها، ونحوه مما يبيح قطع الصلاة فلا يكون من الندب. وخالف الحسن فى هذا التفصيل فقال: إن منعته أمّه من شهود العِشاء شفقةً فلا يطعها.

الثانيــة — لما خصّ تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرضاع حصل لها بذلك ثلاث مراتب، وللأب واحدة؛ وأشبه ذلك قوله صلى الله عليه وسلم حين قال له رجل من أَبَرّ؟ قال: "أمك" قال ثم مَن؟ قال: "أمك" قال ثم من؟ قال: "أمك" قال ثم من؟ قال: "أبوك" فجعل له الرّبع من المَبَرّة كما فى هذه الآية؛ وقد مضى هذا كله فى «سبحان»(1).

الثالثــة — قوله تعالى «وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ» أى حملته فى بطنها وهى تزداد كل يوم ضعفا على ضعف. وقيل: المرأة ضعيفة الخلقة ثم يُضعفها الحمل. وقرأ عيسى الثّقفى «وَهَنًا على وَهَن» بفتح الهاء فيهما؛ وروبت عن أبى عمرو، وهما بمعنى واحد. قال قَعْنَب ابن أم صاحب:

هـل للعـواذل من ناهٍ فـيَزْجُرَها * إن العواذل فيها الأَيْنُ والوَهن

يقال: وَهَن يَهِن، ووَهُن يَوْهُن ووَهِن يَهِن؛ مثل وَرِم يَرِم. وانتصب «وَهْنًا» على المصدر؛ ذكره القشيرى. النحاس: على المفعول الثانى بإسقاط حرف الجر؛ أى حملته بضعف على ضعف. وقرأ الجمهور «وفِصاله» وقرأ الحسن ويعقوب «وفَصْله» وهما لغتان، أى وفصاله فى انقضاء عامين؛ والمقصود من الفصال الفطام، فعبّر بغايته ونهايته. ويقال: انفصل عن كذا أى تميّز؛ وبه سُمّى الفَصِيل.

(1) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٩

الرابعة — الناس مُجْمِعون على العامين فى مدة الرّضاع فى باب الأحكام والنفقات ، وأما فى تحريم اللبن فحدّدت فرقة بالعام لا زيادة ولا نقص . وقالت فرقة : العامان وما اتصل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متصل الرضاع . وقالت فرقة : إن فُطِم الصبيّ قبل العامين وترك اللبن فإن ما شرب بعد ذلك فى الحولين لا يحرّم ؛ وقد مضى هذا فى «البقرة» (١) مستوفًى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي ﴾ « أن » فى موضع نصب فى قول الزجاج ، وأن المعنى : ووصينا الإنسان بوالديه أن اشكر لى . النحاس : وأجود منه أن تكون « أن » مفسرة ، والمعنى : قلنا له أن اشكر لى ولوالديك . قيل : الشكر لله على نعمة الإيمان ، وللوالدين على نعمة التربية . وقال سفيان بن عيينة : من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى ، ومن دعا لوالديه فى أدبار الصلوات فقد شكرهما .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قد بيّنا أن هذه الآية والتى قبلها نزلتا فى شأن سعد بن أبى وَقّاص لما أسلم ، وأن أمّه وهى حَمْنة بنت أبى سفيان بن أُمَيّة حلفت ألا تأكل ؛ كما تقدم فى الآية قبلها .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ نعت لمصدر محذوف ؛ أى مصاحبا معروفا ؛ يقال صاحبته مصاحبة ومصاحَبًا . و«معروفا» أى ما يحسن .

والآية دليلٌ على صلة الأبوين الكافرَيْن بما أمكن من المال إن كانا فقيرين ، وإلَانة القول والدعاء إلى الاسلام برفق . وقد قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق للنبيّ عليه الصلاة والسلام وقد قَدِمت عليها خالتها وقيل أمها من الرضاعة فقالت : يا رسول الله ، إن أمّى قدِمت علىّ وهى راغبة أفأصلها؟ قال "نعم" . وراغبة قيل معناه : عن الإسلام . قال ابن عطية : والظاهر عندى أنها راغبة فى الصلة ، وما كانت لِتقْدَم على أسماء لولا حاجتها . ووالدة أسماء هى قُتَيلة بنت عبد العُزّى بن عبد أسعد . وأم عائشة وعبد الرحمن هى أم رُومان قديمة الإسلام .

(١) راجع جـ ٣ ص ١٦٠

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ وصيّة لجميع العالَم ؛ كأن المأمور الإنسان . و « أناب » معناه مال ورجع إلى الشيء ؛ وهذه سبيل الأنبياء والصالحين . وحكى النقاش أن المأمور سعد ، والذى أناب أبو بكر ؛ وقال : إن أبا بكر لما أسلم أتاه سعد وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزّبير فقالوا : آمنت ؟ قال نعم ؛ فنزلت فيه « أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ ٱللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ ٱلآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ »[1] فلما سمعها الستة آمنوا ؛ فأنزل الله تعالى فيهم « وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى ٱللهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَى[2] — إلى قوله — أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللهُ » . وقيل : الذى أناب النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال ٱبن عباس : ولما أسلم سعد أسلم معه أخواه عامر وعُوَيْمِر ؛ فلم يبق منهم مشرك إلا عُتبة . ثم توعّد عز وجل بالبعث مَن فى القبور والرجوع إليه للجزاء والتوقيف على صغير الأعمال وكبيرها .

قوله تعالى : يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

المعنى : وقال لقمان لٱبنه يا بُنَىّ . وهذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام ٱبنه بقدر قدرة الله تعالى . وهذه الغاية التى أمكنه أن يفهمه ، لأن الخردلة يقال إن الحسّ لا يدرك لها ثقلًا ، إذ لا ترجّح ميزانا . أى لو كان للإنسان رزق مثقال حبّة خَرْدَل فى هذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقها إلى من هى رزقه ؛ أى لا تهتم للرزق حتى تشتغل به عن أداء الفرائض وعن ٱتباع سبيل من أناب إلىّ .

قلت : ومن هذا المعنى قولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن مسعود : " لا تُكثِر همّك ما يُقَدَّر يكن وما تُرْزق يأتِك " . وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ؛ سبحانه لا شريك له . وروى أن ٱبن لقمان سأل أباه

(١) آية ٩ سورة الزمر . (٢) آية ١٧ سورة الزمر .

عن الحبة تقع فى سُفل البحر أيعلمها الله ؟ فراجعه لقمان بهذه الآية . وقيل : المعنى أنه أراد الأعمال، المعاصى والطاعات ؛ أى إن تك الحسنة أو الخطيئة مثقالَ حبة يأت بها الله ؛ أى لا تفوت الإنسان المقدر وقوعُها منه . و بهذا المعنى يتحصل فى الموعظة ترجية وتخويف مضاف [ذلك][1] إلى تبيين قدرة الله تعالى . وفى القول الأول ليس فيه ترجية ولا تخويف .

قوله تعالى : ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ عبارة تصلح للجواهر، أى قدر حبة، وتصلح للأعمال؛ أى ما يزنه على جهة المماثلة قدر حبة . ومما يؤيّد قول من قال هى من الجواهر قراءة عبد الكريم الجَزَرى « فتكِنّ » بكسر الكاف وشدّ النون، من الكَنّ الذى هو الشىء المغطى. وقرأ جمهور القرّاء « إن تك » بالتاء من فوق « مِثقالَ » بالنصب على خبر كان ، وآسمها مضمر تقديره : مسألتك ، على ما روى ، أو المعصية والطاعة على القول الثانى ؛ و يدل على صحته قولُ ابن لقمان لأبيه : يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يرانى أحد كيف يعلمها الله ؟ فقال لقمان : « يا بنى إنها إن تك مِثقالَ حبةٍ مِن خَرْدَلٍ فتكن فِى صَخْرةٍ » الآية . فما زال آبنه يضطرب حتى مات؛ قاله مقاتل . والضمير فى « إنها » ضمير القصة ؛ كقولك : إنها هند قائمة؛ أى القصة إنها إن تك مثقال حبة . والبصريون يجيزون : إنها زيد ضربته؛ بمعنى إن القصة . والكوفيون لا يجيزون هذا إلا فى المؤنث كما ذكرنا . وقرأ نافع « مِثقالُ » بالرفع . وعلى هذا « تك » يرجع إلى معنى خردلة؛ أى إن تك حبة من خردل . وقيل : أسند إلى المثقال فِعلًا فيه علامة التأنيث من حيث انضاف إلى مؤنث هو منه؛ لأن مثقال الحبة من الخردل إما سيئة أو حسنة؛ كما قال : « فله عشر أمثالها » فأنّث و إن كان المِثل مذكرا؛ لأنه أراد الحسنات . وهذا كقول الشاعر :

مَشَيْنَ كما اهتزت رِماحٌ تسفّهَتْ * أعالِيَها مَرُّ الرياح النّواسِمِ[2]

و « تك » هاهنا بمعنى تقع فلا تقتضى خبرا .

---

(١) زيادة عن آبن عطية . (٢) البيت لذى الرمة . و « تسفهت » : استخفت ، والسفه خفة العقل وضعفه . و « النواسم » : الضعيفة الهبوب . وصف نساء فيقول : اذا مشين اهتززن فى مشيهن وتثنين فكأنهن رماح نصبت فمرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت .

قوله تعالى : ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ قيل : معنى الكلام المبالغة والانتهاء فى التفهيم ؛ أى أن قدرته تعالى تنال ما يكون فى تضاعيف صخرة وما يكون فى السماء والأرض . وقال ابن عباس : الصخرة تحت الأرضين السبع وعليها الأرض . وقيل : هى الصخرة على ظهر الحوت . وقال السُّدِّى : هى صخرة ليست فى السموات والأرض، بل هى وراء سبع أرضين عليها مَلَك قائم؛ لأنه قال : ﴿ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ ﴾ وفيهما غُنْية عن قوله : « فتكن فِى صخرةٍ » ؛ وهـذا الذى قاله ممكن، ويمكن أن يقال : قوله « فتكن فِى صخـرةٍ » تأكيد ؛ كقوله : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ » ، وقوله : « سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا » .

قوله تعالى : يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾

فيـه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ وصّى ٱبنه بعُظْم الطاعات وهى الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهذا إنما يريد به بعد أن يمتثل ذلك هو فى نفسه ويزدجر عن المنكر، وهنا هى الطاعات والفضائل أجمع . ولقد أحسن من قال :

وٱبدأ بنفسك فٱنهها عن غيّها * فإذا ٱنتهت عنـه فأنت حكيم

فى أبيات تقدّم فى « البقرة » ذكرها (١) .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ يقتضى حضًّا على تغيير المنكر وإن نالك ضرر ؛ فهو إشعار بأن المغيِّر يؤذَى أحيانا ؛ وهـذا القدر على جهة الندب والقوة فى ذات الله ؛ وأما على اللزوم فلا ، وقد مضى الكلام فى هـذا مستوفًى فى « آل عمـران والمائدة » (٢) . وقيل : أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها، وألا يخرج من الجزع الى معصية الله عز وجل ؛ وهذا قول حسن لأنه يعمّ .

---

(١) راجع ج ١ ص ٣٦٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع ج ٤ ص ٤٧ ، وج ٦ ص ٢٥٣ طبعة أولى أو ثانية .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ قال ابن عباس : من حقيقة الإيمان الصبرُ على المكاره . وقيل : إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من عزم الأمور؛ أى مما عزمه الله وأمر به ؛ قاله ابن جريج . ويحتمل أن يريد إن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة . وقول ابن جريج أصوب .

قوله تعالى : وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائى وابن مُحَيْصِن « تصاعر » بالألف بعد الصاد . وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر والحسن ومجاهد « تُصَعِّر » وقرأ الجَحْدَرِى « تُصْعِر » بسكون الصاد؛ والمعنى متقارب . والصَّعَر : الميل ؛ ومنه قول الأعرابى : وقد أقام الدهر صعرى ، بعد أن أقمت صعره . ومنه قول عمرو بن حُنَىّ التَّغلبى :

وكنا إذا الجبّار صَعّر خدّه * أقمنا له من مَيْله فتقوّمِ (١)

وأنشده الطبرى « فتقوّمَا » (٢) . قال ابن عطية : وهو خطأ؛ لأن قافية الشعر مخفوضة . وفى بيت آخر :

* أقمنا له من خدّه المتصعر *

قال الهروى : «ولا تصاعر» أى لا تعرِض عنهم تكبّرا عليهم؛ يقال : أصاب البعيرَ صَعَرٌ وصَيَدٌ إذ أصابه داء يَلْوِى منه عنقه . ثم يقال للتكبّر : فيه صَعَر وصَيَد؛ فمعنى « لا تصعّر » أى لا تلزم خدّك الصّعَر . وفى الحديث : "يأتى على الناس زمان ليس فيهم إلا أَصْعَرُ أو أبتر"

(١) يريد : فتقوم أنت .   (٢) قبل هذا البيت كما فى معجم الشعراء للرزبانى :

نعاطى الملوكَ الحق ما قصدوا بنا * وليس علينا قتلهم بمحرم

قال المرزبانى : وهذا البيت — بيت الشاهد — يروى من قصيدة المتلمس التى أولها .

يعيرنى أمى رجال ولن ترى * أخا كرم إلا بأن يتكرما

والأصعر : المعرض بوجهه كبرا ؛ وأراد رُذالة النـاس الذين لا دين لهم . وفى الحديث : "كلّ صعّار ملعونٌ" أى كل ذى أُبهة وكبر .

الثانيـــة — معنى الآية : ولا تُمِل خدّك للناس كبرا عليهـم و إعجابا واحتقارا لهم . وهذا تأويل ابن عباس وجماعة . وقيل : هو أن تلوِى شِدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره ؛ فالمعنى : أقبـل عليهم متواضعا مؤنسا مستأنسا ، وإذا حدّثك أصغرهم فأصغ اليه حتى يكمل حديثه . وكذلك كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يفعل .

قلت : ومن هذا المعنى ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث" . فالتدابر الإعراض وترك الكلام والسلام ونحوه . وإنما قيل للإعراض تدابر لأن من أبغضته أعرضت عنـه وولّيته دبرك ؛ وكذلك يصنع هو بك . ومن أحببته أقبلت عليه بوجهك وواجهته لتسرّه ويسرّك ؛ فمعنى التدابر موجود فيمن صعّر خده ، وبه فسر مجاهد الآية . وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد : قوله «ولا تصاعر خدّك للناس» كأنه نهى أن يذلّ الإنسان نفسه من غير حاجة ؛ ونحو ذلك روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ليس للإنسان أن يذلّ نفسه" .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أى متبخترا متكبرا ، مصدر فى موضع الحال ، وقـد مضى فى «سبحان»(١) . وهو النشاط والمشى فرحا فى غير شغل وفى غير حاجة . وأهل هـذه الخُلُق ملازمون للفخر والخُيَلاء ؛ فالمِرح مختال فى مشيته . روى يحيى ابن جابر الطائى عن ابن عائذ الأزدى عن غُضيف بن الحارث قال : أتيت بيت المقـدس أنا وعبدالله بن عبيد بن عمير قال فجلسنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاصى فسمعته يقول : إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه فيقول يا بن آدم ما غرّك بى ! ألم تعلم أنى بيت الوحدة ! ألم تعلم أنى بيت الظلمة ! ألم تعلم أنى بيت الحق ! يابن آدم ما غرّك بى ! لقد كنت تمشى حولى

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٠

فَدادا . قال ابن عائذ قلت لغُضيف : ما الفَدّاد يا أبا أسماء؟ قال : كبعض مِشيتك يا بن أخى أحيانا . قال أبو عبيد : والمعنى ذا مال كثير وذا خُيلاء . وقال صلى الله عليه وسلم : "من جرّ ثوبه خُيَلاء لاينظر الله إليه يوم القيامة" . والفخور هو الذى يعدد ما أُعطى ولا يشكر الله تعالى؛ قاله مجاهد . وفى اللفظة الفخر بالنسب وغير ذلك .

قوله تعالى : وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ لما نهاه عن الخُلُق الذميم رسم له الخُلُق الكريم الذى ينبغى أن يستعمله فقال : «وٱقصِد فِى مَشْيِك» أى توسّط فيه . والقصد ما بين الإسراع والبطء؛ أى لا تدِبّ دبيب المتماوتين ولا تَثِب وثب الشطار؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن" . فأما ما روى عنه عليه السلام أنه كان إذا مشى أسرع، وقول عائشة فى عمر رضى الله عنهما : كان إذا مشى أسرع؛ فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت؛ والله أعلم . وقد مدح الله سبحانه مَن هذه صفته حسبما تقدّم بيانه فى «الفرقان»[1] .

الثانية — قوله تعالى : ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أى انقص منه؛ أى لا تتكلف رفع الصوت وخذ منه ما تحتاج إليه؛ فان الجهر بأكثر من الحاجة تكلّف يؤذى . والمراد بذلك كله التواضع؛ وقد قال عمر لمؤذّن تكلّف رفع الأذان بأكثر من طاقته : لقد خشيت أن ينشق مُرَيْطَاؤك؛ والمؤذّن هو أبو محذورة سَمُرة بن مِعْيَر[2] . والمُرَيْطاء : ما بين السرة إلى العانة .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أى أقبحها وأوحشها؛ ومنه أتانا بوجه منكر . والحمار مثَل فى الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نُهاقه؛ ومن استفحاشهم

(١) راجع جـ ١٣ ص ٦٨　　(٢) فى الأصول : «معمر» بالميم بدل الياء، وهو تحريف .

لذكره مجردا أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح فيقولون : الطويل الأذنين؛ كما يكنى عن الأشياء المستقذَرة . وقد عُدّ في مساوئ الآداب أن يجرى ذكر الحمار في مجلس قوم من أولى المروءة . ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا وإن بلغت منه الرُّجْلة[1] . وكان عليه الصلاة والسلام يركبه تواضعا وتذللا لله تبارك وتعالى .

الرابعة — في الآية دليل على تعريف قبح رفع الصوت في المخاطبة والمُلاحاة[2] بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عالية . وفي الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانا ". وقد روى : أنه ما صاح حمار ولا نبح كلب إلا أن يرى شيطانا . وقال سفيان الثَّوْرى : صياح كلّ شىء تسبيح إلا نهيق الحمير . وقال عطاء : نهيق الحمير دعاء على الظلمة .

الخامسة — وهذه الآية أدب من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاونا بهم، أو بترك الصياح جملة؛ وكانت العرب تَفْخَر بجهارة الصوت الجَهِير وغير ذلك، فمن كان منهم أشد صوتا كان أعز، ومن كان أخفض كان أذل، حتى قال شاعرهم :

جَهِير الكلام جهير العُطاس * جهير الرُّواء[3] جهير النَّعَم

ويَعْدُو على الأَيْن[4] عَدْوَى الظَّلِيم * ويعلو الرجال بخَلْق عَمَم

فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية بقوله « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» أى لو أن شيئا يهاب لصوته لكان الحمار؛ فجعلهم في المثل سواء .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ اللام للتأكيد، ووحّد الصوت وإن كان مضافا إلى الجماعة لأنه مصدر والمصدر يدل على الكثرة، وهو مصدر صات يَصُوت صَوْتا فهو صائت . ويقال : صوّت تصويتا فهو مصوِّت . ورجل صاتٌ أى شديد الصوت بمعنى صائت؛ كقولهم : رجل مالٌ ونالٌ؛ أى كثير المال والنوال .

---

(١) الرجلة (بضم فسكون) : المشى راجلا .
(٢) الملاحاة : الملاومة والمباغضة .
(٣) الرواء (بالضم والمد) : المنظر الحسن، والنعم : الإبل .
(٤) الأين : الإعياء، والخلق العمم : التام .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ذكر نعمه على بني آدم، وأنه سخّر لهم «ما في السموات» من شمس وقمر ونجوم وملائكة تحوطهم وتجر إليهم منافعهم. «وما في الأرض» عام في الجبال والأشجار والثمار وما لا يحصى. ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ﴾ أي أكملها وأتمها. وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة «وأصبغ» بالصاد على بدلها من السين؛ لأن حروف الاستعلاء تجتذب السين من سُفْلها إلى عُلوّها فتردّها صادا. والنِّعَم جمع نِعمة كسِدْرة وسِدَر (بفتح الدال) وهي قراءة نافع وأبي عمرو وحفص. الباقون «نِعمةً» على الإفراد والإفراد يدل على الكثرة؛ كقوله تعالى «وإنْ تَعُدُّوا نِعمةَ اللهِ لا تُحْصُوها». وهي قراءة ابن عباس من وجوه صحاح. وقيل: إن معناها الإسلام؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية: "الظاهرةُ الإسلام وما حَسُن من خَلْقك والباطنة ما ستر عليك من سيّئ عملك". النحاس: وشرحُ هذا أن سعيد بن جُبير قال في قول الله عز وجل «ولكنْ يريدُ ليُطهِّركُم وليُتِمَّ نِعْمَتَه عليكم»[(1)] قال: يدخلكم الجنة. وتمام نعمة الله عز وجل على العبد أن يدخله الجنة، فكذا لمّا كان الإسلام يؤول أمره إلى الجنة سُمّيَ نعمة. وقيل: الظاهرة الصحة وكمال الخلق، والباطنة المعرفة والعقل. وقال المحاسبي: الظاهرة نعم الدنيا، والباطنة نعم العُقْبى. وقيل: الظاهرة ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال في الناس وتوفيق الطاعات، والباطنة ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله

(١) آية ٦ سورة المائدة.

وحسن اليقين وما يدفع الله تعالى عن العبد من الآفات . وقد سرد الماوردىّ فى هذا أقوالا تسعة ، كلها ترجع إلى هذا .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ تقدّم معناها فى « الحج »(١) وغيرها. نزلت فى يهودىّ جاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد، أخبرنى عن ربك ، من أىّ شىء هو؟ فجاءت صاعقة فأخذته ؛ قاله مجاهد ، وقد مضى هذا فى « الرعد »(٢) . وقيل : إنها نزلت فى النضر بن الحارث، كان يقول : إن الملائكة بنات الله ؛ قاله ابن عباس . ﴿ يُجَادِلُ ﴾ يخاصم ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى بغير حجة ﴿ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ أى نيّر بيّن ؛ إلا الشيطان فيما يلق إليهم ، « وإنّ الشّياطين لَيُوحُونَ إلى أوليائهم ليجادلوكم »(٣) و إلا تقليد الأسلاف كما فى الآية بعدُ . ﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ يتبعونه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى . ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع ؛ نظيره : « وَمَن يعمل من الصالحات وهو مؤمن »(٤) . وفى حديث جبريل قال : فأخبرنى عن الإحسان؟ قال : "أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك" . ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ قال ابن عباس : لا إلٰه إلا الله ؛ وقد مضى فى « البقرة »(٥) . وقد قرأ علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه والسُّلَمِى وعبد الله بن مسلم بن يسار « ومن يُسَلِّم » . النحاس : و« يسلّم » فى هذا أعرف؛ كما قال عز وجل « فقل أسلمتُ وجهِىَ لِلّه »(٦) ومعنى « أسلمت وجهى لله » قصدت بعبادتى إلى الله عز وجل ؛ ويكون « يسلّم » على التكثير؛ إلا أن المستعمل

---

(١) راجع ج ١٢ ص ٥ و ١٥ (٢) راجع ج ٩ ص ٢٩٨ (٣) آية ١٢١ سورة الأنعام .
راجع ج ٧ ص ٧٧ (٤) آية ١١٢ سورة طه . (٥) آية ٢٥٦ سوره البقرة . راجع ج ٣ ص ٢٧٩
(٦) آية ٢٠ سورة آل عمران . راجع ج ٤ ص ٤٥

فى سلّمت أنه بمعنى دفعت ؛ يقال سلمت فى الحنطة ، وقد يقال أسلمت . الزمخشرى : قرأ علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه «ومن يسلّم» بالتشديد؛ يقال : أسلم أمرك وسلّم أمرك إلى الله تعالى ؛ فإن قلت : ماله عُدّى بإلى ، وقد عدّى باللام فى قوله عز وجل «بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ» ؟ قلت : معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالما لله؛ أى خالصا له . ومعناه مع إلى راجع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه . والمراد التوكل عليه والتفويض إليه . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ أى مصيرها .

قوله تعالى : وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا﴾ أى نجازيهم . ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ . ﴿ نُمتعهم قَلِيلًا ﴾ أى نبقيهم فى الدنيا مدّة قليلة يتمتعون بها . ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أى نلجئهم ونسوقهم . ﴿ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ وهو عذاب جهنم . ولفظ « مَن » يصلح للواحد والجمع ، فلهذا قال « كفره » ثم قال « مرجعهم » وما بعده على المعنى .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أى هم يعترفون بأن الله خالقهن فلم يعبدون غيره . ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى على ما هدانا له من دينه ، وليس الحمد لغيره . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا ينظرون ولا يتدبّرون . ﴿ لِلَّهِ

مَا فِي السموات وَالأَرْضِ ﴾ أى ملكا وخلقا . ﴿ إن اللهَ هوَ الْغَنِيُّ ﴾ أى الغنى عن خلقه وعن عبادتهم ، و إنما أمرهم لينفعهم . ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ أى المحمود على صنعه .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾

لما احتجّ على المشركين بما احتجّ بيّن أن معانى كلامه سبحانه لا تنفد، وأنها لا نهاية لها . وقال القَفّال : لما ذكر أنه سخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض وأنه أسبغ النعم نبّه على أن الأشجار لو كانت أقلاما والبحار مدادا فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب . قال القُشَيرى : فردّ معنى تلك الكلمات إلى المقدورات ، وحمل الآية على الكلام القديم أوْلى ؛ والمخلوق لا بدّ له من نهاية ، فإذا نفيت النهاية عن مقدوراته فهو نفى النهاية عما يقدّر فى المستقبل على إيجاده، فأما ماحصره الوجود وعدّه فلا بدّ من تناهيه ، والقديمُ لا نهاية له على التحقيق . وقد مضى الكلام فى معنى « كلمات الله » فى آخر « الكهف »[1] . وقال أبو علىّ : المراد بالكلمات والله أعلم ما فى المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود . وهذا نحو مما قاله القَفّال ، و إنما الغرض الإعلام بكثرة معانى كلمات الله وهى فى نفسها غير متناهية ، و إنما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة ؛ لا أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور . ومعنى نزول الآية يدل على أن المراد بالكلمات الكلام القديم . قال ابن عباس : إن سبب هذه الآية أن اليهود قالت : يامحمد ، كيف عُنينا بهذا القول « وما أُوتيتم مِن العِلْمِ إلا قليلا »[2] ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه ، وعندك أنها تبيان كل شىء ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " التوراة قليل من كثير " ونزلت هذه الآية ، والآية مدنية . قال أبو جعفر النحاس : فقد تبيّن أن الكلمات ها هنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء ؛ لأنه عز وجل علم قبل أن

(١) راجع جـ ١١ ص ٦٨ (٢) آية ٨٥ سورة الإسراء . راجع جـ ١٠ ص ٣٢٤

يخلق الخلق ما هو خالق فى السموات والأرض من كل شيء ، وعلم ما فيه من مثاقيل الذر ؛ وعلم الأجناس كلّها وما فيها من شعرة وعضو ، وما فى الشجرة من ورقة ، وما فيها من ضروب الخلق ، وما يتصرف فيه من ضروب الطّعم واللون ؛ فلو سَمّى كل دابة وحدها ، وسَمّى أجزاءها على ما علم من قليلها وكثيرها وما تحولّت عليه من الأحوال ، وما زاد فيها فى كل زمان ، وبيّن كلّ شجرة وحدها وما تفرّعت إليه ، وقدّر ما ييبس من ذلك فى كل زمان ، ثم كتب البيان على كل واحد منها ما أحاط الله جل ثناؤه به منها ، ثم كان البحر مدادا لذلك البيان الذى بيّن الله تبارك وتعالى عن تلك الأشياء يمدّه من بعده سبعة أبحر لكان البيان عن تلك الأشياء أكثر .

قلت : هذا معنى قول القفال ، وهو قول حسن إن شاء الله تعالى . وقال قوم : إن قريشا قالت سيتم هذا الكلام لمحمد وينحسر ؛ فنزلت . وقال السُّدّى : قالت قريش ما أكثر كلام محمد ! فنزلت .

قوله تعالى : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ ﴾ قراءة الجمهور بالرفع على الابتداء ، وخبره فى الجملة التى بعدها ، والجملة فى موضع الحال ؛ كأنه قال : والبحر هذه حاله ؛ كذا قدّرها سيبويه . وقال بعض النحويين : هو عطف على « أنّ » لأنها فى موضع رفع بالابتداء . وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحاق « والبحرَ » بالنصب على العطف على « ما » وهى اسم « أنّ » . وقيل : أى ولو أن البحر يمده أى يزيد فيه . وقرأ ابن هرمز والحسن « يُمدّه » ؛ من أمدّ . قالت فرقة : هما بمعنىً واحد . وقالت فرقة : مدّ الشيءُ بعضه بعضا ؛ كما تقول : مدّ النيل الخليج ؛ أى زاد فيه . وأمدّ الشيء ما ليس منه . وقد مضى هذا فى « البقرة . وآل عمران[(١)] » . وقرأ جعفر بن محمد « والبحر مداده » . ﴿ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ تقدّم[(٢)] . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ تقدّم أيضاً[(٣)] . وقال أبو عبيدة : البحر هاهنا الماء العذب الذى ينبت الأقلام ، وأما الماء الملح فلا ينبت الأقلام .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة . و جـ ٤ ص ١٩٤ وما بعدها .

(٢) راجع جـ ١١ ص ٦٨ .　　　(٣) راجع جـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ قال الضحاك : المعنى ما ابتداء خلقكم جميعا إلا كخلق نفس واحدة ، وما بعثكم يوم القيامة إلا كبعث نفس واحدة . قال النحاس : وهكذا قدّره النحويون بمعنى إلا كخلق نفس واحدة ؛ مثل « وآسأل القرية » . وقال مجاهد : لأنه يقول للقليل والكثير كن فيكون . ونزلت الآية فى أُبَىّ بن خلف وأبى الأسدين(١) ومُنبِّه ونبيه ابنى الحجاج بن السباق ، قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى قد خلقنا أطوارا ، نطفةً ثم علقةً ثم مُضْغَةً ثم عِظاما ، ثم تقول إنا نُبعث خَلْقًا جديدا جميعا فى ساعة واحدة ! فأنزل الله تعالى « ما خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » ؛ لأن الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد ، وخلقُه للعالَم كخلقه لنفس واحدة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لما يقولون ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بما يفعلون .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ﴾ تقدم فى « الحج وآل عمران(٢) » . ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى ذلّلهما بالطلوع والأفول تقديرا للآجال وإتماما للمنافع . ﴿ كُلٌّ يَجْرِى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قال الحسن : إلى يوم القيامة . قتادة :

---

(١) كذا فى نسخ الأصل . وفى روح المعانى : « وأبى الأسود » .

(٢) فى الأصول : «الحج والأنعام» وهو تحريف . راجع جـ ١٢ ص ٩٠ وجـ ٤ ص ٥٦

إلى وقته فى طلوعه وأفوله لا يَعْدُوه ولا يَقْصُر عنه . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى من قدر على هذه الأشياء فلا بدّ من أن يكون عالما بها ، والعالم بها عالم بأعمالكم . وقراءة العامة « تعملون » بالتاء على الخطاب . وقرأ السُّلَمِيّ ونصر بن عاصم والدُّورِيّ عن أبى عمرو بالياء على الخبر . ﴿ ذَلِكَ ﴾ أى فعل الله تعالى ذلك لتعلموا وتقرّوا ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ أى الشيطان ؛ قاله مجاهد . وقيل : ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ العلىّ فى مكانته ، الكبير فى سلطانه .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ ﴾ أى السفن ﴿ تَجْرِى ﴾ فى موضع الخبر . ﴿ فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ أى بلطفه بكم وبرحمته لكم فى خلاصكم منه . وقرأ ابن هُرمُز « بنعمات الله » جمع نعمة وهو جمع السلامة ، وكان الأصل تحريك العين فأسكنت . ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ﴾ «من» للتبعيض ، أى ليريكم جرى السفن ؛ قاله يحيى بن سلام . وقال ابن شجرة : «من آياته» ما تشاهدون من قدرة الله تعالى فيه . النقاش : ما يرزقهم الله منه . وقال الحسن : مفتاح البحار السفن ، ومفتاح الأرض الطرق ، ومفتاح السماء الدّعاء . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى صبّار لقضائه شكور على نعمائه . وقال أهل المعانى : أراد لكل مؤمن بهذه الصفة ؛ لأن الصبر والشكر من أفضل خصال الإيمان . والآية : العلامة ، والعلامة لا تستبين فى صدر كل مؤمن إنما تستبين لمن صبر على البلاء وشكر على الرخاء . قال الشَّعْبِيّ : الصبر نصف الإيمان والشكر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله ؛ ألم تر إلى قوله تعالى « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » وقوله « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ [1] » وقال عليه السلام : " الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر " .

---

(١) آية ٢٠ سورة الذاريات .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ (٣٢)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ قال مقاتل : كالجبال . وقال الكلبى : كالسحاب ؛ وقاله قتادة . جمع ظُلّة ؛ شبه الموج بها لكبرها وارتفاعها . قال النابغة فى وصف بحر :

يماشيهن أخضر ذو ظلال * على حافاته فِلَق الدِّنان

وإنما شبّه الموج وهو واحد بالظلل وهو جمع ؛ لأن الموج يأتى شيئا بعد شىء ويركب بعضه بعضا كالظلل . وقيل : هو بمعنى الجمع ، وإنما لم يجمع لأنه مصدر . وأصله من الحركة والازدحام ؛ ومنه : ماج البحر ، والناس يموجون . قال كعب :

فجئنا إلى موج من البحر وسطه * أحابيش منهم حاسر ومقنع

وقرأ محمد بن الحنفية « موج كالظلال » جمع ظِلّ ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ موحّدين له لا يدعون لخلاصهم سواه ؛ وقد تقدم (١) . ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ ﴾ يعنى من البحر . ﴿ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ قال ابن عباس : مُوفٍ بما عاهد عليه الله فى البحر . النقاش : يعنى عدل فى العهد ، وفَى فى البر بما عاهد عليه الله فى البحر . وقال الحسن : «مقتصد» مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة . وقال مجاهد : «مقتصد» فى القول مضمر للكفر . وقيل : فى الكلام حذف ؛ والمعنى : فمنهم مقتصد ومنهم كافر . ودل على المحذوف قوله تعالى : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختّار كفور ﴾ الختّار : الغدار . والختر : أسوأ الغدر . قال عمرو بن معديكرب :

فإنك لو رأيت أبا عمير * ملأت يديك من غدر وختْر

وقال الأعشى :

بالأبلقِ الفَرْدِ من تيماء منزلُه * حِصنٌ حَصِين وجارٌ غير خَتّار

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٥ .

قال الجوهري : الختر الغدر؛ يقال : ختره فهو ختار. الماوردي : وهو قول الجمهور .
وقال عطية : إنه الجاحد. ويقال: ختر يختِر و يختُر (بالضم والكسر) خَتْرا؛ ذكره القُشَيري .
وجحْدُ الآيات إنكار أعيانها . والجحد بالآيات إنكار دلائلها .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (٣٣)

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ يعنى الكافر والمؤمن ؛ أي خافوه ووحّدوه .
﴿ وَٱخْشَـوْا يَوْمًا لَا يَجْـزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ تقدم معنى
« يجزى » في البقرة[1] وغيرها . فإن قيل: فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : "من مات له ثلاثة
من الولد لم يبلغوا الحِنْث[2] لم تمسّه النار إلا تحلّة القسم". وقال: "من ابتلى بشيء من هذه البنات
فأحسن إليهن كنّ له حجابا من النار" . قيل له : المعنى بهذه الآية أنه لا يحمل والد ذنب
ولده، ولا مولود ذنب والده، ولا يؤاخذ أحدهما عن الآخر . والمعنى بالأخبار أن ثواب
الصبر على الموت والإحسان إلى البنات يحجب العبد عن النار، ويكون الولد سابقا له
إلى الجنة . ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي البعث ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ﴾ أي تخدعنكم ﴿ الْحَيَـاةُ الدُّنْيَا ﴾
بزينتها وما تدعو إليه فتتّكلوا عليها وتركنوا إليها وتتركوا العمل للآخرة ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾
قراءة العامة هنا وفي سورة الملائكة[3] والحديد[4] بفتح الغين، وهو الشيطان في قول مجاهد وغيره،
وهو الذي يغرّ الخلق ويمنّيهم الدنيا ويلهيهم عن الآخرة. وفي سورة النساء « يَعِدُهُمْ ويُمَنِّيهِمْ »[5] .
وقرأ سِمَاك بن حَرْب وأبو حَيْوة وابن السَّمَيْقَع بضم الغين ؛ أي لا تغترّوا كأنه مصدر غرّ
يغر غُرورا . قال سعيد بن جُبير : هو أن يعمل بالمعصية ويتمنى المغفرة .

---

(١) راجع ج ١ ص ٣٧٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) أي لم يبلغوا مبلغ الرجال ويجرى عليهم القلم فكتب عليهم الحنث؛ وهو الاثم . (٣) هي سورة فاطر آية ٥ (٤) آيه ١٤ (٥) آية ١٢٠

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾

زعم الفراء أن هذا معنى النفى؛ أى ما يعلمه أحد إلا الله تعالى. قال أبو جعفر النحاس: وإنما صار فيه معنى النفى والإيجاب بتوقيف الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال فى قول الله عز وجل « وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ » : "إنها هذه".

قلت: قد ذكرنا فى سورة «الأنعام»(١) حديث ابن عمر فى هذا، خرّجه البخارى. وفى حديث جبريل عليه السلام قال: "أخبرنى عن الساعة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل هن خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى: إن الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا" قال: "صدقت". لفظ أبى داود الطيالسىّ. وقال عبد الله بن مسعود: كل شىء أوتى نبيكم صلى الله عليه وسلم غير خمس: « إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ » الآية إلى آخرها. وقال ابن عباس: هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله تعالى، ولا يعلمها ملَك مقرّب ولا نبىّ مرسل، فمن ادّعى أنه يعلم شيئا من هذه فقد كفر بالقرآن؛ لأنه خالفه. ثم إن الأنبياء يعلمون كثيرا من الغيب بتعريف الله تعالى إياهم. والمراد إبطال كون الكهنة والمنجمين ومن يستسق بالأنواء(٢) وقد يعرف بطول التجارِب أشياء من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك؛ حسبما تقدّم ذكره فى الأنعام(٣). وقد تختلف التجربة وتنكسر العادة ويبقى العلم لله تعالى وحده. وروى أن يهوديا كان يحسب حساب النجوم، فقال لابن عباس: إن شئت نبّأتك نجم ابنك، وأنه يموت بعد عشرة أيام،

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١ (٢) الأنواء: جمع نوء، وهو سقوط نجم فى المنازل فى المغرب مع الفجر وطلوع آخر من المشرق يقابله فى ساعته. وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها.

(٣) راجع جـ ٧ ص ٢ وما بعدها.

وأنت لا تموت حتى تعمى ، وأنا لا يحول علىّ الحول حتى أموت . قال : فأين موتك يا يهودىّ ؟ فقال : لا أدرى . فقال ابن عباس : صدق الله « وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » فرجع ابن عباس فوجد ابنه محموما ، ومات بعد عشرة أيام . ومات اليهودىّ قبل الحول ، ومات ابن عباس أعمى . قال علىّ بن الحسين راوى هذا الحديث : هذا أعجب الأحاديث . وقال مقاتل : إن هذه الآية نزلت فى رجل من أهل البادية اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة، أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : إن امرأتى حبلى فأخبرنى ماذا تلد، وبلادنا جدبة فأخبرنى متى ينزل الغيث، وقد علمتُ متى وُلدت فأخبرنى متى أموت ، وقد علمت ما عملت اليوم فأخبرنى ماذا أعمل غدا، وأخبرنى متى تقوم الساعة ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ؛ ذكره القُشَيْرِىّ والماوَرْدِىّ . وروى أبو المَلِيح عن أبى عَزَّة الهُذَلِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أراد الله تعالى قَبْض رُوح عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم ينته حتى يَقْدَمَها — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — « إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ — إلى قوله — بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » ذكره الماوردىّ ، وخرّجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بمعناه . وقد ذكرناه فى كتاب (التذكرة) مستوفًى . وقراءة العامة « وَيُنَزِّلُ » مشدّدا . وقرأ ابن كَثير وأبو عمرو وحمزة والكسائىّ مخففا . وقرأ أُبَىّ بن كَعْب « بِأَيَّةِ أَرْضٍ » الباقون « بِأَىِّ أَرْضٍ » . قال الفراء: اكتفى بتأنيث الأرض من تأنيث أىّ . وقيل : أراد بالأرض المكان فذكّر . قال الشاعر :

فلا مُزْنة وَدَقَتْ ودْقَها * ولا أرضَ أبقَلَ إبقالَها[1]

وقال الأخفش : يجوز مررت بجارية أىّ جارية، وأيّة جارية . وشبه سيبويه تأنيث «أى» بتأنيث كُلّ فى قولهم: كُلَّتُهُنَّ . ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ « خبير » نعت لـ « عليم » أو خبر بعد خبر . والله تعالى أعلم .

---

(١) القائل هو عامر بن جوين الطائى . وصف أرضا مخصبة لكثرة ما نزل بها من الغيث . والمزنة : السحابة . والودق : المطر .

تفسير سورة السجدة

وهى مكية، غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة؛ وهى قوله تعالى : « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً » (١) إلى تمام ثلاث آيات؛ قاله الكلبيّ ومُقاتل. وقال غيرهما : إلا خمس آيات، من قوله تعالى : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ (٢) — إلى قوله — الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ » . وهى ثلاثون آية . وقيل تسع وعشرون . وفى الصحيح عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة « الٓمٓ . تَنْزِيلُ » السجدة و « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » الحديث . وخرّج الدارمىّ أبو محمد فى مسنده عن جابر بن عبد الله قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ « الٓمٓ . تَنْزِيلُ » السجدة . و « تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ » . قال الدارمىّ : وأخبرنا أبو المغيرة قال حدثنا عبدة عن خالد بن مَعْدَان قال : اقرءوا المنجية، وهى « الٓمٓ . تَنْزِيلُ » فإنه بلغنى أن رجلا كان يقرؤها، ما يقرأ شيئا غيرها، وكان كثير الخطايا؛ فنشرت جناحها عليه وقالت : ربّ اغفر له فإنه كان يُكثر من قراءتى؛ فشفّعها الربّ فيه وقال : " اكتبوا له بكل خطيئة حسنة وارفعوا له درجة " .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ الإجماع على رفع « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ » ولو كان منصوبا على المصدر لجاز؛ كما قرأ الكوفيون « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » . و « تَنْزِيلُ » رفع بالابتداء والخبر ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ . أو خبر على إضمار مبتدأ؛ أى هذا تنزيل، أو المتلوّ تنزيل، أو هذه الحروف تنزيل . ودلت « الٓمٓ »

(١) آية ١٨ وما بعدها . (٢) آية ١٦ وما بعدها .

على ذكر الحروف . ويجوز أن يكون « لَا رَيْبَ فِيهِ » في موضع الحال من « الكتاب » و﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الخبر . قال مكيّ : وهو أحسنها . ومعنى « لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » لا شك فيه أنه من عند الله؛ فليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأولين .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ هذه « أم » المنقطعة التي تقدّر ببل وألف الاستفهام؛ أي بل أيقولون . وهي تدل على خروج من حديث إلى حديث؛ فإنه عزّ وجلّ أثبت أنه تنزيل من رب العالمين ، وأن ذلك مما لا ريب فيه، ثم أضرب عن ذلك الى قوله : « أم يقولون افتراه » أي افتعله واختلقه . ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ كذّبهم في دعوى الافتراء . ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا ﴾ قال قتادة : يعني قريشا، كانوا أمّة أميّة لم يأتهم نذير من قبل محمد صلى الله عليه وسلم . و « لِتُنْذِر » متعلق بما قبلها فلا يوقف على «مِنْ رَبِّكَ» . ويجوز أن يتعلق بمحذوف؛ التقدير: أنزله لتنذر قوما، فيجوز الوقف على « من ربك » . و « ما » في قوله : ﴿ مَا أَتَاهُمْ ﴾ نفي . ﴿ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ صلة . و « نذيرٍ » في محل الرفع، وهو المُعلِم المُخَوِّف . وقيل : المراد بالقوم أهل الفَترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام ؛ قاله ابن عباس ومقاتل . وقيل : كانت الحجة ثابتة لله جل وعز عليهم بإنذار من تقدّم من الرسل وإن لم يروْا رسولا ؛ وقد تقدّم هذا المعنى[1] .

قوله تعالى : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

---

(١) راجع ج ٦ ص ١٢١

قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ عرّفهم كمال قدرته ليسمعوا القرآن ويتأملوه . ومعنى « خَلَقَ » أبدع وأوجد بعد العدم وبعد أن لم تكن شيئا . ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة . قال الحسن : من أيام الدنيا . وقال ابن عباس : إن اليوم من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض مقداره ألف سنة من سِني الدنيا . وقال الضحاك : في ستة آلاف سنة ؛ أي في مدّة ستة أيام من أيام الآخرة . ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدم في الأعراف والبقرة وغيرهما[1]، وذكرنا ما للعلماء في ذلك مستوفًى في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) . وليست « ثُمَّ » للترتيب وإنما هي بمعنى الواو . ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ أي ما للكافرين من وليّ يمنع من عذابهم ولا شفيع . ويجوز الرفع على الموضع . ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ في قدرته ومخلوقاته .

قوله تعالى : يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : يُنزل القضاءَ والقدر . وقيل : ينزل الوحي مع جبريل . وروى عمرو بن مرّة عن عبد الرحمن بن سابط قال : يدبّر أمر الدنيا أربعة : جبريل ، وميكائيل ، وملك الموت ، وإسرافيل ؛ صلوات الله عليهم أجمعين . فأما جبريل فموكّل بالرياح والجنود . وأما ميكائيل فموكّل بالقطر والماء . وأما ملك الموت فموكّل بقبض الأرواح . وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم . وقد قيل : إن العرش موضع التدبير ؛ كما أن مادون العرش موضع التفصيل ؛ قال الله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ »[2] . وما دون السموات موضع التصريف ؛ قال الله تعالى : « وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا »[3] .

---

(١) راجع ج ٧ ص ٢١٩ و ج ١ ص ٢٥٤ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٢ سورة الرعد .
(٣) آية ٥٠ سورة الفرقان .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ قال يحيى بن سلام : هو جبريل يصعَد إلى السماء بعد نزوله بالوحى . النقاش : هو المَلَك الذى يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض . وقيل : إنها أخبار أهل الأرض تصعَد إليه مع حملتها من الملائكة ؛ قاله ابن شجرة . ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ . وقيل : « ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ » أى يرجع ذلك الأمر والتدبير إليه بعد انقضاء الدنيا « فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ » وهو يوم القيامة . وعلى الأقوال المتقدّمة فالكناية فى « يَعْرُجُ » كناية عن المَلَك ، ولم يجرله ذكر لأنه مفهوم من المعنى ، وقد جاء صريحا فى « سَأَلَ سَائِلٌ » قوله : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ »(1) . والضمير فى ﴿ إِلَيْهِ ﴾ يعود على السماء على لغة من يذكّرها ، أو على مكان المَلَك الذى يرجع إليه ، أو على اسم الله تعالى ؛ والمراد إلى الموضع الذى أقره فيه ، و إذا رجعتْ إلى الله فقد رجعت إلى السماء ، أى إلى سدرة المنتهى ؛ فإنه إليها يرتفع ما يُصعد به من الأرض ومنها ينزل ما يهبط به إليها ؛ ثبت معنى ذلك فى صحيح مسلم . والهاء فى « مِقْدَارُهُ » راجعة إلى التدبير ؛ والمعنى : كان مقدار ذلك التدبير ألفَ سنة من سِنِي الدنيا ؛ أى يقضى أمر كلّ شىء لألف سنة فى يوم واحد ، ثم يلقيه إلى ملائكته ، فإذا مضت قضى لألف سنة أخرى ، ثم كذلك أبدا ؛ قاله مجاهد . وقيل : الهاء للعروج . وقيل : المعنى أنه يدبّر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، ثم يعرج إليه ذلك الأمر فيحكم فيه فى يوم كان مقداره ألف سنة . وقيل : المعنى يدبّر أمر الشمس فى طلوعها وغروبها ورجوعها إلى موضعها من الطلوع ، فى يوم كان مقداره فى المسافة ألف سنة . وقال ابن عباس : المعنى كان مقداره لو ساره غير المَلَك ألف سنة ؛ لأن النزول خمسمائة والصعود خمسمائة . وروى ذلك عن جماعة من المفسرين ، وهو اختيار الطبرىّ ؛ ذكره المهدوىّ . وهو معنى القول الأول . أى أن جبريل لسرعة سيره يقطع مسيرة ألف سنة فى يوم من أيامكم ؛ ذكره الزمخشرىّ . وذكر الماوردىّ عن ابن عباس والضحاك أن المَلَك يصعد فى يوم مسيرة ألف سنة . وعن قتادة أن المَلَك ينزل و يصعد فى يوم مقداره ألف سنة ؛ فيكون مقدار

(1) آية ٤ سورة المعارج .

نزوله خمسمائة سنة ، ومقدار صعوده خمسمائة على قول قتادة والسدّى . وعلى قول ابن عباس والضحاك النزول ألف سنة ، والصعود ألف سنة . ﴿ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أى مما تحسبون من أيام الدنيا . وهذا اليوم عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة من سِنِي العالَم ، وليس بيوم يستوعب نهارا بين ليلتين ؛ لأن ذلك ليس عند الله . والعرب قد تعبّر عن مـدّة العصر باليوم ؛ كما قال الشاعر :

يومان يومُ مُقـامات وأندية * ويومُ سيرٍ إلى الأعداء تأويب (١)

وليس يريد يومين مخصوصين ، وإنمـا أراد أن زمانهم ينقسم شطرين ، فعبّر عن كل واحد من الشطرين بيوم . وقرأ ٱبن أبى عَبْـلة « يُعْرَجُ » على البناء للمفعول . وقرئ « يعدُّونَ » بالياء . فأما قوله تعالى : « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٢) » فمشكل مع هذه الآية . وقد سأل عبد الله بن فيروز الدّيلمى عبدَ الله بن عباس عن هذه الآية وعن قوله : « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » فقال : أيام سمّاها سبحانه ، وما أدرى ما هى؟ فأكره أن أقول فيهـا ما لا أعلم . ثم سـئل عنها سعيد بن المسيّب فقـال : لا أدرى . فأخبرته بقول ٱبن عباس فقال ٱبن المسيّب للسائل : هـذا ٱبن عباس ٱتّقى أن يقول فيهـا وهو أعلم منى . ثم تكلم العلماء فى ذلك فقيـل : إن آية « سَأَلَ سَائِلٌ » هو إشارة إلى يوم القيامة ، بخلاف هذه الآية . والمعنى أن الله تعالى جعـله فى صعوبته على الكفار كخمسين ألف سـنة ؛ قاله ٱبن عباس . والعرب تصف أيام المكروه بالطول وأيام السرور بالقصر . قال :

ويوم كظل الرمح قصّر طولَه * دَمُ الزّق عنّا وٱصطفاقُ المزاهر

وقيـل : إن يوم القيامة فيه أيام ؛ فمنـه ما مقداره ألف سنة ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة . وقيل : أوقات القيامة مختلفة ، فيعذّب الكافر بجنس من العذاب ألف سـنة ، ثم ينتقل إلى جنس آخر مدّته خمسون ألف سنة . وقيـل : مواقف القيامة خمسون موقفا ، كلّ موقف ألف سنة . فمعنى « يَعْرُجُ إِلَيْـهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَـنَةٍ » أى مقدار

---

(١) البيت لسلامة بن جنـدل . والتأويب فى كلام العرب : سـير النهار كله إلى الليـل . يقال : أوّب القوم تأويبا أى ساروا بالنهار . (٢) آية ٤ سورة المعارج .

وقت ، أو موقف من يوم القيامة . وقال النحاس : اليوم فى اللغة بمعنى الوقت ؛ فالمعنى تعرُج الملائكة والروح إليه فى وقت كان مقداره ألف سنة ، وفى وقت آخر كان مقداره خمسين ألف سنة . وعن وهب بن منبّه « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » قال : ما بين أسفل الأرض إلى العرش . وذكر الثعلبيّ عن مجاهد وقتادة والضحاك فى قوله تعالى : « تَعْرُجُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » (١) أراد من الأرض إلى سِدْرة المُنْتَهى التى فيها جبريل . يقول تعالى : يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة فى يوم واحد من أيام الدنيا . وقوله : ﴿ إِلَيْهِ ﴾ يعنى إلى المكان الذى أمرهم الله تعالى أن يعرجوا إليه . وهذا كقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام : « إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ » (٢) أراد أرض الشام . وقال تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ » (٣) أى إلى المدينة . وقال أبو هريرة قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أتانى ملك من ربى عز وجل برسالة ثم رفع رجله فوضعها فوق السماء والأخرى على الأرض لم يرفعها بعد" .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى علم ما غاب عن الخلق وما حضرهم . و « ذَلِكَ » بمعنى أنا . حسبما تقدّم بيانه فى أوّل البقرة (٤) . وفى الكلام معنى التهديد والوعيد؛ أى أخلصوا أفعالكم وأقوالكم فإنى أجازى عليها .

قوله تعالى : ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

---

(١) آية ٤ سورة المعارج .   (٢) آية ٩٩ سورة الصافات .   (٣) آية ١٠٠ سورة النساء .

(٤) راجع ج ١ ص ١٥٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر « خَلْقَهُ » بإسكان اللام . وفتحها الباقون . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم طلبا لسهولتها . وهو فعل ماضٍ فى موضع خفض نعت لـ « شىء » . والمعنى على ما روى عن ابن عباس : أحكم كلّ شىء خلقه ، أى جاء به على ما أراد ، لم يتغيّر عن إرادته . وقول آخر — أن كل شىء خلقه حسن ؛ لأنه لا يقدر أحد أن يأتى بمثله ؛ وهو دال على خالقه . ومن أسكن اللام فهو مصدر عند سيبويه ؛ لأن قوله : « أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خلقه » يدلّ على : خَلَق كلّ شىء خَلْقا ؛ فهو مثل « صُنْعَ اللهِ »(١) و « كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ »(٢) . وعند غيره منصوب على البدل من « كلّ » أى الذى أحسن خلق كل شىء . وهو مفعول ثانٍ عند بعض النحويين ، على أن يكون معنى « أَحْسَنَ » أفهم وأعلم ؛ فيتعدّى إلى مفعولين ، أى أفهم كل شىء خلقه . وقيل : هو منصوب على التفسير ؛ والمعنى : أحسن كل شىء خلقا . وقيل : هو منصوب بإسقاط حرف الجر ، والمعنى : أحسن كلّ شىء فى خلقه . وروى معناه عن ابن عباس . و ﴿ أَحْسَنَ ﴾ أى أتقن وأحكم ؛ فهو أحسن من جهة ما هو لمقاصده التى أريد لها . ومن هذا المعنى قال ابن عباس وعكرمة : ليست اسْت القرد بحسنة ، ولكنها متقَنة محكمة . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد « أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ » قال : أتقنه . وهو مثل قوله تبارك وتعالى : « الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ »(٣) أى لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة ، ولا خلق البهيمة [على] خلق الإنسان . ويجوز « خلقه » بالرفع ؛ على تقدير ذلك خلقه . وقيل : هو عموم فى اللفظ خصوص فى المعنى ؛ والمعنى : حسّن خَلْق كل شىء حَسَنٍ . وقيل : هو عموم فى اللفظ والمعنى ، أى جعل كل شى خلقه حسنا ، حتى جعل الكلب فى خلقه حسنا ؛ قاله ابن عباس . وقال قتادة : فى اسْت القرد حسنة .

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ يعنى آدم . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ تقدّم(٤) فى « المؤمنين » وغيرها . وقال الزجاج : « مِن ماءٍ مهينٍ » ضعيف .

---

(١) آية ٨٨ سورة النمل . (٢) آية ٢٤ سورة النساء . (٣) آية ٥٠ سورة طه .
(٤) راجع جـ ١٢ ص ١٠٩

وقال غيره « مَهين » لا خطر له عند الناس . ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ رجع إلى آدم، أى سوّى خلقه .
﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ ثم رجع إلى ذريته فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ .
وقيل : ثم جعل ذلك الماء المهين خلقا معتدلا ، وركّب فيه الروح وأضافه إلى نفسه تشريفا .
وأيضا فإنه من فعله وخلقه كما أضاف العبد إليه بقوله : « عبدى » . وعبّر عنه بالنفخ لأن
الروح فى جنس الريح . وقد مضى هذا مبيناً فى « النساء »(1) وغيرها . ﴿ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾
أى ثم أنتم لا تشكرون بل تكفرون .

قوله تعالى : وَقَالُوٓا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ هذا قول منكرى البعث ؛ أى هلكنا
و بطلنا وصرنا ترابا . وأصله من قول العرب : ضل الماء فى اللبن إذا ذهب . والعرب تقول
للشىء غلب عليه غيره حتى خفى فيه أثره : قد ضل . قال الأخطل :

كنتَ القَذَى فى موج أكدر مُزْبِد * قذف الأتىّ به فضلّ ضلالا

وقال قُطْرُب : معنى ضللنا غِبنا فى الأرض . وأنشد قول النابغة الذبيانى :

فآبَ مُضِلّوه بعين جَلِيّة * وغُودِر بالجَوْلانِ حَزْمٌ ونائِلُ

وقرأ ابن مُحَيصن ويحيى بن يَعْمَر « ضَلِلْنا » بكسر اللام، وهى لغة . قال الجوهرىّ :
وقد ضللت أضِل قال الله تعالى : « قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى »(2) . فهذه لغة نجد
وهى الفصيحة . وأهل العالية يقولون : « ضلِلت » — بكسر اللام — أضَلّ . وهو ضالّ
تالّ ، وهى الضلالة والتَّلالة . وأضلّه أى أضاعه وأهلكه . يقال : أُضِلّ الميّت
إذا دفن . قال :

* فآب مُضِلّوه ... ... * البيت .

---

(1) راجع جـ ٦ ص ٢٢ (2) آية ٥٠ سورة سبأ .

ابن السّكّيت . أضللت بعيرى إذا ذهب منك . وضللت المسجد والدار إذا لم تعرف موضعهما . وكذلك كل شئ مقيم لا يهتدى له . وفى الحديث "لعلى أضل الله" يريد أضل عنه، أى أخفى عليه ؛ من قوله تعالى : « أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ » أى خفينا . وأضله الله فضلّ ؛ تقول : إنك تهدى الضال ولا تهدى المتضال . وقرأ الأعمش والحسن « صَلَلْنَا » بالصاد؛ أى أنتنّا . وهى قراءة علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . النحاس : ولا يعرف فى اللغة صللنا ولكن يقال : صلّ اللحم وأصل ، وخمّ وأخم إذا أنتن . الجوهرىّ : صلّ اللحم يصل — بالكسر — صلولا، أى أنتن، مطبوخا كان أو نيئا . قال الحُطَيئة :

ذاك فَتًى يَبْذُل ذا قِدرِه * لا يُفْسِدُ اللحمَ لديه الصُّلولُ

وأصَلّ مثله . ﴿ إنا[(١)] لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى نخلق بعد ذلك خلقا جديدا؟ ويقرأ «أَئِنَّا» . النحاس : وفى هذا سؤال صعب من العربية ؛ يقال : ما العامل فى « إذا » ؟ و « إنّ » لا يعمل ما بعدها فيما قبلها . والسؤال فى الاستفهام أشد ؛ لأن ما بعد الاستفهام أجدر ألا يعمل فيما قبله من « إن » كيف وقد اجتمعا . فالجواب على قراءة من قرأ « إنا » أن العامل « ضللنا » ، وعلى قراءة من قرأ « أئنا » أن العامل مضمر، والتقدير أنبعث إذا متنا . وفيه أيضا سؤال آخر، يقال : أين جواب « إذا » على القراءة الأولى لأن فيها معنى الشرط ؟ فالقول فى ذلك أن بعدها فعلا ماضيا ؛ فلذلك جاز هذا . ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ أى ليس لهم جحود قدرة الله تعالى عن الإعادة ؛ لأنهم يعترفون بقدرته ولكنهم اعتقدوا أن لا حساب عليهم، وأنهم لا يلقون الله تعالى .

قوله تعالى : قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١)

فيه مسألتان :

(١) قوله « إنا » قراءة نافع، وعليها جرى المؤلف .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ ﴾ لما ذكر استبعادهم للبعث ذكر توفّيهم وأنه يعيدهم . ﴿ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ من توفى العدد والشيء إذا استوفاه وقبضه جميعا . يقال : توفاه الله أى استوفى روحه ثم قبضه . وتوفيت مالى من فلان أى استوفيته . ﴿ مَلَكُ الْمَوْتِ ﴾ واسمه عزرائيل ومعناه عبد الله؛ كما تقدّم فى «البقرة»(١) . وتصرّفه كله بأمر الله تعالى وبخلقه واختراعه . وروى فى الحديث أن " البهائم كلها يتوفّى الله أرواحها دون مَلَك الموت " كأنه يعدم حياتها؛ ذكره ابن عطية .

قلت : وقد روى خلافه ، وأن مَلَك الموت يتوفّى أرواح جميع الخلائق حتى البرغوث والبعوضة . روى جعفر بن محمد عن أبيه قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ارفق بصاحبي فإنه مؤمن " فقال ملك الموت عليه السلام " يامحمد ، طِب نفسا وقرّ عَيْنًا فإنى بكل مؤمن رفيق . واعلم أن ما من أهل بيت مَدَر ولا شعر فى برّ ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم . والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها " . قال جعفر ابن علىّ : بلغنى أنه يتصفّحهم عند مواقيت الصلوات؛ ذكره الماوردىّ . وذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت البغدادىّ قال : حدّثنى أبو محمد الحسن بن محمد الخلال قال حدّثنا أبو محمد عبد الله بن عثمان الصفّار قال حدّثنا أبو بكر حامد المصرى قال حدّثنا يحيي بن أيوب العلاف قال حدّثنا سليمان بن مُهير الكلابىّ قال حضرت مالك بن أنس رضى الله عنه فأتاه رجل فسأله : أبا عبد الله ، البراغيث أملك الموت يقبض أرواحها؟ قال : فأطرق مالك طويلا ثم قال : ألها أنفس ؟ قال نعم . قال : ملك الموت يقبض أرواحها ؛ « اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا »(٢) . قال ابن عطية بعد ذكره الحديث : وكذلك الأمر فى بنى آدم ، إلا أنه نوعٌ شُرّف بتصرف ملك وملائكة معه فى قبض أرواحهم . فخلق الله تعالى ملك

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٨ طبعة ثانية .   (٢) آية ٤٢ سورة الزمر .

الموت وخلق على يديه قبض الأرواح ، واستلالها من الأجسام وإخراجها منها ، وخلق الله تعالى جندا يكونون معه يعملون عمله بأمره، فقال تعالى : «وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ»[1] ، وقال تعالى : « تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا » وقد مضى هذا المعنى فى « الأنعام »[2] . والبارئ خالق الكل، الفاعل حقيقة لكل فعل، قال الله تعالى : «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا»[3] . «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ»[4] . « يُحْيِي وَيُمِيتُ » . فملك الموت يقبض والأعوان يعالجون والله تعالى يُزْهِق الروح . وهذا هو الجمع بين الآى والأحاديث ، لكنه لما كان ملك الموت متولّى ذلك بالوساطة والمباشرة أضيف التوفّى إليه كما أضيف الخلق للملك ، كما تقدّم فى « الحج »[5] . وروى عن مجاهد أن الدنيا بين يدى مَلك الموت كالطَّست بين يدى الإنسان يأخذ من حيث شاء . وقد روى هذا المعنى مرفوعا ، وقد ذكرناه فى (كتاب التذكرة) . وروى أن ملك الموت لما وكّله الله تعالى بقبض الأرواح قال : ربّ جعلتنى أُذكر بسوء ويشتمنى بنو آدم . فقال الله تعالى له : " إنى أجعل للموت عللا وأسبابا من الأمراض والأسقام ينسبون الموت إليها فلا يذكرك أحد إلا بخير". وقد ذكرناه فى التذكرة مستوفًى — وقد ذكرنا أنه يدعو الأرواح فتجيئه ويقبضها، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة أو العذاب — بما فيه شفاء لمن أراد الوقوف على ذلك .

الثانيــة — استدل بهذه الآية بعض العلماء على جواز الوكالة من قوله : ﴿وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أى بقبض الأرواح . قال ابن العربى : « وهذا أخذ من لفظه لا من معناه ، ولو اطّرد ذلك لقلنا فى قوله تعالى : « قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رسولُ اللهِ إليكم جميعا »[6] : إنها نيابة عن الله تبارك وتعالى ووكالة فى تبليغ رسالته ، ولقلنا أيضا فى قوله تبارك وتعالى : « وآتوا الزكاة » إنه وكالة، فإن الله تعالى ضمن الرزق لكل دابة وخصّ الأغنياء بالأغذية وأوعز إليهم بأن رزق الفقراء عندهم، وأمر بتسليمه إليهم مقدارا معلوما فى وقت معلوم، دبره بعلمه، وأنفذه

(١) آية ٥٠ سورة الأنفال . (٢) راجع جـ ٧ ص ٧ طبعة أولى أو ثانية . (٣) آية ٤٢ سورة الزمر .
(٤) آية ٢ سورة الملك . (٥) راجع جـ ١٢ ص ٧ (٦) آية ١٥٨ سورة الأعراف .

من حكمه ، وقدره بحكمته . والأحكام لا تتعلق بالألفاظ إلا أن ترد على موضوعاتها الأصلية في مقاصدها المطلوبة ، فإن ظهرت في غير مقصدها لم تعلّق عليها . ألا ترى أن البيع والشراء معلوم اللفظ والمعنى ، وقد قال تعالى « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ » ولا يقال : هذه الآية دليل على جواز مبايعة السيد لعبده ؛ لأن المقصدَيْن مختلفان . أما انه إذا لم يكن بدّ من المعاني فيقال : إن هذه الآية دليل على أن للقاضي أن يستنيب من يأخذ الحق ممن هو عليه قسْرًا دون أن يكون له في ذلك فعل ، أو يرتبط به رضًا إذا وجد ذلك » .

قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ابتداء وخبر . قال الزجاج : والمخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم مخاطبةٌ لأمته . والمعنى : ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب . ومذهب أبي العباس غير هذا ، وأن يكون المعنى : يا محمد ، قل للمجرم ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم لندمت على ما كان منك . « نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ » أي من الندم والخزي والحزن والذل والغم . « عِنْدَ رَبِّهِمْ » أي عند محاسبة ربهم وجزاء أعمالهم . « رَبَّنَا » أي يقولون ربنا . « أَبْصَرْنَا » أي أبصرنا ما كنا نكذب . « وَسَمِعْنَا » ما كنا ننكر . وقيل : « أَبْصَرْنَا » صدق وعيدك . « وَسَمِعْنَا » تصديق رسلك . أبصروا حين لا ينفعهم البصر وسمعوا حين لا ينفعهم السمع . « فَارْجِعْنَا » أي إلى الدنيا . « نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » أي مصدقون بالبعث ؛ قاله النقاش . وقيل : مصدقون بالذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أنه حق ؛ قاله يحيى بن سلام . قال سفيان الثوريّ : فأكذبهم الله تعالى فقال : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[1] . وقيل : معنى « إِنَّا مُوقِنُونَ » أي قد زالت عنا الشكوك الآن ؛ وكانوا يسمعون ويبصرون في الدنيا ، ولكن لم يكونوا

(١) آية ٢٨ سورة الأنعام .

يتدبرون ، وكانوا كمن لا يبصر ولا يسمع ، فلما تنبهوا فى الآخرة صاروا حينئذ كأنهم سمعوا وأبصروا . وقيل : أى ربنا لك الحجة ، فقد أبصرنا رسلك وعجائب خلقك فى الدنيا ، وسمعنا كلامهم فلا حجة لنـا . فهذا اعتراف منهم ، ثم طلبوا أن يُرَدّوا إلى الدنيا ليؤمنوا .

قوله تعـالى : وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾

قال محمـد بن كعب القُرَظىّ : لمـا قالوا « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » ردّ عليهم بقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ يقول : لو شئتُ لهديت الناس جميعا فـلم يختلف منهـم أحد ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَـوْلُ مِنِّى ﴾ الآية ؛ ذكره ابن المبارك فى « رقائقه » فى حديث طويل . وقد ذكرناه فى « التذكرة » . النحاس : « وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا » فى معناه قولان : أحدهما ــ أنه فى الدنيا . والآخر ــ أن سياق الكلام يدل على أنه فى الآخرة ؛ أى لو شئنا لرددناهم إلى الدنيا والمحنة كما سألوا . « وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » أى حق القول منى لأعذبنّ من عصانى بنـار جهنم . وعلم الله تبارك وتعالى [أنه] لو ردهم لعادوا ؛ كما قال تعالى : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَـا نُهُوا عَنْهُ » .

وهـذه الهداية معناها خلق المعرفة فى القلب . وتأويل المعـتزلة : ولو شئنا لأكرهناهم على الهداية بإظهار الآيات الهائلة ، لكن لايحسن منـه فعله ؛ لأنه ينقض الغرض المُجْرَى بالتكليف إليـه وهو الثواب الذى لا يُستحق إلا بمـا يفعله المكلف باختياره . وقالت الإمامية فى تأويلها : إنه يجوز أن يريد هداها إلى طريق الجنة فى الآخرة ولم يعاقب أحدا ، لكن حق القول منـه أنه يملأ جهنم ، فلا يجب على الله تعالى عندنا هـداية الكل إليهـا ؛ قالوا : بل الواجب هـداية المعصومين ، فأما من له ذنب فجائز هدايتـه إلى النار جزاء على أفعاله . وفى جواز ذلك منع ؛ لقطعهم على أن المـراد هداها إلى الإيمـان . وقـد تكلم

العلماء عليهم فى هذين التأويلين بما فيه كفاية فى أصول الدين . وأقرب مالهم فى الجواب أن يقال : فقد بطل عندنا وعندكم أن يهديهم الله سبحانه على طريق الإلجاء والإجبار والإكراه، فصار يؤدّى ذلك إلى مذهب الجبرية، وهو مذهب رذل عندنا وعندكم؛ فلم يبق إلا أن المهتدين من المؤمنين إنما هداهم الله تعالى إلى الإيمان والطاعة على طريق الاختيار حتى يصح التكليف؛ فمن شاء آمن وأطاع اختيارا لاجبرا؛ قال الله تعالى : « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ »[(١)] ، وقال : « فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا »[(٢)]. ثم عقّب هاتين الآيتين بقوله تعالى: « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ »[(٣)] . فوقع إيمان المؤمنين بمشيئتهم[(٤)]، ونفى أن يشاءوا إلا أن يشاء الله ؛ ولهذا فرطت الجبرية لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق[(٥)] بمشيئة الله تعالى، فقالوا : الخلق مجبورون فى طاعتهم كلها، التفاتا إلى قوله : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ». وفرطت القدرية لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق[(٥)] بمشيئة العباد، فقالوا : الخلق خالقون لأفعالهم ، التفاتا منهم إلى قوله تعالى: « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ » . ومذهبنا هو الاقتصاد فى الاعتقاد؛ وهو مذهب بين مذهبي المجبرة والقدرية ؛ وخير الأمور أوساطها . وذلك أن أهل الحق قالوا : نحن نفرق بين ما اضطررنا إليه و بين ما اخترناه ، وهو أنا ندرك تفرقة بين حركة الارتعاش الواقعة فى يد الإنسان بغير محاولته و إرادته ولا مقرونة بقدرته ، وبين حركة الاختيار إذا حرّك يده حركة مماثلة لحركة الارتعاش ؛ ومن لا يفرق بين الحركتين : حركة الارتعاش وحركة الاختيار ، وهما موجودتان فى ذاته ومحسوستان فى يده بمشاهدته و إدراك حاسته، فهو معتوه فى عقله ومختل فى حسه ، وخارج من حزب العقلاء . وهذا هو الحق المبين، وهو طريق بين طريقى الإفراط والتفريط . و :

* كلا طرفى قصد الأمور ذميم[(٦)] *

---

(١) آية ٢٨ سورة التكوير .   (٢) آية ٢٩ سورة الانسان .   (٣) آية ٣٠ سورة الانسان، ٢٩ سورة التكوير .   (٤) فى بعض النسخ : « بمشيئته » .   (٥) كذا فى نسخ الأصل : « ولعلها مقرونة » .   (٦) هذا عجز بيت وصدره :

* ولا تغلُ فى شىء من الأمر واقتصد *

وبهذا الاعتبار اختار أهل النظر من العلماء أن سَمَّوْا هذه المنزلة بين المنزلتين كَسْبًا ، وأخذوا هذه التسمية من كتاب الله العزيز، وهو قوله سبحانه : «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ»[1] .

قوله تعالى : فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ فيه قولان : أحدهما — أنه من النسيان الذى لا ذكر معه؛ أى لم يعملوا لهـذا اليوم فكانوا بمنزلة الناسين . والآخر — أن « نسيتم » بمـا تركتم ، وكذا « إِنَّا نَسِينَاكُمْ » . واحتج محمد بن يزيد بقوله تعالى : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ »[2] قال : والدليل على أنه بمعنى ترك أن الله عز وجل أخبر عن إبليس أنه قال : « مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ »[3] فلو كان آدم ناسيا لكان قد ذكّره . وأنشد :

كأنه خارجًا من جنب صفحته * سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عند مُفْتَأَدِ[4]

أى تركوه . ولو كان من النسيان لكان قد عملوا به مرة . قال الضحاك : «نَسِيتُمْ» أى تركتم أمرى . يحيى بن سلام : أى تركتم الإيمـان بالبعث فى هذا اليوم . ﴿ نَسِينَاكُمْ ﴾ تركناكم من الخير؛ قاله السُّدّى . مجاهد : تركناكم فى العذاب . وفى استئناف قوله : « إِنَّا نَسِينَاكُمْ » وبنـاء الفعل على «إنّ» واسمها تشديد فى الانتقام منهم . والمعنى : فذوقوا هذا؛ أى ما أنتم فيه من نكس الرءوس والخزى والغمّ بسبب نسيان الله . أو ذوقوا العذاب المخلّد، وهو الدائم الذى لا انقطاع له فى جهنم . ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعنى فى الدنيا من المعاصى . وقـد يعبّر بالذّوق عما يطرأ على النفس وإن لم يكن مطعوما، لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم . قال عمر بن أبى ربيعة :

فذُقْ هجرها إن كنت تزعم أنها * فسادٌ ألَا يا رُبَّمـا كذب الزعم

---

(١) آخر سورة البقرة . (٢) آية ١١٥ سورة طه . (٣) آية ٢٠ سورة الأعراف . (٤) السفود : حديدة يشوى عليها اللحم . الشرب (بالفتح) : جماعة القوم يشربون . والمفتأد : موضع النار الذى يشوى فيه . والبيت من معلقة النابغة الذبيانى .

الجوهري : وذُقت ما عند فلان ؛ أي خبرته . وذقت القَوْس إذا جذبت وترها لتنظر ما شدّتها . وأذاقه الله وبال أمره . قال طُفيل :

فذوقوا كما ذُقنا غداةَ مُحَجِّرٍ * من الغيظ فى أكبادِنا والتَّحَوُّبِ

وتذوّقته أى ذقته شيئا بعد شيء . وأمر مستذاق أى مجرّب معلوم . قال الشاعر :

وعهدُ الغانيات كعهد قَيْنٍ * وَنَتْ عنه الجعائل مُسْتذاقِ

والذوّاق : الملول .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

هذه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى أنهم لإلفهم الكفر لا يؤمنون بك ؛ إنما يؤمن بك وبالقرآن المتدبّرون له والمتّعظون به ، وهم الذين إذا قرئ عليهم القرآن ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ قال ابن عباس : ركّعا . قال المهدوىّ : وهذا على مذهب من يرى الركوع عند قراءة السجدة ؛ واستدلّ بقوله تبارك وتعالى : « وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ » . وقيل : المراد به السجود ، وعليه أكثر العلماء ؛ أى خَرُّوا سُجَّدًا لله تعالى على وجوههم تعظيما لآياته وخَوْفًا من سَطْوته وعذابه . ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أى خلطوا التسبيح بالحمد ؛ أى نزّهوه وحَمِدوه ؛ فقالوا فى سجودهم : سبحان الله وبحمده ، سبحان ربّيَ الأعلى وبحمده ؛ أى تنزيهاً لله تعالى عن قول المشركين . وقال سفيان : « وسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِم » أى صلّوا حمدًا لربهم . ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادته ؛ قاله يحيى بن سلام . النقاش : « لا يستكبرون » كما استكبر أهل مكة عن السجود .

قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ أى ترتفع وتَنْبُو عن مواضع الاضطجاع . وهو فى موضع نصب على الحال ؛ أى متجافية جنوبهم . والمضاجع جمع مضجع ؛ وهى

مواضع النوم . ويحتمل عن وقت الاضطجاع ، ولكنه مجاز ، والحقيقه أَوْلى . ومنه قول عبد الله بن رَوَاحة :

وفينا رسـول الله يتـلو كتابه * إذا انشق معروف من الصبح ساطع
يبيت يجافى جنبه عن فراشـه * إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

قال الزّجاج والرُّمانيّ : التّجافى التنحى إلى جهة فوق . وكذلك هـو فى الصفح عن المخطئ فى سَبٍّ ونحوه . والجُنوب جمع جَنب . وفيما تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجله قولان : أحدهما — لذكر الله تعالى، إمّا فى صلاة وإما فى غير صلاة ؛ قاله ابن عباس والضحاك . الثانى — للصلاة . وفى الصلاة التى تتجافى جنوبهم لأجلها أربعة أقوال : أحدها — التّنفّل بالليل؛ قاله الجمهور من المفسرين وعليه أكثر الناس، وهو الذى فيه المدح، وهو قول مجاهد والأوزاعىّ ومالك بن أنس والحسن بن أبى الحسن وأبى العالِيَة وغيرهم . ويدلّ عليـه قوله تعالى : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ » لأنهم جُوزُوا على ما أخفوا بمـا خفى . والله أعلم . وسيأتى بيانه .

وفى قيام الليل أحاديث كثيرة ؛ منها حديث معاذ بن جبل أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال له : " أَلَا أَدُلُّك على أبواب الخير : الصوم جُنّـة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ المـاء النار وصلاة الرجل من جَوْف الليل — قال ثم تلا — « تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُم عَنِ الْمَضَاجِعِ — حتى بلغ — يعمـلون » " أخرجه أبو داود الطيالسىّ فى مسـنده والقاضى إسمـاعيل ابن إسحاق وأبو عيسَى الترمذىّ، وقال فيه : حديث حسن صحيح . الثـانى — صلاة العشاء التى يقال لها العَتَمة؛ قاله الحسن وعطاء . وفى الترمذىّ عن أنس بن مالك أن " هذه الآية « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » نزلت فى انتظار الصلاة التى تُدْعَى العَتَمَة " قال : هـذا حديث حسن غريب . الثالث — التنفُّل مابين المغرب والعشاء؛ قاله قتادة وعكرمة . وروى أبو داود عن أنس بن مالك أن هذه الآية « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يَدْعُون رَبَّهم خَوْفًا وَطَمعًا ومِمـا رزقناهم ينفقون » قال : كانوا يتنفلون مابين المغرب والعشاء . الرابع — قال الضحاك : تجافِى الجُنُب هو أن يصلّى الرجل العشاء والصبح فى جماعة . وقاله أبو الدَّرداء وعُبادة .

قلت : وهذا قول حسن ، وهو يجمع الأقوال بالمعنى . وذلك أن منتظر العشاء إلى أن يصليها فى صلاة وذكرٍ لله جلّ وعز ؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يزال الرجل فى صلاةٍ ما انتظر الصلاة " . وقال أنس : المراد بالآية انتظار صلاة العشاء الآخرة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل . قال ابن عطية : وكانت الجاهلية ينامون من أوّل الغروب ومن أيّ وقت شاء الإنسان ، فجاء انتظار وقت العشاء غريبًا شاقًّا . ومصلِّي الصبح فى جماعة لاسيما فى أوّل الوقت ؛ كما كان عليه السلام يصليها . والعادة أن من حافظ على هذه الصلاة فى أوّل الوقت يقوم سَحَرًا يتوضأ و يصلّى ويذكر الله عز وجل إلى أن يطلع الفجر ؛ فقد حصل التجافى أوّلَ الليل وآخره . يزيد هذا مارواه مسلم من حديث عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من صلّى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما قام الليل كله " . ولفظ الترمذى وأبى داود فى هذا الحديث : " من شهد العشاء فى جماعة كان له قيام نصف ليلة ومن صلى العشاء والفجر فى جماعة كان له كقيام ليلة " . وقد مضى فى سورة « النور » عن كعب فيمن صلى بعد العشاء الاخرة أربع ركعات كنّ له بمنزلة ليلة القدر (١) .

وجاءت آثار حسان فى فضل الصلاة بين المغرب والعشاء وقيام الليل . ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا يحيى بن أيوب قال حدثنى محمد بن الحجاج أو ابن أبى الحجاج أنه سمع عبد الكريم يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من ركع عشر ركعات بين المغرب والعشاء بُنِيَ له قصرٌ فى الجنة " فقال له عمر بن الخطاب : إذًا تَكْثُر قصورنا و بيوتنا يارسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الله أكبر وأفضل — أو قال — أطيب " . وعن عبد الله بن عمرو بن العاصى قال : صلاة الأوّابين الخلوة التى بين المغرب والعشاء حتى تثوب الناس إلى الصلاة . وكان عبد الله بن مسعود يصلى فى تلك الساعة و يقول : صلاة الغفلة بين المغرب والعشاء ؛ ذكره ابن المبارك . ورواه الثعلبى مرفوعا عن ابن عمر قال قال

(١) راجع ج ١٢ ص ٣٠٨

النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من جَفَتْ جنباه عن المضاجع ما بين المغرب والعشاء بنى له قصران فى الجنة مسيرة عام وفيهما من الشجر ما لو نزلها أهل المشرق والمغرب لأوسعتهم فاكهة". وهى صلاة الأوّابين وغفلة الغافلين . و إن من الدعاء المستجاب الذى لا يردّ الدعاء بين المغرب والعشاء .

فصــل فى فضل التجافى — ذكر ابن المبارك عن ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ : ستعلمون اليوم مَن أصحاب الكَرَم ؛ لِيَقُم الحامدون لله على كل حال ، فيقومون فيُسَرَّحون إلى الجنة . ثم ينادى ثانيةً : ستعلمون اليوم مَن أصحاب الكَرَم ؛ لِيَقُم الذين كانت جنوبهم تتجافى عن المضاجع «يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وطَمَعًا ومِمّا رزقناهم يُنْفِقُونَ» . قال : فيقومون فيسرحون إلى الجنة . قال : ثم ينادى ثالثةً : ستعلمون اليوم مَن أصحاب الكرم ؛ لِيقم الذين كانوا « لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عن ذِكْرِ اللهِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ يخافون يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ » ، فيقومون فيسرحون إلى الجنة . ذكره الثعلبيّ مرفوعا عن أسماء بنت يزيد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إذا جمع الله الأوّلين والآخرين يوم القيامة جاء منادٍ فنادى بصوت تسمعه الخلائق كلّهم : سيعلم أهل الجمع اليوم مَن أَوْلى بالكَرَم لِيَقُم الذين كانت تتجافى جنوبُهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ثم ينادى الثانيةَ ستعلمون اليوم مَن أَوْلى بالكرم لِيَقُم الذين لا تُلْهِيهم تجارةٌ ولا بَيْعٌ عن ذكر الله فيقومون ثم ينادى الثالثةَ ستعلمون اليوم من أولى بالكرم لِيَقُم الحامدون لله على كل حال فى السرّاء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعا إلى الجنة ثم يحاسب سائر الناس". وذكر ابن المبارك قال أخبرنا مَعْمَر عن رجل عن أبى العلاء بن الشِّخّير عن أبى ذرّ قال : ثلاثة يَضْحَك الله إليهم و يستبشر الله بهم : رجل قام من الليل وترك فراشه ودِفْئه ، ثم توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قام إلى الصلاة ؛ فيقول الله لملائكته : "ما حمل عبدى على ما صنع" فيقولون : ربّنا أنت أعلم به منا ؛ فيقول : "أنا أعلم به ولكن أخبرونى" فيقولون : رَجّيته شيئا فرجاه وخوّفته نخافه . فيقول : "أشهدكم أنى قد أمّنته مما خاف وأوجبت له ما رجاه" قال : ورجل كان

فى سَرِيّة فلقِىَ العدوّ فانهزم أصحابه وثبت هو حتى يُقتل أو يفتح الله عليهم ؛ فيقول الله لملائكته مثل هذه القصة . ورجل سَرَى فى ليلة حتى إذا كان فى آخر الليل نزل هو وأصحابه ، فنام أصحابه وقام هو يصلّى ؛ فيقول الله لملائكته ... » وذكر القصة .

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ فى موضع نصب على الحال ؛ أى داعين . ويحتمل أن تكون صفة مستأنفة ؛ أى تتجافى جنوبهم وهم أيضا فى كل حال يدعون ربّهم لَيْلَهم ونهارَهم . ﴿ خَوْفًا ﴾ مفعول من أجله . ويجوز أن يكون مَصْدرًا . ﴿ وَطَمَعًا ﴾ مثله ؛ أى خوفًا من العذاب وطمعًا فى الثواب . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ تكون « ما » بمعنى الذى وتكون مصدرا ، وفى كِلا الوجهين يجب أن تكون منفصلة[(١)] من « مِن » و ﴿ يُنْفِقُونَ ﴾ قيل : معناه الزكاة المفروضة . وقيل : النوافل ؛ وهذا القول أمدح .

قوله تعالى : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

قرأ حمزة ﴿مَا أُخْفِى لَهُمْ﴾ بإسكان الياء . وفتحها الباقون . وفى قراءة عبد الله «ما نخفى» بالنون مضمومة . وروى المفضّل عن الأعمش « مايُخْفَى لهم » بالياء المضمومة وفتح الفاء . وقرأ ابن مسعود وأبو هريرة «من قُرّات أعين» . فمن أسكن الياء من قوله : « ما أخفِى » فهو مستقبل وألفه ألف المتكلم . و « ما » فى موضع نصب بـ« أخفى » وهى استفهام ، والجملة فى موضع نصب لوقوعها موقع المفعولين ، والضمير العائد على « ما » محذوف . ومن فتح الياء فهو فعل ماضٍ مبنى للفعول . و « ما » فى موضع رفع بالابتداء ، والخبر « أخفى » وما بعده ، والضمير فى « أخفى » عائد على « ما » . قال الزجاج : ويقرأ « ما أَخْفَى لهم » بمعنى ما أخفى الله لهم ؛ وهى قراءة محمد بن كعب ، و « ما » فى موضع نصب . المهدوىّ : ومن قرأ « قرّات أعين » فهو جمع قُرّة ، وحَسُن الجمع فيه لإضافته إلى جمع ، والإفراد لأنه

(١) الذى فى كتب الإملاء أنه يجوز .

مصدر ، وهو اسم للجنس . وقال أبو بكر الأنبارى : وهـذا غير مخالف للمصحف ؛ لأن تاء « قرّة » تكتب تاء على لغـة من يجرى الوصل على الوقف ؛ كما كتبوا (رحمت الله) بالتاء . ولا يُستنكر سـقوط الألف من « قُرات » فى الخط وهو موجود فى اللفـظ ؛ كما لم يستنكر سقوط الألف من السموٰات[١] وهى ثابتة فى اللسان والنطق . والمعنى المراد : أنه أخبر تعالى بمـا لهم من النعيم الذى لم تعلمه نفس ولا بشر ولا مَلَك . وفى معنى هذه الآية قال النبى صلى الله عليـه وسلم : " قال الله عز وجل أعْدَدْتُ لعبـادى الصالحين ما لا عيْن رأت ولا أذن سمعت ولا خَطَر على قلب بشر — ثم قرأ هذه الآية — « تَتَجافَى جنوبُهم عن المضاجِع — إلى قوله — بمـا كانوا يعملون » " خرّجه الصحيح من حديث سهل بن سـعد الساعدى . وقال ابن مسعود : فى التوراة مكتوب : على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خَطَر على قلب بشر . وقال ابن عبـاس : الأمر فى هـذا أجلّ وأعظم من أن يُعرف تفسيره .

قلت : وهذه الكرامة إنمـا هى لأعلى أهل الجنة منزلا ؛ كما جاء مبيّنًا فى صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " سأل موسى عليه السلام ربّه فقال يارِبّ ما أدنى أهل الجنة منزلةً قال هو رجل يأتى بعدما يدخل أهل الجنة الجنة فيقال له ادخل الجنة فيقول أى ربّ كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أَخَذاتهم فيقال له أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِك من ملوك الدنيـا فيقول رضـيتُ ربِّ فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله ومثله ومثله فقال فى الخامسة رضيت رَبّ فيقال هـذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذّت عينك فيقـول رضيتُ ربّ قال رَبِّ فأعلاهم منزلةً قال أولئك الذين أردتُ غَرَسْتُ[٢] كرامتهم بيدى وخَتَمتُ عليها فلم ترعين ولم تسمع أذن ولم يَخْطر على قلب بشر — قال — ومِصْداقُه من كتاب الله قوله تعالى : «فلا تَعلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِىَ لهم

(١) فى بعض النسخ : « المسلمات » .

(٢) قال النووى : « أمّا أردت فبضم التاء، ومعناه اخترت واصطفيت . وأما غرست كرامتهم بيدى الخ فمعناه اصطفيتهم وتوليتهم فلا يتطرق الى كرامتهم تغيير » .

مِن قُرّةِ أعينٍ جزاء بِما كانوا يعملون» . وقد روى عن المغيرة موقوفا قوله . وخرّج مسلم أيضا عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذُخْرًا بَلْهَ(١) ما أَطْلَعْتُكُمْ عليه — ثم قرأ — « فلا تعلم نفس ما أُخْفِيَ لهم مِن قرّةِ أعينٍ » ". وقال ابن سيرين : المراد به النظر إلى الله تعالى. وقال الحسن : أخفى القوم أعمالا فأخفى الله تعالى لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

قوله تعالى : أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ أى ليس المؤمن كالفاسق ؛ فلهذا آتينا هؤلاء المؤمنين الثواب العظيم . قال ابن عباس وعطاء بن يَسَار: نزلت الآية فى علىّ بن أبى طالب والوليد بن عُقبة بن أبى مُعَيْط ؛ وذلك أنهما تلاحيا(٢) فقال له الوليد : أنا أَبْسَطُ منك لسانا وأحدّ سِنانا وأردّ للكتيبة — وروى وأملأ فى الكتيبة — جسدا . فقال له علىّ : اسكت ! فإنك فاسق ؛ فنزلت الآية . وذكر الزجاج والنحاس أنها نزلت فى علىّ وعُقبة بن أبى مُعَيط . قال ابن عطية : وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكّية ؛ لأن عقبة لم يكن بالمدينة ، وإنما قُتل فى طريق مكة مُنْصَرَفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بَدْر . ويعترض القول الآخر بإطلاق اسم الفسق على الوليد . وذلك يحتمل أن يكون فى صدر إسلام الوليد لشىء كان فى نفسه ، أو لما روى من نقله عن بنى المُصْطَلِق ما لم يكن ، حتى نزلت فيه «إِنْ جاءكم فاسِقٌ بِنَبَإٍ فتبيّنوا»(٣) على ما يأتى فى الحُجُرات بيانه . ويحتمل أن تطلق الشريعة ذلك عليه ؛ لأنه كان على طرف مما يبغى ، وهو الذى شرب الخمر فى زمن

(١) بله : من أسماء الأفعال ، وهى مبنية على الفتح مثل كيف ، ومعناها : دع عنكم ما أطلعكم عليه ؛ فالذى لم يطلعكم أعظم ؛ وكأنه أضرب عنه استقلالا له فى جنب ما لم يطلع عليه . (شرح النووى) .

(٢) الملاحاة : المقاولة والمخاصمة . (٣) آية ٦

عثمان رضى الله عنه ، وصلّى الصبح بالناس ثم التفت وقال : أتريدون أن أزيدكم ، ونحو هذا مما يطول ذكره .

الثانيــة — لما قسّم الله تعالى المؤمنين والفاسقين الذين فسقهم بالكفر — لأن التكذيب فى آخر الآية يقتضى ذلك — اقتضى ذلك نفى المساواة بين المؤمن والكافر؛ ولهذا منع القصاص بينهما؛ إذ من شرط وجوب القصاص المساواة بين القاتل والمقتول . وبذلك احتج علماؤنا على أبى حنيفة فى قتله المسلم بالذمىّ . وقال : أراد نفى المساواة هاهنا فى الآخرة فى الثواب وفى الدنيا فى العدالة . ونحن حملناه على عمومه ، وهو أصح، إذ لا دليل يخصه؛ قاله ابن العربىّ .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوُونَ ﴾ قال الزجاج وغيره : « مَنْ » يصلح للواحد والجمع . النحاس : لفظ « مَن » يؤدى عن الجماعة؛ فلهذا قال « لا يستوون » ؛ هـذا قول كثير من النحويين . وقال بعضهم : « لا يستوون » لاثنين؛ لأن الاثنين جمع ، لأنه واحد جمع مع آخر . وقاله الزجاج أيضا . والحديث يدلّ على هذا القول ؛ لأنه عن ابن عباس . وغيره قال : نزلت « أفمن كان مُؤمِنًا » فى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه ، « كَمَنْ كان فاسِقًا » فى الوليد بن عُقْبة بن أبى مُعيط . وقال الشاعر :

أليس الموت بينهـما سـواء * إذا ماتوا وصاروا فى القبور

قوله تعالى : أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَآ أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى ﴾ أخبر عن مقر الفريقين غدًا؛ فللمؤمنين جنّات المأوى ، أى يأوون إلى الجنات؛ فأضاف الجنات إلى المأوى لأن ذلك

الموضع يتضمن جنات. ﴿ نُزُلًا ﴾ أى ضيافة . والنُّزُل ما يُهيّأ للنازل والضيف . وقد مضى فى آخر « آل عمران »(١) وهو نصب على الحال من الجنات؛ أى لهم الجنات معدّة، ويجوز أن يكون مفعولا له . ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ أى خرجوا عن الإيمان إلى الكفر ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ أى مقامهم فيها . ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ أى إذا دفعهم لهب النار إلى أعلاها ردّوا إلى موضعهم فيها، لأنهم يطمعون فى الخروج منها . وقد مضى هذا فى «الحج»(٢) . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ أى يقول لهم خزنة جهنم . أو يقول الله لهم : ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ والذوق يُستعمل محسوسًا ومعنًى . وقد مضى فى هذه السورة بيانه(٣) .

قوله تعالى : وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى ﴾ قال الحسن وأبو العالية والضحاك وأُبىّ بن كعب و إبراهيم النَّخَعِىّ : العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها مما يُبتَلَى به العبيد حتى يتوبوا ؛ وقاله ابن عباس . وعنه أيضا أنه الحدود. وقال ابن مسعود والحسين بن علىّ وعبد الله بن الحارث : هو القتل بالسيف يوم بدر . وقال مقاتل : الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجِيَف ؛ وقاله مجاهد . وعنه أيضا : العذاب الأدنى عذاب القبر ؛ وقاله البراء ابن عازب . قالوا : والأكبر عذاب يوم القيامة . قال القشيرىّ : وقيل عذاب القبر . وفيه نظر ؛ لقوله : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » . قال : ومن حمل العذاب على القتل قال « لعلهم يرجعون » أى يرجع من بقى منهم . ولا خلاف أن العذاب الأكبر عذابُ جهنم ؛ إلا ما روى عن جعفر بن محمد أنه خروج المهدى بالسيف . والأدنى غلاء السعر . وقد قيل : إن معنى قوله : « لعلهم يَرجِعون » على قول مجاهد والبراء : أى لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه ؛

(١) راجع ج ٤ ص ٣٢١ طبعة أولى أوثانية .	(٢) راجع ج ١٢ ص ٢٨
(٣) راجع ص ٩٨ و ٩٩ من هذا الجزء .

كقوله : « فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صالِحًا »(١) . وسُمِّيت إرادة الرجوع رجوعا كما سميت إرادة القيام قياما في قوله تعالى : « إذا قمتم إلى الصلاةِ »(٢) . ويدل عليه قراءة من قرأ « يُرْجَعون » على البناء للفعول ؛ ذكره الزمخشرى .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أى لا أحد أظلم لنفسه . ﴿ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ أى بحججه وعلاماته . ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ بترك القبول . ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾ لتكذيبهم و إعراضهم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ أى فلا تكن يا محمد فى شك من لقاء موسى ؛ قاله آبن عباس . وقد لقِيَه ليلة الإسراء . قتادة : المعنى فلا تكن فى شك من أنك لقيته ليلة الإسراء . والمعنى واحد . وقيل : فلا تكن فى شك من لقاء موسى فى القيامة ، وستلقاه فيها . وقيل : فلا تكن فى شك من لقاء موسى الكتاب بالقبول ؛ قاله مجاهد والزجاج . وعن الحسن أنه قال فى معناه : « ولقد آتينا موسى الكتاب » فأوذى وكُذِّب ، فلا تكن في شك من أنه سيلقاك ما لقِيَه من التكذيب والأذى ؛ فالهاء عائدة على محذوف ، والمعنى من لقاء ما لاقى . النحاس : وهذا قول غريب ، إلا أنه من رواية عمرو بن

(١) آية ١٢ من هذه السورة . (٢) آية ٦ سورة المائدة .

عُبيد . وقيل فى الكلام تقديم وتأخير ؛ والمعنى : قل يتوفاكم ملك الموت الذى وُكِّل بكم فلا تكن فى مِرْيَة من لقائه ؛ فجاء معترضا بين « ولقد آتينا موسى الكِتاب » وبين « وجعلناه هُدًى لِبَنِي إسرائيل » . والضمير فى « وجعلناه » فيه وجهان : أحدهما — جعلنا موسى ؛ قاله قتادة . الثانى — جعلنا الكتاب ؛ قاله الحسن . ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ أى قادةً وقُدْوةً يقتدَى بهم فى دينهم . والكوفيون يقرءون « أئمة » النحاس : وهو لحن عند جميع النحويين ؛ لأنه جمع بين همزتين فى كلمة واحدة، وهو من دقيق النحو .

وشرحه : أن الأصل « أأْمِمَة » ثم ألقيت حركة الميم على الهمزة وأدغمت الميم ، وخففت الهمزة الثانية لئلا يجتمع همزتان، والجمع بين همزتين فى حرفين بعيد؛ فأمّا فى حرف واحد فلا يجوز إلا تخفيف الثانية نحو قولك : آدم وآخر . ويقال : هذا أوَمّ من هذا وأيَمّ ؛ بالواو والياء . وقد مضى هذا فى « براءة »(1) والله تعالى أعلم . ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أى يدعون الخلق إلى طاعتنا . ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أى أمرناهم بذلك . وقيل : « بأمرنا » أى لأمرنا ؛ أى يهدون الناس لديننا . ثم قيل : المراد الأنبياء عليهم السلام ؛ قاله قتادة . وقيل : المراد الفقهاء والعلماء . ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ قراءة العامة « لَمّا » بفتح اللام وتشديد الميم وفتحها ؛ أى حين صبروا . وقرأ يحيى وحمزة والكسائى وخَلَف ورُوَيْس عن يعقوب « لِمَا صبروا » أى لصبرهم جعلناهم أئمة . واختاره أبو عبيد اعتبارا بقراءة ابن مسعود « بما صبروا » بالباء . وهذا الصبر صبرٌ على الدين وعلى البلاء . وقيل : صبروا عن الدنيا . ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى يقضى ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيجازى كُلًّا بما يستحق. وقيل : يقضى بين الأنبياء وبين قومهم ؛ حكاه النقاش .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

---

(1) راجع جـ ٨ ص ٨٤ طبعة أولى وثانية .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِي وقتادة وأبو زيد عن يعقوب « نَهْدِ لهم » بالنون ؛ فهذه قراءة بيّنة . النحاس : وبالياء فيها إشكال ؛ لأنه يقال : الفعل لا يخلو من فاعل ، فأين الفاعل لـ « يهد » ؟ فتكلم النحويون فى هذا ، فقال الفراء : « كم » فى موضع رفع بـ « يَهْدِ » . وهذا نقض لأصول النحويين فى قولهم : إن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ولا فى « كم » بوجهٍ ؛ أعنى ما قبلها . ومذهب أبى العباس أن « يَهْدِ » يدل على الهُدَى ؛ والمعنى أو لم يَهْدِ لهم الهدى . وقيل : المعنى أو لم يهد الله لهم ؛ فيكون معنى الياء والنون واحدا ؛ أى أو لم نُبَيِّن لهم إهلاكنا القرون الكافرة من قبلهم . وقال الزجاج : « كم » فى موضع نصب بـ « أهلكنا » ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ يحتمل الضمير فى « يمشون » أن يعود على الماشين فى مساكن المهلكين ؛ أى وهؤلاء يمشون ولا يعتبرون . ويحتمل أن يعود على المهلكين فيكون حالا ؛ والمعنى أهلكناهم ماشين فى مساكنهم . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ آيات الله وعظاته فيتعظّون .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ أى أو لم يعلموا كمال قدرتنا بسَوْقنا الماء إلى الأرض اليابسة التى لا نبات فيها لنحييها . الزَّمَخْشَرِيّ : الجرز الأرض التى جُرِز نباتها ، أى قُطع ؛ إما لعدم الماء وإما لأنه رُعِيَ وأزيل . ولا يقال للتى لا تنبت كالسباخ جُرُز ؛ ويدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾ قال ابن عباس : هى أرض باليمن . وقال مجاهد : هى أَبْيَن . وقال عكرمة : هى الأرض الظمآى . وقال الضحاك : هى الأرض الميتة العَطْشَى . وقال الفراء : هى الأرض التى لا نبات فيها . وقال الأصمعي : هى الأرض التى لا تنبت شيئا . وقال محمد بن يزيد : يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام ؛ إلا أنه يجوز على قول من قال : العباس والضحاك . والإسناد

عن ابن عباس صحيحٌ لا مطعن فيه. وهذا إنما هو نعت والنعت للمعرفة يكون بالألف واللام؛ وهو مشتق من قولهم: رجل جَروز إذا كان لا يبقى شيئا إلا أكله. قال الراجز:

خِبٌّ جَروز وإذا جاع بكى * ويأكل التمر ولا يُلقى النَّوى

وكذلك ناقةٌ جروز إذا كانت تأكل كل شيء تجده. وسيف جُراز أى قاطع ماضٍ. وَجَرزتِ الجراد الزرع إذا استأصلته بالأكل. وحكى الفراء وغيره أنه يقال: أرض جُرْز وجُرُز وجَرْز وجَرَز. وكذلك بخل ورغب ورهب؛ فى الأربعة أربع لغات. وقد روى أن هذه الأرض لا أنهار فيها، وهى بعيدة من البحر، وإنما يأتيها فى كل عام وِدَان[1] فيزرعون ثلاث مرات فى كل عام. وعن مجاهد أيضا أنها أرض النيل. ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ أى بالماء. ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ من الكلأ والحشيش. ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ من الحب والخضر والفواكه. ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ هذا فيعلمون أنا نقدر على إعادتهم. و «فنخرج» يكون معطوفا على «نسوق» أو منقطعا مما قبله. «تأكل منه أنعامهم» فى موضع نصب على النعت.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ «متى» فى موضع رفع، ويجوز أن يكون فى موضع نصب على الظرف. قال قتادة: الفتح القضاء. وقال الفراء والقُتَبِيّ: يعنى فتح مكة. وأَوْلى من هذا ما قاله مجاهد، قال: يعنى يوم القيامة. ويروى أن المؤمنين قالوا: سيحكم الله عز وجل بيننا يوم القيامة فيثيب المحسن ويعاقب المسيء. فقال الكفار على التهزيء: متى يوم الفتح، أى هذا الحكم. ويقال للحاكم: فاتح وفتاح؛ لأن الأشياء تنفتح على يديه وتنفصل. وفى القرآن «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ

(١) فى نسخ الأصل: «واديان». والودان: البلل.

قَوْمِنَا بِالْحَقِّ (١) » وقد مضى هذا فى « البقرة (٢) » وغيرها . ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ على الظرف . وأجاز الفراء الرفع . ﴿ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أى يؤخرون و يمهلون للتوبة، إن كان يوم الفتح يومَ بدر أو فتح مكة . ففى بدر قتلوا ، و يوم الفتح هربوا (٣) فلحقهم خالد بن الوليد فقتلهم .

قوله تعالى : فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)

قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ قيل : معناه فأعرض عن سفههم ولا تجبهم إلا بما أمرت به . ﴿ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ أى انتظر يوم الفتح ، يوم يحكم الله لك عليهم . ابن عباس : « فأعرض عنهم » أى عن مشركى قريش مكة ، وأن هذا منسوخ بالسيف فى « براءة » فى قوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم (٤) » . « وَانْتَظِرْ » أى موعدى لك . قيل : يعنى يوم بدر . ﴿ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ أى ينتظرون بكم حوادث الزمان . وقيل : الآية غير منسوخة، إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال كالهُدْنة وغيرها . وقيل : أعرض عنهم بعد ما بلغت الحجة ، وانتظر إنهم منتظرون . إن قيل : كيف ينتظرون القيامة وهم لا يؤمنون ، ففى هذا جوابان : أحدهما — أن يكون المعنى إنهم منتظرون الموت وهو من أسباب القيامة؛ فيكون هذا مجازا . والآخر — أن فيهم من يشك وفيهم من يؤمن بالقيامة؛ فيكون هذا جوابا لهذين الصنفين . والله أعلم . وقرأ ابن السَّمَيْقَع «إنهم مُنْتَظَرون» بفتح الظاء . ورُويت عن مجاهد وابن مُحَيْصِن . قال الفراء : لا يصح هذا إلا بإضمار ، مجازه : إنهم منتظرون بهم . قال أبو حاتم : الصحيح الكسر ، أى انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك . وقد قيل : إن قراءة ابن السَّمَيْقَع (بفتح الظاء) معناها : وانتظر هلاكهم فإنهم أحقاء بأن يُنتظر هلاكهم ، يعنى أنهم هالكون لا محالة ، وانتظر ذلك ، فإن الملائكة فى السماء ينتظرونه ؛ ذكره الزَّمَخْشَرِىّ . وهو معنى قول الفرّاء . والله أعلم .

---

(١) آية ٨٩ سورة الأعراف . (٢) راجع ج ٢ ص ٣ طبعة ثانية .
(٣) فى نسخة : « هزموا » . (٤) آية ٥

سورة الأحزاب

مدنيّة فى قول جميعهم . نزلت فى المنافقين و إيذائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطعنهم فيه وفى مناكحته وغيرها . وهى ثلاث وسبعون آية . وكانت هذه السورة تعدل سورة البقرة . وكانت فيها آية الرجم : الشيخ والشيخة إذا زَنَيَا فارجموهما أَلْبَتّةَ نكالاً من الله والله عزيز حكيم ؛ ذكره أبو بكر الأنبارى عن أُبَىّ بن كعب . وهذا يحمله أهل العلم على أن الله تعالى رفع من الأحزاب إليه مايزيد على ما فى أيدينا ، وأن آية الرَّجْم رفع لفظها . وقد حدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد قال حدّثنا أبو عبيد القاسم بن سلّام قال حدّثنا ابن أبى مريم عن ابن لَهِيعة عن أبى الأسود عن عروة عن عائشة قالت : كانت سورة الأحزاب تعدل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مائتى آية ، فلما كُتب المصحف لم يقدر منها إلا على ما هى الآن . قال أبو بكر : فمعنى هذا من قول أم المؤمنين عائشة : أن الله تعالى رفع إليه من سورة الأحزاب ما يزيد على ما عندنا .

قلت : هذا وجه من وجوه النسخ ، وقد تقدّم فى « البقرة »(١) القولُ فيه مستوفًى والحمد لله . وروى زِرّ قال قال لى أُبَىّ بن كعب : كم تعدّون سورة الأحزاب ؟ قلت : ثلاثا وسبعين آية ؛ قال : فوالذى يحلف به أبىّ بن كعب أن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ، ولقد قرأنا منها آية الرجم : الشيخ والشيخة إذا زَنَيَا فارجموهما أَلْبَتّة نكالاً من الله والله عزيز حكيم . أراد أُبَىّ أن ذلك من جملة ما نُسخ من القرآن . وأما ما يحكى من أن تلك الزيادة كانت فى صحيفة فى بيت عائشة فأكلتها الداجن فمن تأليف الملاحدة والروافض .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾

(١) راجع جـ ٢ ص ٦١ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ ضُمّت « أىّ » لأنه نداء مفرد، والتنبيه لازم لها. و « النـبىّ » نعت لأىّ عنـد النحويين ؛ إلا الأخفش فإنه يقول : إنه صـلة لأىّ . مكىّ : ولا يُعرف فى كلام العرب اسم مفرد صـلة لشىء . النحاس : وهو خطأ عند أكثر النحويين ؛ لأن الصـلة لا تكون إلا جمـلة ، والاحتيال له فيما قال أنه لما كان نعتا لازما سُمِّىَ صلة ؛ وهكذا الكوفيون يسمّون نعت النكرة صلةً لها . ولا يجوز نصبه على الموضع عند أكثر النحويين . وأجازه المـازنىّ ، جعله كقولك : يا زيدُ الظريفَ ، بنصب «الظريف» على موضع زيد . مكىّ : وهذا نعت يستغنى عنه ، ونعت «أىّ» لا يستغنى عنه فلا يحسن نصبه على الموضع . وأيضا فإن نعت « أىّ » هو المنادى فى المعنى فلا يحسن نصبه . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وكان يحبّ إسلام اليهود : قُريظة والنَّضير وبنى قَيْنُقَاع ؛ وقد تابعه (١) ناس منهم على النفاق ، فكان يُلين لهم جانبَه ؛ ويكرم صغيرهم وكبيرهم ، وإذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه ، وكان يسمع منهم ؛ فنزلت . وقيل : إنها نزلت فيما ذكر الواحدى والقُشَيْرِىّ والثّعلبىّ والمـاوَرْدِىّ وغيرهم فى أبى سـفيان بن حرب وعِكرمة بن أبى جَهْـل وأبى الأعور عمرو (٢) بن سفيان ، نزلوا المدينة على عبدالله بن أُبَىّ ابن سلول رأس المنافقين بعد أُحُد ، وقدأعطاهم النبىّ صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يكلموه ، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح وطُعْمة بن أُبَيْرِق ، فقالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب : ارفض ذكر آلهتنا اللّات والعُزّى ومَناة ، وقل إن لها شفاعة ومنعة (٣) لمن عبدها ، ونَدَعَك وربّك . فشقّ على النبىّ صلى الله عليه وسلم ما قالوا . فقال عمر : يارسول الله ائذن لى فى قتلهم . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إنى قد أعطيتهم الأمان " فقال عمر : اخرجوا فى لعنة الله وغضبه . فأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا من المدينة ؛ فنزلت الآية . ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ أى خَفِ الله . ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ من أهل مكة ؛ يعنى أبا سفيان وأبا الأعور وعكرمة . ﴿ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ من أهل المدينة ؛ يعنى عبد الله بن أُبَىّ وطُعْمة وعبد الله بن سعد بن أبى سرح فيما نُهيت عنه ،

---

(١) فى نسخة : «بايعه» . (٢) فى الأصول : «عمر» . (٣) فى أسباب النزول : «ومنفعة» .

ولا تمل إليهم . ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بكفرهم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يفعل بهم . الزمخشرى : وروى أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبا الأعور السُّلَمِى قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم فى الموادعة التى كانت بينه وبينهم، وقام معهم عبد الله بن أُبَى ومُعَتّب بن قُشَير والجَدّ ابن قيس، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفض ذكر آلهتنا . وذكر الخبر بمعنى ما تقدم . وأن الآية نزلت فى نقض العهد ونَبْذ الموادعة . «وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ» من أهل مكة . «والمنافقين» من أهل المدينة فيما طلبوا إليك . وروى أن أهل مكة دعَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يرجع عن دينه ويعطوه شطر أموالهم، ويزوّجه شيبةُ بن ربيعة بنْتَه، وخوّفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه إن لم يرجع؛ فنزلت . النحاس : ودلّ بقوله « إِنّ الله كان عليماً حكيماً » على أنه كان يميل إليهم استدعاءً لهم إلى الإسلام؛ أى لو علم الله عز وجل أن ميْلك إليهم فيه منفعة لما نهاك عنه؛ لأنه حكيم . ثم قيل : الخطاب له ولأمته .

قوله تعالى : وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعنى القرآن . وفيه زَجْر عن اتباع مراسم الجاهلية، وأمر بجهادهم ومنابذتهم، وفيه دليل على ترك اتباع الآراء مع وجود النص . والخطاب له ولأمته . ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قراءة العامة بتاء على الخطاب، وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ السلمى وأبو عمرو وابن أبى إسحاق « يعملون » بالياء على الخبر؛ وكذلك فى قوله : « بما تعملون بصيرًا »(١) . ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى اعتمد عليه فى كل أحوالك؛ فهو الذى يمنعك ولا يضرك من خذلك . ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظا . وقال شيخ من أهل الشام : قَدِم على النبى صلى الله عليه وسلم وفد من ثَقِيف فطلبوا منه أن يمتعهم باللّات سنة — وهى الطاغية التى كانت ثقيف تعبدها — وقالوا : لتعلم قريش منزلتنا عندك؛ فهم

(١) آية ٢٤ سورة الفتح .

النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك ، فنزلت « وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا » أى كافيًا لك ما تخافه منهم . و « بِاللهِ » فى موضع رفع لأنه الفاعل . و « وَكِيلًا » نصب على البيان أو الحال .

قوله تعالى : مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قال مجاهد : نزلت فى رجل من قريش كان يدعى ذا القلبين من دهائه ، وكان يقول : إن لى فى جوفى قلبين ، أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد . قال : وكان من فِهْر . الواحدىّ والقُشَيْرِىّ وغيرهما : نزلت فى جميل بن معمر الفهرى ، وكان رجلا حافظا لما يسمع . فقالت قريش : ما يحفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان . وكان يقول : لى قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد . فلما هُزِم المشركون يوم بدر ومعهم جميل بن معمر ، رآه أبو سفيان فى العير وهو معلّق إحدى نَعْلَيْه فى يده والأخرى فى رجله ؛ فقال أبو سفيان : ما حال الناس ؟ قال انهزموا . قال : فما بال إحدى نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما فى رجلىّ ؛ فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله فى يده . وقال السُّهَيْلىّ : كان جميل بن معمر الجُمَحىّ ، وهو ابن معمر ابن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمَح ، واسم جمح تَيْم ؛ وكان يدعى ذا القلبين فنزلت فيه الآية ، وفيه يقول الشاعر :

وكيف ثوائى بالمدينة بعد ما * قضى وَطَرًا منها جَمِيلُ بن معمر

قلت : كذا قالوا جميل بن معمر . وقال الزمخشرىّ : جميل بن أسد الفهرى . وقال ابن عباس : سببها أن بعض المنافقين قال : إن محمدا له قلبان ؛ لأنه ربما كان فى شىء فنزع

فى غيره نزعة ثم عاد إلى شأنه الأوّل؛ فقالوا ذلك عنه فأكذبهم الله عز وجل . وقيل : نزلت فى عبد الله بن خَطَل . وقال الزهرىّ وابن حبّان : نزل ذلك تمثيلا فى زيد بن حارثة لما تبنّاه النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فالمعنى : كما لا يكون لرجل قلبان كذلك لا يكون ولد واحد لرجلين . قال النحاس : وهذا قول ضعيف لا يصح فى اللغة، وهو من منقطعات الزهرىّ، رواه معمر عنه . وقيل : هو مثل ضرب للمُظاهر؛ أى كما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المُظاهر أمّه حتى تكون له أُمّان . وقيل : كان الواحد من المنافقين يقول : لى قلب يأمرنى بكذا، وقلب يأمرنى بكذا؛ فالمنافق ذو قلبين؛ فالمقصود ردّ النفاق . وقيل : لا يجتمع الكفر والإيمان بالله تعالى فى قلب، كما لا يجتمع قلبان فى جوف؛ فالمعنى : لا يجتمع اعتقادان متغايران فى قلب . ويظهر من الآية بجملتها نفى أشياء كانت العرب تعتقدها فى ذلك الوقت، وإعلام بحقيقة الأمر، والله أعلم .

الثانية — القلب بَضْعة[1] صغيرة على هيئة الصَّنَوْبَرة ، خلقها الله تعالى فى الآدمىّ وجعلها محلا للعلم ، فيحصى به العبد من العلوم ما لا يسع فى أسفار، يكتبه الله تعالى فيه بالخط الإلهىّ ، ويضبطه فيه بالحفظ الربّانى، حتى يحصيه ولا ينسى منه شيئا . وهو بين لَمّتين[2] لَمّة من الملك ولَمّة من الشيطان؛ كما قال صلى الله عليه وسلم . خرّجه الترمذىّ، وقد مضى فى « البقرة »[3] . وهو محل الخَطَرات والوساوس ومكان الكفر والإيمان، وموضع الإصرار والإنابة ، ومجرى الانزعاج والطمأنينة[4] . والمعنى فى الآية : أنه لا يجتمع فى القلب الكفر والإيمان ، والهدى والضلال، والإنابة والإصرار ؛ وهذا نفى لكل ما توهمه أحد فى ذلك من حقيقة أو مجاز ، والله أعلم .

الثالثة — أعلم الله عز وجل فى هذه الآية أنه لا أحد بقلبين ، ويكون فى هذا طعن على المنافقين الذين تقدّم ذكرهم؛ أى إنما هو قلب واحد، فإمّا فيه إيمان وإمّا فيه كفر ؛ لأن

(١) البضعة (بالفتح وقد تكسر) : القطعة من اللحم . (٢) اللمة (بالفتح) الهمة والخطرة تقع فى القلب .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٨٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) فى بعض النسخ : « والطمأنينة والاعتدال » .

درجة النفاق كأنها متوسطة ، فنفاها الله تعالى و بين أنه قلب واحد . وعلى هذا النحو يستشهد الإنسان بهـذه الآية ، متى نسى شيئا أو وهم . يقول على جهة الاعتذار : ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ يعنى قول الرجل لامرأته : أنتِ علىّ كظهر أمى . وذلك مذكور فى سورة « المجادلة » على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ أجمع أهل التفسير على أن هذا نزل فى زيد بن حارثة . وروى الأئمة أن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد ابن محمـد حتى نزلت « ادْعُوهم لآبائهـم هو أقْسَطُ عند الله » وكان زيد فيما روى عن أنس ابن مالك وغيره مَسْبِيًّا من الشام ، سبته خيل من تِهامة ، فابتاعه حكيم بن حزام بن خُويلد ، فوهبه لعمته خديجة فوهبته خديجة للنبىّ صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبنّاه ، فأقام عنده مدّة ، ثم جاء عمه وأبوه يرغبان فى فدائه ، فقال لهما النبىّ صلى الله عليه وسـلم وذلك قبل البعث : "خَيِّراه فإن اختاركما فهو لكما دون فداء" . فاختار الرّق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حُرّيته وقومه ؛ فقال محمد رسول الله صلى الله عليه وسـلم عند ذلك : "يا معشر قريش اشهدوا أنه ابنى يرثنى وأرثه" وكان يطوف على حِلَق قريش يُشهدهم على ذلك ؛ فرضى ذلك عمه وأبوه وانصرفا . وكان أبوه لما سُبى يَدور الشام و يقول :

بكيتُ على زيدٍ ولم أدر ما فعـل * أحىّ فيُرجَى أم أتى دونه الأجَـلْ
فـوالله لا أدرى وإنى لسائـل * أغالك بعدى السّهلُ أم غالك الجبَلْ
فياليت شعرى هل لك الدهرَ أوْبةٌ * فحسبى من الدنيا رجوعُك لى بَجَـلْ
تُذَكِّرنيـه الشمس عنـد طلوعها * وتَعْرِض ذكراه إذا غَرْبُها أفَــلْ
وإنْ هَبّت الأرياح هَيّجْنَ ذِكْرَه * فياطـولَ ما حُزْنِى عليـه وما وَجَلْ
سأُعْمِلُ نَصّ العِيس فى الأرض جاهدًا * ولا أسأم التّطواف أو تسأمُ الإبل
حيـاتِىَ أو تأتِى عـلىّ منيتى * فكل امرئ فانٍ وإن غَرّه الأملُ

فأخبر أنه بمكة ؛ فجاء اليه فهلك عنده . وروى أنه جاء إليه فخيّره النبيّ صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا وانصرف . وسيأتى من ذكره وفضله وشرفه شفاءٌ عند قوله « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنها وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا»[1] إن شاء الله تعالى . وقتل زيد بمُؤْتَة من أرض الشأم سنة ثمانٍ من الهجرة، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّره فى تلك الغَزاة، وقال: "إن قتل زيد فجعفر فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة" . فقتل الثلاثة فى تلك الغزاة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نَعْيُ زيد وجعفر بكى وقال : "أخَوَايَ ومؤنساى ومحدّثاى" .

قوله تعالى : ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾ نزلت فى زيد بن حارثة ، على ما تقدّم بيانه . وفى قول ابن عمر : ما كنا ندعو زيد بن حارثه إلا زيد بن محمد ، دليلٌ على أن التّبنّى كان معمولا به فى الجاهلية والإسلام ، يُتوارث به ويتناصر ، إلى أن نسخ الله ذلك بقوله « ادعوهم لِآبائِهم هو أقسط عِند اللهِ » أى أعدل . فرفع الله حكم التّبنّى ومنع من إطلاق لفظه ، وأرشد بقوله إلى أن الأوْلى والأعدل أن يُنسب الرجل إلى أبيه نَسَبًا ؛ فيقال : كان الرجل فى الجاهلية إذا أعجبه من الرجل جلده وظَرْفه ضمه إلى نفسه ، وجعل له نصيب الذكر من أولاده من ميراثه ، وكان يُنسب إليه فيقال فلان بن فلان . وقال النحاس : هذه الآية ناسخة لما كانوا عليه من التبنّى ، وهو من نسخ السّنة بالقرآن ؛ فأمر أن يدعوا من دعوا إلى أبيه المعروف ، فإن لم يكن له أب معروف نسبوه إلى وَلائه ، فإن لم يكن له وَلاء معروف قال له يا أخى ؛ يعنى فى الدِّين ، قال الله تعالى : « إنما المؤمنون إخْوَةٌ » .

---

(١) آية ٣٧

الثانيــة — لو نسبه إنسان إلى أبيه من التبنّى فإن كان على جهة الخطأ، وهو أن يسبق لسانه إلى ذلك من غير قصـد فلا إثم ولا مؤاخذة؛ لقوله تعالى: « وليس عليكم جناحٌ فيما أَخْطَأْتُم بِهِ ولَكِن ما تَعَمَّدَتْ قلوبكم ». وكذلك لو دعوت رجلا إلى غير أبيه وأنت ترى أنه أبوه ليس عليك بأس؛ قاله قتادة. ولا يجرى هـذا المجرى ما غلب عليه آسم التبنّى كالحال في المِقْداد بن عمرو فإنه كان غالب عليه نسب التبنى، فلا يكاد يعرف إلا بالمقداد بن الأسود؛ فإن الأسود بن عبد يغوث كان قد تبنّاه في الجاهلية وعرف به. فلما نزلت الآية قال المِقداد: أنا ابن عمرو؛ ومع ذلك فبقى الإطلاق عليه. ولم يُسمع فيمن مضى من عَصَّى مُطْلِق ذلك عليه وإن كان متعمدا. وكذلك سالم مولى أبى حذيفة، كان يدعى لأبى حذيفة. وغير هؤلاء ممن تُبُنِّى وآنْتسب لغير أبيه وشُهِر بذلك وغَلب عليه. وذلك بخلاف الحال في زيد بن حارثة؛ فإنه لا يجوز أن يقال فيه زيد بن محمد، فإن قاله أحد متعمّدا عصى بقوله تعـالى: « ولكِن ما تعمّدَتْ قلوبُكم » أى فعليكم الجناح. والله أعلم. ولذلك قال بعده: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ أى « غفورا » للعمد و « رحيما » برفع إثم الخطأ.

الثالثــة — وقد قيل: إن قول الله تبارك وتعالى: « وليس عليكم جناحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ » مُجْمَل؛ أى وليس عليكم جناح في شيء أخطأتم، وكانت فُتْيَا عطاء وكثيرٍ من العلماء. على هذا إذا حلف رجل ألا يفارق غريمه حتى يستوفى منه حقه، فأخذ منه ما يرى أنه جيّد من دنانير فوجدها زيوفا أنه لا شيء عليه. وكذلك عنده إذا حلف ألا يسلّم على فلان فسلم عليه وهو لا يعرفه أنه لا يحنث؛ لأنه لم يتعمد ذلك. و « ما » في موضع خفض ردًّا على « ما » التى مع « أخطأتم ». ويجوز أن تكون في موضع رفع على إضمار مبتدإ، والتقدير: ولكن الذى تؤاخَذون به ما تعمّدت قلوبكم. قال قتادة وغيره: من نسب رجلا إلى غير أبيه، وهو يرى أنه أبوه، خطأً فذلك من الذى رفع الله فيه الجناح. وقيل: هو أن يقول له في المخاطبة: يا بنىّ على غير تَبَنِّى.

الرابعــة — قوله تعـالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾[1] « بأفواهِكم » تأكيد لبطلان القول؛ أى أنه قول لا حقيقة له في الوجود، إنمـا هو قول لسانىّ فقط. وهذا كما تقول: أنا أمشى

(١) يلاحظ أن هذه المسألة مقحمة وهى من الآية السابقة.

إليك على قدم؛ فإنما تريد بذلك المبرّة . وهذا كثير . وقد تقدّم هذا المعنى فى غير موضع[1] .
﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ « الحقَّ » نعت لمصدر محذوف؛ أى يقول القول الحق . و﴿ يَهْدِى ﴾
معناه يبيّن؛ فهو يتعدى بغير حرف جرّ .

الخامسة — الأدعياء جمع الدّعىّ، وهو الذى يدعى ابنا لغير أبيه أو يدّعِى غير أبيه؛
والمصدر الدِّعْوة بالكسر، فأمر تعالى بدعاء الأدعياء إلى آبائهم للصُّلْب ، فمن جهل ذلك فيه
ولم تشتهر أنسابهم كان مَوْلًى وأخًا فى الدِّين . وذكر الطبرىّ أن أبا بكرة قرأ هذه الاية وقال:
أنا ممن لا يُعرف أبوه، فأنا أخوكم فى الدِّين ومولاكم . قال الراوى عنه : ولو علم — والله —
أن أباه حمار لانتمى إليه . ورجال الحديث يقولون فى أبى بكرة : نُفَيع بن الحارث .

السادسة — روى الصحيح عن سعد بن أبى وَقّاص وأبى بكرة كلاهما قال : سَمِعَته
أذناى ووعاه قلبى محمداً[2] صلى الله عليه وسلم يقول : "من ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه
فالجنة عليه حرام" . وفى حديث أبى ذرّ أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : "ليس مِن
رجل ادّعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر" .

قوله تعالى : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ النَّبِىُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ هذه الآية أزال الله تعالى
بها أحكاماً كانت فى صدر الإسلام ؛ منها : أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يصلّى على ميّت

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٧ وجـ ٨ ص ١١٨ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) قوله : « محمدا » نصب على البدل من الضمير المنصوب فى قوله : « سمعته أذناى » .

عليه دَيْن ، فلما فتح الله عليه الفتوح قال : " أنا أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم فمن تُوُفِّيَ وعليه دَين فعلىّ قضاؤه ومن ترك مالًا فلورثته " أخرجه الصحيحان . وفيهما أيضا " فأيّكم ترك دَيْنًا أو ضياعا فأنا مولاه " . قال ابن العربىّ : فانقلبت الآن الحال بالذنوب، فإن تركوا مالا ضُويق العصبة فيه ، و إن تركوا ضياعا أسلموا إليه ؛ فهذا تفسير الولاية المذكورة فى هذه الآية بتفسير النبىّ صلى الله عليه وسلم وتبيينه ؛ ولا عِطْر بعد عَرُوس . قال ابن عطية : وقال بعض العلماء العارفين هو أولى بهم من أنفسهم ؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك ، وهو يدعوهم إلى النجاة . قال ابن عطية : ويؤيّد هذا قولُه عليه الصلاة والسلام : " أنا آخِذ بحُجَزِكم عن النارِ وأنتم تقتحمون فيها تقحّم الفَراش " .

قلت : هذا قول حسن فى معنى الآية وتفسيرها ، والحديث الذى ذُكر أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما مثَلى ومَثَل أمتى كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفَراش يقعن فيه (١) وأنا آخِذٌ بحُجَزِكم وأنتم تَقَحَّمُون فيه (١) " . وعن جابر مثله ؛ وقال : " وأنتم تَفَلَّتُون من يدى " . قال العلماء : الحُجْزَة للسراويل، والمَعْقِد للإزار؛ فإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطه أخذ بذلك الموضع منه . وهذا مثل لاجتهاد نبيّنا عليه الصلاة والسلام فى نجاتنا، وحرصه على تخلّصنا من الهلكات التى بين أيدينا ؛ فهو أَوْلى بنا من أنفسنا ؛ ولجهلنا بقدر ذلك وغلبة شهواتنا علينا وظفر عدّونا اللعين بناصرنا أحقر من الفِراش وأذلّ من الفَراش ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم ! وقيل : أَوْلى بهم أى أنه إذا أمر بشىء ودعت النفس إلى غيره كان أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم أولى. وقيل : أولى بهم أى هو أولى بأن يحكم على المؤمنين فينفذ حكمه فى أنفسهم ؛ أى فيما يحكمون به لأنفسهم مما يخالف حكمه .

الثانية — قال بعض أهل العلم : يجب على الإمام أن يقضى من بيت المال دَين الفقراء اقتداءً بالنبىّ صلى الله عليه وسلم؛ فإنه قد صرح بوجوب ذلك عليه حيث قال : " فعلىّ قضاؤه " . والضَّياع (بفتح الضاد) مصدر ضاع، ثم جعل اسما لكل ما هو بصدد أن يضيع

(١) مرجع الضمير فى هذه الرواية المستوقد المفهوم من الكلام .

من عيال وبنين لا كافل لهم، ومالٍ لا قيّم له . وسميت الأرض ضَيعة لأنها معرّضة للضياع، وتجمع ضِياعا بكسر الضاد .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ شرّف الله تعالى أزواج نبيّه صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن أمهات المؤمنين؛ أى فى وجوب التعظيم والمبرّة والإجلال وحُرمة النكاح على الرجال وحجبهن رضى الله تعالى عنهن بخلاف الأمهات . وقيل : لما كانت شفقتهن عليهم كشفقة الأمهات أنزلن منزلة الأمهات ، ثم هذه الأمومة لا توجب ميراثا كأمومة التّبنّى . وجاز تزويج بناتهن ، ولا يجعلن أخوات للناس . وسيأتى عدد أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فى آية التخيير(١) إن شاء الله تعالى .

واختلف الناس هل هنّ أمهات الرجال والنساء أم أمهات الرجال خاصّة ؛ على قولين : فروى الشعبيّ عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها أن آمرأة قالت لها : يا أمّة؛ فقالت لها : لست لك بأم، إنما أنا أمّ رجالكم . قال ابن العربى : وهو الصحيح .

قلت : لا فائدة فى آختصاص الحصر فى الإباحة للرجال دون النساء ، والذى يظهر لى أنهن أمهات الرجال والنساء؛ تعظيماً لحقهن على الرجال والنساء . يدلّ عليه صدر الآية : «النبيُّ أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم » ، وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورةً . ويدلّ على ذلك حديث أبى هريرة وجابر؛ فيكون قوله «وأزواجه أمهاتهم» عائدا إلى الجميع . ثم إن فى مصحف أُبَيّ بن كعب «وأزواجه أمهاتهم وهو أبٌ لهم» . وقرأ ابن عباس «من أنفسهم وهو أب [لهم] وأزواجه [أمهاتهم] » . وهذا كله يوهن ماروواه مسروق إن صح من جهة الترجيح، وإن لم يصح فيسقط الاستدلال به فى التخصيص، وبقينا على الأصل الذى هو العموم الذى يسبق إلى المفهوم . والله أعلم .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ قيل : إنه أراد بالمؤمنين الأنصار، وبالمهاجرين قريشا . وفيه قولان :

(١) فى المسألة الثانية من آية ٢٨ من هذه السورة .

أحدهما — أنه ناسخ للتوارث بالهجرة . حكى سعيد عن قتادة قال : كان نزل فى سورة الأنفال « والذين آمنوا ولم يُهاجروا مالَكُمْ مِن وَلَايَتِهِمْ مِن شيءٍ حتى يُهاجِروا »[1] فتوارث المسلمون بالهجرة ؛ فكان لا يرث الأعرابيّ المسلم من قريبه المسلم المهاجِر شيئا حتى يهاجر ، ثم نسخ ذلك فى هذه السورة بقوله « وأولو الأرحام بعضُهم أوْلى ببعض » . الثانى — ان ذلك ناسخ للتوارث بالحِلْف والمؤاخاة فى الدِّين ؛ روى هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير « وأُولُو الأرحام بعضُهم أوْلَى ببعض فى كتاب الله » وذلك أنّا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدْنا الأنصار نِعْم الإخوان فآخيناهم فأورثونا وأورثناهم ؛ فآخى أبو بكر خارجة بن زيد ، وآخيت أنا كعب بن مالك ، فجئت فوجدت السلاح قد أثقله ؛ فوالله لقد مات عن الدنيا ما وَرِثه غيرى ، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فرجعنا إلى موارثنا . وثبت عن عروة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين الزبير وبين كعب بن مالك ، فارْتُثّ[2] كعب يوم أُحُدٍ فجاء الزبير يقوده بزمام راحلته ؛ فلو مات يومئذ كعب عن الضِّح[3] والرِّيح لورثه الزبير ، فأنزل الله تعالى «وأولو الأرحام بعضُهم أولَى ببعض فى كتاب الله» . فبيّن الله تعالى أن القرابة أولى من الحِلْف ، فتركت الوراثة بالحِلْف وورثوا بالقرابة . وقد مضى فى « الأنفال »[4] الكلام فى توريث ذوى الأرحام . وقوله «فى كتاب الله» يحتمل أن يريد القرآن ، ويحتمل أن يريد اللوح المحفوظ الذى قضى فيه أحوال خلقه . و «من المؤمنين» متعلق بـ « أوْلى » لا بقوله « وأُولُو الأرحام » بالإجماع ؛ لأن ذلك كان يوجب تخصيصا ببعض المؤمنين ، ولا خلاف فى عمومها ، وهذا حلّ إشكالها ؛ قاله ابن العربى . النحاس : « وأُولُو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين » يجوز أن يتعلق « من المؤمنين » بـ « أولُو » فيكون التقدير : وأُولُو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين . ويجوز أن يكون المعنى أوْلَى من المؤمنين . وقال المهدَوِىّ : وقيل إن معناه وأولو الأرحام بعضهم أولى

(١) آية ٧٢ (٢) الارتثاث : أن يحمل الجريح من المعركة وهو ضعيف قد أثخنته الجراح .

(٣) الضح (بالكسر) : ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض . أراد لو مات عما طلعت عليه الشمس وجرت عليه الريح ؛ وكنى بهما عن كثرة المال . (٤) راجع جـ ٨ ص ٥٩

ببعض فى كتاب الله إلا ما يجوز لأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يدعين أمهات المؤمنين، والله تعالى أعلم .

الخامسـة — واختلف فى كونهن كالأمهات فى المَحْرَم وإباحة النظر؛ على وجهين : أحدهما — هنّ مَحْرَم، لا يحرم النظر إليهنّ . الثانى — أن النظر إليهن مُحَرَّم، لأن تحريم نكاحهن إنما كان حفظًا لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهن ، وكان من حفظ حقه تحريمُ النظر إليهن ؛ ولأن عائشة رضى الله عنها كانت إذا أرادت دخول رجل عليها أمرت أختها أسماء أن ترضعه ليصير آبنًا لأختها من الرضاعة، فيصير مَحْرَمًا يستبيح النظر[1] . وأما اللاتى طلقهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته فقد آختلف فى ثبوت هذه الحرمة لهن على ثلاثة أوجه : أحدها — ثبتت لهن هذه الحرمة تغليبًا لحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . الثانى — لا يثبت لهن ذلك، بل هن كسائر النساء ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد أثبت عصمتهن، وقال : " أزواجى فى الدنيا هنّ أزواجى فى الآخرة " . الثالث — من دخل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم منهن ثبتت حرمتها وحُرِم نكاحها وإن طلقها ؛ حفظًا لحرمته وحراسة لخلوته . ومن لم يدخل بها لم تثبت لها هذه الحرمة ؛ وقد همّ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه برجم آمرأة فارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوّجت فقالت : لم هذا ! وما ضرب علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجابًا ولا سُمّيتُ أمّ المؤمنين ؛ فكفّ عنها عمر رضى الله عنه .

السادسـة — قال قوم : لا يجوز أن يُسَمَّى النبيّ صلى الله عليه وسلم أبًا لقوله تعالى : « ما كان محمدٌ أبَا أحدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ » . ولكن يقال : مِثْل الأب للمؤمنين ؛ كما قال : " إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلّمكم ... " الحديث . خرّجه أبو داود . والصحيح أنه يجوز أن يقال : إنه أبٌ للمؤمنين ؛ أى فى الحُرْمة، وقوله تعالى : « ما كان محمدٌ أبَا أحدٍ مِن رِجالِكم » أى فى النسب . وسيأتى . وقرأ ابن عباس « مِنْ أنفسهم وهو أبٌ لهم وأزواجه » . وسمع عمر هذه القراءة فأنكرها وقال : حُكّها يا غلام ؟ فقال : إنها فى مصحف أُبَىّ ؛ فذهب إليه

(١) راجع جـ ٥ ص ١٠٩ من القرطبي و جـ ٤ ص ١٥٤ شرح الموطأ .

فسأله فقال له أُبَىّ إنه كان يلهينى القرآن و يلهيك الصَّفق[١] بالأسواق؟ وأغلظ لعمر . وقد قيل فى قول لوط عليه السلام «هؤلاء بناتى» : إنما أراد المؤمنات؛ أى تزوّجوهن . وقد تقدّم[٢] .

السابعـة — قال قوم : لا يقال بناته أخوات المؤمنين، ولا لأخوالهن أخوال المؤمنين وخالاتهم . قال الشافعىّ رضى الله عنه : تزوّج الزبير أسماء بنت أبى بكر الصديق وهى أخت عائشة، ولم يقل هى خالة المؤمنين . وأطلق قوم هـذا وقالوا : معاوية خال المؤمنين؛ يعنى فى الحرمة لا فى النسب .

الثامنـة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ يريد الإحسان فى الحياة، والوصية عند الموت؛ أى إن ذلك جائز؛ قاله قتادة والحسن وعطاء . وقال محمد ابن الحنفية: نزلت فى إجازة الوصية لليهودىّ والنّصرانىّ؛ أى يفعل هذا مع الوَلِىّ والقريب و إن كان كافرا؛ فالمشرك وَلِىّ فى النسب لا فى الدّين فيوصى له بوصية . واختلف العلماء هل يجعل الكافر وصيًّا؛ فجوّز بعضٌ ومنع بعض . وردّ النظرَ إلى السلطان فى ذلك بعض؛ منهم مالك رحمه الله تعالى . وذهب مجاهـد وابن زيد والرمّانى إلى أن المعنى : إلى أوليائكم من المؤمنين . ولفظ الآية يَعْضُد هذا المذهب، وتعميم الولىّ أيضا حَسَن . وولاية النسب لا تدفع الكافر، وإنمـا تدفع أن يلقى إليه بالموَدّة كولِىّ الإسلام .

التاسـعة — قوله تعالى : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ « الكتاب » يحتمل الوجهين المذكورين المتقدمين فى « كتاب الله[٣] » . و «مَسْطُورًا» من قولك سطرت الكتاب اذا أثبتـه أسطارا . وقال قتادة : أى مكتوبا عند الله عز وجل ألّا يرث كافرٌ مسلما . قال قتادة : وفى بعض القراءة «كان ذلك عند الله مكتوبا» . وقال القُرظىّ : كان ذلك فى التوراة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾

---

(١) الصفق : التبايع . (٢) راجع جـ ٩ ص ٧٦ . (٣) راجع ص ١٢٤ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ أى عهدهم على الوفاء بما حملوا ، وأن يبشر بعضهم ببعض ، ويصدّق بعضهم بعضا ؛ أى كان مسطورا حين كتب الله ما هو كائن، وحين أخذ الله تعالى المواثيق من الأنبياء . ﴿ وَمِنْكَ ﴾ يا محمد ﴿ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بن مريم ﴾ وإنما خصّ هؤلاء الخمسة وإن دخلوا فى زمرة النبيّين تفضيلا لهم . وقيل : لأنهم أصحاب الشرائع والكتب، وأُولُو العزم من الرسل وأئمة الأمم . ويحتمل أن يكون هذا تعظيما فى قطع الولاية بين المسلمين والكافرين؛ أى هذا مما لم تختلف فيه الشرائع، أى شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . أى كان فى ابتداء الإسلام توارثٌ بالهجرة، والهجرة سبب متأكد فى الدّيانة، ثم توارثوا بالقرابة مع الإيمان وهو سبب وكيد؛ فأما التوارث بين مؤمن وكافر فلم يكن فى دين أحد من الأنبياء الذين أخذ عليهم المواثيق؛ فلا تُداهنوا فى الدين ولا تمالئوا الكفار . ونظيره « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نوحا — الى قوله — ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »(١) . ومِن ترك التفرق فى الدين ترك موالاة الكفار . وقيل : أى النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم كان ذلك فى الكتاب مسطورا ومأخوذا به المواثيق من الأنبياء . ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أى عهدًا وثيقًا عظيما على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالة ، وأن يصدق بعضهم بعضا . والميثاق هو اليمين بالله تعالى؛ فالميثاق الثانى تأكيد للميثاق الأول باليمين . وقيل : الأوّل هو الإقرار بالله تعالى ، والثانى فى أمر النبوّة . ونظير هذا قوله تعالى : « وإذ أخذ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيين لما آتَيْتُكُمْ مِن كِتَابٍ وحكمة ثم جاءكم رسول مصدِّقٌ لِما معكم لتؤمِنُنّ بِهِ وَلتنصُرُنّه قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وأَخَذْتُمْ على ذلِكم إِصْرِى »(٢) الآية . أى أخذ عليهم أن يعلنوا أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعلن محمد صلى الله عليه وسلم أن لا نبيّ بعده . وقدّم محمدا فى الذكر لما روى قتادة عن الحسن عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى «وإذ أخذنا من النبيّين ميثاقهم ومنك ومن نوح» قال : "كنت أوّلهم فى الخلق وآخرهم فى البعث" . وقال مجاهد : هذا فى ظهر آدم عليه الصلاة والسلام .

---

(١) آية ١٣ سورة الشورى .　　(٢) آية ٨١ سورة آل عمران .

قوله تعالى : لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها — ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم ؛ حكاه النقاش . وفى هذا تنبيه ، أى إذا كان الأنبياء يُسألون فكيف من سواهم .

الثانى — ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم ؛ حكاه علىّ بن عيسى .

الثالث — ليسأل الأنبياء عليهم السلام عن الوفاء بالميثاق الذى أخذه عليهم ؛ حكاه ابن شجرة .

الرابع — ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة ؛ وفى التنزيل « فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ » . وقد تقدّم[1] . وقيل : فائدة سؤالهم توبيخ الكفار، كما قال تعالى : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ »[2] . ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وهو عذاب جهنم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾

يعنى غَزْوة الخَنْدق والأحزاب وبنى قُرَيظة[3] ، وكانت حالا شديدة معقبة بنعمة ورخاء وغبطة، وتضمّنت أحكاما كثيرة وآيات باهرات عزيزة ، ونحن نذكر من ذلك بعون الله تعالى ما يكفى فى عشر مسائل :

الأولى — اختلف فى أى سنة كانت ؛ فقال ابن إسحاق : كانت فى شوال من السنة الخامسة . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك رحمه الله : كانت وقعة الخندق سنة أربع ،

(١) راجع جـ ٧ ص ١٦٤ (٢) آية ١١٦ سورة المائدة . (٣) سميت غزوة الخندق لأجل الخندق الذى حفر حول المدينة بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم . وأما تسميتها بالأحزاب فلاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين ، وهم قريش وغطفان واليهود .

وهى و بنو قُريظة فى يوم واحد، و بين بنى قريظة والنَّضير أربع سنين . قال ابن وهب وسمعت مالكا يقول : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتال من المدينة ، وذلك قوله تعالى : « إِذْ جاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ » . قال : ذلك يوم الخندق ، جاءت قريش من ها هنا واليهود من هاهنا والنّجدية من ها هنا . يريد مالك إن الذين جاءوا من فوقهم بنو قريظة، ومن أسفل منهم قريش وغَطفَان . وكان سببها أن نفرا من اليهود منهم كنانة بن الربيع بن أبى الحُقَيق وسلام بن أبى الحقيق وسلام ابن مِشْكم وحُيَيّ بن أخطب النضِريّون وهَوْذة بن قيس وأبو عمار من بنى وائل ، وهم كلهم يهود، هم الذين حزّبوا الأحزاب وألّبوا وجمعوا ، خرجوا فى نفر من بنى النَّضير ونَفَر من بنى وائل فأتوا مكة فدعوا الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وواعدوهم من أنفسهم بعون من انتدب إلى ذلك ، فأجابهم أهل مكة الى ذلك ، ثم خرج اليهود المذكورون الى غَطَفان فدعوهم إلى مثل ذلك فأجابوهم ؛ فخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غَطَفان وقائدهم عُيينة بن حصن بن حُذيفة بن بدر الفَزَارىّ على فَزَارة ، والحارث بن عوف المُرِّى على بنى مُرّة، ومِسعر بن رُخَيلة[1] على أشجع . فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم باجتماعهم وخروجهم شاور أصحابه ، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق فرضى رأيه . وقال المهاجرون يومئذ : سلمان منا . وقال الأنصار : سلمان منا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " سلمان منّا أهل البيت " . وكان الخندق أوّلَ مشهد شهده سلمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ حر . فقال : يارسول الله، إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا؛ فعمل المسلمون فى الخندق مجتهدين ، ونكص المنافقون وجعلوا يتسلّلون لِواذًا[2] فنزلت فيهم آيات من القرآن ذكرها ابن إسحاق وغيره . وكان من فرغ من المسلمين من حصّته عاد إلى غيره ، حتى كمل الخندق . وكانت فيه آيات بينات وعلامات للنبوّات .

قلت : ففى هذا الذى ذكرناه من هذا الخبر من الفقه وهى : —

---

(١) و يقال فيه : « مسعود » . (٢) أى مستخفين ومستترين بعضهم ببعض .

الثانيــة — مشاورة السلطان أصحابَه وخاصّته فى أمر القتال ؛ وقد مضى ذلك فى « آل عمران، والنمل » (١) . وفيه التحصّن من العدوّ بما أمكن من الأسباب واستعمالها ؛ وقد مضى ذلك فى غير موضع . وفيه أن حفر الخندق يكون مقسوما على الناس ؛ فمن فرغ منهم عاون مَن لم يفرُغ ، فالمسلمون يدٌ على من سواهم ؛ وفى البخارىّ ومسلم عن البرَاء بن عازِب قال : لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنّى الغبارُ جِلدة بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعته يرتجِز بكلمات ابن رَواحة ويقول :

اللّهمّ لولا أنت ما آهتدينا * ولا تصدّقنا ولا صلّينا

فأنزِلن سكينةً علَيْنا * وثبّت الأقدام إن لاقَيْنا

وأما ما كان فيه من الآيات وهى : —

الثالثة — فروى النسائى عن أبى سكينة رجلٍ من المحرَّرين (٢) عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق عرضت لهم صخرة حالت بينهم و بين الحفر، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ المِعْول ووضع رداءه ناحية الخندق وقال « وتَمّتْ كلمةُ رَبِّك صِدْقًا» الآية ؛ فندر (٣) ثلث الحجر وسلمان الفارسى قائم ينظر، فبَرَق مع ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم بَرْقةٌ ، ثم ضرب الثانية وقال : « وتمت » الآية ؛ فندَر الثلث الآخر ، فبرقت برقة فرآها سلمان ، ثم ضرب الثالثة وقال : « وتمت كلمة ربك صدقا » الآية ؛ فندر الثلث الباقى ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ رداءه وجلس . قال سلمان : يارسول الله ، رأيتك حين ضربت ، ما تضرب ضربة إلا كانت معها برقة ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رأيتَ ذلك ياسلمان" ؟ فقال : أىْ والذى بعثك بالحق يارسول الله ؛ قال : "فإنى حين ضربت الضربة الأولى رُفعت لى مدائن كِسْرى وماحولها ومدائن كثيرة حتى رأيتها بعينى" — قال له من حضره من أصحابه : يارسول الله ،

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٤٩ وما بعدها . و جـ ١٣ ص ١٩٤ (٢) أى المعتق من النار . (٣) ندر : سقط .

ادع الله أن يفتحها علينا و يغنّمنا ذراريهم[1] ويخرّب بأيدينا بلادهم ؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم — ثم ضربتُ الضربة الثانية فرفعت لى مدائن قَيْصر وما حولها حتى رأيتها بعينى" — قالوا : يا رسول الله ، ادع الله تعالى أن يفتحها علينا و يغنمنا ذراريهم ويخرب بأيدينا بلادهم ؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم — ثم ضربت الضربة الثالثة فرفعت لى مدائن الحبشة وما حولها من القرى حتى رأيتها بعينى" — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك — دعوا الحبشة ما وَدَعوكم وآتركوا الترك ما تركوكم " . وخرجه أيضا عن البَرَاء قال : لما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحفِر الخندق عرض لنا صخرة لا تأخذ فيها المعاول ، فآشتكينا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقى ثوبه وأخذ المِعْول وقال : " باسم الله " فضرب ضربة فكسر ثلث الصخرة ثم قال : " الله أكبر أُعطِيت مفاتيح الشام والله إنى لأبصر إلى قصورها الحمراء الآن من مكانى هذا " قال : ثم ضرب أخرى وقال : " باسم الله " فكسر ثلثا آخر ثم قال : " الله أكبر أعطِيت مفاتيح فارس والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض " . ثم ضرب الثالثة وقال : " باسم الله " فقطع الحجر وقال : " الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إنى لأبصر باب صنعاء " . صححه أبو محمد عبد الحق .

الرابعة — فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق أقبلت قريش فى نحو عشرة آلاف بمن معهم من كِنانة وأهلِ تِهامة ، وأقبلت غَطفان بمن معها من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أُحُد ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى نزلوا بظهر سَلْع[2] فى ثلاثة آلاف وضربوا عسكرهم والخندق بينهم وبين المشركين ، وآستعمل على المدينة آبنَ أُمّ مَكْتوم — فى قول ابن شهاب — وخرج عدوّ الله حُيَيّ بن أَخْطب النضرى حتى أتى كعب بن أسد القُرَظِيّ ، وكان صاحبَ عقد بنى قريظة ورئيسَهم ، وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاقده وعاهده ؛ فلما سمع كعب بن أسد حيَيّ بن أخطب

(١) فى النسائى : « ديارهم » . (٢) سلع : جبل بالمدينة .

أغلق دونه باب حصنه وأبى أن يفتح له ؛ فقال له : افتح لى يا أخى ؛ فقال له : لا أفتح لك ، فإنك رجل مشؤوم ، تدعونى إلى خلاف محمد وأنا قد عاقدته وعاهدته ، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقًا ، فلستُ بناقض ما بينى و بينه . فقال حُيَيّ : افتح لى حتى أكلمك وأنصرف عنك ؛ فقال : لا أفعل ؛ فقال : إنما تخاف أن آكل معك جشيشتك ؛ فغضب كعب وفتح له ؛ فقال : يا كعب ! إنما جئتك بعزّ الدهر ، جئتك بقريش وسادتها وغَطَفان وقادتها ، قد تعاقدوا على أن يستأصلوا محمدا ومن معه ؛ فقال له كعب : جئتنى والله بذل الدهر و بجهام[1] لا غيث فيه ! ويحك ياحُيَيّ ؟ دَعْنى فلستُ بفاعل ما تدعونى إليه ؛ فلم يزل حُيَيّ بكَعْب يَعِده و يَغُرّه حتى رجع إليه وعاقده على خِذلان محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأن يسير معهم ، وقال له حيي بن أخطب : إن انصرفت قريش وغَطفان دخلت عندك بمن معى من اليهود . فلما انتهى خبر كعب وحُيَيّ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث سعد بن عُبادة وهو سيد الخزرج ، وسيّد الأَوْس سعد بن معاذ ، و بعث معهما عبد الله بن رواحة وخَوّات بن جُبير ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " انطلقوا إلى بنى قُريظة فإن كان ماقيل لنا حقا فالحنوا لنا لحَنًا ولا تَفُتّوا فى أعضاد الناس . وإن كان كذبا فاجهروا به للناس " فانطلقوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ماقيل لهم عنهم ، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : لا عهد له عندنا ؛ فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه ؛ وكانت فيه حدّة فقال له سعد بن عُبادة : دع عنك مشاتمتهم ، فالذى بيننا و بينهم أكثر من ذلك ، ثم أقبل سعد وسعد حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جماعة المسلمين فقالا : عَضَل والقارَة — يعرّضان بغدر عَضَل والقارة بأصحاب الرَّجيع خُبيب وأصحابه — فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم . " أبشروا يامعشر المسلمين " وعظم عند ذلك البلاء واشتدّ الخوف ، وأتى المسلمين عدوُّهم من فوقهم يعنى من فوق الوادى من قبل المشرق ، ومن أسفل منهم من بطن الوادى من قبل المغرب ، حتى ظنوا بالله الظنونا ؛ وأظهر المنافقون كثيرا مما كانوا يسرّون ، فمنهم من قال : إن بيوتنا عورة ، فلننصرف إليها ،

---

(١) الجهام : السحاب لا ماء فيه .

فإنا نخاف عليها ؛ وممن قال ذلك : أوْس بن قَيْظي . ومنهم من قال : يَعِدنا محمد أن يفتح كنوز كِسْرى وقَيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه يذهب إلى الغائط ؛ وممن قال ذلك : مُعَتّب بن قُشير أحد بني عمرو بن عوف . فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام المشركون بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر لم يكن بينهم حَرْب إلا الرمى بالنَّبْل والحصى . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه اشتدّ على المسلمين البلاء بعث إلى عُيَيْنة بن حِصن الفَزَارى وإلى الحارث بن عوف المُرِّى وهما قائدا غَطَفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة لينصرفا بمن معهما من غَطفان ويخذلا قريشا ويرجعا بقومهما عنهم . وكانت هذه المقالة مراوضة ولم تكن عقدا؛ فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهما أنهما قد أنابا ورضيا أتى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما وآستشارهما فقالا : يارسول الله ، هذا أمر تحبّه فنصنعه لك ، أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع ، أو أمر تصنعه لنا؟ قال : "بل أمر أصنعه لكم والله ما أصنعه إلا أنّى قد رأيت العرب قد رمتكم عن قَوْس واحدة" فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله، واللهِ لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وما طمِعوا قَطّ أن ينالوا منا ثمرة إلا شِراء أو قِرًى ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزّنا بك نعطيهم أموالنا ! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فسُرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وقال : "أنتم وذاك" . وقال لعيينة والحارث : "انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف" . وتناول سعد الصحيفة وليس فيها شهادة فمحاها .

الخامسة — فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون على حالهم والمشركون يحاصرونهم ولا قتال بينهم ؛ إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد وُدّ العامرىّ من بني عامر بن لُؤَىّ، وعكرمة بن أبي جهل، وهُبَيرة بن أبي وهب، وضِرار بن الخطاب الفِهرىّ . وكانوا فرسان قريش وشجعانهم، أقبلوا حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا : إن هذه لمكيدة ، ما كانت العرب تكيدها . ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق ، فضربوا خيلهم

فاقتحمت بهم ، وجاوزوا الخندق وصاروا بين الخندق و بين سَلْع ، وخرج علىّ بن أبى طالب فى نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثُّغرة التى آقتحموا منها ، وأقبلت الفرسان نحوهم ، وكان عمرو بن عبد وُدّ قد أثبتته الجراح يوم بَدْر فلم يشهد أُحُدًا ، وأراد يوم الخندق أن يرى مكانه ، فلما وقف هو وخيله ، نادى : من يبارز ؟ فبرز له علىّ بن أبى طالب وقال له : ياعمرو ، إنك عاهدت الله فيما بلغنا أنك لا تُدْعَى إلى إحدى خَلّتين إلا أخذت إحداهما ؟ قال نعم . قال : فإنى أدعوك إلى الله والإسلام . قال : لا حاجة لى بذلك . قال : فأدعوك إلى البراز . قال : يا بن أخى ، والله ما أحبّ أن أقتلك لما كان بينى وبين أبيك . فقال له علىّ : أنا والله أحبّ أن أقتلك . فحَمِى عمرو بن عبد وُدّ ونزل عن فرسه ، فعقره وصار نحو علىّ ، فتنازلا وتجاولا وثار النقع بينهما حتى حال دونهما ، فما آنجلى النَّقْع حتى رُئى علىّ على صدر عمرو يقطع رأسه ، فلما رأى أصحابُه أنه قد قتله علىّ اقتحموا بخيلهم الثُّغْرة منهزمين هاربين . وقال علىّ رضى الله عنه فى ذلك :

نصر الحجارَة من سفاهة رأيهِ * ونصرتُ دِينَ محمد بِضراب (١)
نازلتـه فتركته متجدِّلًا (٢) * كالجِذع بين دَكادِكٍ ورَوابى (٣)
وعففتُ عن أثوابه ولو آننى * كنت المقطَّرَ بَزَّنِى أثوابى (٤)
لا تحسِبُنّ الله خاذلَ دينه * ونبيِّه يا معشر الأحزاب

قال آبن هشام : أكثر أهل العلم بالسير (٥) يشك فيها لعلىّ . قال ابن هشام : وألقى عِكرمة ابن أبى جهل رمحه يومئذ وهو منهزم عن عمرو ، فقال حسان بن ثابت فى ذلك :

فـرّ وألقَى لنا رُمْحَه * لعلّك عِكْرِمَ لم تَفْعلِ
ووَلّيت تَعْدُو كعَدْوِ الظَّلِيم * ما إن تجور عن المَعْدِلِ
ولم تُلْق ظهرك مستأنساً * كأن قَفاك قَفَا فُرْعُلِ

(١) فى سيرة ابن هشام : « بصوابى » . (٢) فى سيرة ابن هشام : « فصددت حين تركته ... » .
(٣) المتجدل : اللاصق بالأرض . والدكادك : جمع دكداك ، وهو الرمل اللين . والروابى : جمع رابية ، وهو ما ارتفع من الأرض . (٤) المقطر : الذى ألقى على أحد قطريه ، أى جنبيه . و بزنى : سلبنى وجردنى .
(٥) فى سيرة ابن هشام : « بالشعر » .

قال ابن هشام : فرعل صغير الضباع . وكانت عائشة رضى الله عنها فى حصن بنى حارثة، وأمّ سـعد بن معاذ معها ، وعلى سـعد درع مُقَلَّصة[(١)] قد خرجت منها ذراعه، وفى يده حربته وهو يقـول :

لَبِّثْ قليلاً يلحق الهَيْجَا جَمَلْ * لا بأس بالموت إذا كان الأجَلْ

ورُمى يومئذ سعد بن معاذ بسهم فقطع منـه الأكحل[(٢)] . واختلف فيمن رماه؛ فقيل : رماه حِبّان بن قيس ابنُ العَرِقة[(٣)]، أحد بنى عامر بن لؤىّ ، فلما أصابه قال له : خذها وأنا ابن العَرِقة . فقال له سـعد : عرّق الله وجهك فى النار . وقيـل : إن الذى رماه خفاجة ابن عاصم بن حبان[(٤)]. وقيل : بل الذى رماه أبو أسامة الجُشَمِىّ، حليفُ بنى مخزوم . ولحسان مع صفية بنت عبد المطلب خبر طريف يومئذ؛ ذكره ابن إسحاق وغيره .

قالت صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها : كنا يوم الأحزاب فى حِصن حسان بن ثابت ، وحسان معنا فى النسـاء والصبيان، والنبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى نحر العدوّ لا يستطيعون الانصراف إلينا، فإذا يهودىّ يدور، فقلت لحسان : انزل إليه فاقتله؛ فقال : ما أنا بصاحب هذا يابنة عبد المطلب ! فأخذت عمودا ونزلت من الحصن فقتلته، فقلت : يا حسان، انزل فاسلبه، فلم يمنعنى من سَلَبه إلا أنه رجل . فقال : مالى بسلبه حاجة يا بنـة عبد المطلب ! قال : فنزلت فسلبته . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد أنكر هذا عن حسان جماعةٌ من أهل السِّيَر وقالوا : لو كان فى حسان من الجبن ما وصفتم لهجاه بذلك الذين كان يهاجيهم فى الجاهلية والإسلام، ولَهُجِىَ بذلك ابنه عبد الرحمن؛ فإنه كان كثيرا ما يهاجى الناس من شعراء العرب؛ مثل النجاشى وغيره .

السادسـة — وأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسـلم نعيمُ بن مسعود بن عامر الأشجعىّ فقال : يا رسول الله، إنى قد أسلمتُ ولم يعلم قومى بإسلامى، فمُرْنى بما شئت؛ فقال له رسول

---

(١) مقلصة : مجتمعة منضمة .   (٢) الأكحل : عرق فى وسط الذراع .   (٣) العرقة (بفتح العين وكسر الراء) : أم حبان، واسمها قلابة بنت سعيد بن سـعد تكنى أم فاطمة ، وسميت العرقة لطيب ريحها ، وهى جدّة خديجة .   (٤) فى الأصل : « جبارة » والتصويب عن سيرة ابن هشام وشرح المواهب .

الله صلى الله عليه وسلم : " إنما أنت رجل واحد من غَطَفان فلو خرجتَ نخذّلت عنا إن استطعت كان أحبّ إلينا من بقائك معنا فاخرج فإن الحرب خدعة [1] " . فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قُريظة — وكان ينادمهم فى الجاهلية — فقال : يابنى قريظة ، قد عرفتم وُدّى إياكم ، وخاصّة ما بينى و بينكم ؛ قالوا : قل فلستَ عندنا بمتّهم ؛ فقال لهم : إن قريشا وغَطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، و إن قريشا وغَطَفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه فإن رأوا نُهْزَة [2] أصابوها ، و إن كان غير ذلك لحِقوا ببلادهم وخلّوْا بينكم و بين الرجل ، ولا طاقة لكم به ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُنًا . ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لهم : قد عرفتم وُدّى لكم معشرَ قريش ، وفراق محمدا ، وقد بلغنى أمرٌ أرى من الحق أن أبلّغكموه نصحاً لكم ، فاكتموا علىّ ؛ قالوا نفعل ؛ قال : تعلمون أن معشر يهودَ ، قد نَدِموا على ما كان من خذلانهم محمدا ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد نَدِمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغَطفان رجالا [3] ، ونسلمهم إليك تضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على ما بقى منهم حتى نستأصلهم . ثم أتى غَطَفان فقال مثلَ ذلك . فلما كان ليلة السبت وكان ذلك من صنع الله عز وجل لرسوله والمؤمنين ، أرسل أبو سفيان إلى بنى قريظة عكرمةَ بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان يقول لهم : إنا لسنا بدار مُقام ، قد هلك الخُفّ والحافر ، فاغدوا صبيحة غدٍ للقتال حتى نناجز محمدا ؛ فأرسلوا إليهم إن اليوم يوم السبت ، وقد علمتم ما نال منّا مَن تعدّى فى السبت ، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُنًا ؛ فلما رجع الرسول بذلك قالوا : صَدَقنا واللهِ نعيم بن مسعود ؛ فردّوا إليهم الرسل وقالوا : والله لا نعطيكم رُهُنًا أبدا فاخرجوا معنا إن شئتم و إلا فلا عهد بيننا

---

(١) قوله : « خدعة » فى النهاية لابن الأثير : « يروى بفتح الخاء وضمها مع سكون الدال ، و بضمها مع فتح الدال . فالأوّل معناه : أن الحرب ينقضى أمرها بخدعة واحدة من الخداع ؛ أى أن المقاتل إذا خدع مرة واحدة لم تكن لها إقالة . وهى أفصح الروايات وأصحها . ومعنى الثانى : هو الاسم من الخداع . ومعنى الثالث : أن الحرب تخدع الرجال وتمنيهم ولا تفى لهم ، كما يقال : فلان رجل لعبة وضحكة ؛ أى كثير اللعب والضحك .

(٢) النهزة : الفرصة تجدها من صاحبك .

(٣) فى الأصول : « ... وغطفان رهنا رجالا ونسلمهم إليكم تضربوا أعناقهم ... » والتصويب عن شرح المواهب

و بينكم. فقال بنو قريظة: صدق واللهِ نعيم بن مسعود. وخذل الله بينهم، واختلفت كلمتهم، وبعث الله عليهم رِيحًا عاصفًا فى ليالٍ شديدة البرد؛ فجعلت الريح تقلب آنيتهم وتكفأ قدورهم.

السابعة — فلما اتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم اختلاف أمرهم، بعث حذيفة ابن اليَمَان ليأتيه بخبرهم، فأتاهم واستتر فى غمارهم(١)، وسمع أبا سفيان يقول: يامعشر قريش، ليتعرّف كل امرئ جليسه. قال حذيفة: فأخذت بيد جليسى وقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان. ثم قال أبو سفيان: وَيْلَكُم يا معشر قريش! إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، ولقد هلك الكُرَاع والخُفّ(٢) وأخلفتنا بنو قريظة، ولقينا من هذه الريح ماترون، ما يستمسك لنا بناء، ولا تثبت لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، فارتحلوا فإنى مرتحل؛ ووثب على جمله فما حلّ عقال يده إلا وهو قائم. قال حذيفة: ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لى إذ بعثنى، قال لى: "مُرّ إلى القوم فاعلم ما هم عليه ولا تحدث شيئا" — لقتلته بسهم؛ ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رحيلهم، فوجدته قائما يصلى فى مِرْطٍ لبعض نسائه مراجل — قال ابن هشام: المراجل ضرب من وَشْى اليمن — فأخبرته فحمد الله.

قلت: وخبر حذيفة هذا مذكور فى صحيح مسلم، وفيه آيات عظيمة، رواه جرير عن الأعمش عن إبراهيم التَّيْمِىّ عن أبيه قال: كنا عند حذيفة فقال رجل لو أدركتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتَلْت معه وأبلَيْت. فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك! لقد رأيتُنَا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقُرّ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألَا رجل يأتينى بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة"؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: "ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة"؟ فسكتنا فلم يجبه أحد. فقال: "قم ياحذيفة فأتنا بخبر القوم" فلم أجد بُدًّا إذ دعانى باسمى أن أقوم. قال: "اذهب فأتنى بخبر القوم ولا تَذْعَرْهم(٣) علىّ" قال: فلما وَلّيت من عنده جعلت كأنما

---

(١) مثلث الغين. (٢) الكراع: اسم يجمع الخيل. والخف: اسم يجمع الإبل.

(٣) الذعر: الفزع، يريد لا تعلمهم بنفسك وامش فى خفية لئلا ينفروا منك و يقبلوا علىّ.

أمشى فى حَمَّام[١] حتى أتيتهم ، فرأيت أبا سفيان يَصْلِي ظهره بالنار ، فوضعت سهما فى كَبِد القوس فأردت أن أرْمِيَه ، فذكرتُ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ولا تَذْعَرْهم علىّ" ولو رميته لأصبته ، فرجعت وأنا أمشى فى مثل الحمّام ، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغتُ قُرِرت ، فألبسنى رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضل عباءة كانت عليه يصلّى فيها ، فلم أزل نائما حتى أصبحت ، فلما أصبحت قال : "قم يا نَوْمَانُ" . ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذهب الأحزاب ، رجع إلى المدينة ووضع المسلمون سلاحهم ، فأتاه جبريل صلى الله عليه وسلم فى صورة دِحْيَة بن خليفة الكلبى ، على بغلة عليها قطيفة ديباج فقال له : يا محمد ، إن كنتم قد وضعتم سلاحكم فما وضعت الملائكة سلاحها . إن الله يأمرك أن تخرج إلى بنى قُريظة ، وإنى متقدم إليهم فمزلزل بهم حصونهم . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى : —

الثامنــة — مناديا فنادى : لا يصلّينّ أحد العصر إلا فى بنى قُريظة ؛ فتخوّف ناس فوت الوقت فصلوا دون بنى قُريظة . وقال آخرون : لا نصلّى العصر إلا حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن فاتنا الوقت . قال : فما عنّف واحدا من الفريقين . وفى هذا من الفقه تصويب المجتهدين . وقد مضى بيانه فى « الأنبياء[٢] » . وكان سعد بن معاذ إذا أصابه السهم دعا ربه فقال : اللّهُمّ إن كنتَ أبقيْتَ من حرب قريش فأبقنى لها ؛ فإنه لا قوم أحب أن أجاهدهم من قوم كذّبوا رسولك وأخرجوه . اللّهُمّ وإن كنتَ وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لى شهادة ، ولا تُمِتْنى حتى تقرّ عينى فى بنى قريظة . وروى ابن وهب عن مالك قال : بلغنى أن سعد بن معاذ مَرّ بعائشة رضى الله عنها ونساءٍ معها فى الأُطُم[٣] (فارع)[٤] ، وعليه دِرع مُقَلّصة[٥] مشمّر الكُمّين ، وبه أثر صفرة . وهو يرتجز :

لَبِّثْ قليلًا يُدرك الهَيْجَا جَمَلْ ﴿﴾ لا بأس بالموت إذا حان الأَجَلْ

(١) يقول : كأنما أمشى فى حرّ لم يصبنى برد ولا من تلك الريح الشديدة شىء ببركة توجيه النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) راجع ج ١١ ص ٣١١ (٣) الأطم : حصن مبنىّ بحجارة . (٤) فى الأصل : « فى الأطم الذى فارع » . وفارع حصن بالمدينة ، يقال إنه حصن حسان بن ثابت . (٥) مقلصة : مجتمعة منضمة .

فقالت عائشة رضى الله عنها : لست أخاف أن يصاب سعد اليوم إلا فى أطرافه، فأصيب فى أَكْحَله . وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قالت عائشة رضى الله عنها : ما رأيت رجلا أَجْمَلَ من سعد بن معاذ حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأصيب فى أكحله ثم قال : اللهم إن كان حرب قريظة لم يبق منه شيء فاقبضنى إليك ، وإن كان قد بقيت منه بقية فأبقنى حتى أجاهد مع رسولك أعداءه ؛ فلما حُكِّم فى بنى قُريظة تُوُفِّيَ ؛ ففرح الناس وقالوا : نرجو أن يكون قد استجيبت دعوته .

التاسعة — ولما خرج المسلمون إلى بنى قُريظة أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية علىّ بن أبى طالب ، واستخلف على المدينة ابنَ أمّ مَكْتوم ، ونهض علىّ وطائفة معه حتى أتوا بنى قريظة ونازلوهم ، فسمعوا سبّ الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانصرف علىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يارسول الله ، لا تبلغ إليهم ، وعرّض له . فقال له : "أظنك سمعت منهم شتمى . لو رأونى لكفُّوا عن ذلك" ونهض إليهم فلما رأوه أمسكوا . فقال لهم : "نقضتم العهد يا إخوة القرود أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته" فقالوا : ما كنت جاهلا يا محمد فلا تجهل علينا ؛ ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة . وعرض عليهم سيّدُهم كعب ثلاثَ خصال ليختاروا أيّها شاءوا ؛ إما أن يُسلموا ويتبعوا محمدا على ماجاء به فيَسلموا . قال : وتحرزوا أموالكم ونساءكم وأبناءكم ، فوالله إنكم لتعلمون أنه الذى تجدونه مكتوبا فى كتابكم . وإما أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم ثم يتقدمون فيقاتلون حتى يموتوا من آخرهم ؛ وإما أن تبيِّتوا المسلمين ليلة السبت فى حين طمأنينتهم فتقتلوهم قتلا . فقالوا : أما الإسلام فلا نُسلم ولا نخالف حكم التوراة ، وأما قتل أبنائنا ونسائنا فما جزاؤهم المساكين منا أن نقتلهم ، ونحن لا نتعدّى فى السبت . ثم بعثوا إلى أبى لُبابة ، وكانوا حلفاء بنى عمرو بن عوف وسائر الأوس ، فأتاهم فجمعوا إليه أبناءهم ونساءهم ورجالهم وقالوا له : يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ فقال نعم ، — وأشار بيده إلى حلقه — إنه الذبح إن فعلتم . ثم ندم أبو لبابة فى الحين ، وعلم أنه خان الله ورسوله ، وأنه أمرٌ لا يستره الله عليه عن نبيّه صلى الله عليه وسلم .

فانطلق إلى المدينة ولم يرجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فربط نفسه فى سارِيَة وأقسم ألا يبرح من مكانه حتى يتوب الله عليه فكانت امرأته تَحُلّه لوقت كل صلاة . قال ابن عُيينة وغيره : فيه نزلت «يأيها الذين آمنوا لا تَخُونُوا اللهَ والرسولَ وتخونوا أماناتِكم»[(١)] الآية . وأقسم ألا يدخل أرض بنى قُرَيظة أبدًا مكانًا أصاب فيه الذنب . فلما بلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم مِن فعل أبى لُبابة قال : " أمّا إنه لو أتانى لأستغفرت له وأمّا إذ فعل مافعل فلا أطلقه حتى يطلقه الله تعالى " . فأنزل الله تعالى فى أمر أبى لبابة : « وآخرونَ اعْتَرَفُوا بذنوبِهِم »[(٢)] الآية . فلما نزل فيه القرآن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإطلاقه ، فلما أصبح بنو قُرَيظة نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتواثب الأوْس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يارسول الله ، قد علمتَ أنهم حلفاؤنا ، وقد أسعفتَ[(٣)] عبد الله بن أُبَىّ آبن سلول فى بنى النَّضِير حلفاء الخَزْرج ، فلا يكن حظُّنا أوْكَسَ وأنقص عندك من حَظّ غيرنا ، فهم موالينا . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر الأوْس ألاَ ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم — قالوا بلى . قال — : فذلك إلى سعد بن معاذ " . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ضرب له خيمة فى المسجد ، ليعوده من قريب فى مرضه من جرحه الذى أصابه فى الخندق . فحكم فيهم بأن تُقتل المقاتِلة ، وتُسْبَى الذرية والنساء ، وتقسم أموالهم . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبع أرقعة[(٤)] " . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا إلى موضع بسوق المدينة اليوم — زمن ابن اسحاق — فخندق بها خنادق ، ثم أمر عليه السلام فضربت أعناقهم فى تلك الخنادق ، وقتل يومئذ حُيَيّ بن أَخْطب وكعب بن أسد ، وكانا رأس القوم ، وكانوا من الستمائة إلى السبعمائة . وكان على حُيَيّ حُلّة فُقّاحِيّة[(٥)] قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة ، أنملة أنملة لئلا يُسْلَبها . فلما نظر إلى رسول الله

(١) آية ٢٧ سورة الأنفال . راجع جـ ٧ ص ٣٩٤
(٢) آية ١٠٢ سورة التوبة راجع جـ ٨ ص ٢٤٢ (٣) الاسعاف : قضاء الحاجة .
(٤) أرقعة : جمع رقيع ، والرقيع السماء ؛ سميت بذلك لأنها رقعت بالنجوم .
(٥) أى بلون الورد حين أن يتفتح .

صلى الله عليه وسلم حين أتى به ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبل قال : أما والله ما لمتُ نفسى فى عداوتك .

* ولكنه من يخذل الله يخذل *

ثم قال : يأيها الناس ، لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملْحمة(١) كُتبت على بنى إسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه . وقتل من نسائهم امرأة ، وهى بُنانة امرأة الحكم القُرَظى التى طرحت الرّحى على خَلّاد بن سُويد فقتلته . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل كل من أنبت منهم وترك من لم يُنبت . وكان عطية القُرَظى ممن لم ينبت ، فاستحياه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مذكور فى الصحابة . ووَهب رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت ابن قيس بن شمّاس ولدَ الزّبِير بن باطا فاستحياهم ؛ منهم عبد الرحمن بن الزَّبير أسلم وله صحبة. ووهب أيضا عليه السلام رفاعة بن سَمْوءل القُرَظى لأم المنذر سلمى بنت قيس ، أخت سَليط ابن قيس من بنى النجار ، وكانت قد صلّت إلى القبلتين ؛ فأسلم رفاعة وله صحبة ورواية . وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال : أتى ثابت بن قيس بن شمّاس إلى ابن باطا — وكانت له عنده يد — وقال : قد استوهبتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدك التى لك عندى ، قال : ذلك يفعل الكريم بالكريم ، ثم قال : وكيف يعيش رجل لا ولد له ولا أهل ؟ قال : فأتى ثابت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فأعطاه أهله وولده ؛ فأتى فأعلمه فقال : كيف يعيش رجل لا مال له ؟ فأتى ثابت النبيّ صلى الله عليه وسلم فطلبه فأعطاه ماله ، فرجع إليه فأخبره ؛ قال : ما فعل ابن أبى الحقيق الذى كأن وجهه مرآة صينية ؟ قال : قتل . قال : فما فعل المجلسان ، يعنى بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو ابن قريظة؟ قال : قتلوا . قال : فما فعلت الفئتان؟ قال : قتلتا . قال : برئت ذمتك ، ولن أصبّ فيها دَلْوًا أبدا ، يعنى النخل ، فألحقنى بهم ؛ فأبى أن يقتله فقتله غيره . واليد التى كانت لابن باطا عند ثابت أنه أسره يوم بُعاث فجز ناصيته وأطلقه .

---

(١) الملحمة : الوقعة العظيمة القتل .

العاشرة — وقسم صلى الله عليه وسلم أموال بنى قريظة فأسهم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهما . وقد قيل : للفارس سهمان وللراجل سهم . وكانت الخيل للمسلمين يومئذ ستة وثلاثين فرسا . ووقع للنبيّ صلى الله عليه وسلم من سَبْيِهم ريحانة بنت عمرو بن جنافة (١) أحد بنى عمرو بن قريظة، فلم تزل عنده إلى أن مات صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن غَنيمة قريظة هى أوّل غنيمة قسم فيها للفارس والراجل، وأوّل غنيمة جُعل فيها الخمس . وقد تقدّم أن أوّل ذلك كان فى بعث عبد الله بن جَحْش؛ فالله أعلم . قال : أبو عمر : وتهذيب ذلك أن تكون غنيمة قريظة أوّلَ غنيمة جرى فيها الخمس بعد نزول قوله : «وَٱعلموا أنّمـا غَنِمْتُمْ مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ ولِلرّسولِ » الآية . وكان عبد الله بن جَحْش قد خمس قبل ذلك فى بعثه، ثم نزل القرآن بمثل ما فعله؛ وكان ذلك من فضائله رحمة الله عليه .

وكان فتح قريظة فى آخر ذىَ القعدة وأوّل ذى الحجة من السنة الخامسة من الهجرة . فلما تمّ أمر بنى قريظة أجيبت دعوة الرجل الفاضل الصالح سعد بن معاذ، فانفجر جرحه، وانفتح عرقه، فجرى دمه ومات رضى الله عنه . وهو الذى أتى الحديث فيه : "اهتزّ لموته عَرْشُ الرحمن" يعنى سكان العرش من الملائكة فرِحوا بقدوم رُوحه واهتزوا له . وقال ابن القاسم عن مالك : حدثنى يحيى بن سعيد قال : لقد نزل لموت سعد بن معاذ سبعون ألف مَلَك، ما نزلوا إلى الأرض قبلها . قال مالك : ولم يستشهد يوم الخَنْدق من المسلمين إلا أربعة أو خمسة .

قلت : الذى استُشْهِد يوم الخندق من المسلمين ستةُ نفرٍ فيما ذكر أهل العلم بالسِّيَر: سعد ابن معاذ أبو عمرو من بنى عبد الأشهل، وأنس بن أوْس بن عَتِيك، وعبد الله بن سهل، وكلاهما أيضا من بنى عبد الأشهل، والطّفيل بن النعمان، وثعلبة بن غَنَمة (٢)، وكلاهما من بنى سلمة، وكعب بن زيد من بنى دينار بن النجار، أصابه سهمٌ غَرْبٌ (٣) فقتله، رضى الله عنهم .

(١) ويقال فيه «خنافة» بالخاء المعجمة . (٢) فى المواهب اللدنية والإصابة : «ثعلبة بن عنمة بفتح العين المهملة والنون» . (٣) قال ابن هشام : «سهم غرب، وسهم غرب (بإضافة وغير إضافة) وهو الذى لا يعرف من أين جاء ولا من رمى به» .

وقتل من الكفار ثلاثة : منبّه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار، أصابه سهم مات منه بمكة . وقد قيل : إنما هو عثمان بن أمية بن منبه بن عبيد بن السباق . ونوفل بن عبد الله ابن المغيرة المخزومى ، اقتحم الخندق فتورّط فيه فقتِل ، وغلب المسلمون على جسده ؛ فروِى عن الزهرى أنهم أعطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جسده عشرة آلاف درهم فقال : "لا حاجة لنا بجسده ولا بثمنه" فخلّى بينهم و بينه . وعمرو بن [عبد] ودّ الذى قتله علىٌّ مبارزةً ، وقد تقدّم . واستشهد يوم قُريظة من المسلمين خَلّاد بن سويد بن ثعلبة بن عمرو من بنى الحارث بن الخزرج ؛ طَرحت عليه امرأةٌ من بنى قُريظة رحًى فقتلته . ومات فى الحصار أبو سنان بن محصن بن حُرْثان الأسدى ، أخو عُكّاشة بن مِحْصَن ، فدفنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مقبرة بنى قُريظة التى يتدافن فيها المسلمون السكان بها اليوم . ولم يُصب غير هذين ، ولم يغز كفارُ قريش المؤمنين بعد الخندق . وأسند الدّارِمِىّ أبو محمد فى مسنده : أخبرنا يزيد ابن هارون عن ابن أبى ذِئب عن المَقْبُرِىّ عن عبد الرحمن بن أبى سعيد الخُدْرِىّ عن أبيه قال : حُبسنا يوم الخندق حتى ذهب هَوِىٌّ (١) من الليل حتى كفينا ؛ وذلك قول الله عز وجل : « وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا » فأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بلالًا فأقام فصلى الظهر فأحسن كما كان يصلّيها فى وقتها ، ثم أمره فأقام العصر فصلّاها ، ثم أمره فأقام المغرب فصلّاها ، ثم أمره فأقام العشاء فصلاها ، وذلك قبل أن ينزل : « فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا » خرّجه النسائى أيضا . وقد مضت هذه المسألة فى « طه » (٢) . وقد ذكرنا فى هذه الغَزاة أحكاما كثيرة لمن تأملها فى مسائل عشر . ثم نرجع إلى أول الآى وهى تسع عشرة آية تضمّنت ما ذكرناه .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ يعنى الأحزاب . ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ قال مجاهد : هى الصَّبا ، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم ونزعت فساطيطهم . قال : والجنود الملائكة ولم تقاتل يومئذ . وقال عِكْرمة : قالت الجَنوب للشَّمال ليلة الأحزاب :

(١) الهوى (بالفتح) : الزمان الطويل .		(٢) راجع جـ ١١ ص ١٨٠

انطلق لنصرة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقالت الشمال : إن مَحْوَةَ[1] لا تسرى بليل . فكانت الريح التى أرسلت عليهم الصَّبا . وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نُصرت بالصَّبا وأهلكت عادٌ بالدَّبور" . وكانت هذه الريح معجزةً للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين كانوا قريبا منها ، لم يكن بينهم و بينها إلا عرض الخندق ، وكانوا فى عافية منها ، ولا خبر عندهم بها . ﴿ وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾ وقرئ بالياء ؛ أى لم يرها المشركون . قال المفسرون : بعث الله تعالى عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيل بعضها فى بعض ، وأرسل الله عليهم الرُّعْب ، وكثر تكبير الملائكة فى جوانب العسكر؛ حتى كان سيّدُ كل خِباء يقول : يا بنى فلان هَلُمّ إلىّ فإذا آجتمعوا قال لهم : النّجاءَ النّجاء ؛ لما بعث الله تعالى عليهم من الرعب . ﴿ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ وقرئ «يعملون» بالياء على الخبر، وهى قراءة أبى عمرو . الباقون بالتاء؛ يعنى من حفر الخندق والتحرز من العدوّ .

قوله تعالى : إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ « إذ » فى موضع نصب بمعنى واذكر. وكذا «و إذ قالت طائفة منهم» . «مِنْ فَوْقِكُمْ» يعنى من فوق الوادى، وهو أعلاه من قبل المشرق، جاء منه عَوْف بن مالك فى بنى نصر ، وعُيينة بن حِصْن فى أهل نجد، وطُليحة ابن خُويلد الأسدى فى بنى أسد . « ومِنْ أَسْفَلَ مِنكم » يعنى من بطن الوادى من قبل المغرب ، جاء منه أبو سفيان بن حَرْب على أهل مكة ، و يزيد بن جحش على قريش ، وجاء أبو الأعور السُّلَمى ومعه حُيَيّ بن أخْطب اليهودى فى يهود بنى قريظة مع عامر بن الطُّفَيل من وجه الخندق . ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ أى شَخَصت . وقيل : مالت ؛ فلم تلتفت إلا إلى

(١) محوة : من أسماء الشمال ؛ لأنها تمحو السحاب وتذهب بها ، وهى معرفة لا تنصرف ، ولا تدخلها ألف ولام .

عدوّها دَهَشاً من فَرْط الهَوْل . ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ أى زالت عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الحناجر وهى الحلاقيم ، واحدها حَنْجرة ؛ فلولا أن الحلوق ضاقت عنها لخرجت ؛ قاله قتادة . وقيل : هو على معنى المبالغة على مذهب العرب على إضمار كاد ؛ قال (١) :

إذا ما غَضِبْنَا غَضْـبَةً مُضَـرِيّةً * هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دَمَا

أى كادت تقطر . ويقال : إن الرئة تنفتح عند الخوف فيرتفع القلب حتى يكاد يبلغ الحَنْجرة مثلا ؛ ولهذا يقال للجبان : انتفخ سَحْره . وقيل : إنه مَثَل مضروب فى شدّة الخوف ببلوغ القلوب الحناجر وإن لم تزل عن أماكنها مع بقاء الحياة . قال معناه عكرمة . روى حماد ابن زيد عن أيوب عن عكرمة قال : بلغ فزعها . والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضربانه ، أى كأنه لشدّة اضطرابه بلغ الحنجرة . والحنجرة والحُنْجور (بزيادة النون) حرف الحلق . ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ﴾ قال الحسن : ظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون ، وظن المؤمنون أنهم يُنصرون . وقيل : هو خطاب للمنافقين ؛ أى قلتم هلك محمد وأصحابه . وآختلف القراء فى قوله تعالى « الظنونا ، والرسولا ، والسبيلا » آخر السورة ؛ فأثبَت ألفاتها فى الوقف والوصل نافع وابن عامر . وروى عن أبى عمرو والكسائى تمسكا بخط المصحف ، مصحف عثمان ، وجميع المصاحف فى جميع البلدان . وآختاره أبو عبيد ؛ إلا أنه قال : لا ينبغى للقارئ أن يدرج القراءة بعدهن لكن يقف عليهن . قالوا : ولأن العرب تفعل ذلك فى قوافى أشعارهم ومصاريعها ؛ قال :

نحن جلبنا القُرّح (٢) القوافِلَا * تستنفر الأواخرُ الأوائلا

وقرأ أبو عمرو والجَحْدَرِىّ ويعقوب وحمزة بحذفها فى الوصل والوقف معاً . قالوا : هى زائدة فى الخطّ كما زيدت الألف فى قوله تعالى : « وَلَأَوْضَعُوا (٣) خِلَالَكُمْ » فكتبوها كذلك ، وغير هذا . وأما الشعر فموضع ضرورة ، بخلاف القرآن فإنه أفصح اللغات ولا ضرورة فيه . قال ابن الأنبارى : ولم يخالف المصحف من قرأ « الظنون . والسبيل . والرسول » بغير ألف

(١) القائل هو بشار بن برد .　　(٢) القرح : جمع القارح ، وهى الناقة أول ما تحمل .
(٣) هذا يدل على أن رسم المصحف : «ولا أوضعوا» بزيادة ألف .

فى الحروف الثلاثة ، وخطّهن فى المصحف بألف لأن الألف التى فى « أطعنا » والداخلة فى أوّل « الرسول . والظنون . والسبيل » كفىء من الألف المتطرفة المتأخرة كما كَفَتْ ألفُ أبى جادٍ من ألف هوّاز . وفيه حجة أخرى : أن الألف أنزلت منزلة الفتحة وما يُلحق دِعامة للحركة التى تسبق والنية فيه السقوط ؛ فلما عُمل على هذا كانت الألف مع الفتحة كالشىء الواحد يوجب الوقفُ سقوطَهما ويعمل على أن صورة الألف فى الخط لا توجب موضعا فى اللفظ ، وأنها كالألف فى « سٰحِران » وفى « فٰطِر السموات والأرض » وفى «وٰعَدْنَا مُوسَى» وما يشبههن مما يُحذف من الخط وهو موجود فى اللفظ ، وهو مسقط من الخط[1] . وفيه حجة ثالثة هى أنه كتب على لغة من يقول لقيت الرجلا . وقرئ على لغة من يقول : لقيت الرجل ، بغير ألف . أخبرنا أحمد بن يحيى عن جماعة من أهل اللغة أنهم رووا عن العرب قام الرّجلُو ، بواو ، ومررت بالرجلى ، بياء ، فى الوصل والوقف . ولقيت الرجلا ، بألف فى الحالتين كلتيهما . قال الشاعر :

أسائلةٌ عُميرةُ عن أبيها * خلالَ الجيش تَعْتَرِف الرّكابا[2]

فأثبت الألف فى « الركاب » بناء على هذه اللغة . وقال الآخر :

إذا الجوزاء أردفت الثريّا * ظننت بآل فاطمة الظنونا

وعلى هذه اللغة بنى نافع وغيره . وقرأ ابن كَثير وابن مُحَيْصن والكسائىّ بإثباتها فى الوقف وحذفها فى الوصل . قال ابن الأنبارىّ : ومن وصل بغير ألف ووقف بألف فجائز أن يحتج بأن الألف احتاج إليها عند السكت حرصًا على بقاء الفتحة ، وأن الألف تدعمها وتقويها .

قوله تعالى : هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾

« هنا » للقريب من المكان . و « هنالك » للبعيد . و « هناك » للوسط . ويشار به إلى الوقت ؛ أى عند ذلك اختبر المؤمنون ليتبين المخلص من المنافق . وكان هذا الابتلاء بالخوف والقتال والجوع والحصر والنزال . ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أى حرّكوا تحريكًا .

(١) فى الأصول : « وهو موجود فى اللفظ ويثبت فى اللفظ وهو ... » .
(٢) البيت لبشر بن أبى خازم . وراءه ف القوم : سألهم .

قال الزجاج: كل مصدر من المضاعف على فِعلال يجوز فيه الكسر والفتح؛ نحو قلقلته قِلقالا وقَلقالا، وزلزلوا زِلزالًا وزَلزالًا . والكسر أجود؛ لأن غير المضاعف على الكسر نحو دحرجته دِحراجا . وقراءة العامة بكسر الزاى . وقرأ عاصم والجَحْدَرِىّ « زَلزالا » بفتح الزاى . قال ابن سلام : أى حرّكوا بالخوف تحريكا شديدا . وقال الضحاك : هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق . وقيل : إنه ٱضطرابهم عما كانوا عليه؛ فمنهم من اضطرب فى نفسه ومنهم من اضطرب فى دينه . و « هنالك » يجوز أن يكون العامل فيه « ٱبْتُلِيَ » فلا يوقف على «هنالك» . و يجوز أن يكون « وتظنون بِاللهِ الظنونا » فيوقف على «هنالك» .

قوله تعالى : وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى شكّ ونفاق . ﴿ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أى باطلا من القول . وذلك أن طُعْمة بن أُبَيْرِق ومُعَتِّب ٱبن قُشير وجماعة نحو من سبعين رجلا قالوا يوم الخندق : كيف يَعِدُنا كنوزَ كِسْرى وقَيْصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرّز ؟ وإنما قالوا ذلك لما فَشَا فى أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم من قوله عند ضرب الصخرة، على ما تقدّم فى حديث النسائىّ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا ﴾ الطائفة تقع على الواحد فما فوقه . وعُنِى به هنا أَوْس بن قَيْظِىّ والد عَرَابة بن أَوْس؛ الذى يقول فيه الشّمّاخ :

إذا ماراية رُفِعت لمجْد * تلقّاها عَرابةُ باليمين

و «يثرب» هى المدينة؛ وسمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم طَيْبة وطابة . وقال أبو عبيدة : يثرب اسم أرض والمدينة ناحية منها . السُّهَيْلِيّ : وسميت يثرب لأن الذى نزلها من العماليق اسمــه يثرب بن عميل بن مهلائيل بن عوض بن عملاق بن لاوذ بن إرم . وفى بعض هــذه الأسماء اختلاف . وبنو عميل(١) هم الذين سكنوا الجُحْفَة(٢) فأجحفت بهم السيول فيها. وبها سميت الجحفة . ﴿ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ بفتح الميم قراءة العامّة . وقرأ حفص والسُّلَمِىّ والجَحْدَرِى وأبو حَيْوَة بضم الميم؛ يكون مصدرا من أقام يقيم، أى لا إقامة، أو موضعاً يقيمون فيه . ومن فتح فهو اسم مكان؛ أى لا موضع لكم تقيمون فيه. ﴿ فَٱرْجِعُوا ﴾ أى إلى منازلكم . أمروهم بالهروب من عسكر النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : قالت اليهود لعبد الله بن أُبَىّ ٱبن سَلُول وأصحابِه من المنافقين : ما الذى يحملكم على قتــل أنفسكم بيد أبى سفيان وأصحابه ! فارجعوا إلى المدينة فإنا مع القوم فأنتم آمنون .

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ ﴾ فى الرجوع إلى منازلهم بالمدينة، وهم بنو حارثة ابن الحارث، فى قول ابن عباس . وقال يزيد بن رُومان : قال ذلك أَوْس بن قَيْظِىّ عن ملأ من قومه . ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ أى سائبة ضائعة ليست بحصينة، وهى مما يلى العدوّ . وقيــل : مُمْكِنة للسّراق لخلوها من الرجال . يقــال : دارٌ مُعْوِرة وذات عَوْرة إذا كان يسهل دخولها . يقال : عَوِر المكان عَوَرًا فهو عَوِر . وبيوت عَوِرة . وأعْور فهو مُعوِر . وقيل : عَوِرة ذات عَوْرة . وكل مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عَوْرة؛ قاله الهَرَوِىّ . وقرأ ابن عباس وعِكرمة ومجاهد وأبو رَجَاء العُطَارِدىّ « عَوِرة » بكسر الواو؛ يعنى قصيرة الجدران فيها خلل . تقول العرب : دار فلانٍ عَوِرة إذا لم تكن حصينة . وقــد أعور الفارِس إذا بَدَا فيــه خَلَل للضرب والطعن؛ قال الشاعر :

متى تَلْقَهــم لم تَلْق فى البيت مُعْــوِراً * ولا الضيفَ مفجوعاً ولا الجارَ مُرْمِلَا

(١) فى كتاب معجم البلدان لياقوت : «يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليــه السلام» . (٢) فى معجم البلدان : « وقال الكلبى : أن العماليق أخرجوا بنى عقيل وهم أخوة عاد فنزلوا الجحفة ... » .

الجوهرى : والعَوْرة كل خَلَل يُتَخَوَّف منه فى ثغر أو حرب . النحاس : يقال أعور المكان إذا تُبُيِّنت فيه عورة، وأعور الفارس إذا تُبُيِّن فيه موضعُ الخلل . المَهْدَوى : ومن كسر الواو فى «عورة» فهو شاذ؛ ومثله قولهم : رجل عوِر[(1)]؛ أى لا شىء له، وكان القياس أن يُعَلّ فيقال : عارٍ؛ كيوم راحٍ، ورجلٍ مالٍ[(2)]؛ أصلهما روِح ومَوِل . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ تكذيبا لهم وردًّا عليهم فيما ذكروه . ﴿ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً ﴾ أى ما يريدون إلا الهرب . قيل : من القتل . وقيل : من الدِّين . وحكى النّقاش أن هذه الآية نزلت فى قبيلتين من الأنصار : بنى حارِثة وبنى سَلِمة؛ وهَمُّوا أن يتركوا مراكزهم يوم الخندق، وفيهم أنزل الله تعالى : «إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا[(3)]» الآية . فلما نزلت هذه الآية قالوا : واللهِ ما ساءنا ما كنا هَمَمْنا به؛ إذ الله وَلِيُّنا . وقال السُّدّى : الذى استأذنه منهم رجلان من الأنصار من بنى حارثة أحدهما — أبو عَرَابة بن أوْس، والآخر أوْس بن قَيْظِىّ . قال الضحاك : ورجع ثمانون رجلا بغير إذنه .

قوله تعالى : وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَآ إِلَّا يَسِيراً ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ﴾ وهى البيوت أو المدينة؛ أى من نواحيها وجوانبها، الواحد قُطْر، وهو الجانب والناحية . وكذلك القُتْر لغة فى القطر . ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا ﴾ أى لجاءوها؛ هذا على قراءة نافع وابن كثير بالقصر . وقرأ الباقون بالمدّ؛ أى لأعطوها من أنفسهم، وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقد جاء فى الحديث أن أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم كانوا يعذَّبون فى الله ويُسألون الشرك، فكلٌّ أعطى ما سألوه إلا بلالا . وفيه دليل على قراءة المدّ، من الإعطاء . ويدل على قراءة القصر قوله : «وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ

(1) اضطربت الأصول هنا؛ فقد ذكر فى نسخة : «رجل أعور أى لا شىء له» . وفى نسخة أخرى : «رجل عور كور ...» بالكاف . وفى ثالثة : «رجل عور لور ...» باللام . ولعل الكلمة الأخيرة اتباع؛ على أننا لم نجدها فى مظانها .　(2) أى ذو ريح وذو مال .　(3) آية ١٢٢ سورة آل عمران .

لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ »؛ فهذا يدل على «لَأَتَوْها» مقصورا. وفى «الفتنة» هنا وجهان: أحدهما — سئلوا القتال فى العصبية لأسرعوا اليه؛ قاله الضحاك. الثانى — ثم سئلوا الشرك لأجابوا إليه مسرعين؛ قاله الحسن. ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا ﴾ أى بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلا حتى يهلكوا؛ قاله السُّدّى والقُتَبِىّ والحسن والفراء. وقال أكثر المفسرين: أى وما احتبسوا عن فتنة الشرك إلا قليلا ولأجابوا بالشرك مسرعين؛ وذلك لضعف نياتهم ولفرط نفاقهم؛ فلو اختلطت بهم الأحزاب لأظهروا الكفر.

قوله تعالى: وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل غَزْوة الخندق وبعد بَدْر. قال قتادة: وذلك أنهم غابوا عن بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر، فقالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلنّ. وقال يزيد بن رُومان: هم بنو حارثة، همّوا يوم أُحُد أن يفشلوا مع بنى سَلِمة، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها فذكر الله لهم الذى أعطوه من أنفسهم. ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ أى مسئولا عنه. قال مُقاتل والكَلْبى: هم سبعون رجلا بايعوا النبىّ صلى الله عليه وسلم ليلَة العَقَبة وقالوا: اشترط لنفسك ولربّك ماشئت. فقال: "أشترط لربّى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأموالكم وأولادكم" فقالوا: فمالنا إذا فعلنا ذلك يا نبىّ الله. قال: "لكم النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة". فذلك قوله تعالى: « وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا » أى أن الله ليسألهم عنه يوم القيامة.

قوله تعالى: قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ لَنْ يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ أى مَن حضر أجلُه مات أو قُتل؛ فلا ينفع الفِرَارُ . ﴿وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى فى الدنيا بعد الفِرار إلى أن تنقضى آجالكم؛ وكل ما هو آتٍ فقريب . وروى السّاجى عن يعقوب الحضرمىّ «وإذًا لا يُمَتَّعُونَ» بياء . وفى بعض الروايات « وإذا لا تمتعوا » نصب بـ«إذًا» والرفع بمعنى ولا تمتعون . و « إذًا » ملغاة، ويجوز إعمالها . فهذا حكمها إذا كان قبلها الواو والفاء . فإذا كانت مبتدأة نَصَبْت بها فقلت : إذًا أكرمَك .

قوله تعالى : قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ﴾ أى يمنعكم منه . ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ أى هلاكا . ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أى خيراً ونصراً وعافية . ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أى لا قريبًا ينفعهم ولا ناصرًا ينصرهم .

قوله تعالى : قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ أى المعترضين منكم لأن يصدّوا الناس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ وهو مشتق من عاقنى عن كذا أى صرفنى عنه . وعوّق ، على التكثير﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ على لغة أهل الحجاز . وغيرهم يقولون : « هَلُمُّوا » للجماعة ، وهَلُمِّى للمرأة ؛ لأن الأصل : « ها » التى للتنبيه ضُمّت إليها «لُمّ» ثم حُذفت الألف استخفافًا وبُنيت على الفتح . ولم يجز فيها الكسر ولا الضم لأنها لا تتصرف . ومعنى «هَلُم» أقبل ؛ وهؤلاء طائفتان ؛ أى منكم من يثبّط ويعوّق . والعَوْق المنع والصرف ؛ يقال : عاقه يعوقه عَوْقًا ، وعوّقه واعتاقه بمعنى واحد . قال مُقاتل : هم عبد الله بن أُبَىّ وأصحابه المنافقون .

« والقائلين لإخوانهم هَلُمَّ » فيهم ثلاثة أقوال : أحدها — أنهم المنافقون ؛ قالوا للمسلمين : ما محمد وأصحابه إلا أَكَلة رأس[1] ، وهو هالك ومن معه ، فهلم إلينا . الثانى — أنهم اليهود من بنى قريظة ؛ قالوا لإخوانهم من المنافقين : هَلُمَّ إلينا ؛ أى تعالَوْا إلينا وفارقوا محمدا فإنه هالك ، وإن أبا سفيان إن ظَفِر لم يُبق منكم أحدا . والثالث — ما حكاه ابن زيد أن رجلا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم بين الرماح والسيوف ؛ فقال أخوه — وكان من أمّه وأبيه — هلم إلىّ ، قد تُبع بك وبصاحبك ؛ أى قد أحيط بك وبصاحبك . فقال له : كذبت ، والله لأخبرنه بأمرك ؛ وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره ، فوجده قد نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله تعالى : « قد يعلم اللهُ المُعَوِّقين منكم والقائِلين لإخوانهم هَلُمَّ إلينا » . ذكره الماوَرْدِىّ والثعلبىّ أيضا . ولفظه : قال ابن زيد هذا يوم الأحزاب ، انطلق رجل من عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فوجد أخاه بين يديه رغيف وشِواء ونبيذ ؛ فقال له : أنت فى هذا ونحن بين الرماح والسيوف ؟ فقال : هَلُمَّ إلى هذا فقد تبع لك ولأصحابك ، والذى تحلف به لا يستقلّ بها محمد أبدا . فقال : كذبت . فذهب إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم يخبره فوجده قد نزل عليه جبريل بهذه الآية . ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ خوفاً من الموت . وقيل : لا يحضرون القتال إلا رِياءً وسُمْعة .

قوله تعالى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (١٩)

قوله تعالى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أى بخلاء عليكم ؛ أى بالحفر فى الخندق والنفقة فى سبيل الله ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقيل : بالقتال معكم . وقيل : بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم .

---

(١) أى هم قليل يشبعهم رأس واحد ؛ وهو جمع آكل .

وقيل : أشِحَّةً بالغنائم إذا أصابوها ؛ قاله السُّدِّى . وانتصب على الحال . قال الزجاج : ونصبه عند الفَرّاء من أربع جهات : إحداها — أن يكون على الذم ؛ ويجوز أن يكون عنده نصبًا بمعنى يعوّقون أشحةً . ويجوز أن يكون التقدير : والقائلين أشحةً . ويجوز عنده [« ولا يأتون البأس إلا قليلا » أشحة ؛ أى أن يأتونه أشحة على الفقراء بالغنيمة(١)] . النحاس : ولا يجوز أن يكون العامل فيه « المعوقين » ولا « القائلين » ؛ لئلا يفرق بين الصلة والموصول . ابن الأنبارى : « إلا قليلاً » غير تام ؛ لأن « أشحة » متعلق بالأول ، فهو ينتصب من أربعة أوجه : أحدها — أن تنصبه على القطع من « المعوّقين » كأنه قال : قد يعلم الله الذين يعوقون عن القتال ويشِحّون عن الإنفاق على فقراء المسلمين . ويجوز أن يكون منصوبا على القطع من « القائلين » أى وهم أشحّة . ويجوز أن تنصبه على القطع مما فى «يأتون» ؛ كأنه قال : ولا يأتون البأس إلا جبناء بخلاء . ويجوز أن تنصب «أشحة» على الذمّ . فمن هذا الوجه الرابع يحسن أن تقف على قوله : « إلا قليلاً » . « أشحّةً عليكم » وقف حسن . ومثله « أشحةً على الخيرِ » حال من المضمر فى « سلقوكم » وهو العامل فيه .

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ وصفهم بالجبن ؛ وكذا سبيل الجبان ينظر يمينا وشمالا محدّدا بصره ، وربما غُشى عليه . وفى «الخوف» وجهان : أحدهما — من قتال العدوّ إذا أقبل ؛ قاله السدّى . الثانى — الخوف من النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا غلب ؛ قاله ابن شجرة . « رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ » خوفاً من القتال على القول الأول . ومن النبىّ صلى الله عليه وسلم على الثانى . « تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ » لذهاب عقولهم حتى لا يصح منهم النظر إلى جهة . وقيل : لشدّة خوفهم حذرا أن يأتيهم القتل من كل جهة .

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ وحكى الفراء « صلقوكم » بالصاد . وخطيبٌ مِسْلاق ومِصْلاق إذا كان بليغاً . وأصل الصَّلْق الصوت ؛ ومنه قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لعن الله الصّالقة والحالقة والشاقّة" . قال الأعشى :

(١) ما بين المربعين من كتاب النحاس وهو واضح . وعبارة الأصول : « ولا يأتون البأس إلا قليلا ، يأتونه أشحة ؛ أى أشحة على الفقراء بالغنيمة جبناء » .

فيهم المجد والسماحة والنجـ * ـدة فيهم والخاطب السَّلاق[١]

قال قتادة : ومعناه بسطوا ألسنتهم فيكم فى وقت قسمة الغنيمة ، يقولون : أعطنا أعطنا فإنا قد شهدنا معكم . فعند الغنيمة أشحّ قومٍ وأبسطهم لسانًا ، ووقت اليأس أجبن قومٍ وأخوفهم . قال النحاس : هذا قول حسن ؛ لأن بعده « أَشِحَّةً على الخير »[٢] . وقيل : المعنى بالغوا فى مخاصمتكم والاحتجاج عليكم . وقال القُتَبِيّ : المعنى آذوكم بالكلام الشديد . والسّلق الأذى . ومنه قول الشاعر :

ولقد سلقنا هوازنا * بنواهلٍ حتى انحنينا

« أَشِحَّةً عَلَى الخير » أى على الغنيمة ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : على المال أن ينفقوه فى سبيل الله ؛ قاله السدّى . « أولئك لَمْ يُؤْمِنُوا » يعنى بقلوبهم وإن كان ظاهرهم الإيمان ؛ والمنافق كافر على الحقيقة لوصفهم الله عز وجل بالكفر . ﴿ فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى لم يثبهم عليها ؛ إذ لم يقصدوا وجه الله تعالى بها . ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — وكان نفاقهم على الله هيّنًا . الثانى — وكان إحباط عملهم على الله هيّنًا .

قوله تعالى : يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ أى لجبنهم ؛ يظنون الأحزاب لم ينصرفوا وكانوا انصرفوا ، ولكنهم لم يتباعدوا فى السير . ﴿ وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ ﴾ أى وإن يرجع الأحزاب إليهم للقتال . ﴿ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ ﴾ تمنوا أن يكونوا مع الأعراب حذرًا من القتل وتربّصًا للدوائر . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « لو أنهم بُدًّى فِى الأعرابِ » ؛ يقال : بادٍ وبُدًّى ؛ مثل غازٍ وغُزًّى . ويُمَدّ مثل صائم وصوّام . بدا فلان يبدو إذا خرج

(١) ويروى : « المسلاق » .
(٢) فى الأصول : « أشحة عليكم » .

إلى البادية . وهى البِداوة والبَداوة؛ بالكسر والفتح . وأصل الكلمة من البَدْو وهو الظهور .
﴿ يَسْأَلُونَ ﴾ وقرأ يعقوب فى رواية رُوَيس « يتساءلون عن أنبائكم » أى عن أخبار النبيّ صلى الله عليه وسلم . يتحدّثون : أمَا هلك محمد وأصحابه ! أمَا غلب أبو سفيان وأحزابه ! أى يودّوا لو أنهم بادون سائلون عن أنبائكم من غير مشاهدة القتال لفرط جبنهم . وقيل : أى هم أبدًا لجبنهم يسألون عن أخبار المؤمنين، وهل أصيبوا . وقيل : كان منهم فى أطراف المدينة من لم يحضر الخندق، جعلوا يسألون عن أخباركم ويتمنون هزيمة المسلمين . ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى رميًا بالنبل والحجارة على طريق الرياء والسمعة؛ ولو كان ذلك لله لكان قليله كثيرا .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ هذا عتاب للمتخلفين عن القتال؛ أى كان لكم قدوة فى النبيّ صلى الله عليه وسلم حيث بذل نفسه لنصرة دين الله فى خروجه إلى الخندق . والأُسْوة القُدْوة . وقرأ عاصم « أُسْوة » بضم الهمزة . الباقون بالكسر؛ وهما لغتان . والجمع فيهما واحد عند الفرّاء . والعلة عنده فى الضم على لغة من كسر فى الواحدة الفرقُ بين ذوات الواو وذوات الياء؛ فيقولون كِسْوة وكُسًا، ولِحْية ولُحًى .
الجوهري : والأسوة والإسوة بالضم والكسر لغتان . والجمع أُسًى وإسًى . وروى عقبة ابن حسان الهجرى عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر « لقد كان لكم فِي رسولِ اللهِ أسوة حسنة » قال : فى جوع النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ ذكره الخطيب أبو بكر أحمد وقال: تفرد به عقبة بن حسان عن مالك، ولم أكتبه إلا بهذا الإسناد .

الثانية — قوله تعالى: ﴿ أُسْوَةٌ ﴾ الأسوة القدوة. والأسوة ما يتأسّى به؛ أى يُتعزّى به، فيقتدَى به فى جميع أفعاله ويتعزّى به فى جميع أحواله؛ فلقد شُجّ وجهه، وكسرت رباعيته،

وقُتل عمه حمزة، وجاع بطنه، ولم يُلْفَ إلا صابرا محتسباً، وشاكرا راضيا . وعن أنس ابن مالك عن أبى طلحة قال : شَكَوْنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفعنا [عن بطوننا] (١) عن حَجَر حجر، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين . خرّجه أبو عيسى الترمذى وقال فيه : حديث غريب . وقال صلى الله عليه وسلم لما شُجّ : "اللَّهمّ اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون" وقد تقدّم . ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ قال سعيد بن جُبير : المعنى لمن كان يرجو لقاء الله بإيمانه ويصدّق بالبعث الذى فيه جزاء الأفعال . وقيل : أى لمن كان يرجو ثواب الله فى اليوم الآخر . ولا يجوز عند الحذاق من النحويين أن يكتب « يرجو » إلا بغير ألف إذا كان لواحد؛ لأن العلة التى فى الجمع ليست فى الواحد. ﴿ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ خوفا من عقابه ورجاء لثوابه . وقيل : إن « لِمن » بدل من قوله : « لكم » ولا يجيزه البصريون؛ لأن الغائب لا يُبدل من المخاطب ، وإنما اللام من « لِمن » متعلقة بـ«حسنة» و«أسوة» اسم « كان» و«لكم» الخبر . وآختلف فيمن أريد بهذا الخطاب على قولين : أحدهما — المنافقون؛ عطفًا على ماتقدّم من خطابهم . الثانى — المؤمنون؛ لقوله : « لِمن كان يَرْجُو اللهَ والْيَوْمَ الآخِرَ » .

وآختلف فى هذه الأسوة بالرسول عليه السلام، هل هى على الإيجاب أو على الاستحباب؛ على قولين: ﴿ أحدهما — على الإيجاب حتى يقوم دليل على الاستحباب . الثانى — على الاستحباب حتى يقوم دليل على الإيجاب . ويحتمل أن يحمل على الإيجاب فى أمور الدين، وعلى الاستحباب فى أمور الدنيا .

قوله تعالى : وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ ﴾ ومن العرب من يقول : « راء » على القلب . ﴿ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ ﴾ يريد قوله تعالى فى سورة البقرة : « أم حَسِبْتُمْ أَنْ

(١) زيادة عن سنن الترمذى .

تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ (١) » الآية . فلما رأوا الأحزاب يوم الخندق قالوا : هذا ماوعدنا الله ورسوله » ؛ قاله قتادة . وقول ثانٍ رواه كثير بن عبد الله بن عمرو المزنى عن أبيه عن جده قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ذكرت الأحزاب فقال : "أخبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها — يعنى على قصور الحيرة ومدائن كسرى — فأبشروا بالنصر" فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله ، موعد صادق ؛ إذ وُعدنا بالنصر بعد الحصر . فطلعت الأحزاب فقال المؤمنون : «هذا ماوعدنا الله ورسوله» ذكره الماوردى . و « ما وعدنا » إن جعلت « ما » بمعنى الذى فالهاء محذوفة . و إن جعلتها مصدرا لم تحتج إلى عائد ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾ قال الفراء : وما زادهم النظر إلى الأحزاب . وقال على بن سليمان : « رأى » يدل على الرؤية ، وتأنيث الرؤية غير حقيقى ؛ والمعنى : ما زادهم الرؤية إلا إيمانا بالرب وتسليما للقضاء ؛ قاله الحسن . ولو قال : ما زادوهم لجاز . ولما اشتدّ الأمر على المسلمين وطال المقام فى الخندق ، قام عليه السلام على التّل الذى عليه مسجد الفتح فى بعض الليالى ، وتوقع ما وعده الله من النصر وقال : "مَن يذهب ليأتينا بخبرهم وله الجنة" فلم يجبه أحد . وقال ثانيا وثالثا فلم يجبه أحد ، فنظر إلى جانبه وقال : "من هذا" ؟ فقال حذيفة . فقال : "ألم تسمع كلامى منذ الليلة" ؟ قال حذيفة : فقلت يا رسول الله ، منعنى أن أجيبك الضُّرّ والقرّ . قال : "انطلق حتى تدخل فى القوم فتسمع كلامهم وتأتينى بخبرهم اللّهمّ احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى تردّه إلىّ . انطلق ولا تُحدِث شيئا حتى تأتينى" . فانطلق حذيفة بسلاحه ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده يقول : "يا صريخ المكروبين و يا مجيب المضطرين اكشف هَمى وغَمى وكَربى فقد ترى حالى وحال أصحابى" . فنزل جبريل وقال : "إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هَوْل عدوّك" فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه و بسط يديه وأرخى عينيه وهو يقول : "شكرًا شكرًا كما رحِمتنى ورحِمت أصحابى" . وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليهم ريحا ؛ فبشّر أصحابه بذلك .

---

(١) آية ٢١٤ راجع جـ ٣ ص ٣٣

قال حذيفة : فانتهيت إليهم وإذا نيرانهم تتقد؛ فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء، فما تركت لهم نارا إلا أطفأتها ،لابناء إلا اطرحته، وجعلوا يتترّسون من الحصباء . وقام أبو سفيان إلى راحلته وصاح فى قريش : النَّجاء النجاء ! وفعل كذلك عُيينة بن حِصن والحارث بن عوف والأقرع ابن حابس . وتفرّقت الأحزاب، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد إلى المدينة وبه من الشَّعَث ما شاء الله ، فجاءته فاطمة بغَسول فكانت تغسل رأسه ، فأتاه جبريل فقال : "وضعت السلاح ولم تضعه أهل السماء مازلت أتبعهم حتى جاوزتُ بهم الرَّوْحاء — ثم قال — انهض إلى بنى قريظة" . وقال أبو سفيان : مازلت أسمع قَعْقَعة السلاح حتى جاوزت الروحاء .

قوله تعالى : مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَـٰهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ رفع بالابتداء، وصَلَح الابتداء بالنكرة لأن «صدقوا» فى موضع النعت . ﴿فَمِنْهُم مَّنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ . « من » فى موضع رفع بالابتداء . وكذا « ومِنْهُم مَنْ يَنْتَظِرُ » والخبر فى المجرور . والنَّحْب النذر والعهد ؛ تقول منه : نَحَبت أَنْحُب؛ بالضم . قال الشاعر :

وإذا نحبت كَلْبٌ على الناس إنهم * أحــق بتاج الماجد المتكرم

وقال آخر :

* قد نَحَب المجدُ علينا نَحْبا *[1]

وقال آخر :

* أَنَحْبٌ فيقضَى أم ضلالٌ وباطلُ *[2]

(١) قبله : * يا عمرو يابن الأكرمين نسبا * (٢) هذا عجز بيت للبيد، وصدره :

* ألا تسألان المرء ماذا يحاول *

وروى البخاري ومسلم والترمذي عن أنس قال : قال عمّى أنس بن النَّضْر — سُمِّيت به — لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكَبُر عليه فقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غِبتُ عنه ، أما واللهِ لئن أرانِي الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد لَيَرَيَنّ الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ؛ فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد من العام القابل ، فاستقبله سعد بن مالك فقال : يا أبا عمرو ، أين ؟ قال : واهاً(١) لريح الجنة ، أجدها دون أُحُد ؛ فقاتل حتى قُتل ، فوجِد فى جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورَمْية . فقالت عمّتى الرُّبَيِّع بنت النضر : فما عرفت أخى إلا ببَنَانه . ونزلت هذه الآية « رجالٌ صَدَقوا ما عاهدوا اللهَ عليه فِمنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ومِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا » لفظ الترمذى ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقالت عائشة رضى الله عنها فى قوله تعالى « من المؤمنين رجال صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه » الآية : منهم طلحة بن عبيد الله ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصيبت يده ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أوْجب(٢) طلحة الجنة " . وفى الترمذىّ عنه أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا لأعرابىّ جاهل : سَلْه عمن قضى نحبه من هو ؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته ، يوقّرونه ويهابونه ؛ فسأله الأعرابى فأعرض عنه ، ثم سأله فأعرض عنه ؛ ثم إنى اطّلعت من باب المسجد وعلىّ ثياب خضر ، فلما رآنى النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أين السائل عمن قضى نَحْبه " ؟ قال الأعرابى : أنا يارسول الله . قال : " هذا ممن قضى نحبه " قال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يونس بن بكير . وروى البيهقى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف من أُحُد ، مرّ على مصعب بن عُمير وهو مقتول على طريقه ، فوقف عليه ودعا له ، ثم تلا هذه الآية : « مِن المؤمنين رِجال صدقوا ما عاهدوا الله عليهِ فِمنهم من قضى نَحْبَه — إلى — تبديلًا » ثم قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) هذه الكلمة توضع موضع الاعجاب بالشيء .

(٢) أوجب الرجل إذا فعل فعلا وجبت له به الجنة أو النار .

وسلم : " أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأْتوهم وزوروهم والذى نفسى بيده لا يسلّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردّوا عليه " . وقيل : النَّحْب الموت ؛ أى مات على ما عاهد عليه ؛ عن ابن عباس . والنحب أيضا الوقت والمدّة . يقال : قضى فلان نحبه إذا مات . وقال ذو الرُّمّة :

عشيّةَ فرّ الحارثيّون بعد ما * قضى نَحْبه فى ملتقَى الخيل هَوْبَرُ

والنّحْب أيضا الحاجة والهِمة ؛ يقول قائلهم : مالى عندهم نحب ؛ وليس المراد بالآية . والمعنى فى هـذا الموضع بالنّحب النـذر كما قدّمنا أوّلا ؛ أى منهم من بذل جهده على الوفاء بعهده حتى قُتل ؛ مثل حمزة وسعد بن معاذ وأنس بن النضر وغيرهم . ومنهم من ينتظر الشهادة وما بدّلوا عهدهم ونذرهم . وقد روى عن ابن عباس أنه قـرأ « فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمِنْهُمْ مَنْ بَدَّلَ تَبْدِيلًا » . قال أبو بكر الأنبارى : وهذا الحديث عند أهل العلم مردود ؛ لخلافه الإجماع ، ولأن فيـه طعنا على المؤمنين والرجال الذين مدحهم الله وشرفهم بالصـدق والوفاء ؛ فمـا يعرف فيهم مغيّر وما وجد من جماعتهم مبدّل ؛ رضى الله عنهم . ﴿ لِيَجْزِىَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أى أمر الله بالجهاد ليجزى الصادقين فى الآخرة بصدقهم . ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ فى الآخرة ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ أى إن شاء أن يعذبهم ؛ أى لم يوفقهم للتوبة ؛ وإن لم يشأ أن يعذبهم تاب عليهم قبل الموت . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعـالى : وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ قال محمد بن عمرو يرفعه إلى عائشة : قالت « الذين كفروا » هاهنا أبو سفيان وعُيينة بن بدر ، رجع أبو سفيان إلى تِهـامة ورجع عُيينة إلى نجد . ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ بأن أرسل عليهم ريحا وجنودا حتى رجعوا ورجعت بنو قريظة إلى صياصيهم ؛ فكفى أمرَ قريظة بالرعب . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا ﴾ أمره ﴿ عَزِيزًا ﴾ لا يغلب .

قوله تعالى : وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا (٢٧)

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعنى الذين عاونوا الأحزاب : قريشا وغطفان؛ وهم بنو قُريظة . وقد مضى خبرهم . ﴿ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ أى حصونهم؛ واحدها صِيصَة . قال الشاعر :

فأصبحت الثِّيران صَرْعَى وأصبحتْ * نساء تميم يبتدِرْن الصياصِيا (١)

ومنه قيل لشوكة الحائك التى بها يُسوِّى السَّداة واللُّحْمَة : صِيصة . قال دريدُ بن الصِّمَّة :

فجئتُ إليه والرماحُ تَنُوشُه * كوقعِ الصّياصِى فى النسيج الممدَّد

ومنه : صيصَة الديك التى فى رجله . وصَياصِى البقر قرونها ؛ لأنها تمتنع بها . وربما كانت تركّب فى الرماح مكان الأسنّة؛ ويقال : جَذّ الله صِئْصِئه ؛ أى أصله . ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ وهم الرجال . ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ وهم النساء والذّرّية ؛ على ما تقدّم . ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا ﴾ بعدُ . قال يزيد ابن رُومان وابن زيد ومقاتل : يعنى حُنَين ؛ ولم يكونوا نالوها ، فوعدهم الله إياها . وقال قتادة : كنا نتحدّث أنها مكة . وقال الحسن : هى فارس والرّوم . وقال عِكرمة : كل أرض تُفتح إلى يوم القيامة . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — على ما أراد بعباده من نقمة أو عفوٍ قديرٌ ؛ قاله محمد بن إسحاق . الثانى — على ما أراد أن يفتحه

(١) البيت لعبد بنى الحسحاس ، وقد أورده صاحب اللسان شاهدا على أن صياصى البقر قرونها ؛ وروايته فى البيت :

فأصبحت الثيران غرقى وأصبحت * نساء تميم يلتقطن الصياصيا

أى يلتقطن القرون لينسجن بها ؛ يريد لكثرة المطر غرق الوحش .

من الحصون والقُرى قدير ؛ قاله النقاش . وقيل : « وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ » مما وعدكموه « قَدِيرًا » لا تردّ قدرته ولا يجوز عليه العجز تعالى . ويقال : تأسِرون وتأسُرون (بكسر السين وضمها)، حكاه الفرّاء .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

فيـه ثمانى مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ ﴾ قال علماؤنا : هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدّم من المنع من إيذاء النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وكان قد تأذّى ببعض الزوجات . قيل : سألنه شيئا من عرَض الدنيا . وقيل : زيادة فى النفقة . وقيل : أذينه بغيْرة بعضهنّ على بعض . وقيل : أمِر صلى الله عليه وسلم بتلاوة هذه الآية عليهنّ وتخييرهنّ بين الدنيا والآخرة . وقال الشافعىّ رحمه الله تعالى : إن من مَلَك زوجة فليس عليه تخييرها . وأمِر صلى الله عليه وسلم أن يخيّر نساءه فآخترنه . وجملة ذلك أن الله سبحانه خيّر النبىّ صلى الله عليه وسلم بين أن يكون نبيًّا مَلِكا وعرض عليه مفاتيح خزائن الدنيا ، وبين أن يكون نبيًّا مِسكينًا ؛ فشاور جبريل فأشار عليه بالمسكنة فاختارها ؛ فلما اختارها وهى أعلى المنزلتين ، أمره الله عزّ وجلّ أن يخيّر زوجاته ؛ فربّما كان فيهنّ من يكره المقام معه على الشدّة تنزيهًا له . وقيل : إن السبب الذى أوجب التخيير لأجله ، أن امرأة من أزواجه سألته أن يصوغ لها حَلْقة من ذهب ، فصاغ لها حلقة من فضة وطلاها بالذهب ـ وقيل بالزعفران ـ فأبت إلا أن تكون من ذهب ؛ فنزلت آية التخيير فخيّرهنّ ، فقلن اخترنا الله ورسوله . وقيل : إن واحدة منهنّ اختارت الفراق . فالله أعلم . روى البخارىّ ومسلم ـ واللفظ لمسلم ـ عن جابر بن عبد الله قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله

صلى الله عليه وسلم، فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال : — فأذِن لأبي بكر فدخل، ثم جاء عمر فٱستأذن فأذِن له، فوجد النبيّ صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجمًا ساكتًا — قال : — فقال والله لأقولنّ شيئا أضحك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، لو رأيتَ بنتَ خارجة سألتنى النفقة فقمتُ إليها فوَجَأْتُ عنقها ؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " هنّ حولى كما ترى يسألنَني النفقة" فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأُ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأُ عنقها ؛ كلاهما يقول : تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ! ! فقلن : واللهِ لا نسأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم شيئا أبدا ليس عنده . ثم اعتزلهنّ شهرا أو تسعا وعشرين . ثم نزلت عليه هذه الآية : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ — حتى بلغ — لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا » . قال : فبدأ بعائشة فقال: "يا عائشة، إنى أريد أن اعرِض عليك أمرا أحِبّ ألا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك" قالت : وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبويّ ! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك ألا تخبر آمرأة من نسائك بالذى قلتُ . قال : "لا تسألنى آمرأة منهن إلا أخبرتها، إنّ الله لم يبعثنى مُعنّتا ولا مُتعنّتا ولكن بعثنى معلّما ميسّرا" . وروى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما أمِر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخيير أزواجه بدأ بى فقال : "يا عائشة، إنى ذاكرٌ لك أمرا فلا عليكِ ألا تستعجلى حتى تستأمرى أبويْك" قالت : وقد عَلِم أن أبوىّ لم يكونا ليأمرانى بفراقه ؛ قالت ثم قال : " إنّ الله يقول : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا — حتى بلغ — لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا »" فقلت : أفى هذا أستأمر أبوىّ! فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة، وفعل أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت . قال : هذا حديث حسن صحيح . قال العلماء : وأما أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم عائشة أن تشاور أبويها لأنه كان يحبها ، وكان يخاف أن يحملها فرط الشباب على أن تختار فِراقه ، ويعلم من أبويها أنهما لا يشيران عليها بفراقه .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ قُل لِأَزْوَاجِكَ ﴾ كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم أزواج ، منهن من دخل بها ، ومنهن من عقد عليها ولم يدخل بها ، ومنهن من خطبها فلم يتم نكاحه معها .

فأولهنّ : خديجة بنت خُوَيلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَىّ بن كِلاب . وكانت قبله عند أبي هالة واسمه زرارة بن النبّاش الأسدى ، وكانت قبله عند عَتيق بن عائذ[1]، ولدت منه غلاما اسمه عبد مناف . وولدت من أبي هالة هند بن أبي هالة ، وعاش إلى زمن الطاعون فمات فيه . ويقال : إن الذى عاش إلى زمن الطاعون هند بن هند، وسُمعت نادبته تقول حين مات : واهندُ بن هنداه، وار بِيبَ رسول الله . ولم يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم على خديجة غيرها حتى ماتت . وكانت يوم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنت أربعين سنة، وتُوفّيت بعد أن مضى من النبوة سبع سنين، وقيل : عشر . وكان لها حين توفيت خمس وستون سنة . وهى أول امرأة آمنت به . وجميع أولاده منها غير إبراهيم . قال حكيم بن حزام : توفيت خديجة فخرجنا بها من منزلها حتى دفنّاها بالحَجُون، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفرتها ، ولم تكن يومئذ سُنّة الجنازة الصلاةَ عليها .

ومنهن : سَوْدة بنت زَمْعة بن قيس بن عبد شمس العامرية، أسلمت قديما وبايعت ، وكانت عند ابن عمّ لها يقال له السكران بن عمرو ، وأسلم أيضا ، وهاجرا جميعا إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية ، فلما قدما مكة مات زوجها . وقيل : مات بالحبشة ؛ فلما حلّت خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتزوجها ودخل بها بمكة ، وهاجر بها إلى المدينة ؛ فلما كبرت أراد طلاقها فسألته ألا يفعل وأن يدعها فى نسائه ، وجعلت ليلتها لعائشة — حسبما هو مذكور فى الصحيح — فأمسكها ، وتوفّيت بالمدينة فى شوّال سنة أربع وخمسين .

ومنهن : عائشة بنت أبي بكر الصدّيق ، وكانت مسماة لجُبير بن مطعِم ، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو بكر: يا رسول الله ، دَعْنى أسُلّها من جُبير سَلًّا رفيقا ؛ فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة بسنتين ، وقيل بثلاث سنين ؛ وبَنَى بها بالمدينة

(١) فى كتب الصحابة أقوال فيمن كان قبل .

وهى بنت تسع ، و بقيت عنده تسع سنين ، ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى بنت ثمـان عشرة، ولم يتزوج بِكرا غيرها، وماتت سنة تسع وخمسين، وقيل ثمـان وخمسين .

ومنهن : حفصة بنت عمر بن الخطاب القُرَشيّة العدويّة، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم طلّقها، فأتاه جبريل فقال : "إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوّامة قوّامة" فراجعها . قال الواقدىّ : وتُوفّيت فى شعبان سنة خمس وأربعين فى خلافة معاوية ، وهى ابنة ستين سنة . وقيل : ماتت فى خلافة عثمان بالمدينة .

ومنهن : أم سـلمة، واسمها هند بنت أبى أميّة المخزوميّة — واسم أبى أمية سُهيل — تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليال بقين من شوّال سنة أربع، زوّجها منه ٱبنها سلمة على الصحيح ، وكان عُمَرُ ٱبنُها صـغيرا ، وتوفّيت فى سنة تسع وخمسين . وقيل : سنة ثنتين وستين ؛ والأول أصح . وصلّى عليها سعيد بن زيد . وقيل أبو هريرة . وقُبِرت بالبَقيع وهى ابنة أربع وثمـانين سنة .

ومنهنّ : أم حبيبة ، وٱسمها رَمْلة بنت أبى سفيان . بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضَّمْرىّ إلى النجاشىّ، ليخطب عليه أم حبيبة فزوجه إياها، وذلك سنة سبع من الهجرة ، وأصدق النجاشىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار ، و بعث بها مع شُرحبيل بن حَسَنة، وتُوفّيت سنة أربع وأربعين . وقال الدارقطنىّ : كانت أم حبيبة تحت عبيد الله بن جحش فمات بأرض الحبشة على النصرانية ، فزوّجها النجاشىّ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأمهرها عنه أربعة آلاف ، و بعث بها إليه مع شُرحبيل بن حسنة .

ومنهنّ : زينب بنت جَحْش بن رِئاب الأسديّة؛ وكان اسمها بَرّة فسماها رسول الله صلى الله عليه وسـلم زينب ، وكان ٱسم أبيها بُرّة؛ فقالت : يا رسـول الله ، بدّل اسم أبى فإن البُرّة حقيرة ؛ فقال لها النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لو كان أبوك مؤمنا سميناه بٱسم رجل منّا أهلَ البيت ولكنى قد سميته جحشا والجحش أكبر من البُرّة" ذكر هذا الحديث الدارقطنىّ. تزوجها

رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فى سنة خمس من الهجرة ، وتوفيت سنة عشرين ، وهى بنت ثلاث وخمسين .

ومنهنّ : زينب بنت خُذيمة بن الحارث [بن عبد الله] بن عمرو بن عبد مناف بن هلال ابن عامر بن صَعْصعة الهلالية ، كانت تسمى فى الجاهلية أمّ المساكين ؛ لإطعامها إياهم . تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان على رأس واحد وثلاثين شهرا من الهجرة، فمكثت عنده ثمانية أشهر ، وتُوفّيت فى حياته فى آخر ربيع الأول على رأس تسعة وثلاثين شهرا ، ودُفنت بالبقيع .

ومنهنّ : جُوَيرية بنت الحارث بن أبى ضِرار الخُزاعية المُصْطَلِقيّة ، أصابها فى غزوة بنى المُصْطَلِق فوقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شَمّاس فكاتبها ؛ فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابتها وتزوّجها ، وذلك فى شعبان سنة ست ، وكان اسمها بَرّة فسمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم جُوَيرية ، وتوفيت فى ربيع الأول سنة ست وخمسين . وقيل : سنة خمسين ، وهى ابنة خمس وستين .

ومنهن : صفية بنت حُيَىّ بن أخْطَب الهارونية ، سباها النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم خَيْبَر واصطفاها لنفسه ، وأسلمت وأعتقها ، وجعل عتقها صداقها . وفى الصحيح : أنها وقعت فى سهم دِحْيَة الكَلْبىّ فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعة أرؤس ، وماتت فى سنة خمسين . وقيل : سنة اثنتين وخمسين ، ودُفنت بالبَقيع .

ومنهن : رَيحانة بنت زيد بن عمرو بن خُنافة من بنى النَّضير ، سباها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتقها ، وتزوّجها فى سنة ست ، وماتت مَرْجِعَه من حَجة الوَداع ، فدفنها بالبقيع . وقال الواقدىّ : ماتت سنة ست عشرة وصلّى عليها عمر . قال أبو الفرج الجَوْزِىّ : وقد سمعت من يقول : إنه كان يطؤها بِمِلْك اليمين ولم يعتقها .

قلت : ولهذا والله أعلم لم يذكرها أبو القاسم عبد الرحمن السُّهَيْلى فى عداد أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم .

ومنهن : ميمونة بنت الحارث الهلالية ، تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسَرِف على عشرة أميال من مكة ، وذلك فى سنة سبع من الهجرة فى عُمْرة القَضِيّة ، وهى آخر آمرأة تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدّر الله تعالى أنها ماتت فى المكان الذى بنى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، ودُفنت هنالك ، وذلك فى سنة إحدى وستين . وقيل : ثلاث وستين . وقيل ثمان وثلاثين .

فهؤلاء المشهورات من أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهنّ اللاتى دخل بهن؛ رضى الله عنهن .

فأما من تزوّجهن ولم يدخل بهن؛ فمنهن : الكِلَابِيّة . واختلفوا فى آسمها؛ فقيل فاطمة. وقيل عَمْرة . وقيل العالية . قال الزهرىّ : تزوّج فاطمة بنت الضحاك الكلابية فاستعاذت منه فطلّقها ، وكانت تقول : أنا الشقيّة . تزوّجها فى ذى القَعْدة سنة ثمان من الهجرة ، وتوفّيت سنة ستين .

ومنهن : أسماء بنت النعمان بن الجَوْن بن الحارث الكِنْدية، وهى الجونية . قال قتادة : لما دخل عليها دعاها فقالت : تعال أنت ، فطلّقها . وقال غيره : هى التى استعاذت منه . وفى البخارىّ قال: تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم أُميمة بنت شَراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أُسَيد أن يجهزها و يكسوها ثو بين. وفى لفظ آخر قال أبو أُسَيد : أُتِى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجَوْنية ، فلما دخل عليها قال : "هَبِى لى نفسَك" فقالت : وهل تَهَب المِلكة نفسها للسُّوقة ! فأهوى بيده ليضعها عليها لتسكن؛ فقالت : أعوذ بالله منك ! فقال : "قد عُذتِ بمَعاذ" ثم خرج علينا فقال : يا أبا أُسَيد ، أُكسها رازِقِيين[1] وألحقها بأهلها" .

ومنهنّ : قُتَيْلة بنت قيس، أخت الأشعث بن قيس، زوّجها إياه الأشعث، ثم آنصرف إلى حَضْرَمَوْت ، فحملها إليه فبلغه وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم . فردّها إلى بلاده ، فارتدّ

(١) قوله « رازقيين » بالتثنية ، صفة موصوف محذوف للعلم ، فى رواية « رازقيتين » والرازقية : ثياب من كتان بيض طوال .

وارتدت معه . ثم تزوّجها عِكرمة بن أبى جَهْل ، فوجد من ذلك أبو بكر وَجْدًا شديدا . فقال له عمر : إنها والله ما هى من أزواجه ، ما خيّرها ولا حجبها . ولقد برّأها الله منه بالارتداد[1] . وكان عروة ينكر أن يكون تزوّجها .

ومنهنّ : أم شريك الأزدية، واسمها غُزَيّة بنت جابر بن حكيم[2]، وكانت قبله عند أبى بكر ابن أبى سلمى ، فطلقها النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يدخل بها . وهى التى وهبت نفسها . وقيل : إن التى وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم خَوْلة بنت حَكيم .

ومنهنّ : خَوْلة بنت الهُذَيل بن هُبَيرة، تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهلكت قبل أن تصل إليه .

ومنهنّ : شَرَاف بنت خليفة، أخت دِحْية، تزوّجها ولم يدخل بها .

ومنهنّ : ليلى بنت الخَطِيم، أخت قيس، تزوّجها وكانت غيورا فاستقالته فأقالها .

ومنهنّ : عمرة بنت معاوية الكِندية، تزوّجها النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال الشعبيّ : تزوّج امرأة من كِنْدة فجىء بها بعد ما مات .

ومنهنّ : ابنة جندب بن ضمرة الجُنْدُعية . قال بعضهم : تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأنكر بعضهم وجود ذلك .

ومنهنّ : الغِفارِيّة . قال بعضهم : تزوّج امرأة من غِفار، فأمرها فنزعت ثيابها فرأى بياضا فقال : "الحَقِى بأهلك" . ويقال : إنما رأى البياض بالكلابية . فهؤلاء اللاتى عقد عليهنّ ولم يدخل بهنّ، صلى الله عليه وسلم .

فأما من خطبهنّ فلم يتم نكاحه معهنّ ، ومن وهبت له نفسها :

فمنهنّ : أم هانئ بنت أبى طالب ، واسمها فاختة . خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت : إنى امرأة مُصْبِية[3] واعتذرت إليه فعذرها .

---

(١) كذا فى الأصول وأسد الغابة، وعبارته : « وقد برأها الله بالردّة » والذى فى شرح المواهب : « ... وارتدّت مع أخيها فبرئت من الله ورسوله ... الخ » . (٢) فى المواهب : « جابر بن عوف » .
(٣) أى ذات صبيان .

ومنهنّ : ضُباعة بنت عامر .

ومنهنّ : صفيّة بنت بَشامة بن نضلة ، خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان أصابها سِباء ، فخيّرها النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : " إن شئت أنا و إن شئت زوجك " ؟ قالت : زوجى . فأرسلها ؛ فلعنتها بنو تميم ؛ قاله ابن عباس .

ومنهنّ : أم شَريك . وقد تقدّم ذكرها .

ومنهنّ : ليلى بنت الخَطِيم ؛ وقد تقدّم ذكرها .

ومنهنّ : خولة بنت حكيم بن أمية ؛ وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأرجأها ، فتزوّجها عثمان بن مَظْعُون .

ومنهنّ : جَمْرة بنت الحارث بن عَوف المُرّى ؛ خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال أبوها : إن بها سوءا ولم يكن بها ، فرجع إليها أبوها وقد برِصت ، وهى أم شبيب بن البرصاء الشاعر .

ومنهنّ : سودة القرشية ؛ خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مُصْبِية . فقالت : أخاف أن يَضْغو صِبْيتى[1] عند رأسك . فحمِدها ودعا لها .

ومنهنّ : امرأة لم يُذكر اسمها . قال مجاهد : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة فقالت : أستأمر أبى . فلقيت أباها فأذن لها ، فلقِيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " قد التحفنا لحافا غيرك " .

فهؤلاء جميع أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وكان له من السَّرارى سُرِّيّتان : مارِية القبطية ، ورَيْحانة ؛ فى قول قتادة . وقال غيره : كان له أربع : مارية ، ورَيحانة ، وأخرى جميلة أصابها فى السَّبْى ، وجاريةٌ وهبتها له زينب بنت جحش .

---

(١) أى يصيحوا و يضجوا .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ « إن » شرط ، وجوابه « فَتَعَالَيْنَ » ؛ فعلق التخيير على شرط . وهذا يدل على أن التخيير والطلاق المعلقين على شرط صحيحان ، فينفذان ويمضيان ؛ خلافا للجهال المبتدعة الذين يزعمون أن الرجل إذا قال لزوجته : أنتِ طالق إن دخلتِ الدار ، أنه لا يقع الطلاق إن دخلت الدار ؛ لأن الطلاق الشرعيّ هو المنجز فى الحال لا غير .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَيْنَ ﴾ هو جواب الشرط ، وهو فعل جماعة النساء ؛ من قولك تعال ؛ وهو دعاء إلى الإقبال إليه ، يقال : تعال بمعنى أقبل ، وُضع لمن له جلالة ورفعة ، ثم صار فى الاستعمال لكل داع إلى الإقبال ، وأما فى هذا الموضع فهو على أصله ؛ فإن الداعى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ أُمَتِّعْكُنَّ ﴾ قد تقدّم الكلام فى المُتْعة فى « البقرة »[(١)] . وقرئ « أُمَتِّعْكُنَّ » بضم العين . وكذا «وأسرحكُن» بضم الحاء على الاستئناف . والسراح الجميل : هو أن يكون طلاقا للسنة من غير ضرار ولا منع واجب لها .

الخامسة — اختلف العلماء فى كيفية تخيير النبيّ صلى الله عليه وسلم أزواجَه على قولين : الأوّل — أنه خيرهنّ بإذن الله تعالى فى البقاء على الزوجية أو الطلاق ، فاخترن البقاء ؛ قالته عائشة ومجاهد وعكرمة والشعبِيّ وآبن شهاب وربيعة . ومنهم من قال : إنما خيرهنّ بين الدنيا فيفارقهنّ ، وبين الآخرة فيمسكهنّ ؛ لتكون لهنّ المنزلة العليا كما كانت لزوجهنّ ؛ ولم يخيرهنّ فى الطلاق ؛ ذكره الحسن وقتادة . ومن الصحابة علىّ فيما رواه عنه أحمد بن حنبل أنه قال : لم يخيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه إلا بين الدنيا والآخرة .

قلت : القول الأوّل أصح ؛ لقول عائشة رضى الله عنها لما سئلت عن الرجل يخير آمرأته فقالت : قد خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أفكان طلاقا ! فى رواية : فاخترناه فلم يعدّه طلاقا . ولم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا التخيير المأمور بين البقاء والطلاق ؛ ولذلك قال : "يا عائشة إنى ذاكر لكِ أمرًا فلا عليك ألّا تعجلى فيه حتى تستأمرى

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٠٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

أبويك" الحديث . ومعلوم أنه لم يرد الاستئمار فى اختيار الدنيا وزينتها على الآخرة . فثبت أن الاستئمار إنما وقع فى الفرقة، أو النكاح . والله أعلم .

السادسة — اختلف العلماء فى المخيَّرة إذا اختارت زوجها؛ فقال جمهور العلماء من السلف وغيرهم وأئمة الفتوى : إنه لا يلزمه طلاق ، لا واحدة ولا أكثر؛ هذا قول عمر بن الخطاب وعلىّ وآبن مسعود وزيد بن ثابت وآبن عباس وعائشة . ومن التابعين عطاء ومسروق وسليمان بن يسار وربيعة وآبن شهاب . وروى عن علىّ وزيد أيضا : إن آختارت زوجها فواحدة بائنة ؛ وهو قول الحسن البصرىّ والليث ، وحكاه الخطابى والنقاش عن مالك . وتعلقوا بأن قوله : اختارى، كناية فى إيقاع الطلاق، فإذا أضافه إليها وقعت طلقة؛ كقوله : أنتِ بائن . والصحيح الأول؛ لقول عائشة : خيّرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فآخترناه فلم يعدّه علينا طلاقا . أخرجه الصحيحان . قال ابن المنذر : وحديث عائشة يدل على أن المخيَّرة إذا آختارت زوجها لم يكن ذلك طلاقا ، ويدل على أن آختيارها نفسها يوجب الطلاق ، ويدل على معنى ثالث ؛ وهو أن المخيَّرة إذا آختارت نفسها أنها تطليقة يملك زوجها رجعتها ؛ إذ غير جائز أن يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلاف ما أمره الله . وروى هذا عن عمر وابن مسعود وابن عباس . وبه قال ابن أبى ليلى والثورىّ والشافعىّ . وروى عن علىّ أنها إذا آختارت نفسها أنها واحدة بائنة . وهو قول أبى حنيفة وأصحابه . ورواه ابن خُوَيْزِ منداد عن مالك . وروى عن زيد بن ثابت أنها إذا آختارت نفسها أنها ثلاث . وهو قول الحسن البصرىّ ، وبه قال مالك والليث ؛ لأن الملك إنما يكون بذلك . وروى عن علىّ رضى الله عنه أنها إذا آختارت نفسها فليس بشىء . وروى عنه أنها إذا آختارت زوجها فواحدة رجعية .

السابعة — ذهب جماعة من المدنيّين وغيرهم إلى أن التمليك والتخيير سواء ، والقضاء ما قضت فيهما جميعا ؛ وهو قول عبد العزيز بن أبى سلمة . قال ابن شعبان : وقد آختاره كثير من أصحابنا ، وهو قول جماعة من أهل المدينة . قال أبو عمر : وعلى هذا القول أكثر

الفقهاء . والمشهور من مذهب مالك الفرق بينهما؛ وذلك أن التمليك عند مالك هو قول الرجل لامرأته : قد ملّكتك؛ أى قد ملّكتك ما جعل الله لى من الطلاق واحدة أو ٱثنتين أو ثلاثا؛ فلما جاز أن يملّكها بعض ذلك دون بعض وادعى ذلك ، كان القول قوله مع يمينه إذا ناكرها . وقالت طائفة من أهل المدينة : له المناكرة فى التمليك وفى التخيير سواء فى المدخول بها . والأوّل قول مالك فى المشهور . وروى ابن خُوَيْزِمنداد عن مالك أن للزوج أن يناكر المخيَّرة فى الثلاث ، وتكون طلقة بائنة كما قال أبو حنيفة . وبه قال أبو الجَهْم . قال سُحْنُون : وعليه أكثر أصحابنا .

وتحصيل مذهب مالك أن المخيَّرة إذا ٱختارت نفسها وهى مدخول بها فهو الطلاق كلّه ، وإن أنكر زوجها فلا نكرة له . وإن ٱختارت واحدة فليس بشىء ، وإنما الخيار البتات ، إما أخذته وإما تركته؛ لأن معنى التخيير التسريح؛ قال الله تعالى فى آية التخيير : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ فمعنى التسريح البتات ، قال الله تعالى : « الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » . والتسريح بإحسان هى الطلقة الثالثة . روى ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم كما تقدّم . ومن جهة المعنى أن قوله : اختاريني أو ٱختارى نفسك يقتضى ألا يكون له عليها سبيل إذا ٱختارت نفسها ، ولا يملك منها شيئا؛ إذ قد جعل إليها أن تخرج ما يملكه منها أو تقيم معه إذا ٱختارته ، فإذا ٱختارت البعض من الطلاق لم تعمل بمقتضى اللفظ ، وكانت بمنزلة من خُيِّر بين شيئين فاختار غيرهما . وأما التى لم يدخل بها فله مناكرتها فى التخيير والتمليك إذا زادت على واحدة؛ لأنها تبين فى الحال .

الثامنة — اختلفت الرواية عن مالك متى يكون لها الخيار؛ فقال مرّة : لها الخيار ما دامت فى المجلس قبل القيام أو الاشتغال بما يدلّ على الإعراض . فإن لم تختر ولم تقض شيئا حتى ٱفترقا من مجلسهما بطل ما كان من ذلك إليها ؛ وعلى هذا أكثر الفقهاء . وقال مرة : لها الخيار أبدا ما لم يعلم أنها تركت ؛ وذلك يُعلم بأن تمكّنه من نفسها بوطء أو مباشرة ؛ فعلى هذا إن منعت نفسها ولم تختر شيئا كان له رفعها إلى الحاكم لتوقع أو تسقط ، فإن أبت أسقط

الحاكم تمليكها . وعلى القول الأول إذا أخذت فى غير ذلك من حديث أو عمل أو مشى أو ما ليس من التخيير بشىء كما ذكرنا سقط تخييرها . واحتج بعض أصحابنا لهذا القول بقوله تعالى : « فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ »[(١)] . وأيضا فإن الزوج أطلق لها القول ليعرف الخيار منها ، فصار كالعقد بينهما ، فإن قبلته وإلا سقط ، كالذى يقول : قد وهبت لك أو بايعتك ، فإن قبل وإلا كان الملك باقيا بحاله . هذا قول الثّورى والكوفيّين والأوزاعىّ واللّيث والشافعىّ وأبى ثور ، وهو اختيار ابن القاسم . ووجه الرواية الثانية أن ذلك قد صار فى يدها وملّكته على زوجها بتمليكه إياها فلما ملكت ذلك وجب أن يبقى فى يدها كبقائه فى يد زوجها .

قلت : وهذا هو الصحيح لقوله عليه السلام لعائشة : " إنى ذاكر لك أمرا فلا عليك ألا تستعجلى حتى تستأمرى أبويك " رواه الصحيح ، وخرّجه البخارىّ ، وصححه الترمذىّ . وقد تقدم فى أول الباب . وهو حجة لمن قال : إنه إذا خيّر الرجل امرأته أو ملّكها أن لها أن تقضى فى ذلك وإن افترقا من مجلسهما ؛ روى هذا عن الحسن والزّهرىّ ، وقاله مالك فى إحدى روايتيه . قال أبو عبيد : والذى عندنا فى هذا الباب ، اتباع السنة فى عائشة فى هذا الحديث ، حين جعل لها التخيير إلى أن تستأمر أبويها ، ولم يجعل قيامها من مجلسها خروجا من الأمر . قال المَرْوَزِىّ : هذا أصح الأقاويل عندى ، وقاله ابن المنذر والطّحاوىّ .

قوله تعالى : يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

(١) آية ١٤٠ سورة النساء .

قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال العلماء : لما اختار نساءُ النبيّ صلى الله عليه وسلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم شكرهنّ الله على ذلك فقال تكرمة لهن : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ »[1] الآية . وبين حكمهن عن غيرهن فقال : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا »[2] . وجعل ثواب طاعتهنّ وعقاب معصيتهن أكثر مما لغيرهنّ فقال : « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » . فأخبر تعالى أن من جاء من نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم بفاحشة — والله عاصم رسوله عليه السلام من ذلك كما مرّ في حديث الإفك[3] — يضاعف لها العذاب ضعفين ؛ لشرف منزلتهنّ وفضل درجتهنّ ، وتقدّمهنّ على سائر النساء أجمع . وكذلك بيّنت الشريعة فى غير ما موضع حسبما تقدّم بيانه غير مرة — أنه كلما تضاعفت الحُرُمات فهتكت تضاعفت العقوبات ؛ ولذلك ضُوعف حدّ الحر على العبد والثّيب على البكر . وقيل : لما كان أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فى مهبط الوحى وفى منزل أوامر الله ونواهيه ، قوى الأمر عليهن ولزمهن بسبب مكانتهن أكثر مما يلزم غيرهن ؛ فضُوعف لهنّ الأجر والعذاب . وقيل : إنما ذلك لعظم الضرر فى جرائمهن بإيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فكانت العقوبة على قدر عظم الجريمة فى إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ »[4] . واختار هذا القول الكِيَا الطبرى .

الثانيـــة — قال قوم : لو قُدّر الزنى من واحدة منهن — وقد أعاذهنّ الله من ذلك — لكانت تُحد حدّين لعظم قدرها ، كما يزاد حدّ الحرة على الأمَة . والعذاب بمعنى الحدّ ؛ قال الله تعالى : « وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ »[5] . وعلى هذا فمعنى الضعفين معنى المِثلين أو المرتين . وقال أبو عبيدة : ضِعف الشيء شيئان حتى يكون ثلاثة . وقاله أبو عمرو فيما

---

(١) آية ٥٢ من هذه السورة . (٢) آية ٥٣ من هذه السورة . (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٩٧ وما بعدها . (٤) آية ٥٧ من هذه السورة . (٥) آية ٢ سورة النور .

حكى الطبرى عنه؛ فيضاف إليه عذابان مثله فيكون ثلاثة أعذبة . وضعّفه الطبرى . وكذلك هو غير صحيح وإن كان له باللفظ تعلّق الاحتمال. وكون الأجر مرتين مما يفسد هذا القول؛ لأن العذاب فى الفاحشة بإزاء الأجر فى الطاعة؛ قاله ابن عطية. وقال النحاس : فرق أبو عمرو بين «يُضاعَف ويضعّف» قال : «يضاعَف» للمرار الكثيرة . و «يضعّف» مرتين . وقرأ «يضعّف» لهذا . وقال أبو عبيدة : «يضاعف لها العذاب» يجعل ثلاثة أعذبة . قال النحاس : التفريق الذى جاء به أبو عمرو وأبو عبيدة لا يعرفه أحد من أهل اللغة علمته ، والمعنى فى «يضاعف ويضعف» واحد؛ أى يجعل ضعفين؛ كما تقول : إن دفعتَ إلىّ درهما دفعت إليك ضعفيه ؛ أى مثليه ؛ يعنى درهمين . ويدل على هذا « نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ » ولا يكون العذاب أكثر من الأجر. وقال فى موضع آخر «آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذابِ»(١) أى مثلين . وروى معمر عن قتادة « يضاعَف لها العذاب ضِعفينِ » قال : عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . قال القُشيرى أبو نصر : الظاهر أنه أراد بالضعفين المثلين ؛ لأنه قال : « نُؤْتِها أجرها مَرّتينِ » . فأما فى الوصايا ، لو أوصى لإنسان بضعفى نصيب ولده فهو وصية ؛ بأن يعطى مثل نصيبه ثلاث مرات ؛ فإن الوصايا تجرى على العُرْف فيما بين الناس ، وكلام الله يُرَدّ تفسيره إلى كلام العرب ، والضعف فى كلام العرب المِثل إلى ما زاد ، وليس بمقصور على مثلين . يقال : هـذا ضعف هذا ؛ أى مثله . وهـذا ضعفاه ، أى مثلاه ؛ فالضعف فى الأصل زيادة غير محصورة؛ قال الله تعالى : « فأولئك لهم جَزاءُ الضِّعْفِ »(٢) ولم يُرِد مِثلاً ولا مِثلين . كل هذا قول الأزهرى . وقد تقدم فى « النور » الاختلاف فى حد من قذف واحدة منهن(٣) ؛ والحمد لله .

الثالثــة — قال أبو رافع : كان عمر رضى الله عنه كثيرا ما يقرأ سورة يوسف وسورة الأحزاب فى الصبح ، وكان إذا بلغ « يا نِساءَ النَّبِيِّ » رفع بها صوته ؛ فقيل له فى ذلك فقال : أذكّرهن العهد . قرأ الجمهور « من يأتِ » بالياء . وكذلك « مَنْ يَقْنُتْ » حملا على لفظ

(١) آية ٦٨ من هذه السورة . (٢) آية ٣٧ سورة سبأ . (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٧٦

«من» . والقنوت الطاعة، وقد تقدم.(١) وقرأ يعقوب «من تأت» و «تقنت» بالتاء من فوق، حملًا على المعنى . وقال قوم : الفاحشة إذا وردت معرفة فهى الزنى واللواط . وإذا وردت منكرة فهى سائر المعاصى . وإذا وردت منعوتة فهى عقوق الزوج وفساد عشرته . وقالت فرقة : بل قوله « فاحشةٍ مُبَيِّنة » تعم جميع المعاصى . وكذلك الفاحشة كيف وردت . وقرأ ابن كثير «مبيَّنةٍ» بفتح الياء . وقرأ نافع وأبو عمرو بكسرها . وقرأت فرقة «يُضاعِفْ» بكسر العين على إسناد الفعل إلى الله تعالى . وقرأ أبو عمرو فيما روى خارجة « نضاعِف» بالنون المضمومة ونصب «العذاب» وهذه قراءة ابن مُحَيْصِن . وهذه مفاعلة من واحد؛ كطارقت النعل وعاقبت اللص . وقرأ نافع وحمزة والكسائى «يضاعف» بالياء وفتح العين، «العذاب» رفعا . وهى قراءة الحسن وابن كثير وعيسى . وقرأ ابن كثير وابن عامر « نُضَعِّف » بالنون وكسر العين المشددة، « العذابَ » نصبًا . قال مقاتل : هذا التضعيف فى العذاب إنما هو فى الآخرة ؛ لأن إيتاء الأجر مرتين أيضا فى الآخرة . وهذا حسن ؛ لأن نساء النبىّ صلى الله عليه وسلم لا يأتين بفاحشة توجب حَدًّا . وقد قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبىّ قط ، وإنما خانت فى الإيمان والطاعة . وقال بعض المفسرين : العذاب الذى تُوعَدْن به «ضعفين» هو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ؛ فكذلك الأجر . قال ابن عطية : وهذا ضعيف، اللهم إلا أن يكون أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم لا تَرفع عنهم حدودُ الدنيا عذابَ الآخرة ، على ما هى حال الناس عليه؛ بحكم حديث عُبادة بن الصّامت(٢) . وهذا أمر لم يُرْوَ فى أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم ولا حفظ تقرره . وأهل التفسير على أن الرزق الكريم الجنة؛ ذكره النحاس .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٦ طبعة ثانية و جـ ٣ ص ٢١٣

(٢) لفظ الحديث كما فى كتاب البخارى فى تفسير سورة الممتحنة : « قال : كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : " أتبايعونى على لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا — وقرأ آية النساء (يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك — فمن وفى منكم فأجره على الله . ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له . ومن أصاب منها شيئا من ذلك فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه و إن شاء غفرله) » .

قوله تعالى : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ (٣٢)

قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ يعنى فى الفضل والشرف . وقال : « كَأَحَدٍ » ولم يقل كواحدة؛ لأن أحدا نفى من المذكر والمؤنث والواحد والجماعة (١) . وقد يقال على ما ليس بآدمى؛ يقال : ليس فيها أحد، لا شاة ولا بعير . وإنما خصص النساء بالذكر لأن فيمن تقدم آسية ومريم . وقد أشار إلى هذا قتادة؛ وقد تقدّم فى « آل عمران » (٢) الاختلاف فى التفضيل بينهن، فتأمله هناك . ثم قال : « إن اتقيتن » أى خفتن الله . فبيّن أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى؛ لما منحهن الله من صحبة الرسول وعظيم المحل منه، ونزول القرآن فى حقهن .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ فى موضع جزم بالنهى؛ إلا أنه مبنىّ كما بنى الماضى، هذا مذهب سيبويه؛ أى لا تلنّ القول . أمرهن الله أن يكون قولهن جزلا وكلامهن فصلا، ولا يكون على وجه يُظهر فى القلب علاقة بما يَظهر عليه من اللين؛ كما كانت الحال عليه فى نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه؛ مثل كلام المريبات والمومسات . فنهاهن عن مثل هذا .

قوله تعالى : ﴿ فَيَطْمَعَ ﴾ بالنصب على جواب النهى . ﴿ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ أى شك ونفاق؛ عن قتادة والسُّدّى . وقيل : تشوّف لفجور، وهو الفسق والغزل؛ قاله عكرمة . وهذا أصوب، وليس للنفاق مدخل فى هذه الآية . وحكى أبو حاتم أن الأعرج قرأ « فَيَطْمِعَ » بفتح الياء وكسر الميم . النحاس : أحسب هذا غلطا، وأن يكون قرأ « فيطمعِ » (٣) بفتح الميم وكسر العين بعطفه على « تخضعن » فهذا وجه جيّد حسن . ويجوز « فيُطْمِعَ » بمعنى فيطمع الخضوع أو القول .

(١) كذا فى الأصول؛ يريد أنه نفى عام للذكر والمؤنث . (٢) راجع ج ٤ ص ٨٢

(٣) فى الأصول : « بفتح الياء » .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ قال ابن عباس : أمرهن بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والمرأة تندب إذا خاطبت الأجانب وكذا المحرمات عليها بالمصاهرة إلى الغلظة فى القول من غير رفع صوت ؛ فإن المرأة مأمورة بخفض الكلام . وعلى الجملة فالقول المعروف هو الصواب الذى لا تنكره الشريعة ولا النفوس .

قوله تعالى : وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ ﴾ قرأ الجمهور « وَقِرن » بكسر القاف . وقرأ عاصم ونافع بفتحها . فأما القراءة الأولى فتحتمل وجهين : أحدهما — أن يكون من الوَقار؛ تقول : وَقَرَ يَقِر وَقاراً أى سكن ، والأمر قِرْ ، وللنساء قِرْن ، مثل عِدْن و زِنّ . والوجه الثانى — وهو قول المبرد[1] ، أن يكون من القرار؛ تقول : قَرِرت بالمكان (بفتح الراء) أقِرّ ، والأصل أقْرِرن ، بكسر الراء ، فحذفت الراء الأولى تخفيفا ؛ كما قالوا فى ظَلَلت : ظَلت ، ومَسَسْت : مِسْت ، ونقلوا حركتها إلى القاف ، واستغنى عن ألف الوصل لتحرك القاف . قال أبو علىّ : بل على أن أبدلت الراء ياء كراهة التضعيف ؛ كما أبدلت فى قيراط ودينار ، ويصير للياء حركة الحرف المبدل منه ؛ فالتقدير : إقْيِرْن ، ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة تحرك الياء بالكسر ، فتسقط الياء لاجتماع الساكنين ، وتسقط همزة الوصل لتحرك ما بعدها فيصير « قِرْن » . وأما قراءة أهل المدينة وعاصم ، فعلى لغة العرب : قَرِرتُ فى المكان إذا أقمتَ فيه (بكسر الراء) أَقَرّ (بفتح القاف)؛ من باب حَمِد يَحْمَد، وهى لغة أهل الحجاز ذكرها أبو عبيد فى « الغريب المصنف» عن الكسائى ،وهو من أجلّ مشايخه ، وذكرها الزجاج وغيره ، والأصل «إقْرَرْن»

---

(١) فى نسخة : « الفراء » .

حذفت الراء الأولى لثقل التضعيف، وألقيت حركتها على القاف فتقول : قَرْن . قال الفراء: هو كما تقول : أَحَسْتَ صاحبك؛ أى هل أحْسَسْتَ . وقال أبو عثمان المازنى : قَرِرت به عَيْنًا (بالكسر لا غير)، من قُرّة العين . ولا يجوز قَرِرت فى المكان (بالكسر) وإنما هو قَرَرت (بفتح الراء)، وما أنكره من هذا لا يقدح فى القراءة إذا ثبتت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فيستدلّ بما ثبت عنه من القراءة على صحة اللغة . وذهب أبو حاتم[1] أيضا أن « قَرْن » لا مذهب له فى كلام العرب . قال النحاس : وأمّا قول أبى حاتم : « لامذهب له » فقد خولف فيه ، وفيه مذهبان : أحدهما ما حكاه الكسائى ، والآخر ما سمعت علىّ بن سليمان يقول، قال : وهو من قَرِرْتُ به عَيْنا أَقَر، والمعنى : وٱقرن به عَيْنًا فى بيوتكن . وهو وجه حسن؛ إلا أن الحديث يدلّ على أنه من الأول . كما روى أن عماراً قال لعائشة رضى الله عنها : إن الله قد أمرك أن تَقَرِّى فى منزلك؛ فقالت : يا أبا اليَقْظان، ما زلتَ قوّالا بالحق! فقال : الحمد لله الذى جعلنى كذلك على لسانك . وقرأ ابن أبى عَبْلة « وٱقْرِرن » بألف وصل وراءين، الأولى مكسورة .

الثانية — معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لنساء النبيّ صلى الله عليه وسلم فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى . هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء؛ كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة؛ على ماتقدم فى غير موضع . فأمر الله تعالى نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم بملازمة بيوتهنّ، وخاطبهنّ بذلك تشريفا لهنّ، ونهاهنّ عن التبرج، وأعلم أنه فعل الجاهلية الأولى فقال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ . وقد تقدّم معنى التّبرج فى «النور»[2] . وحقيقته اظهار ما ستره أحسن؛ وهو مأخوذ من السَّعة، يقال : فى أسنانه بَرَج إذا كانت متفرّقة؛ قاله المبرّد . واختلف الناس فى «الجاهلية الأولى»؛ فقيل : هى الزمن الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام، كانت المرأة تلبَس الدّرع من اللؤلؤ، فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال . وقال الحكم بن عُيينة : ما بين آدم ونوح،

(١) فى بعض الاصول : « زعم » . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٣٠٩

وهى ثمانمائة سنة، وحُكيت لهم سِيَرَ ذميمة . وقال ابن عباس : ما بين نوح وإدريس .
الكلبىّ : ما بين نوح وإبراهيم . قيل : إن المرأة كانت تلبس الدّرع من اللؤلؤ غير مَخِيط
الجانبين ، وتلبس الثياب الرقاق ولا توارى بدنها . وقالت فرقة : ما بين موسى وعيسى .
الشعبى : ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . أبو العالية : هى زمان داود وسليمان ؛
كان فيه للمرأة قميص من الدرّ غير مخيط الجانبين . وقال أبو العباس المبرد : والجاهلية الأولى
كما تقول الجاهلية الجهلاء ، قال : وكان النساء فى الجاهلية الجهلاء يُظهرن ما يقبح إظهاره ،
حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخِلّها[(١)] ، فينفرد خِلُّها بما فوق الإزار إلى الأعلى ، وينفرد
زوجها بما دون الإزار إلى الأسفل ، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل . وقال مجاهد :
كان النساء يتمشّيْن بين الرجال ، فذلك التبرّج . قال ابن عطية : والذى يظهر عندى أنه
أشار للجاهلية التى لحقْنها ، فأمِرْن بالنّقلة عن سيرتهنّ فيها ، وهى ما كان قبل الشرع من سيرة
الكفرة ؛ لأنهم كانوا لا غَيْرة عندهم ؛ وكان أمر النساء دون حجاب[(٢)] ، وجَعَلُها أُولى بالنسبة
إلى ما كنّ عليه ؛ وليس المعنى أن ثَمّ جاهلية أخرى . وقد أوقِع اسم الجاهلية على تلك المدّة
التى قبل الإسلام ، فقالوا : جاهلىّ فى الشعراء . وقال ابن عباس فى البخارىّ : سمعت
أبى فى الجاهلية يقول ؛ إلى غير هذا .

قلت : وهذا قول حسن . ويعترض بأن العرب كانت أهل قَشَف وضَنْك فى الغالب ،
وأن التنعّم وإظهارَ الزينة إنما جرى فى الأزمان السابقة ، وهى المراد بالجاهلية الأولى ،
وأن المقصود من الآية مخالفة من قبلهنّ من المِشْية على تَغْنيج وتكسير وإظهار المحاسن
للرجال ، إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعا . وذلك يشمل الأقوال كلّها ويعمّها فيلزمن
البيوت ، فإن مست الحاجة إلى الخروج فليكنّ على تبذُّل[(٣)] وتستر تام . والله الموفق .

الثالثة — ذكر الثّعلبىّ وغيره أن عائشة — رضى الله عنها — كانت إذا قرأت هذه
الآية تبكى حتى تَبُلّ خمارها . وذُكر أن سَوْدة قيل لها : لم لا تحجّين ولا تعتمرين كما يفعل

(١) فى نسخة : « خلمها » والخلم (بالكسر) : الصديق الخالص . (٢) فى الأصول : «حجبة» .
(٣) التبذل : ترك التزين والتهيؤ بالهيئة الحسنة الجميلة على جهة التواضع .

أخواتك ؟ فقالت : قد حججت واعتمرت، وأمرنى الله أن أقرّ فى بيتى . قال الراوى : فوالله ما خرجتْ من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها . رضوان الله عليها ! قال ابن العربى : لقد دخلت نَيِّفًا على ألف قرية ، فما رأيت نساء أصون عيالا ولا أعفّ نساء من نساء نابلس، التى رُمى بها الخليل صلى الله عليه وسلم بالنار ؛ فإنى أقمت فيها فما رأيت امرأة فى طريق نهارا إلا يوم الجمعة فإنهنّ يخرجن إليها حتى يمتلئ المسجد منهنّ ، فإذا قُضيت الصلاة وانقلبن إلى منازلهنّ لم تقع عينى على واحدة منهنّ إلى الجمعة الأخرى . وقد رأيت بالمسجد الأقصى عفائف ما خرجن من معتكفهنّ حتى استشهدن فيه .

الرابعة — قال ابن عطية : بكاء عائشة رضى الله عنها إنما كان بسبب سفرها أيام الجمل، وحينئذ قال لها عمّار : إن الله قد أمرك أن تَقِرِّى فى بيتك . قال ابن العربى : تعلّق الرافضة — لعنهم الله — بهذه الآية على أمّ المؤمنين عائشة رضى الله عنها إذ قالوا : إنها خالفت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجت تقود الجيوش، وتباشر الحروب، وتقتحم مأزق الطعن والضرب فيما لم يفرض عليها ولا يجوز لها . قالوا : ولقد حُصر عثمان ، فلما رأت ذلك أمرت برواحلها فقرّبت لتخرج الى مكة ؛ فقال لها مَرْوان : أقيمى هنا يا أمّ المؤمنين ، ورُدّى هؤلاء الرَّعاع ؛ فإن الإصلاح بين الناس خير من حجّك . قال ابن العربى قال علماؤنا رحمة الله عليهم : إن عائشة رضى عنها ، نذرت الحج قبل الفتنة ، فلم تر التخلف عن نذرها؛ ولو خرجت فى تلك الثائرة لكان ذلك صوابا لها. وأما خروجها الى حرب الجمل فما خرجت لحرب ، ولكن تعلق الناس بها ، وشكَوْا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتهارج الناس ، ورجَوْا بركتها ، وطمِعوا فى الاستحياء منها إذا وقفَت الى الخلق ، وظنّت هى ذلك [فخرجت][1] مقتدية بالله فى قوله : « لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصدقةٍ أَوْ معروفٍ أَو إِصلاحٍ بين النَاسِ »[2] ، وقوله : « وإِنْ طائفتانِ مِن المؤمنين اقتتلوا فأصلِحوا بينهما »[3] . والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكر وأنثى ؛ حُرّ

---

(١) زيادة عن ابن العربى . (٢) آية ١١٤ سورة النساء . (٣) آية ٩ سورة الحجرات .

أو عبد . فلم يرد الله تعالى بسابق قضائه ونافذ حكمه أن يقع إصلاح ، ولكن جرت مطاعنات وجراحات حتى كاد يفنى الفريقان ، فعمَد بعضهم إلى الجمل فعرقبه ، فلما سقط الجمل لجنبه أدرك محمد بن أبى بكر عائشة رضى الله تعالى عنها ، فاحتملها الى البصرة ، وخرجت فى ثلاثين امرأة ، قَرَنَهن علىٌّ بها حتى أوصلوها الى المدينة برّةً تقيّة مجتهدة ، مصيبة مثابة فيما تأولت ، مأجورة فيما فعلت ؛ إذ كل مجتهد فى الأحكام مصيب . وقد تقدّم فى « النحل » اسم هذا الجمل ، وبه يعرف ذلك اليوم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى فيما أمر ونهى. ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ قال الزجاج : قيل يراد به نساء النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : يراد به نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته ؛ على ما يأتى بيانه بعدُ . و « أهلَ البيتِ » نصب على المدح . قال : وإن شئت على البدل . قال : ويجوز الرفع والخفض . قال النحاس : إن خفض على أنه بدل من الكاف والميم لم يجز عند أبى العباس محمد بن يزيد ، قال : لا يبدل من المخاطبة ولا من المخاطب ؛ لأنهما لا يحتاجان الى تبيين . ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ مصدر فيه معنى التوكيد .

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (٣٤)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ هذه الألفاظ تعطى أن أهل البيت نساؤه . وقد اختلف أهل العلم فى أهل البيت ، من هم ؟ فقال عطاء وعكرمة وابن عباس : هم زوجاته خاصّةً ، لا رجل معهن . وذهبوا الى أن البيت أريد به مساكن النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ لقوله تعالى : « وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ » . وقالت فرقة منهم الكلبىّ : هم علىّ وفاطمة والحسن والحسين خاصّةً ؛ وفى هذا أحاديث عن النبىّ عليه السلام ، واحتجّوا بقوله تعالى : « لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ »

بالميم . ولو كان للنساء خاصة لكان « عنكنّ ويطهركنّ » ؛ إلا أنه يحتمل أن يكون خرج على لفظ الأهل؛ كما يقول الرجل لصاحبه : كيف أهلك ؛ أى أمرأتك ونساؤك ؛ فيقول : هم بخير؛ قال الله تعالى : « أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ »(١) .

والذى يظهر من الآية أنها عامة فى جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم . وإنما قال : «ويُطَهِّركم» لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعَلِيًّا وحسَنًا وحُسَيْنًا كان فيهم، وإذا آجتمع المذكر والمؤنث غُلِّب المـذكر؛ فآقتضت الآية أن الزوجات من أهـل البيت ؛ لأن الآية فيهنّ ، والمخاطبة لهنّ ؛ يدلّ عليه سياق الكلام . والله أعلم . أما أن أمّ سلمة قالت : نزلت هذه الآية فى بيتى ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وفاطمة وحَسَنًا وحُسينا ، فدخل معهم تحت كساءٍ خَيْبَرِىّ وقال : "هؤلاء أهـل بيتى" — وقرأ الآية — وقال : "اللّهمّ أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا" فقالت أمّ سلمة : وأنا معهم يا رسـول الله ؟ قال : "أنتِ على مكانك وأنتِ على خير" أخرجه الترمذىّ وغيره وقال : هـذا حديث غريب . وقال القُشَيْرِىّ : وقالت أمّ سلمة أدخلت رأسى فى الكساء وقلت : أنا منهم يا رسول الله؟ قال : "نعم" . وقال الثعلبىّ : هم بنو هاشم؛ فهذا يدلّ على أن البيت يراد به بيت النسب؛ فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهـم . ورُوى نحوه عن زيد بن أرقم رضى الله عنهم أجمعين . وعلى قول الكلبىّ يكون قوله : « وآذْكُرْنَ » ابتداء مخاطبة الله تعالى؛ أى مخاطبة أمر الله عز وجل أزواج النبىّ صلى الله عليه وسـلم، على جهة الموعظة وتعديد النعمة بذكر ما يتلى فى بيوتهنّ من آيات الله تعالى والحكمة . قال أهـل العلم بالتأويل : « آيات الله » القرآن . « والحكمة » السـنة . والصحيح أن قوله : « واذكرن » منسوق على ما قبـله . وقال « عنكم » لقوله « أهل » فالأهل مذكّر؛ فسماهنّ — وإن كنّ إناثا — باسم التذكير؛ فلذلك صار «عنكم» . ولا اعتبار بقول الكلبىّ وأشباهه ؛ فإنه توجد له أشياء فى هـذا التفسير ما لو كان فى زمن السلف الصالح لمنعوه من ذلك وحجروا عليـه . فالآيات كلّها من قوله : يأيها النبىّ قل لأزواجك — إلى قوله — إن الله كان لطيفًا خَبِيرًا» منسوق بعضها على بعض؛

(١) آية ٧٣ سورة هود .

فكيف صار فى الوسط كلاما منفصلا لغيرهنّ ! و إنما هذا شىء جرى فى الأخبار أن النبىّ عليه السلام لما نزلت عليه هـذه الآية دعا عليًّا وفاطمة والحسن والحسين ، فعمَد النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى كساء فلفّها عليهم ، ثم ألوى بيـده إلى السماء فقال : "اللّهُمّ هؤلاء أهـل بيتى اللّهُمّ أذهب عنهم الرِّجس وطهرهم تطهيرا" . فهـذه دعوة من النبىّ صلى الله عليه وسلم لهم بعد نزول الآية ، أحبَّ أن يدخلهم فى الآية التى خوطب بها الأزواج ؛ فذهب الكلبىّ ومن وافقه فصيّرها لهم خاصّة، وهى دعوة لهم خارجة من التنزيل .

الثانيـــة — لفظ الذِّكْر يحتمل ثلاثة معان : أحدها — أى آذكرن موضع النعمة ؛ إذ صيّركن الله فى بيوت تُتـلى فيها آيات الله والحكمة . الثانى — آذكرن آيات الله وآقدرن قدرها، وفكِّرن فيها حتى تكون منكن على بالٍ لتتعظن بمواعظ الله تعالى؛ ومن كان هذا حاله ينبغى أن تحسن أفعاله . الثالث — آذكرن بمعنى آحفظن وآقرأن والزمنه الألسـنة ؛ فكأنه يقول : وآحفظن أوامر الله تعالى ونواهيه ، وذلك هو الذى يتلى فى بيوتكن من آيات الله . فأمر الله سبحانه وتعالى أن يخبرن بمـا ينزل من القرآن فى بيوتهن ، وما يرين من أفعال النبىّ عليه الصلاة والسلام ، ويسمعن من أقواله حتى يبلغن ذلك إلى الناس ، فيعملوا و يقتدوا . وهذا يدل على جواز قبول خبر الواحد من الرجال والنساء فى الدِّين .

الثالثـــة — قال ابن العربىّ : فى هذه الآية مسألة بديعـة ، وهى أن الله تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أنزِل عليـه من القرآن، وتعليم ما عَلِمه من الدِّين ؛ فكان إذا قرأ على واحد أو ما اتفق سقط عنـه الفرض، وكان على من سمعـه أن يبلّغه إلى غيره ، ولا يلزمه أن يذكره لجميع الصحابة، ولا كان عليه إذا علّم ذلك أزواجه أن يخرج إلى النـاس فيقول لهم نزل كذا ولا كان كذا ؛ ولهذا قلنا : يجوز العمل بخـبر بُسْرة [(١)] فى إيجاب الوضوء من مسّ الذكر ؛ لأنهـا رَوَت ما سمعت و بلّغت ما وَعَت . ولا يلزم أن يبلغ ذلك الرجال ، كما قال أبو حنيفة؛ على أنه قد نقل عن سعد بن أبى وقّاص وآبن عمر .

---

(١) هى بسرة بنت صفوان بن نوفل ؛ روت عن النبى صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)

فيه مسألتان :

الأولى — روى الترمذي عن أم عُمارة الأنصارية أنها أتت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت : ما أرى كل شيء إلا للرجال ، وما أرى النساء يذكرن بشيء ! فنزلت هذه الآية : « إن المسلمين والمسلماتِ والمؤمنين والمؤمناتِ » الآية . هذا حديث حسن غريب . و « المسلمين » اسم « إنّ » . « والمسلمات » عطف عليه . ويجوز رفعهن عند البصريين ؛ فأما الفرّاء فلا يجوز عنده إلا فيما لا يتبين فيه الإعراب .

الثانيــة — بدأ تعالى فى هذه الآية بذكر الإسلام الذى يعمّ الإيمان وعمل الجوارح ، ثم ذكر الإيمان تخصيصا له وتنبيها على أنه عُظْم الإسلام ودِعامته . والقانت : العابد المطيع . والصادق : معناه فيما عوهد عليه أن يفِيَ به . والصابر عن الشهوات وعلى الطاعات فى المَكْرَه والمَنْشَط[1] . والخاشع : الخائف لله . والمتصدّق بالفرض والنفل . وقيل : بالفرض خاصّةً ؛ والأول أمدح . والصائم كذلك . ﴿ والحافِظينَ فُرُوجَهُمْ والحافِظاتِ ﴾ أى عما لا يحلّ من الزنى وغيره . وفى قوله : « والحافِظاتِ » حذفٌ يدلّ عليه المتقدّم ، تقديره : والحافظاتها ؛ فاكتفى بما تقدّم . وفى « الذاكِراتِ » أيضا مثله ؛ ونظيره قول الشاعر :

---

(١) المكره (بفتح الميم) : المكروه . والمنشط : وهو الأمر الذى تنشط له وتخف اليه وتؤثر فعله ؛ وهو مصدر بمعنى النشاط .

وكُمْتًا مُدَمّاة كأن متونها * جرى فوقها واستشعرتْ لَوْنَ مُذْهِبِ(١)

وروى سيبويه : « لَوْنَ مُذْهِبِ » بالنصب . وإنما يجوز الرفع على حذف الهاء ، كأنه قال : واستشعرته ؛ فيمن رفع لونا . والذاكر قيل فى أدبار الصلوات وغُدُوًّا وعشِيًّا ، وفى المضاجع وعند الانتباه من النوم . وقد تقدّم هذا كله مفصلا فى مواضعه ، وما يترتب عليه من الفوائد والأحكام ، فأغنى عن الإعادة(٢) . والحمد لله رب العالمين . قال مجاهد : لا يكون ذاكرا لله تعالى كثيرا حتى يذكره قائما وجالسا ومضطجعا . وقال أبو سعيد الخُدْرىّ رضى الله عنه : من أيقظ أهله بالليل وصلّيا أربع ركعات كُتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — روى قتادة وابن عباس ومجاهد فى سبب نزول هذه الآية : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب زينب بنت جَحْش، وكانت بنتَ عمته، فظنّت أن الخطبة لنفسه، فلما تبيّن أنه يريدها لزيد، كرهت وأبت وامتنعت ؛ فنزلت الآية . فأذعنت زينب حينئذ وتزوّجته . فى رواية : فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش، وأن زيدا كان بالأمس عبدا، إلى أن نزلت هذه الآية ، فقال له أخوها : مُرْنِى بما شئت، فزوّجها من زيد . وقيل : إنها نزلت فى أمّ كلثوم بنت عُقبة بن أبى مُعَيط ، وكانت وهبت نفسها للنبىّ صلى الله عليه وسلم، فزوّجها من زيد بن حارثة ؛ فكرهت ذلك هى وأخوها وقالا : إنما أردنا رسول

(١) الكمت : جمع أكمت ، وهى حمرة تضرب الى السواد . والمدماة : شديدة الحمرة مثل الدم . والمتون : جمع متن ، وهو الظهر . واستشعرت : جعلت شعارها . والمذهب : المموّه بالذهب . والبيت لطفيل الغنوى (عن سيبويه والعينى) .

(٢) راجع جـ ١ ص ٣٣١ و جـ ٤ ص ٨٢ و ٣١٠ .

الله صلى الله عليه وسلم فزوجنا غيره ؛ فنزلت الآية بسبب ذلك ، فأجابا إلى تزويج زيد ؛ قاله ابن زيد . وقال الحسن : ليس لمؤمن ولا مؤمنة إذا أمر الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم بأمر أن يعصياه .

الثانية — لفظة «ما كان، وما ينبغى» ونحوها، معناها الحظر والمنع . فتجئ لحظر الشىء والحكم بأنه لا يكون ؛ كما فى هذه الآية . وربما كان امتناع ذلك الشىء عقلا كقوله تعالى : « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا »(١) . وربّما كان العلم بامتناعه شرعاً كقوله تعالى : « مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ »(٢) ، وقوله تعالى : « وما كان لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ »(٣) . وربما كان فى المندوبات ؛ كما تقول : ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل ، ونحو هذا .

الثالثة — فى هذه الآية دليل بل نص فى أن الكفاءة لا تعتبر فى الأحساب وإنما تعتبر فى الأديان ؛ خلافا لمالك والشافعىّ والمُغيرة وسُحْنُون . وذلك أن الموالى تزوّجت فى قريش ؛ تزوج زيد زينبَ بنت جحش . وتزوج المِقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير . وزوّج أبو حذيفة سالما من فاطمة(٤) بنت الوليد بن عُتبة . وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عَوْف . وقد تقدّم هذا المعنى فى غير(٥) موضع .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ قرأ الكوفيون «أن يكون» بالياء . وهو اختيار أبى عبيد ؛ لأنه قد فرق بين المؤنث وبين فعله . الباقون بالتاء ؛ لأن اللفظ مؤنث [فتأنيث] فعله حسن . والتذكير على أن الخِيَرة بمعنى التخيير ؛ فالخيرة مصدر بمعنى الاختيار . وقرأ ابن السَّمَيْقَع « الخِيْرة » بإسكان الياء . وهذه الآية فى ضمن قوله تعالى : «النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ»(٦) . ثم توعد تعالى وأخبر أن من يعص الله ورسوله فقد ضل .

(١) آية ٦٠ سورة النمل . (٢) آية ٧٩ سورة آل عمران . (٣) آية ٥١ سورة الشورى .
(٤) فى الأصول وابن العربى : « هند » والتصويب عن كتب الصحابة . (٥) راجع المسألة الخامسة ج ٣ ص ٦٩ و ج ١٣ ص ٢٧٨ (٦) آية ٦ من هذه السورة .

وهذا أدل دليل على ما ذهب إليه الجمهور من فقهائنا، وفقهاء أصحاب الإمام الشافعي و بعض الأصوليين ، من أن صيغة « افعل » للوجوب فى أصل وضعها ؛ لأن الله تبارك وتعالى نفى خيرة المكلّف عند سماع أمره وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم أطلق على من بقيت له خيرة عند صدور الأمر آسم المعصية ، ثم علق على المعصية بذلك الضلالَ ؛ فلزم حمل الأمر على الوجوب . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — روى الترمذيّ قال : حدّثنا علىّ بن حجر قال حدثنا داود بن الزِّبْرِقان عن داود بن أبى هند عن الشعبيّ عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوَحْى لكتم هذه الآية : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ ﴾ يعنى بالاسلام ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالعتق فأعتقته . ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ — إلى قوله — وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا ﴾ وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوّجها قالوا : تزوّج حليلة آبنه ؛ فأنزل الله تعالى : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبناه وهو صغير، فلبث حتى صار رجلا يقال له زيد بن محمد، فأنزل الله تبارك وتعالى « ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ »

فلان مولى فلانٍ ، وفلان أخو فلان ؛ هو أقسط عند الله [يعنى أعدل][1] . قال أبو عيسى : هذا حديث [غريب][1] قد روى عن داود بن أبى هند عن الشعبى عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها . قالت : لو كان النبيّ صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوَحْى لكتم هذه الآية « وإذ تقولُ لِلذى أَنْعَمَ اللهُ عليهِ وأنعمتَ عليهِ » هذا الحرف لم يُرْوَ بطوله .

قلت : هذا القدر هو الذى أخرجه مسلم فى صحيحه ، وهو الذى صححه الترمذى فى جامعه . وفى البخارىّ عن أنس بن مالك أن هذه الآية « وتُخْفِي فِي نفسِك ما اللهُ مُبْدِيهِ » نزلت فى شأن زينب بنت جَحْش و زيد بن حارثة . وقال عمر وآبن مسعود وعائشة والحسن : ما أنزل الله على رسوله آية أشدّ عليه من هذه الآية . وقال الحسن وعائشة : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوَحْى لكتم هذه الآية لشدّتها عليه . وروى فى الخبر أنه : أمسى زيد فأوى إلى فراشه ، قالت زينب : ولم يستطعنى زيد ، وما أمتنع منه غير ما منعه الله منى ، فلا يقدر علىّ . هذه رواية أبى عِصْمة نوح بن أبى مريم ، رفع الحديث إلى زينب أنها قالت ذلك . وفى بعض الروايات : أن زيدا تورّم ذلك منه حين أراد أن يقربها ؛ فهذا قريب من ذلك . وجاء زيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن زينب تؤذينى بلسانها وتفعل وتفعل ! و إنى أريد أن أطلقها ، فقال له : "أمسِكْ عليكَ زَوْجَكَ وٱتّقِ اللهَ" الآية . فطلقها زيد فنزلت « وإذ تقولُ لِلّذى أنْعَمَ اللهُ عليهِ وأنعمتَ عليهِ » الآية .

واختلف الناس فى تأويل هذه الآية ؛ فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين ؛ منهم الطبرى وغيره ، إلى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم وقع منه آستحسان لزينب بنت جحش ، وهى فى عِصْمة زيد ، وكان حريصا على أن يطلّقها زيد فيتزوجها هو ؛ ثم إن زيدا لما أخبره بأنه يريد فراقها ، ويشكو منها غِلظةَ قولٍ وعصيانَ أمرٍ ، وأذًى باللسان وتعظيماً بالشرف ، قال له : "اتق الله — أى فيما تقول عنها — وأمسك عليك زوجك" وهو يخفى الحرص على طلاق زيد إيّاها . وهذا الذى كان يخفى فى نفسه ، ولكنه لزم مايجب من الأمر بالمعروف .

(١) زيادة عن صحيح الترمذى .

وقال مقاتل : زوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش من زيد فمكثت عنده حيناً ، ثم إنه عليه السلام أتى زيدا يوما يطلبه ، فأبصر زينب قائمة ، وكانت بيضاء جميلة جسيمة من أتمّ نساء قريش ، فهويها وقال : "سبحان الله مقلّب القلوب"! فسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ، ففطن زيد فقال : يارسول الله ، ائذن لى فى طلاقها ؛ فإن فيها كِبْراً ، تعظم علىّ وتؤذينى بلسانها ؛ فقال عليه السلام : "أمسكْ عليك زوجَك واتّقِ الله" . وقيل : إن الله بعث ريحا فرفعت الستر وزينب مُتَفَضِّلة(١) فى منزلها ، فرأى زينب فوقعت فى نفسه ، ووقع فى نفس زينب أنها وقعت فى نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك لما جاء يطلب زيدا ، فجاء زيد فأخبرته بذلك ، فوقع فى نفس زيد أن يطلقها . وقال ابن عباس : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ ﴾ الحبَّ لها . ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ أى تستحييهم . وقيل : تخاف وتكره لائمة المسلمين لو قلتَ طلِّقها ، ويقولون أمر رجلاً بطلاق امرأته ثم نكحها حين طلقها . ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ فى كل الأحوال . وقيل : والله أحق أن تستحى منه ، ولا تأمر زيدا بإمساك زوجته بعد أن أعلمك الله أنها ستكون زوجتك ؛ فعاتبه الله على جميع هذا . وروى عن علىّ بن الحسين : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيدا يطلق زينب ، وأنه يتزوّجها بترويج الله إياها ، فلما تشكّى زيد للنبيّ صلى الله عليه وسلم خُلُقَ زينب ، وأنها لا تطيعه ، وأعلمه أنه يريد طلاقها ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على جهة الأدب والوصية : "اتق الله فى قولك وأمسك عليك زوجك" وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوّجها ؛ وهذا هو الذى أخفى فى نفسه ، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لما عَلِم أنه سيتزوّجها . وخشى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحقه قول من الناس فى أن يتزوّج زينب بعد زيد ، وهو مولاه ، وقد أمره بطلاقها ؛ فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن خشِى الناس فى شىء قد أباحه الله له ؛ بأن قال : «أمسكْ» مع علمه بأنه يطلق . وأعلمه أن الله أحقّ بالخشية ، أى فى كل حال . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وهذا القول أحسن ماقيل فى تأويل هذه الآية ، وهو الذى

---

(١) تفضلت المرأة : لبست ثياب مهنتها أوكانت فى ثوب واحد .

عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين؛ كالزُّهْرِيّ والقاضي بكر بن العلاء القشيريّ[1] والقاضي أبي بكر بن العربيّ وغيرهم. والمراد بقوله تعالى: « وَتَخْشَى النَّاسَ » إنما هو إرجاف المنافقين بأنه نَهَى عن تزويج نساء الأبناء وتزوّج بزوجة ابنه. فأما ما روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم هَوِىَ زينب امرأة زيد — وربما أطلق بعض المُجّان لفظ عَشِق — فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبيّ صلى الله عليه وسلم عن مثل هذا، أو مستخِفّ بحرمته. قال الترمذيّ الحكيم في نوادر الأصول، وأسند إلى عليّ بن الحسين قولَه : فعليّ بن الحسين جاء بهـذا من خزانة العلم جوهرا من الجواهر، ودرًّا من الدُّرَر، أنه إنما عَتَب الله عليه في أنه قد أعلمه أن ستكون هذه من أزواجك، فكيف قال بعد ذلك لزيد : "أمسكْ عليك زوجك" وأخذتك خشية الناس أن يقولوا : تزوّج امرأة ابنه؛ والله أحق أن تخشاه. وقال النحاس: قال بعض العلماء ليس هـذا من النبيّ صـلى الله عليـه وسلم خطيئة؛ ألا ترى أنه لم يؤمر بالتـوبة ولا بالاستغفار منـه . وقد يكون الشيء ليس بخطيئة إلّا أن غيره أحسن منه ، وأخفى ذلك في نفسه خشية أن يفتتن الناس .

الثانيـــة — قال ابن العربيّ : فإن قيل لأيّ معنًى قال له : "أمسكْ عليك زوجك" وقد أخبره الله أنها زوجه. قلنا: أراد أن يختبر منه مالم يُعلمه الله من رغبته فيها أو رغبته عنها، فأبدى له زيد من النُّفرة عنها والكراهة فيهـا، مالم يكن علمـه منه في أمرها . فإن قيـل : كيف يأمره بالتمسك بها وقد علم أن الفراق لا بدّ منه ؟ وهذا تناقض . قلنا : بل هو صحيح للمقاصد الصحيحة؛ لإقامة الحجة ومعرفة العاقبة؛ ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن، فليس في مخالفة متعلّق الأمر لمتعلّق العلم ما يمنع من الأمر به عقلا وحكما. وهذا من نفيس العلم فتيقّنوه وتقبّلوه . وقوله : «واتقِ الله» أي في طلاقها، فلا تطلّقها . وأراد نهي تنزيه لا نهي تحريم؛ لأن الأولى ألا يطلق . وقيل : «اتق الله» فلا تذمّها بالنسبة إلى

---

(١) هو القاضي بكر بن محمد بن العلاء القشيري، الفقيه المالكي ولي قضاء العراق. له كتاب في الأحكام والردّ على المزني، والأشربة ورد فيه على الطحاوي، وكتاب في الأصول، والردّ على القدرية والردّ على الشافعيّ. توفي سنة ٣٤٣هـ (الوافي بالوفيات للصفدي) .

الكِبْر وأذى الزوج . «وتُخْفِي فِي نَفْسِك» قيـل تعلق قلبه . وقيـل : مفارقة زيد إياها . وقيل : علمه بأن زيدا سيطلقها؛ لأن الله قد أعلمه بذلك .

الثالثـة — روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لزيد: "ما أجد فى نفسى أوثق منك فآخطب زينب علىّ" قال : فذهبت وولّيتها ظهرى توقيرا للنبيّ صلى الله عليه وسـلم ، وخطبتها ففرحت وقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أُوامِرَ رَبّى (١) ، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن ، فتزوّجها النبيّ صلى الله عليه وسلم ودخل بها .

قلت : معنى هذا الحديث ثابت فى الصحيح . وترجم له النّسائى (صلاة المرأة إذا خُطبت واستخارتها ربّها) روى الأئمة — واللفظ لمسلم — عن أنس قال : لما آنقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم لزيد : "فاذكرها علىّ" قال : فانطلق زيد حتى أتاها وهى تُخَمِّر عجينها . قال : فلما رأيتها عَظُمت فى صدرى ، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها فولّيتها ظهرى ، ونَكَصْتُ على عقبى ، فقلت : يازينب ، أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ؛ قالت : ماأنا بصانعة شيئا حتى أُوامِرَ ربّى ؛ فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن . قال : فقال ولقد رأيتُنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعمنا الخبز واللحم حين امتدّ النهار . الحديث . فى رواية "حتى تركوه" . وفى رواية عن أنس أيضا قال : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أَوْلَمَ على آمرأة [من نسائه (٢)] ما أَوْلَمَ على زينب ؛ فإنه ذبح شاة . قال علماؤنا : فقوله عليه السـلام لزيد : "فاذكرها علىّ" أى آخطبها ؛ كما بيّنه الحديث الأول . وهذا امتحان لزيد واختبار له ، حتى يظهر صبره وانقياده وطوعه .

قلت : وقد يُستنبط من هذا أن يقول الإنسان لصاحبه : اخطب علىّ فلانة ، لزوجه المطلقة منه ، ولا حرج فى ذلك . والله أعلم .

---

(١) آمره فى أمره ووامره واستأمره : شاوره . (٢) زيادة عن مسلم .

الرابعة — لمّا وَكَلت أمرها إلى الله وصحّ تفويضها إليه تولّى الله إنكاحها ؛ ولذلك قال : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ . وروى الإمام جعفر بن محمد عن آبائه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم «وَطَراً زوّجتُكَهَا» . ولما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق، ولا شيء مما يكون شرطا فى حقوقنا ومشروعاً لنا . وهذا من خصوصياته صلى الله عليه وسلم، التى لا يشاركه فيها أحد بإجماع من المسلمين . ولهذا كانت زينب تفاخر نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم وتقول : زوجكنّ آباؤكنّ وزوّجنى الله تعالى . أخرجه النسائى عن أنس بن مالك قال : كانت زينب تَفْخَر على نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم تقول : إن الله عز وجل أنكحنى من السماء . وفيها نزلت آية الحجاب ؛ وسيأتى .

الخامسة — المُنْعَم عليه فى هذه الآية هو زيد بن حارثة ، كما بيناه ؛ وقد تقدّم خبره فى أوّل السورة[(1)] . وروى أن عمّه لقيه يوما وكان قد ورد مكة فى شغل له ، فقال : ما آسمك يا غلام ؟ قال : زيد ؛ قال : آبن من ؟ قال : ابن حارثة . قال ابن من ؟ قال : ابن شَرَاحيل الكلبيّ . قال : فما اسم أمك ؟ قال : سُعْدَى ، وكنت فى أخوالى طيّ ، فضمه إلى صدره . وأرسل إلى أخيه وقومه فحضروا ، وأرادوا منه أن يقيم معهم ؛ فقالوا : لمن أنت ؟ قال : لمحمد بن عبد الله ؛ فأتَوْه وقالوا : هذا آبننا فردّه علينا . فقال : " أعْرِضُ عليه فإن اختاركم فخذوا بيده " فبعث إلى زيد وقال : "هل تعرف هؤلاء" ؟ قال نعم ! هذا أبى ، وهذا أخى ، وهذا عمّى . فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " فأيّ صاحب كنتُ لك " ؟ فبكى وقال : لِمَ سألتنى عن ذلك ؟ قال : " أخيرك فإن أحببت أن تلحق بهم فآلحق وإن أردت أن تقيم فأنا مَن قد عرفتَ " فقال : ما أختار عليك أحدًا . فجذبه عمّه وقال : يا زيد ، اخترت العبوديّة على أبيك وعمّك ! فقال : أىْ واللهِ العبوديةُ عند محمد أحبّ إلىّ من أن أكون عندكم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اشهدوا أنى وارث وموروث " . فلم يزل يقال : زيد بن محمد إلى أن نزل قولُه تعالى « ادْعُوهم لِآبائِهِم » ونزل « ما كان محمدٌ أبا أحدٍ مِن رِجالِكم » .

(1) راجع ص ١١٨ من هذا الجزء .

السادســة — قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السُّهَيْلى رضى الله عنـه : كان يقال زيد بن محمد حتى نزل « ادْعُوهم لِآبائِهم » فقال: أنا زيد بن حارثة . وحرم عليه أن يقول : أنا زيد بن محمد . فلما نُزِع عنه هـذا الشرف وهـذا الفخر(١)، وعلِم الله وحشته من ذلك شرّفه بخصيصة لم يكن يَخُصّ بها أحدا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهى أنه سماه فى القرآن ؛ فقال تعالى : « فلمّا قَضَى زَيْدٌ مِنها وَطَراً » يعنى من زينب . ومَن ذكره الله تعالى باسمه فى الذكر الحكيم حتى صار قرآنا يُتْلَى فى المحاريب، نوه به غاية التنويه؛ فكان فى هذا تأنيس له وعوض من الفخر بأبوّة محمد صلى الله عليه وسلم له . ألا ترى إلى قول أُبَىّ ابن كعب حين قال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله أمرنى أن أقرأ عليك سورة كذا" فبكى وقال: أوَذُكِرتُ هنالك؟ وكان بكاؤه من الفرح حين أخبر أن الله تعالى ذكره؛ فكيف بمن صار اسمه قرآنا يتلى مخلّداً لا يبيد، يتلوه أهل الدنيا إذا قرءوا القرآن، وأهلُ الجنة كذلك أبدا، لا يزال على ألسـنة المؤمنين ، كما لم يزل مذكورا على الخصوص عنـد رب العالمين ؛ إذ القرآن كلام الله القديم، وهو باق لا يبيد؛ فاسم زَيْدٍ هـذا فى الصحف المكرّمة المرفوعة المطهّـرة ، تذكره فى التلاوة السَّـفَرة الكرام البررة . وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبيّ من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضا من الله تعالى له مما نُزِع عنه . وزاد فى الآية أن قال : « وإذْ تَقول لِلذى أنْعَمَ اللهُ عليه » أى بالإيمـان ؛ فدلّ على أنه من أهل الجنة ، علِم ذلك قبل أن يموت، وهذه فضيلة أخرى .

السابعــة — قوله تعـالى : ﴿وَطَراً﴾ الوَطَر كلّ حاجة للمـرء له فيها هِمّــة ؛ والجمع الأوطار . قال ابن عباس : أى بلغ ما أراد من حاجته؛ يعنى الجماع . وفيه إضمار ؛ أى لما قضى وَطَره منها وطلّقها « زَوّجْنا كَها » . وقراءة أهـل البيت « زوّجْتُكها » . وقيل : الوطر عبارة عن الطلاق ؛ قاله قتادة .

الثامنــة — ذهب بعض الناس من هـذه الآية ، ومن قول شعيب : « إنى أرِيدُ أن أُنْكِحَكَ(٢) » إلى أن ترتيب هذا المعنى فى المهور ينبغى أن يكون : « أنكحه إيّاها » فتقدّم

---

(١) فى الأصول : « ... وهذا الفخر منه » بزيادة لفظة « منه » .
(٢) آية ٢٧ سورة القصص .

ضمير الزوج كما فى الآيتين. وكذلك قوله عليه السلام لصاحب الرداء: "اذهب فقد أنكحتكها بما معك من القرآن". قال ابن عطية: وهذا غير لازم؛ لأن الزوج فى الآية مخاطب فحسن تقديمه، وفى المهور الزوجان [سواء]، فقدّم من شئت، ولم يبق ترجيح إلا بدرجة الرجال، وأنهم القوامون.

التاسعة — قوله تعالى: ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ دليل على ثبوت الولىّ فى النكاح؛ وقد تقدّم الخلاف فى ذلك[1]. روى أن عائشة وزينب تفاخرتا؛ فقالت عائشة: أنا التى جاء بى الملك إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى سَرَقة[2] من حرير فيقول: "هذه امرأتك" خرّجه الصحيح. وقالت زينب: أنا التى زوجنى الله من فوق سبع سموات. وقال الشعبىّ: كانت زينب تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنى لأدِلّ عليك بثلاث، ما من نسائك امرأة تَدِلّ بهنّ —: إن جَدّى وجدّك واحد، و إن الله أنكحك إياى من السماء، وإن السّفير فى ذلك جبريل. وروى عن زينب أنها قالت: لما وقعتُ فى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستطعنى زيد، وما أمتنع منه غير ما يمنعه الله تعالى منّى فلا يقدر علىّ.

قوله تعالى: مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة. أعلمهم أن هذا ونحوه هو السّنن الأقدم فى الأنبياء أن ينالوا ما أحلّه لهم؛ أى سَنّ لمحمد صلى الله عليه وسلم فى التوسعة عليه فى النكاح سُنّة الأنبياء الماضية؛ كداود وسليمان. فكان لداود مائة امرأة وثلاثمائة سُرِّية، ولسليمان ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سُرِّية. وذكر الثعلبىّ عن مقاتل وابن الكلبىّ أن الإشارة إلى داود عليه السلام؛ حيث جمع الله بينه وبين من فُتن بها.

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٧٢ وما بعدها. (٢) السرق (بفتحتين): شقق الحرير الأبيض.

و « سُنَّةَ » نصب على المصدر ؛ أى سَنّ الله له سُنة واسعة . و « الَّذِين خَلَوْا » هم الأنبياء؛ بدليل وصفهم بعدُ بقوله : « الَّذِين يُبَلِّغون رِسالاتِ الله » .

قوله تعالى : مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما تزوّج زينب قال الناس : تزوّج امرأة ابنه؛ فنزلت الآية ؛ أى ليس هو بآبنه حتى تحرم عليه حليلته، ولكنه أبو أمّته فى التبجيل والتعظيم، وأن نساءه عليهم حرام. فأذهب الله بهذه الآية ما وقع فى نفوس المنافقين وغيرهم ، وأعلم أن محمدا لم يكن أبا أحد من الرجال المعاصرين له فى الحقيقة . ولم يُقصد بهذه الآية أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يكن له ولد، فقد ولد له ذكور : إبراهيم، والقاسم، والطيب، والمطهّر؛ ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلا . وأما الحسن والحسين فكانا طفلين، ولم يكونا رجلين معاصرَيْن له .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنْ رَسُولَ الله ﴾ قال الأخفش والفرّاء : أى ولكن كان رسول الله . وأجازا « ولكنْ رسولُ الله وخاتَمُ » بالرفع . وكذلك قرأ ابن أبى عَبْلة وبعض الناس « ولكِنْ رسولُ الله » بالرفع ؛ على معنى هو رسول الله وخاتمُ النبيّين . وقرأت فرقة «ولكنّ» بتشديد النون، ونصب « رسول الله » على أنه اسم «لكنّ» والخبر محذوف . « وخاتَم » قرأ عاصم وحده بفتح التاء، بمعنى أنهم به خُتموا ؛ فهو كالخاتَم والطابَع لهم . وقرأ الجمهور بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم ؛ أى جاء آخرهم . وقيل : الخاتَم والخاتِم لغتان ؛ مثل طابَع وطابِع، ودانَق ودانِق، وطابَق من اللحم وطابِق .

الثالثــة — قال ابن عطية : هـذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمّة خَلَفا وسلفا متلقّاة على العموم التام مقتضية نصًّا أنه لا نبىّ بعده صلى الله عليه وسلم . وما ذكره القاضى بن الطيب فى كتابه المسمّى بالهداية، من تجويز الاحتمال فى ألفاظ هذه الآية ضعيف . وما ذكره الغزالى

فى هذه الآية ، وهذا المعنى فى كتابه الذى سمّاه بالاقتصاد، إلحاد عندى، وتطرّق خبيث إلى تشويش عقيدة المسلمين فى ختم محمد صلى الله عليه وسلم النبوة ؛ فالحذَرَ الحذَرَ منه ! والله الهادى برحمته .

قلت : وقد روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا نبوّة بعدى إلا ما شاء الله". قال أبو عمر : يعنى الرؤيا — والله أعلم — التى هى جزء منها ؛ كما قال عليه السلام : "ليس يبق بعدى من النبوة إلا الرؤيا الصالحة" . وقرأ ابن مسعود «من رجالكم ولكن نبيًّا ختم النبيين» . قال الرُّمّانى : ختم به عليه السلام الاستصلاح، فمن لم يصلح به فميئوس من صلاحه .

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه السلام : "بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق" . وفى صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَثَلى ومَثَلُ الأنبياء كمَثَل رجل بنى دارا فأتمّها وأكملها إلا موْضع لَبِنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجّبون منها ويقولون لولا موضِعُ اللّبِنة — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — فأنا موضع اللّبِنة جئت فختمتُ الأنبياء" . ونحوه عن أبى هريرة، غير أنه قال : "فأنا اللّبِنة وأنا خاتَم النبيين" .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾

أمر الله تعالى عباده بأن يذكروه ويشكروه ، ويكثروا من ذلك على ما أنعم به عليهم . وجعل تعالى ذلك دون حدّ لسهولته على العبد . ولعظم الأجر فيه قال ابن عباس : لم يُعذر أحد فى ترك ذكر الله إلا من غُلب على عقله . وروى أبو سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون" . وقيل : الذكر الكثير ما جرى على الإخلاص من القلب، والقليل ما يقع على حكم النفاق كالذكر باللسان .

قوله تعالى : وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾

أى اشغلوا ألسنتكم فى معظم أحوالكم بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير . قال مجاهد : وهذه كلمات يقولهن الطاهر والمحدِث والجُنُب . وقيل : ادعوه . قال جرير :

فلا تنس تسبيح الضُّحا إن يوسفًا * دعَا ربّه فآختاره حين سبحا

وقيل : المراد صلّوا لله بكرة وأصيلا ، والصلاة تسمّى تسبيحا . وخصّ الفجر والمغرب والعشاء بالذكر لأنها أحق بالتحريض عليها ، لاتصالها بأطراف الليل . وقال قتادة والطبرى : والإشارة إلى صلاة الغداة وصلاة العصر . والأصِيل : العشىّ و جمعه أصائل . والأُصُل بمعنى الأصيل ، وجمعه آصال ؛ قاله المبرد . وقال غيره : أُصُل جمع أصيل ؛ كرغيف ورغف . وقد تقدم (١) .

مســألة — هــذه الآية مدنيّة ، فلا تعلّق بهـا لمن زعم أن الصلاة إنمـا فرضت أوّلا صلاتين فى طرفى النهار . والرواية بذلك ضعيفة فلا التفات اليها ولا معوّل عليها . وقد مضى الكلام فى كيفية فرض الصلاة وما للعلماء فى ذلك فى « سبحان (٢) » والحمد لله .

قوله تعـالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) ﴾

قوله تعـالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ﴾ قال ابن عباس : لمـا نزل « إنّ اللهَ وملائكته يصلُّون على النبىّ » قال المهاجرون والأنصار : هذا لك يا رسول الله خاصّةً ، وليس لنـا فيه شىء ؛ فأنزل الله هذه الآية .

قلت : وهذه نعمة من الله تعالى على هذه الأمة من أكبر النّعم ؛ ودليلٌ على فضيلتها على سائر الأمم . وقد قال : « كُنْتُمْ خيرَ أُمّــةٍ أُخرِجتْ لِلناس (٣) » . والصلاة من الله على العبد هى رحمتــه له و بركته لديه . وصلاة الملائكة : دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم ؛ كما قال : « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلّذِين آمنوا (٤) » وسيأتى . وفى الحديث : أن بنى إسرائيل سألوا موسى عليــه السلام أيُصــلّى ربك جل وعز ؟ فأعظم ذلك ؛ فأوحى الله جل وعز إن صلاتى بأن رحمتى سبقت غضبى ؛ ذكره النحاس . وقال ابن عطية : وروت فرقة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم

(١) راجع ج ٧ ص ٣٥٥ (٢) راجع ج ١٠ ص ٢١٠ (٣) آية ١١٠ سورة آل عمران .
(٤) آية ٧ سورة غافر .

قيل له : يا رسول الله، كيف صلاة الله على عباده . قال : "سُبُّوح قُدّوس رحمتى سبقت غضبى" . واختلف فى تأويل هذا القول؛ فقيل : إنه كلام من كلام الله تعالى وهى صلاته على عباده . وقيل : سُبُّوح قُدّوس من كلام محمد صلى الله عليه وسلم ، وقدّمه بين يدى نطقه باللفظ الذى هو صلاة الله وهو "رحمتى سبقت غضبى" من حيث فهم من السائل أنه توهّم فى صلاة الله على عباده وجهاً لا يليق بالله عز وجل؛ فقدّم التنزيه والتعظيم بين يدى إخباره .

قوله تعالى : ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى من الضلالة إلى الهدى . ومعنى هذا التثبيت على الهداية ؛ لأنهم كانوا فى وقت الخطاب على الهداية . ثم أخبر تعالى برحمته بالمؤمنين تأنيسًا لهم فقال : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾ .

قوله تعالى : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

اختلف فى الضمير الذى فى « يَلْقَوْنَهُ » على مَن يعود؛ فقيل على الله تعالى، أى كان بالمؤمنين رحيما، فهو يؤمّنهم من عذاب الله يوم القيامة . وفى ذلك اليوم يلقونه . و﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ أى تحية بعضهم لبعض . ﴿ سَلَامٌ ﴾ أى سلامة لنا ولكم من عذاب الله . وقيل : هذه التحية من الله تعالى؛ المعنى : فيسلمهم من الآفات، أو يبشرهم بالأمن من المخافات ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أى يوم القيامة بعد دخول الجنة . قال معناه الزجاج؛ واستشهد بقوله جل وعز : « وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ »[(١)] . وقيل : « يومَ يَلْقَوْنَه » أى يومَ يلقَوْن مَلَك الموت؛ وقد ورد أنه لا يقبض روح مؤمن إلا سلّم عليه . روى عن البَراء بن عازِب قال : « تحيّتُهم يومَ يَلْقَوْنَه سلام » فيسلّم ملك الموت على المؤمن عند قَبْض روحه، لا يقبض روحه حتى يسلّم عليه .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾

---

(١) آية ١٠ سورة يونس .

هذه الآية فيها تأنيس للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللؤمنين ، وتكريم لجميعهم . وهذه الآية تضمنت من أسمائه صلى الله عليه وسلم ستة أسماء ولنبيّنا صلى الله عليه وسلم أسماء كثيرة وسمات جليلة ، ورد ذكرها فى الكتاب والسنة والكتب المتقدّمة . وقد سماه الله فى كتابه محمدا وأحمد . وقال صلى الله عليه وسلم فيما رَوى عنه الثقات العدول : " الى خمسة أسماء أنا محمد وأحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب" . وفى صحيح مسلم من حديث جُبير بن مُطْعِم : وقد سماه الله « رءوفا رحيما » . وفيه أيضا عن أبى موسى الأشعرىّ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى لنا نفسه أسماء، فيقول : « أنا محمد وأحمد والمُقَفِّى والحاشر ونبىّ التوبة ونبىّ الرحمة » . وقد تتبع القاضى أبو الفضل عِياض فى كتابه المسمى (بالشِّفا) ما جاء فى كتاب الله وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومما نقل فى الكتب القديمة ، وإطلاق الأمة أسماء كثيرة وصفاتٍ عديدة، قد صدقت عليه صلى الله عليه وسلم مُسَمَّياتها ، ووجدت فيه معانيها . وقد ذكر القاضى أبو بكر بن العربىّ فى أحكامه فى هذه الآية من أسماء النبىّ صلى الله عليه وسلم سبعةً وستين اسما . وذكر صاحب (وسيلة المتعبدين الى متابعة سيد المرسلين) عن ابن عباس أن لمحمد صلى الله عليه وسلم مائة وثمانين اسما ، من أرادها وجدها هناك . وقال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا ومُعاذًا ، فبعثهما الى اليمن، وقال : " اذهبا فبشِّرا ولا تُنفِّرا ويَسِّرا ولا تُعَسِّرا فإنه قد أنزل علىّ ... " وقرأ الآية .

قوله تعالى : ﴿ شَاهِدًا ﴾ قال سعيد عن قتادة : « شاهدًا » على أمّته بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم ؛ ونحو ذلك . ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ معناه للؤمنين برحمة الله وبالجنة . ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ معناه للعصاة والمكذبين من النار وعذاب الخلد . ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ ﴾ الدعاء الى الله هو تبليغ التوحيد والأخذ به ، ومكافحة الكفرة . و﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ هنا معناه : بأمره إياك، وتقديره ذلك فى وقته وأوانه . ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ هنا استعارة للنور الذى يتضمنه شرعه .

وقيل : « وسراجًا » أى هاديا من ظلم الضلالة ؛ وأنت كالمصباح المضىء . ووصفه بالإنارة لأن من السُّرُج ما لا يضىء ، إذا قلّ سليطه(١) ودقّت فتيلته . وفى كلام بعضهم : ثلاثة تُضْنِي : رسول بطىء ، وسراج لا يضىء ، ومائدة ينتظر لها من يجىء . وسئل بعضهم عن الموحشَيْن فقال : ظلام ساتر وسراج فاتر . وأسند النحاس قال : حدّثنا محمد بن إبراهيم الرازى قال حدّثنا عبد الرحمن بن صالح الأزدى قال حدّثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى عن شَيبان النحوى قال حدّثنا قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت « يأيها النبيّ إنّا أرسلناك شاهِدًا ومبَشرًا ونذيرًا . وداعِيًا إلى اللهِ بإذنِهِ وسِراجا مُنِيراً » دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً ومعاذا فقال : " انطلقا فبشِّرا ولا تُعَسِّرَا فإنه قد نزل علىّ الليلة آية « يأيها النبيّ إنا أرسلناك شاهِدًا ومُبَشِّرًا ونذيرا — من النار — وداعِياً إلى اللهِ — قال — شهادة أن لا إله إلا الله — بإذنِهِ — بأمره — وسِراجًا مُنِيرًا — قال — بالقرآن " .
وقال الزجاج : « وسِراجًا » أى وذا سراج مُنير ؛ أى كتاب نيّر . وأجاز أيضا أن يكون بمعنى : وتاليًا كتاب الله .

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الواو عاطفة جملة على جملة ؛ والمعنى منقطع من الذى قبله . أمره تعالى أن يبشر المؤمنين بالفضل الكبير من الله تعالى . وعلى قول الزجاج : ذا سراج منير ، أو وتاليًا سراجا منيرا ، يكون معطوفا على الكاف فى « أرسلناك » . قال ابن عطية : قال لنا أبى رضى الله عنه ، هذه من أرجى آية عندى فى كتاب الله تعالى ؛ لأن الله عز وجل قد أمر نبيّه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلا كبيرا ؛ وقد بيّن تعالى الفضل الكبير فى قوله تعالى : « وَالذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ فِى رَوْضاتِ الجنّاتِ لهم ما يشاءون

(١) السليط : الزيت .

عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ »[1] . فالآية التى فى هذه السورة خبر ، والتى فى « حٓمٓ . عٓسٓقٓ » تفسير لها . ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ ﴾ أى لا تطعهم فيما يشيرون عليك من المداهنة فى الدِّين ولا تمالئهم . « الكافرين » : أبى سفيان وعكرمة وأبى الأعور السُّلَمِىّ ؛ قالوا : يا محمد ، لا تذكر آلهتنا بسوء نتبعك . « والمنافقين » : عبد الله بن أُبَىّ وعبد الله ابن سعد وطُعْمة بن أُبَيْرِق ، حثُّوا النبىّ صلى الله عليه وسلم على إجابتهم بتعِلّة المصلحة . ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ أى دع أن تؤذيهم مجازاةً على إذايتهم إياك[2] . فأمره تبارك وتعالى بترك معاقبتهم، والصفح عن زللهم؛ فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول . ونُسخ من الآية على هذا التأويل ما يخصّ الكافرين، وناسخه آية السيف . وفيه معنى ثانٍ : أى أعرض عن أقوالهم وما يؤذونك ، ولا تشتغل به ؛ فالمصدر على هذا التأويل مضاف إلى الفاعل . وهذا تأويل مجاهد، والآية منسوخة بآية السيف . ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أمره بالتوكل عليه ، وآنسه بقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ وفى قوة الكلام وعدٌ بنصر . والوكيل : الحافظ القائم على الأمر .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ ﴾ لما جرت قصة زيد وتطليقه زينب ، وكانت مدخولا بها ، وخطبها النبىّ صلى الله عليه وسلم بعد انقضاء عدّتها — كما بيناه — خاطب الله المؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل البناء ، وبيّن ذلك الحكم للأمة ؛ فالمطلّقة إذا لم تكن ممسوسةً لا عدّة عليها بنص الكتاب وإجماع الأمّة على ذلك . فإن دخل بها فعليها العدّة إجماعا .

---

(١) آية ٢٢ سورة الشورى . (٢) فى الأصول : « على إذايتك إياهم » .

الثانية — النكاح حقيقة فى الوطء، وتسمية العقد نكاحا لملابسته له من حيث إنه طريق إليه . ونظيره تسميتهم الخمر إثمًا(١) لأنه سبب فى اقتراف الإثم . ولم يرد لفظ النكاح فى كتاب الله إلا فى معنى العقد ؛ لأنه فى معنى الوطء، وهو من آداب القرآن، الكناية عنه بلفظ الملامسة والمماسّة والقُربان والتغشّى والإتيان .

الثالثة — استدلّ بعض العلماء بقوله تعالى : « ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ » وبمهلة « ثُمَّ » على أن الطلاق لا يكون إلا بعد نكاح، وأن من طلّق المرأة قبل نكاحها وإن عيّنها، فإن ذلك لا يلزمه . وقال هذا نيّفٌ على ثلاثين من صاحبٍ وتابعٍ وإمامٍ . سمّى البخارىّ منهم اثنين وعشرين(٢) . وقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم "لا طلاق قبل نكاح" ومعناه : أن الطلاق لا يقع حتى يحصل النكاح . قال حبيب بن أبى ثابت : سئل علىّ بن الحسين رضى الله عنهما عن رجل قال لامرأة : إن تزوجتك فأنتِ طالق؟ فقال : ليس بشىء؛ ذكر الله عز وجل النكاح قبل الطلاق . وقالت طائفة من أهل العلم : إن طلاق المعيّنة الشخص أو القبيلة أو البلد لازم قبل النكاح ؛ منهم مالك وجميع أصحابه، وجمع عظيم من علماء الأمة . وقد مضى فى « براءة »(٣) الكلام فيها ودليل الفريقين . والحمد لله . فإذا قال : كل امرأة أتزوجها [طالق] وكل عبد أشتريه حرّ، لم يلزمه شىء . وإن قال : كل امرأة أتزوّجها إلى عشرين سنة، أو إن تزوجت من بلد فلان أو من بنى فلان فهى طالق، لزمه الطلاق ما لم يخف العَنَت على نفسه فى طول السنين، أو يكون عمره فى الغالب لا يبلغ ذلك، فله أن يتزوّج . وإنما لم يلزمه الطلاق إذا عمّم لأنه ضيّق على نفسه المناكح، فلو منعناه ألا يتزوّج لحَرِج(٤) وخيف عليه العَنَت . وقد قال بعض أصحابنا : إنه إن وجد ما يتسرّر به لم ينكِح؛ وليس بشىء، وذلك أن الضرورات والأعذار ترفع الأحكام؛ فيصير هذا من حيث الضرورة كمن لم يحلف؛ قاله ابن خُوَيْزِمنداد .

(١) الخمر : تؤنث وتذكر، والتأنيث أكثر . (٢) الذى سماهم البخارى فى (باب لا طلاق قبل النكاح) أربعة وعشرون . (٣) راجع المسألة الخامسة جـ ٨ ص ٢١١ (٤) حرج : أثم .

الرابعة — استدلّ داود — ومن قال بقوله — أن المطلّقة الرجعية إذا راجعها زوجها قبل أن تنقضى عدّتها ثم فارقها قبل أن يَمَسّها ، أنه ليس عليها أن تتم عدّتها ولا عدّةً مستقبلة ؛ لأنها مطلقة قبل الدخول بها . وقال عطاء بن أبى رباح وفرقة : تمضى فى عدّتها من طلاقها الأول — وهو أحد قولى الشافعى — ؛ لأن طلاقه لها إذا لم يمسها فى حكم من طلقها فى عدّتها قبل أن يراجعها . ومن طلّق امرأته فى كل طهر مرّة بنت ولم تستأنف . وقال مالك : إذا فارقها قبل أن يمسها إنها لا تبنى على ما مضى من عدّتها ، وإنها تنشئ من يوم طلقها عدّة مستقبلة . وقد ظلم زوجها نفسه وأخطأ إن كان ٱرتجعها ولا حاجة له بها . وعلى هذا أكثر أهل العلم ؛ لأنها فى حكم الزوجات المدخول بهن فى النفقة والسكنى وغير ذلك ؛ ولذلك تستأنف العدّة من يوم طلقت ؛ وهو قول جمهور فقهاء البصرة والكوفة ومكة والمدينة والشام . وقال الثورىّ : أجمع الفقهاء عندنا على ذلك .

الخامسة — فلو كانت بائنة غير مبتوتة فتزوّجها فى العدّة ثم طلقها قبل الدخول فقد اختلفوا فى ذلك أيضا ؛ فقال مالك والشافعىّ وزُفَر وعثمان البَتّى : لها نصف الصداق وتتم بقية العدّة الأولى . وهو قول الحسن وعطاء وعكرمة وابن شهاب . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف والثّورىّ والأوزاعىّ : لها مهر كامل للنكاح الثانى وعدّة مستقبلة . جعلوها فى حكم المدخول بها لاعتدادها من مائه . وقال داود : لها نصف الصداق ، وليس عليها بقية العدّة الأولى ولا عدّة مستقبلة . والأوْلى ما قاله مالك والشافعىّ ، والله أعلم .

السادسة — هذه الآية مخصصة لقوله تعالى : « والمطلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأنفسهِن ثلاثةَ قُرُوء » ، ولقوله : « وَاللَّائى يَئِسْنَ مِن الْمَحِيض مِنْ نِسائكم إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنّ ثلاثةُ أَشْهرٍ »[1] . وقد مضى فى « البقرة »[2] ، ومضى فيها الكلام فى المُتعة[3] ، فأغنى عن الإعادة هنا . ﴿وَسَرِّحُوهُنّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه دَفْعُ المُتْعة بحسب المَيْسرة والعُسْرة ؛ قاله

(١) آية ٤ سورة الطلاق. (٢) راجع جـ ٣ ص ١١٢ وما بعدها . (٣) راجع جـ ٣ ص ٢٠٠ وما بعدها .

ابن عباس . الثانى — أنه طلاقها طاهرا من غير جماع؛ قاله قتادة . وقيل : فسرحوهن بعد الطلاق إلى أهلهن، فلا يجتمع الرجل والمطلقة فى موضع واحد .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ قال سعيد : هى منسوخة بالآية التى فى البقرة، وهى قوله : « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ » أى فلم يذكر المتعة . وقد مضى الكلام فى هذا فى « البقرة » مستوفًى(١) . وقوله : « وَسَرِّحُوهُنَّ » طلقوهن . والتسريح كناية عن الطلاق عند أبى حنيفة؛ لأنه يستعمل فى غيره فيحتاج إلى النية . وعند الشافعى صريح . وقد مضى فى « البقرة » القول فيه فلا معنى للإعادة(٢) . ﴿ جَمِيلًا ﴾ سنة، غير بدعة .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾

فيه تسع عشرة مسألة :

الأولى — روى السدى عن أبى صالح عن أم هانئ بنت أبى طالب قالت : خطبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فعذرنى(٣)، ثم أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ

---

(١) جـ ٣ ص ٢٠٤ (٢) جـ ٣ ص ١٢٥ (٣) قالت : إنى امرأة مصبية (ذات صبيان) . وفى بعض الروايات : قالت يارسول الله، لأنت أحب إلى من سمعى و بصرى وحق الزوج عظيم، فأخشى أن أضيع حق الزوج .

عَمَّـاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ قالت : فلم أكن أحل له ؛ لأنى لم أهاجر ، كنت من الطُّلقاء . خرّجه أبو عيسى وقال : هـذا حديث حسن لا نعـرفه إلا من هذا الوجه . قال ابن العربى : وهو ضعيف جدا ، ولم يأت هذا الحديث من طريق صحيح يُحتجّ بهـا .

الثانيــة — لمـا خير رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه فاخترنه ، حَرُم عليـه التزوج بغيرهن والاستبدال بهنّ ، مكافأةً لهن على فعلهن . والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ الآية . وهل كان يحلّ له أن يطلق واحدة منهن بعد ذلك ؟ فقيل : لا يحل له ذلك جزاءً لهن على اختيارهن له . وقيل : كان يَحِلّ له ذلك كغيره من النـاس ولكن لا يتزوج بدلها . ثم نسخ هذا التحريم فأباح له أن يتزوج بمن شاء عليهن من النساء ؛ والدليل عليـه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ والإحلال يقتضى تقـدّم حَظْر . وزوجاته اللاتى فى حياته لم يكنّ محرمات عليـه ، وإنمـا كان حرم عليه التزويج بالأجنبيات فانصرف الإحلال إليهن ؛ ولأنه قال فى سـياق الآية ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ ﴾ الآية . ومعلوم أنه لم يكن تحتـه أحد من بنات عمّه ولا من بنات عمّاته ولا من بنـات خاله ولا من بنات خالاته ؛ فثبت أنه أحلّ له التزويج بهذا ابتداء . وهذه الآية وإن كانت متقدمة فى التلاوة فهى متأخرة النزول على الآية المنسوخة بها ؛ كآيتى الوفاة فى « البقرة »[(١)] .

وقد اختلف الناس فى تأويل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ فقيل : المراد بها أن الله تعالى أحلّ له أن يتزوج كلّ امرأة يؤتيها مهرها ؛ قاله ابن زيد والضحاك . فعلى هذا تكون الآية مبيحة جميع النساء حاشا ذوات المحارم . وقيل : المراد أحللنا لك أزواجك ، أى الكائنات عندك ؛ لأنهن قد اخترنك على الدنيا والآخرة ؛ قاله الجمهور من العلماء . وهو الظاهر ؛ لأن قوله : « آتَيْتَ أُجُورَهُنّ » ماضٍ ، ولا يكون الفعل المـاضى بمعنى الاستقبال إلا بشروط . ويجىء الأمر على هذا التأويل ضيّقاً على النبىّ صلى الله عليه وسلم . ويؤيّد هذا التأويل ما قاله

(١) ٢٣٤ ، ٢٤٠ راجع جـ ٣ ص ١٧٣ و ٢٢٦

ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوج فى أى" الناس شاء ، وكان يشق ذلك على نسائه ، فلما نزلت هذه الآية وحرم عليه بها النساء إلا من سُمّى ، سُرّ نساؤه بذلك .

قلت : والقول الأول أصح لما ذكرناه . ويدل أيضا على صحته ماخرّجه الترمذى" عن عطاء قال : قالت عائشة رضى الله عنها ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله تعالى له النساء . قال : هذا حديث حسن صحيح .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أحلّ الله تعالى السّرارى لنبيّه صلى الله عليه وسلم ولأمّته مطلقا ، وأحلّ الأزواج لنبيّه عليه الصلاة والسلام مطلقا ، وأحلّه للخلق بعدد . وقوله : ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أى ردّه عليك من الكفار . والغَنيمة قد تسمى فيئا ؛ أى مما أفاء الله عليك من النساء بالمأخوذ على وجه القهر والغلبة .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ﴾ أى أحللنا لك ذلك زائدا من الأزواج اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك ، على قول الجمهور ؛ لأنه لو أراد أحللنا لك كل امرأة تزوجت وآتيت أجرها ، لما قال بعد ذلك «وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ» لأن ذلك داخل فيما تقدّم .

قلت : وهذا لا يلزم ، وإنما خصّ هؤلاء بالذكر تشريفا لهن ؛ كما قال تعالى : «فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ»(١) . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ فيه قولان : الأول — لا يحل لك من قرابتك كبنات عمك العباس وغيره من أولاد عبد المطلب ، وبنات أولاد بنات عبد المطلب ، وبنات الخال من ولد بنات عبد مناف بن زُهْرة إلا من أسلم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله تعالى عنه" . الثانى — لا يحل لك منهن إلا من هاجر إلى المدينة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ

(١) آية ٦٨ سورة الرحمن .

مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾[1] ومن لم يهاجر لم يَكْمُل ، ومَن لم يكمل لم يصلح للنبيّ صلى الله عليه وسلم الذى كَمُل وشَرُف وعَظُم ، صلى الله عليه وسلم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿مَعَكَ﴾ المَعِيّة هنا الاشتراك فى الهجرة لا فى الصحبة فيها ؛ فمن هاجر حلّ له ، كان فى صحبته إذ هاجر أو لم يكن . يقال : دخل فلان معى وخرج معى ؛ أى كان عمله كعملى وإن لم يقترن فيه عَمَلُكما . ولو قلت : خرجنا معاً لاقتضى ذلك المعنيين جميعا : الاشتراك فى الفعل ، والاقتران [فيه] .

السابعة — ذكر الله تبارك وتعالى العمّ فَرْداً والعمّات جمعاً . وكذلك قال : «خالك» ، «وخالاتك» والحكمة فى ذلك : أن العمّ والخال فى الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز ؛ وليس كذلك العمّة والخالة . وهذا عُرْف لغوىّ ، فجاء الكلام عليه بغاية البيان لرفع الإشكال ، وهذا دقيق فتأملوه ؛ قاله ابن العربى .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً﴾ عطف على « أحللنا » . المعنى وأحللنا لك امرأة تَهَب نفسها من غير صداق . وقد اختلف فى هذا المعنى ؛ فروى عن ابن عباس أنه قال : لم تكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأةٌ إلا بعقد نكاح أو مِلْك يَمِين . فأما الهبة فلم يكن عنده منهن أحد . وقال قوم : كانت عنده موهوبة .

قلت : والذى فى الصحيحين يقوّى هذا القول ويَعْضُدُه ؛ روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كنت أغار على اللاتى وَهَبْنَ أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : أما تستحى امرأة تَهَب نفسها لرجل ! حتى أنزل الله تعالى « تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ » فقلت : والله ما أرى رَبَّك إلا يسارع فى هواك . وروى البخارىّ عن عائشة أنها قالت : كانت خَوْلة بنت حكيم من اللائى وهبن أنفسهنّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فدلّ هذا على أنهن كنّ غير واحدة . والله تعالى أعلم . الزَّمَخْشَرىّ : وقيل الموهوبات أربع : ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية ، وأم شريك بنت جابر ، وخَوْلة بنت حكيم .

(١) آية ٧٢ سورة الأنفال .

قلت : وفى بعض هذا اختلاف . قال قتادة : هى ميمونة بنت الحارث. وقال الشعبىّ : هى زينب بنت خزيمة أم المساكين آمرأة من الأنصار . وقال علىّ بن الحسين والضحاك ومقاتل : هى أم شريك بنت جابر الأسدية. وقال عروة بن الزبير : أم حكيم بنت الأوقص السلمية .

التاسعة — وقد آختلف فى اسم الواهبة نفسها ؛ فقيل هى أم شريك الأنصارية ، اسمها غُزَيّة. وقيل غُزَيلة . وقيل ليلى بنت حكيم . وقيل : هى ميمونة بنت الحارث حين خطبها النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فجاءها الخاطب وهى على بعيرها فقالت : البعير وما عليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : هى أم شريك العامرية ، وكانت عند أبى العكر الأزدى . وقيل عند الطُّفيل بن الحارث فولدت له شريكا. وقيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوّجها ؛ ولم يثبت ذلك . والله تعالى أعلم ؛ ذكره أبو عمر بن عبد البر . وقال الشعبىّ وعروة : هى زينب بنت خزيمة أم المساكين . والله تعالى أعلم .

العاشرة — قرأ جمهور الناس « إن وَهَبَتْ » بكسر الألف ، وهذا يقتضى استئناف الأمر ؛ أى إن وقع فهو حلال له . وقد روى عن آبن عباس ومجاهد أنهما قالا : لم يكن عند النبىّ صلى الله عليه وسلم آمرأة موهوبة ؛ وقد دللنا على خلافه . وروى الأئمة من طريق سهل وغيره فى الصحاح : أن آمرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئت أَهب لك نفسى ، فسكت حتى قام رجل فقال : زوّجْنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فلو كانت هذه الهبة غير جائزة لما سكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لا يقرّ على الباطل إذا سمعه ؛ غير أنه يحتمل أن يكون سكوته منتظرا بيانا ؛ فنزلت الآية بالتحليل والتخيير ، فاختار تركها وزوّجها من غيره . ويحتمل أن يكون سكت ناظرا فى ذلك حتى قام الرجل لها طالبا . وقرأ الحسن البصرىّ وأبىّ بن كعب والشعبىّ «أن» بفتح الألف . وقرأ الأعمش « وَآمْرَأَةً مُؤْمِنَةً وَهَبَتْ» . قال النحاس : وكسر «إنْ» أجمع للمعانى ؛ لأنه قيل إنهن نساء . وإذا فتح كان المعنى على واحدة بعينها ؛ لأن الفتح على البدل من آمرأة ، أو بمعنى لأن .

الحادية عشرة — قوله تعالى: ﴿ مُؤْمِنَة ﴾ يدلّ على أن الكافرة لا تحلّ له . قال إمام الحرمين : وقد اختلف فى تحريم الحرّة الكافرة عليه . قال ابن العربى : والصحيح عندى تحريمها عليه . وبهذا يتميّز علينا؛ فإنه ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحظه فيه أكثر، وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها أطهر؛ فجوّز لنا نكاح الحرائر الكتابيات، وقصر هو صلى الله عليه وسلم لجلالته على المؤمنات . وإذا كان لا يحلّ له من لم تهاجر لنقصان فضل الهجرة فأحْرى ألا تحل له الكافرة الكتابية (١) لنقصان الكفر .

الثانية عشرة — قوله تعالى: ﴿ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا ﴾ دليل على أن النكاح عقد معاوضة على صفات مخصوصة، قد تقدمت فى «النساء» (٢) وغيرها . وقال الزجاج : معنى «إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ» حلّت . وقرأ الحسن «أن وهبت» بفتح الهمزة . و «أن» فى موضع نصب . قال الزجاج : أى لأن . وقال غيره : « أن وهبت » بدل اشتمال من « امرأة » .

الثالثة عشرة — قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ أى إذا وهبت المرأة نفسها وقبلها النبىّ صلى الله عليه وسلم حلّت له، وإن لم يقبلها لم يلزم ذلك . كما إذا وهبت لرجل شيئا فلا يجب عليه القبول؛ بيد أن من مكارم أخلاق نبينا أن يقبل من الواهب هبته . ويرى الأكارم أن ردّها هُجْنة فى العادة، ووصمة على الواهب وإذاية لقلبه؛ فبيّن الله ذلك فى حق رسوله صلى الله عليه وسلم وجعله قرآنا يُتْلى؛ ليرفع عنه الحرج، ويبطل بُطْل الناس فى عادتهم وقولهم .

الرابعة عشرة — قوله تعالى: ﴿ خَالِصَةً لَكَ ﴾ أى هبة النساء أنفسهن خالصة ومزية لا تجوز؛ فلا يجوز أن تهب المرأة نفسها لرجل . ووجه الخاصيّة أنها لو طلبت فرض المهر قبل الدخول لم يكن لها ذلك . فأما فيما بيننا فللمفوّضة طلب المهر قبل الدخول، ومهر المثل بعد الدخول .

---

(١) فى ابن العربى « الحرة » . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٢٧ وما بعدها .

الخامسة عشرة — أجمع العلماء على أن هبة المرأة نفسها غير جائز[١]، وأن هذا اللفظ من الهبة لا يتم عليه نكاح؛ إلا ما روى عن أبى حنيفة وصاحبيه فإنهم قالوا : إذا وهبت فأشهد هو على نفسه بمهر فذلك جائز. قال آبن عطية : فليس فى قولهم إلا تجويز العبارة ولفظة الهبة؛ وإلا فالأفعال التى آشترطوها هى أفعال النكاح بعينه، وقد تقدمت هذه المسألة فى «القصص» مستوفاة[٢]. والحمد لله.

السادسة عشرة — خصّ الله تعالى رسوله فى أحكام الشريعة بمعان لم يشاركه فيها أحد — فى باب الفرض والتحريم والتحليل — مزيّةً على الأمة وُهبت[٣] له، ومرتبة خُصّ بها؛ ففرِضت عليه أشياء مافرضت على غيره، وحَرُمت عليه أفعال لم تحرم عليهم، وحللت له أشياء لم تحلل لهم؛ منها متفَق عليه ومختلَف فيه.

فأما ما فُرض عليه فتسعة : الأوّل — التهجد بالليل؛ يقال : إن قيام الليل كان واجبا عليه إلى أن مات؛ لقوله تعالى : « يَأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ . قُمِ ٱللَّيْلَ » الآية. والمنصوص أنه كان واجبًا عليه ثم نُسخ بقوله تعالى : « وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ » وسيأتى. الثانى — الضُّحَى. الثالث — الأَضْحى. الرابع — الوتر؛ وهو يدخل فى قسم التهجُّد. الخامس — السواك. السادس — قضاء دين من مات معسِرا. السابع — مشاورة ذوى الأحلام فى غير الشرائع. الثامن — تخيير النساء. التاسع — إذا عمل عملا أثبته. زاد غيره : وكان يجب عليه إذا رأى منكرا أنكره وأظهره؛ لأن إقراره لغيره على ذلك يدل على جوازه؛ ذكره صاحب البيان.

وأما ما حرم عليه بجملته عشرة : الأوّل — تحريم الزكاة عليه وعلى آله. الثانى — صدقة التطوّع عليه؛ وفى آله تفصيل باختلاف. الثالث — خائنة[٤] الأعين، وهو أن يظهر خلاف ما يضمر، أو ينخدع عما يجب. وقد ذمّ بعضَ الكفار عند إذنه ثم ألان له القول

---

(١) أى أمر غير جائز.   (٢) راجع ج ١٣ ص ٢٧٢   (٣) فى ابن العربى : «وهيبة له».

(٤) الخائنة بمعنى الخيانة، وهى من المصادر التى جاءت على لفظ الفاعلة كالعافية فاذا كف الانسان لسانه وأومأ بعينه فقد خان، و إذا كان ظهور تلك الحالة من قبل العين سميت خائنة الأعين.

عنـد دخوله . الرابع — حرّم الله عليه إذا لبس لَأْمته[(٢)] أن يخلعها عنـه أو يحكم الله بينه و بين محاربه[(١)] . الخامس — الأكل متكئاً . السادس — أكل الأطعمة الكريهة الرائحة . السابع — التبدّل بأزواجه؛ وسيأتى . الثامن — نكاح امرأة تكره صحبته . التاسع — نكاح الحرّة الكتابية . العاشر — نكاح الأمة .

وحرّم الله عليه أشياء لم يحرمها على غيره تنزيها له وتطهيرا . فحرّم الله عليه الكتابة وقول الشعر وتعليمه؛ تأكيدًا لحجته و بيانا لمعجزته؛ قال الله تعالى: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ»[(٣)] . وذكر النقاش أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ما مات حتى كتب؛ والأول هو المشهور. وحرم عليه أن يمدّ عينيه إلى ما متّع به الناس؛ قال الله تعالى: «وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ»[(٤)] الآية .

وأما ما أحِلّ له صلى الله عليه وسلم فجملته ستة عشر: الأول — صَفِيّ المَغْنَم . الثانى — الاستبداد بخمس الخمس أو الخمس . الثالث — الوصال . الرابع — الزيادة على أربع نسوة . الخامس — النكاح بلفظ الهبة . السادس — النكاح بغير وليّ . السابع — النكاح بغير صداق . الثامن — نكاحه فى حالة الإحرام . التاسع — سقوط القَسْم بين الأزواج عنـه؛ وسيأتى . العاشر — إذا وقع بصره على امرأة وجب على زوجها طلاقها؛ وحلّ له نكاحها . قال ابن العربى: هكذا قال إمام الحرمين؛ وقد مضى ما للعلماء فى قصة زيد من هذا المعنى . الحادى عشر — أنه أعتق صفيّة وجعل عتقها صداقها . الثانى عشر — دخوله مكة بغير إحرام؛ وفى حقنا فيه اختلاف . الثالث عشر — القتال بمكة . الرابع عشر — أنه لا يورَث . وإنما ذكر هذا فى قسم التحليل لأن الرجل إذا قارب الموت بالمرض زال عنه أكثر ملكه، ولم يبق له إلا الثلث خالصا؛ و بقى ملك رسول الله صـلى الله عليه وسـلم؛ على ما تقرر بيانه فى آية المواريث[(٥)]، وسـورة «مريم»[(٦)] بيانه أيضا . الخامس عشر — بقاء زوجيته من بعد

(١) راجع كتاب البخارى ومسلم (باب الأدب) . (٢) اللأْمة (وقد يترك همزها): الدرع . وقيل السلاح . (٣) آية ٤٨ سورة العنكبوت . راجع جـ ١٣ ص ٣٥١ (٤) آية ١٣١ سورة طه .
(٥) راجع جـ ٥ ص ٥٩ (٦) راجع جـ ١١ ص ٨١

الموت . السادس عشر — إذا طلّق امرأة تبقى حرمته عليها فلا تُنكح . وهذه الأقسام الثلاثة تقدّم معظمها مفصّلًا فى مواضعها . وسيأتى إن شاء الله تعالى .

وأبيح له عليه الصلاة والسلام أخذ الطعام والشراب من الجائع والعطشان ، وإن كان مَن هو معه يخاف على نفسه الهلاك ؛ لقوله تعالى : « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ » . وعلى كل أحد من المسلمين أن يَقِيَ النبيّ صلى الله عليه وسلم بنفسه[1] . وأبيح له أن يحمى لنفسه . وأكرمه الله بتحليل الغنائم . وجعلت الأرض له ولأمّته مسجدا وطهورا . وكان من الأنبياء [مَن] لا تصح صلاتهم إلا فى المساجد . ونُصر بالرُّعْب ؛ فكان يخافه العدوّ من مسيرة شهر . وبُعث إلى كافة الخلق ؛ وقد كان مَن قبله من الأنبياء يُبعث الواحد إلى بعض الناس دون بعض . وجُعلت معجزاته كمعجزات الأنبياء قبله وزيادة . وكانت معجزة موسى عليه السلام العصا وانفجارَ الماء من الصخرة . وقد انشق القمر للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وخرج الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم . وكانت معجزة عيسى صلى الله عليه وسلم إحياءَ الموتى وإبراءَ الأكمه والأبرص . وقد سبّح الحصى فى يد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وحنّ الجذع إليه ؛ وهذا أبلغ . وفضّله الله عليهم بأن جعل القرآن معجزة له ، وجعل معجزته فيه باقية إلى يوم القيامة ؛ ولهذا جُعلت نبوّته مؤبّدة لا تُنسخ إلى يوم القيامة .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ أى ينكحها ؛ يقال : نَكَح واستنكح ؛ مثل عَجِب واستعجب ، وعَجِل واستعجل . ويجوز أن يَرِد الاستنكاح بمعنى طلب النكاح ، أو طلب الوطء . و « خَالِصَةً » نصب على الحال ؛ قاله الزجاج . وقيل : حال من ضمير متصل بفعل مضمر دلّ عليه المضمر ؛ تقديره : أحللنا لك أزواجك ، وأحللنا لك امرأة مؤمنة أحللناها خالصة ، بلفظ الهبة وبغير صداق وبغير وليّ .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فائدته أن الكفار وإن كانوا مخاطبين بفروع الشريعة عندنا فليس لهم فى ذلك دخول ؛ لأن تصريف الأحكام إنما يكون فيهم على تقدير الإسلام .

(١) فى بعض النسخ : « بنفسه » بالباء بدل اللام ؛ والجملة غير ظاهرة .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ ﴾ أى ما أوجبنا على المؤمنين ؛ وهو ألا يتزوّجوا إلا أربع نسوة بمهر و بيّنة ووَلِيّ . قال معناه أُبَيّ بن كعب وقتادة وغيرهما.

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ أى ضيق فى أمر أنت فيه محتاج إلى السعة ؛ أى بيّنا هذا البيان وشرحنا هذا الشرح « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ». فـ « لكيلا » متعلّق بقوله : « إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ » أى فلا يضيق قلبك حتى يظهر منك أنك قد أثمت عند ربّك فى شىء . ثم آنس تعالى جميع المؤمنين بغفرانه ورحمته فقال تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ قرئ مهموزا وغير مهموز ، وهما لغتان ؛ يقال : أرجيت الأمر وأرجأته إذا أخّرته . ﴿ وَتُؤْوِي ﴾ تضمّ ؛ يقال : آوى إليه (ممدودة الألف) ضمّ إليه . وأوى (مقصورة الألف) انضمّ إليه .

الثانية — واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ وأصحّ ما قيل فيها : التوسعة على النبىّ صلى الله عليه وسلم فى ترك القَسْم ؛ فكان لا يجب عليه القَسْم بين زوجاته . وهذا القول هو الذى يناسب ما مضى ، وهو الذى ثبت معناه فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها ؛ قالت : كنت أغار على اللائى وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : أو تهب المرأة نفسها لرجل ؟ فلما أنزل الله عز وجل « تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ » قالت : قلت والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك . قال

ٱبن العربيّ : هـذا الذى ثبت فى الصحيح هو الذى ينبغى أن يعوّل عليه . والمعنى المراد : هو أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان مخيّرًا فى أزواجه ، إن شاء أن يَقْسِم قَسَم ، وإن شاء أن يترك القسم ترك . فخص النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن جعل الأمر إليه فيه ؛ لكنه كان يقسم من قِبَل نفسه دون أن فرض ذلك عليه ، تطييباً لنفوسهنّ ، وصوناً لهنّ عن أقوال الغَيْرة التى تؤدى إلى ما لا ينبغى (١) . وقيل : كان القَسْم واجباً على النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم نسخ الوجوب عنه بهذه الآية . قال أبو رَزِين : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد همّ بطلاق بعض نسائه فقلن له : اقسم لنا ما شئت . فكان ممن آوى عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب ، فكان قسمتهنّ من نفسه وماله سواء بينهنّ . وكان ممن أرجى سودة وجُوَيْرِيَة وأم حبيبة وميمونة وصفية ؛ فكان يقسم لهنّ ما شاء . وقيل : المراد الواهبات . روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة فى قوله : « تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ » قالت : هذا فى الواهبات أنفسهنّ . قال الشعبيّ : هنّ الواهبات أنفسهنّ ؛ تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم منهن وترك منهنّ . وقال الزُّهْرِيّ : ما علمنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرجأ أحدا من أزواجه ، بل آواهن كلهن . وقال ٱبن عباس وغيره : المعنى فى طلاق من شاء ممن حصل فى عصمته ، وإمساك من شاء . وقيل غير هذا . وعلى كلّ معنًى فالآية معناها التوسعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والإباحة . وما ٱخترناه أصح والله أعلم .

الثالثة — ذهب هبة الله فى الناسخ والمنسوخ إلى أن قوله : « تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ » الآية ، ناسخ لقوله : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » الآية . وقال : ليس فى كتاب الله ناسخ تقدّم المنسوخَ سوى هـذا . وكلامه يضعف من جهات . وفى « البقرة » عدّة المتوفَّى عنها أربعة أشهر وعشر ، وهو ناسخ للحول وقد تقدّم عليه (٢) .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ « ٱبتغيت » طلبت ؛ والابتغاء الطلب . و « عزلتَ » أزلت ؛ والعزلة الإزالة ؛ أى إن أردت أن تؤوى إليك ٱمرأة ممن

(١) فى بعض الأصول : « ترق » .   (٢) راجع جـ ٣ ص ١٧٤ و ٢٢٦

عزلتهن من القسمة وتضمّها إليك فلا بأس عليك فى ذلك . وكذلك حكم الإرجاء؛ فدلّ أحد الطرفين على الثانى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ أى لا ميل؛ يقال : جنحت السفينة أى مالت إلى الأرض . أى لا ميل عليك باللوم والتوبيخ .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ﴾ قال قتادة وغيره : أى ذلك التخيير الذى خيّرناك فى صحبتهن أدنى إلى رضاهن إذ كان من عندنا؛ لأنهن إذا علمن أن الفعل[(١)] من الله قرّت أعينهن بذلك ورضين ؛ لأن المرء إذا علم أنه لا حق له فى شىء كان راضيًا بما أوتى منه وإن قلّ . وإن علم أن له حقًّا لم يقنعه ما أوتى منه ، واشتدت غَيْرته عليه، وعَظُم حرصه فيه . فكان ما فعل الله لرسوله من تفويض الأمر إليه فى أحوال أزواجه أقرب إلى رضاهن معه ، وإلى استقرار أعينهن بما يسمح به لهن ، دون أن تتعلق قلوبهن بأكثر منه . وقرئ « تُقِرّ أعينَهن » بضم التاء ونصب الأعين . « وتُقَرّ أعينُهن » على البناء للمفعول . وكان عليه السلام مع هذا يشدد على نفسه فى رعاية التسوية بينهن، تطييبا لقلوبهن — كما قدّمناه — ويقول : " اللهمّ هذه قدرتى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك " يعنى قلبه؛ لإيثاره عائشة رضى الله عنها دون أن يكون يظهر ذلك فى شىء من فعله . وكان فى مرضه الذى توفى فيه يطاف به محمولا على بيوت أزواجه، إلى أن استأذنهن أن يقيم فى بيت عائشة. قالت عائشة : أول ما اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت ميمونة ، فاستأذن أزواجه أن يمرّض فى بيتها — يعنى بيت عائشة — فأذِنّ له... الحديث، خرجه الصحيح . وفى الصحيح أيضا عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتفقد[(٢)] ،

---

(١) فى بعض الأصول : « العدل » . (٢) كذا فى نسخ الأصل ، والذى فى البخارى : «ليتعذر» قال القسطلانى : « بالعين المهملة والذال المعجمة ؛ أى يطلب العذر فيما يحاوله من الانتقال إلى بيت عائشة . وعند القابسى « يتقدّر» بالقاف والدال المهملة ؛ أى يسأل عن قدر ما بقى إلى يومها ليهون عليه بعض ما يجد ؛ لأن المريض يجد عند بعض أهله ما لا يجده عند بعض من الأنس والسكون » .

يقول : "أين أنا اليوم أين أنا غدا" استبطاء ليوم عائشة رضى الله عنها . قالت : فلما كان يومى قبضه الله تعالى بين سَحْرى ونَحْرى[1]؛ صلى الله عليه وسلم .

السابعـة — على الرجل أن يعدِل بين نسائه لكل واحدة منهن يوما وليلة ؛ هذا قول عامة العلماء . وذهب بعضهم إلى وجوب ذلك فى الليل دون النهار . ولا يُسقِط حقَّ الزوجة مرضُها ولا حَيضُها، ويلزمه المقام عندها فى يومها وليلتها . وعليه أن يعدل بينهن فى مرضه كما يفعل فى صحته ؛ إلا أن يَعْجِز عن الحركة فيقيم حيث غلب عليه المرض ، فإذا صَحّ استأنف القسم . والإماء والحرائر والكتابيات والمسلمات فى ذلك سواء . قال عبد الملك : للحُرّة ليلتان وللأمة ليلة . وأما السرارى فلا قَسْم بينهن و بين الحرائر، ولا حظّ لهن فيه .

الثامنـة — ولا يجمع بينهن فى منزل واحد إلا برضاهن ، ولا يدخل لإحداهن فى يوم الأخرى وليلتها لغير حاجة . واختلف فى دخوله لحاجة وضرورة ؛ فالأكثرون على جوازه ؛ مالك وغيره . وفى كتاب ابن حبيب منعه . وروى ابن بكير عن مالك عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان ، فإذا كان يوم هـذه لم يشرب من بيت الأخرى المـاء . قال ابن بكير : وحدّثنا مالك عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان ماتتا فى الطاعون ، فأسهم بينهما أيّهما تدلى أوّل .

التاسـعة — قال مالك : و يعدل بينهن فى النفقة والكسوة إذا كن معتدلات الحال؛ ولا يلزم ذلك فى المختلفات المناصب . وأجاز مالك أن يفضل إحداهما فى الكسوة على غير وجه الميل . فأما الحُبّ والبغض فخارجان عن الكسب فلا يتأتّى العدل فيهما ؛ وهو المعنىّ بقوله صلى الله عليه وسلم فى قَسْمه : "اللهم هذا فِعلى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك" . أخرجه النسائى وأبو داود عن عائشة رضى الله عنها . وفى كتاب أبى داود « يعنى القلب » ، و إليه الإشارة بقوله تعالى: «وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ»[2]، وقوله تعالى: « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ » . وهذا هو وجه تخصيصه بالذكر هنا ، تنبيها منه لنا على أنه يعلم

---

(١) تريد بين جنبى وصدرى . والسحر : الرئة ، فأطلقت على الجنب مجازا ، من باب تسمية المحل باسم الحال فيه . والنحر : الصدر . (٢) آية ١٢٩ سورة النساء .

ما فى قلوبنا من ميل بعضنا إلى بعض مَن عندنا من النساء دون بعض؛ وهو العالِم بكل شىء « لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ »[1] « يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى »[2] لكنه سَمَح فى ذلك؛ إذ لا يستطيع العبد أن يصرف قلبه عن ذلك الميـل ، وإلى ذلك يعود قوله : « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » . وقد قيل فى قوله : « ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ » وهى :

العاشـرة — أى ذلك أقرب ألا يحزنّ إذا لم يجمع إحداهن مع الأخرى ويعاين الأثرة والميل . وروى أبو داود عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشِقه مائل " . ﴿ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ توكيد للضمير؛ أى ويرضين كلهن . وأجاز أبو حاتم والزجاج « وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ » على التوكيد للضمر الذى فى « آتيتهن » . والفراء لا يجيزه؛ لأن المعنى ليس عليـه ؛ إذ كان المعنى وترضى كل واحدة منهن ، وليس المعنى بما أعطيتهن كلهن . النحاس : والذى قاله حسن .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ خبر عام ، والإشارة إلى ما فى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من محبة شخص دون شخص . وكذلك يدخل فى المعنى أيضا المؤمنون . وفى البخارىّ عن عمرو بن العـاص أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت : أىّ الناس أحبّ إليك؟ فقال : " عائشة " فقلت : من الرجال ؟ قال : " أبوها " قلت : ثم مَن ؟ قال : " عمر بن الخطاب ... " فعدّ رجالا . وقـد تقدّم القول فى القلب بمـا فيه كفاية فى أوّل « البقرة »[3] ، وفى أوّل هـذه السورة[4] . يروى أن لقمان الحكيم كان عبدا نجارا قال له سيّده : اِذبح شاة وائتنى بأطيبها بَضْعتين ؛ فأتاه باللسان والقلب . ثم أمره بذبح شاة أخرى فقال له : ألق أخبثها بَضْعتين؛ فألقى اللسان والقلب . فقال : أمرتك أن تأتينى بأطيبهـا بَضْعتين فأتيتنى باللسان والقلب ، وأمرتك أن تُلقى بأخبثها بَضْعتين فألقيت اللسان والقلب ! ؟ فقال : ليس شىء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خَبُثا .

---

(١) آية ٥ سورة آل عمران . (٢) آية ٧ سـورة طه . (٣) راجـع جـ ١ ص ١٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) ص ١١٧ من هذا الجزء .

قوله تعالى : لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢)

فيه سبع مسائل :

الأولى — اختلف العلماء في تأويل قوله : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » على أقوال سبعة :

الأول — أنها منسوخة بالسنّة ، والناسخ لها حديث عائشة ، قالت : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحلّ له النساء . وقد تقدّم (١) .

الثاني — أنها منسوخة بآية أخرى ، روى الطحاوي عن أم سلمة قالت : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له أن يتزوّج من النساء من شاء ؛ إلا ذات محرم ، وذلك قوله عز وجل : « تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ » . قال النحاس : وهذا والله أعلم أولى ما قيل في الآية ؛ وهو وقول عائشة واحد في النسخ . وقد يجوز أن تكون عائشة أرادت أحل له ذلك بالقرآن . وهو مع هذا قول عليّ بن أبي طالب وابن عباس وعليّ بن الحسين والضحاك . وقد عارض بعض فقهاء الكوفيين فقال : محال أن تنسخ هذه الآيةُ يعني « تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ » « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » وهي قبلها في المصحف الذي أجمع عليه المسلمون . ورجّح قول من قال نسخت بالسنّة . قال النحاس : وهذه المعارضة لا تلزم وقائلها غالط ؛ لأن القرآن بمنزلة سورة واحدة ، كما صح عن ابن عباس : أنزل الله القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في شهر رمضان . ويبين لك أن اعتراض هذا [المعترض] لا يلزم [أن] قوله عز وجل « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ » (٢) منسوخة على قول أهل التأويل — لا نعلم بينهم

(١) ص ٢٠٧ من هذا الجزء . (٢) آية ٢٤٠ سورة البقرة .

خلافا — بالآية التي قبلها « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا[1] » .

الثالث — أنه صلى الله عليه وسلم حظر عليه أن يتزوّج على نسائه ؛ لأنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ؛ هـذا قول الحسن وابن سيرين وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام . قال النحاس : وهذا القول يجوز أن يكون هكذا ثم نسخ .

الرابـع — أنه لما حُرم عليهن أن يتزوّجن بعـده حرم عليـه أن يتزوّج غيرهن ؛ قاله أبو أمامة بن سهل بن حُنَيف .

الخـامس — « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » أي من بعد الأصناف التي سُمّيت ؛ قاله أُبَيّ بن كعب وعكرمة وأبو رَزين ، وهو اختيار محمد بن جرير . ومن قال إن الإباحة كانت له مطلقة قال هنا : « لا يحل لك النساء » معناه لا تحل لك اليهوديّات ولا النصرانيّات . وهذا تأويل فيه بُعْدٌ . وروى عن مجاهد وسعيد بن جُبير وعكرمة أيضا . وهو القول السادس . قال مجاهد : لئلا تكون كافرة أُمًّا للؤمنين . وهذا القول يبعد ؛ لأنه يقدّره : من بعد المسلمات ، ولم يجر للسلمات ذكر . وكذلك قدر « وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ » أي ولا أن تطلّق مسلمة لتستبدل بها كتابيّـة .

السـابع — أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان له حلال أن يتزوّج من شاء ثم نسخ ذلك . قال : وكذلك كانت الأنبياء قبله صلى الله عليه وعليهم وسلم ؛ قاله محمد بن كعب القُرَظى .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ قال ابن زيد : هذا شيء كانت العرب تفعله ، يقول أحدهم : خذ زوجتي وأعطني زوجتك ، روى الدّارَقُطْني عن أبي هريرة قال : كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل : انزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي وأزيدك ؛ فأنزل الله عز وجل « وَلَا أَنْ تَبَـدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ » قال : فدخل عُيينة بن حِصْن الفَزَارِيّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده

(١) آية ٢٣٤ سورة البقرة . راجع جـ ٣ ص ١٧٤ ، ٢٢٦

عائشة، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ياعيينة فأين الاستئذان"؟ فقال: يارسول الله، ما استأذنت على رجل من مُضَرَ منذ أدركت. قال: مَن هذه الحميراء إلى جنبك؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذه عائشة أم المؤمنين" قال: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق. فقال: "ياعُيينة، إن الله قد حرّم ذلك". قال فلما خرج قالت عائشة يارسول الله، من هذا؟ قال: "أحمق مطاعٌ وإنه على ما ترين لَسَيّدُ قومه". وقد أنكر الطبري والنحاس وغيرهما ما حكاه ابن زيد عن العرب، من أنها كانت تبادل بأزواجها. قال الطبري: وما فعلت العرب قطُّ هذا، وما روى من حديث عُيينة بن حِصن من أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عائشة ... الحديث؛ فليس بتبديل، ولا أراد ذلك، وإنما احتقر عائشة لأنها كانت صبية فقال هذا القول.

قلت: وما ذكرناه من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة من أن البدل كان في الجاهلية يدل على خلاف ما أنكر من ذلك، والله أعلم. قال المبرد: وقرئ «لايحِل» بالياء والتاء. فمن قرأ بالتاء فعلى معنى جماعة النساء، وبالياء من تحت على معنى جميع النساء. وزعم الفراء قال: اجتمعت القراء على أن القراءة بالياء؛ وهذا غلط، وكيف يقال: اجتمعت القراء وقد قرأ أبو عمرو بالتاء بلا اختلاف عنه!

الثالثة — قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ قال ابن عباس: نزل ذلك بسبب أسماء بنت عُميس؛ أعجب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حين مات عنها جعفر بن أبي طالب حسنُها، فأراد أن يتزوجها، فنزلت الآية؛ وهذا حديث ضعيف قاله ابن العربي.

الرابعة — في هذه الآية دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها. وقد أراد المغيرة بن شعبة زواج امرأة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "انظر إليها فإنه أجدر أن يُؤدم بينكما"[1]. وقال عليه السلام لآخرَ: "انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئا" أخرجه الصحيح. قال الحميدي وأبو الفرج الجوزي. يعني صفراء أو زرقاء. وقيل رمصاء[2].

---

(١) أي أحرى أن تدوم المودّة بينكما. يقال: أدم الله بينهما يأدم أدما؛ أي ألف ووفق.

(٢) الرمص (بالتحريك): وسخ يجتمع في الموق؛ فإن سال فهو غمص، وإن جمد فهو رمص.

الخامسـة — الأمر بالنظر إلى المخطوبة إنما هو على جهة الإرشاد إلى المصلحة؛ فإنه إذا نظر إليها فلعله يرى منها ما يرغّبه فى نكاحها . ومما يدل على أن الأمر على جهة الإرشاد ما ذكره أبو داود من حديث جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل" . فقوله : "فإن استطاع فليفعل" لا يقال مثله فى الواجب . وبهذا قال جمهور الفقهاء مالك والشافعيّ والكوفيون وغيرهم وأهل الظاهر . وقد كره ذلك قوم لا مبالاة بقولهم؛ للأحاديث الصحيحة ، وقوله تعالى : « ولو أعجبك حُسْنُهُنّ » . وقال سهل بن أبى حثمة : رأيت محمد بن مسلمة يطارد ثُبَيْتَة بنت الضحاك على إجّار من أجاجير المدينة فقلت له : أتفعل هذا؟ فقال نعم ! قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إذا ألقى الله فى قلب أحدكم خِطْبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها" . الإجّار : السطح ، بلغة أهل الشام والحجاز . قال أبو عبيد : وجمع الإجار أجاجير وأجاجرة .

السادسـة — اختلف فيما يجوز أن ينظر منها؛ فقال مالك : ينظر إلى وجهها وكفّيها ، ولا ينظر إلا بإذنها . وقال الشافعيّ وأحمد : بإذنها و بغير إذنها إذا كانت مستترة . وقال الأوزاعيّ : ينظر إليها ويجتهد وينظر مواضع اللحم منها . قال داود : ينظر إلى سائر جسدها تمسكاً بظاهر اللفظ . وأصول الشريعة تردّ عليه فى تحريم الاطلاع على العورة . والله أعلم .

السابعـة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ اختلف العلماء فى إحلال الأَمَة الكافرة للنبيّ صلى الله عليه وسلم على قولين : تحلّ لعموم قوله : « إلا ما مَلَكتْ يَمِينُك » ؛ قاله مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم . قالوا : قوله تعالى « لا يَحِلّ لك النساء مِن بعدُ » أى لا تحلّ لك النساء من غير المسلمات ، فأما اليهوديات والنّصرانيات والمشركات فحرام عليك ؛ أى لا يحل لك أن تتزوّج كافرة فتكون أمّاً للؤمنين ولو أعجبك حسنها ؛ إلا ما ملكت يمينك ، فإن له أن يتسرّى بها . القول الثانى — لا تحل ، تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة ، وقد قال الله تعالى : « وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ » (١) فكيف به صلى الله

(١) آية ١٠ سورة الممتحنة .

عليه وسلم . و « ما » فى قوله : « إلا ما ملكتْ يمينك » فى موضع رفع بدل من النساء . ويجوز أن يكون فى موضع نصب على استثناء ؛ وفيه ضعف . ويجوز أن تكون مصدرية ، والتقدير : إلا ملك يمينك ، ومِلك بمعنى مملوك ، وهو فى موضع نصب لأنه استثناء من غير الجنس الأول .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

فيـه ست عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ « أن » فى موضع نصب على معنى إلا بأن يؤذن لكم ، ويكون الاستثناء ليس من الأول . ﴿ إِلَى طَعامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ نصب على الحال ؛ أى لا تدخلوا فى هـذه الحال . ولا يجوز فى « غَيْر » الخفض على النعت للطعام ؛ لأنه لو كان نعتا لم يكن بدّ من إظهار الفاعلين ، وكان يقول : غير ناظرين إناه أنتم . ونظير هـذا من النحو : هذا رجلٌ مع رجل ملازمٌ له ، وإن شئت قلت : هذا رجلٌ مع رجلٍ ملازمٍ له هو .

وهذه الآية تضمنت قصتين : إحداهما — الأدب فى أمر الطعام والجلوس . والثانية — أمر الحجاب . وقال حماد بن زيد : هذه الآية نزلت فى الثقلاء . فأما القصة الأولى فالجمهور

من المفسرين على أن سببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب بنت جحش امرأة زيد أَوْلَم عليها ، فدعا الناس ، فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدّثون فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته مولّية وجهها إلى الحائط ، فثقُلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أنس : فما أدرى أأنا أخبرت النبيّ صلى الله عليه وسلم أن القوم قد خرجوا أو أخبرنى . قال : فانطلق حتى دخل البيت ؛ فذهبت أدخل معه فألقى الستر بينى وبينه ونزل الحجاب . قال : ووعظ القومَ بما وُعظوا به ، وأنزل الله عز وجل « يأيُّها الَّذِين آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ — إلى قوله — إن ذَلِكُمْ كان عِنـد اللهِ عظِيماً » أخرجه الصحيح . وقال قتادة ومقاتل فى كتاب الثعلبىّ : إن هذا السبب جرى فى بيت أم سلمة . والأول الصحيح ، كما رواه الصحيح . وقال ابن عباس : نزلت فى ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبىّ صلى الله عليه وسلم فيدخلون قبل أن يدرِك الطعام ، فيقعدون إلى أن يدرِك ، ثم يأكلون ولا يخرجون . وقال إسماعيل بن أبى حكيم : وهذا أدب أدّب الله به الثقلاء . وقال ابن أبى عائشة فى كتاب الثعلبىّ : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم . وأما قصة الحجاب فقال أنس بن مالك وجماعة : سببها أمر القعود فى بيت زينب ؛ القصة المذكورة آنفا . وقالت عائشة رضى الله عنها وجماعة : سببها أن عمر قال قلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهنّ البَرّ والفاجر، فلو أمرتهنّ أن يحتجبن ؛ فنزلت الآية . وروى الصحيح عن ابن عمر قال : قال عمر وافقت ربى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم ، وفى الحجاب ، وفى أسارى بدر . هذا أصح ما قيل فى أمر الحجاب ، وما عدا هذين القولين من الأقوال والروايات فواهية ، لا يقوم شىء منها على ساق ، وأضعفها ما روى عن ابن مسعود أن عمر أمر نساء النبىّ صلى الله عليه وسلم بالحجاب ، فقالت زينب بنت جحش : يابن الخطاب ، إنك تَغَار علينا والوحى ينزل فى بيوتنا ! فأنزل الله تعالى « وإذا سألتموهُنّ متاعاً فاسألوهنّ مِن وراءِ حِجابٍ » وهذا باطل ؛ لأن الحجاب نزل يوم البناء بزينب ، كما بيناه . أخرجه البخارىّ ومسلم والترمذى وغيرهم . وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يَطْعَم ومعه بعض

أصحابه، فأصاب يدُ رجل منهم يدَ عائشة، فكره النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت آية الحجاب. قال ابن عطية: وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونُضْجَه. وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك؛ فنهى الله المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم، ودخل في النهي سائر المؤمنين، والتزم الناس أدب الله تعالى لهم في ذلك، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل؛ لا قبله لانتظار نُضْج الطعام.

الثانيـة — في قوله تعالى: ﴿ بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ دليل على أن البيت للرجل، ويحكم له به؛ فإن الله تعالى أضافه إليه. فإن قيل: فقد قال الله تعالى: «وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالحِكْمَةِ إن الله كان لَطِيفًا خبيرا» (١) قلنا: إضافة البيوت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم إضافة مِلك، وإضافةُ البيوت إلى الأزواج إضافة محل؛ بدليل أنه جعل فيها الإذن للنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ والإذن إنما يكون للمالك.

الثالثـة — واختلف العلماء في بيوت النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ كان يسكن فيها أهله بعد موته، هل هي ملك لهنّ أم لا، على قولين: فقالت طائفة: كانت ملكا لهنّ؛ بدليل أنهنّ سكنّ فيها بعد موت النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى وفاتهنّ، وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم وهب ذلك لهنّ في حياته. الثاني — أن ذلك كان إسكانا كما يُسكن الرجل أهله ولم يكن هبة، وتمادى سكناهنّ بها إلى الموت. وهذا هو الصحيح، وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبدالبر وابن العربيّ وغيرهم؛ فإن ذلك من مؤونتهنّ التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم استثناها لهنّ، كما استثنى لهنّ نفقاتهنّ حين قال: " لا تَقْتَسِم ورثتي دينارا ولا درهما، ما تركت بعد نفقة أهلي ومُؤونة عاملي فهو صدقة ". هكذا قال أهل العلم، قالوا: ويدل على ذلك أن مساكنهنّ لم يرثها عنهنّ ورثتهنّ. قالوا: ولو كان ذلك ملكا لهنّ كان لا شك قد ورثه عنهنّ ورثتهنّ. قالوا: وفي ترك ورثتهنّ ذلك دليل على أنها لم تكن لهنّ ملكا، وإنما كان لهنّ

(١) آية ٣٤ من هذه السورة.

سكنى حياتهن ، فلما تُوفِّين جعل ذلك زيادة فى المسجد الذى يعم المسلمين نفعه ، كما جعل ذلك الذى كان لهنّ من النفقات فى تركة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مضين لسبيلهن ، فزيد إلى أصل المال فصرف فى منافع المسلمين مما يعم جميعَهم نفعُه . والله الموفق .

قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ أى غير منتظرين وقت نُضْجه . و « إناه » مقصور ، وفيه لغات : « إِنَى » بكسر الهمزة . قال الشّيبانى :

وكِسْرَى إذ تقسّمه بَنُوه * بأسياف كما اقْتُسِم اللِّحام

تمخّضت المَنُون له بيوم * أَنَى(١) ولكل حاملة تمام

وقرأ ابن أبى عبلة « غيرِ ناظِرِين إناه » مجرورا صفة لـ « طعام » . الزمخشرىّ : وليس بالوجه ؛ لأنه جرى على غير ما هو له ؛ فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز إلى اللفظ ؛ فيقال : غيرِ ناظرين إناه أنتم ، كقولك : هندٌ زيدٌ ضاربته هى . وأَنى (بفتحها) ، وأناء (بفتح الهمزة والمد) قال الحطيئة :

وآنيت العَشاء إلى سُهَيْل * أو الشِّعْرَى فطال بِيَ الأَناءُ

يعنى إلى طلوع سهيل . و إناه مصدر أنى الشىء يأنى إذا فرغ وحان وأدرك .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ فأكّد المنع ، وخصّ وقت الدخول بأن يكون عند الإذن على جهة الأدب ، وحفظ الحضرة الكريمة من المباسطة المكروهة . قال ابن العربىّ : وتقدير الكلام : ولكن إذا دعيتم وأذن لكم فى الدخول فادخلوا ؛ و إلا فنفس الدعوة لا تكون إذنا كافيا فى الدخول . والفاء فى جواب « إذا » لازمة لما فيها من معنى المجازاة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ أمر تعالى بعد الإطعام بأن يتفرّق جميعهم وينتشروا . والمراد إلزام الخروج من المنزل عند انقضاء المقصود من الأكل . والدليل على ذلك أن الدخول حرام ، و إنما جاز لأجل الأكل ، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح وعاد التحريم إلى أصله .

(١) « أنى » هنا فعل ماض ، بمعنى أدرك و بلغ ؛ كما فى اللسان وشرح القاموس .

السادسة — فى هذه الآية دليل على أن الضيف يأكل على ملك المضيف لا على ملك نفسه ؛ لأنه قال : « فإذا طَعِمتم فَٱنتشِروا » فلم يجعل له أكثر من الأكل ، ولا أضاف إليهم سواه ، وبقى الملك على أصله .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ عطف على قوله : « غَيْرَ نَاظِرِينَ » و « غير » منصوبة على الحال من الكاف والميم فى « لكم » أى غير ناظرين ولا مستأنسين ؛ والمعنى المقصود : لا تمكثوا مستأنسين بالحديث كما فعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وليمة زينب . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ أى لا يمتنع من بيانه وإظهاره . ولما كان ذلك يقع من البشر لعلة الاستحياء نفى عن الله تعالى العلة الموجبة لذلك فى البشر . وفى الصحيح عن أم سلمة قالت : جاءت أم سليم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحيي من الحق ، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا رأت الماء " .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا ﴾ الآية . روى أبو داود الطيالسى عن أنس بن مالك قال قال عمر : وافقت ربى فى أربع ... ؛ الحديث . وفيه : قلت يارسول الله ، لو ضربتَ على نسائك الحجاب ، فإنه يدخل عليهنّ البرّ والفاجر ؛ فأنزل الله عز وجل « وإذا سألتموهنّ متاعًا فاسألوهن مِن وَرَاءِ حِجابٍ » .

واختلف فى المتاع ؛ فقيل : ما يمتع به من العوارىّ[1] . وقيل فَتْوَى . وقيل صحف القرآن . والصواب أنه عام فى جميع ما يمكن أن يطلب من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا .

التاسعة — فى هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن فى مسألتهنّ من وراء حجاب فى حاجة تَعْرِض ، أو مسألة يُستفتين فيها ؛ ويدخل فى ذلك جميع النساء بالمعنى ، وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة ، بدنها وصوتها ؛ كما تقدم ، فلا يجوز كشف ذلك إلا لحاجة كالشهادة عليها ، أو داء يكون ببدنها ، أو سؤالها عما يعرض وتعيّن عندها .

(١) العوارى : جمع العارية ، ما تداولوه بينهم .

العاشرة ـــ استدل بعض العلماء بأخذ الناس عن أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم من وراء حجاب على جواز شهادة الأعمى ، وبأن الأعمى يطأ زوجته بمعرفته بكلامها . وعلى إجازة شهادته أكثرُ العلماء ، ولم يجزها أبو حنيفة والشافعيّ وغيرهما . قال أبو حنيفة : تجوز فى الأنساب . وقال الشافعيّ : لا تجوز إلا فيما رآه قبل ذهاب بصره .

الحادية عشرة ـــ قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يريد من الخواطر التى تعرض للرجال فى أمر النساء ، وللنساء فى أمر الرجال ؛ أى ذلك أنفى للريبة وأبعد للتهمة وأقوى فى الحماية . وهذا يدل على أنه لا ينبغى لأحد أن يثق بنفسه فى الخلوة مع من لا تحل له ؛ فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله وأحصن لنفسه وأتم لعصمته .

الثانية عشرة ـــ قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ الآية . هذا تكرار للعلة وتأكيد لحكمها ، وتأكيد العلل أقوى فى الأحكام .

الثالثة عشرة ـــ قوله تعالى : ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ روى إسماعيل ابن إسحاق قال حدثنا محمد بن عبيد قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة أن رجلا قال : لو قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجت عائشة ؛ فأنزل الله تعالى : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ » الآية . ونزلت « وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » . وقال القُشيرى أبو نصر عبدالرحيم : قال ابن عباس قال رجل من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حِراء ـــ فى نفسه ـــ لو تُوفِّى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتزوجت عائشة ، وهى بنت عمى . قال مقاتل : هو طلحة بن عبيد الله . قال ابن عباس : وندم هذا الرجل على ما حدّث به فى نفسه ، فمشى إلى مكة على رجليه وحمل على عشرة أفراس فى سبيل الله ، وأعتق رقيقا فكفّر الله عنه . وقال ابن عطية : روى أنها نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال : لو مات رسول الله صلى الله عليه وسلم لتزوجت عائشة ؛ فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فتأذّى به ، هكذا كنّى عنه ابن عباس ببعض الصحابة . وحكى مكىّ عن معمر أنه قال : هو طلحة بن عبيد الله .

قلت : وكذا حكى النحاس عن معمر أنه طلحة؛ ولا يصح . قال ابن عطية : لله درّ ابن عباس ! وهذا عندى لا يصح على طلحة بن عبيد الله . قال شيخنا الإمام أبو العباس : وقد حُكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة ، وحاشاهم عن مثله ! والكذب فى نقله؛(١) وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال . يروى أن رجلا من المنافقين قال حين تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ سلمة بعد أبى سلمة وحفصة بعد خُنيس بن حُذافة: ما بال محمد يتزوّج نساءنا! والله لو قدمات لأجَلْنا السهام على نسائه؛ فنزلت الآية فى هذا، فحرم الله نكاح أزواجه من بعده ، وجعل لهن حكم الأمهات . وهذا من خصائصه تمييزًا لشرفه وتنبيها على مرتبته صلى الله عليه وسلم . قال الشافعى رحمه الله : وأزواجه صلى الله عليه وسلم اللاتى مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهن، ومن استحل ذلك كان كافرا؛ لقوله تعالى : « وما كان لكم أن تؤذوا رسولَ اللهِ ولا أن تَنكِحوا أزواجَه مِن بعدِهِ أبدًا » . وقد قيل : إنما منع من التروج بزوجاته ؛ لأنهن أزواجه فى الجنة ، وأن المرأة فى الجنة لآخر أزواجها . قال حذيفة لامرأته: إن سرّك أن تكونى زوجتى فى الجنة إن جمعنا الله فيها فلا تزوّجى من بعدى؛ فإن المرأة لآخر أزواجها . وقد ذكرنا ما للعلماء فى هذا فى (كتاب التذكرة) من أبواب الجنة .

الرابعة عشرة — اختلف العلماء فى أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد موته؛ هل بقين أزواجا أم زال النكاح بالموت ، وإذا زال النكاح بالموت فهل عليهن عدة أم لا ؟ فقيل : عليهن العدة ؛ لأنه تُوفِّى عنهن ، والعدة عبادة . وقيل : لا عدة عليهن ؛ لأنها مدة تربص لا ينتظر بها الإباحة . وهو الصحيح ؛ لقوله عليه السلام : " ما تركت بعد نفقة عيالى " وروى " أهلى " وهذا آسم خاص بالزوجية ؛ فأبقى عليهن النفقة والسكنى مدة حياتهن لكونهن نساءه، وحرمن على غيره؛ وهذا هو معنى بقاء النكاح . وإنما جعل الموت فى حقه عليه السلام لهن بمنزلة المغيب فى حق غيره ؛ لكونهن أزواجا له فى الآخرة قطعا بخلاف سائر

(١) فى نسخة : « وحاشاهم عن مثله ... وإنما ... والكذب فى نقله » وموضع النقط فى الأصل بياض . وفى أخرى : « وحاشاهم عن مثله وإنما والكذب فى نقله » .

الناس؛ لأن الرجل لا يعلم كونه مع أهله فى دار واحدة، فربما كان أحدهما فى الجنة والآخر فى النار؛ فبهذا انقطع السبب فى حق الخلق وبقى فى حق النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ وقد قال عليه السلام: "زوجاتى فى الدنيا هن زوجاتى فى الآخرة". وقال عليه السلام: "كل سبب ونسب ينقطع إلا سببى ونسبى فإنه باق إلى يوم القيامة".

فرع: فأما زوجاته عليه السلام اللاتى فارقهن فى حياته مثل الكَلْبية وغيرها؛ فهل كان يحل لغيره نكاحهن؟ فيه خلاف. والصحيح جواز ذلك؛ لما روى أن الكلبية التى فارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها عكرمة بن أبى جهل على ما تقدم. وقيل: إن الذى تزوجها الأشعث بن قيس الكندى. قال القاضى أبو الطيب: الذى تزوجها مهاجر بن أبى أمية، ولم ينكر ذلك أحد؛ فدلّ على أنه إجماع.

الخامسة عشرة — قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ يعنى إذاية رسول الله صلى الله عليه وسلم أو نكاح أزواجه؛ فجعل ذلك من جملة الكبائر ولا ذنب أعظم منه.

السادسة عشرة — قد بينا سبب نزول الحجاب من حديث أنس وقول عمر، وكان يقول لسَوْدة إذا خرجت وكانت امرأة طويلة: قد رأيناك يا سودة، حرصا على أن ينزل الحجاب؛ فأنزل الله آية الحجاب. ولا بُعْد فى نزول الآية عند هذه الأسباب كلها — والله أعلم — بَيْدَ أنه لما ماتت زينب بنت جحش قال: لا يشهد جنازتها إلا ذو محرم منها؛ مراعاةً للحجاب الذى نزل بسببها. فدلته أسماء بنت عميس على سترها فى النعش فى القُبّة، وأعلمته أنها رأت ذلك فى بلاد الحبشة فصنعه عمر. وروى أن ذلك صُنع فى جنازة فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

البارئ سبحانه وتعالى عالم بما بدا وما خفى وما كان وما لم يكن؛ لا يخفى عليه ماضٍ تقضّى ولا مستقبلٌ يأتى. وهذا على العموم تمدح به، وهو أهل المدح والحمد. والمراد به هاهنا التوبيخ والوعيد لمن تقدم التعريض به فى الآية قبلها، ممن أشير إليه بقوله: «ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ»، ومن أشير إليه فى قوله: «وما كان لكم أن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ

تَنْكِحُوا أزواجَهُ مِن بَعْدِهِ أبدًا » فقيل لهم فى هذه الآية : إن الله تعالى يعلم ما تخفونه من هذه المعتقدات والخواطر المكروهة و يجازيكم عليها . فصارت هذه الآية منعطفة(١) على ماقبلها مبينة لها . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾

فيـه ثلاث مسائل :

الأولى — لمـا نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآية .

الثانيـــة — ذكر الله تعالى فى هذه الآية من يحلّ للمرأة البروزُ له ، ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين . وقد يسمى العم أبًا ؛ قال الله تعالى : « نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبراهِيمَ وإِسماعِيلَ(٢) » و إسماعيل كان العم . قال الزجاج : العمّ والخال ربمـا يصفان المـرأة لولديهما ؛ فان المرأة تحل لابن العم وابن الخال فكره لهما الرؤية . وقد كره الشعبي وعكرمة أن تضع المرأة خمارها عنـد عمها أو خالها . وقد ذكر فى هـذه الآية بعض المحارم وذكر الجميع فى سورة «النور» ، فهذه الآية بعض تلك ، وقد مضى الكلام هناك مستوفى(٣) ، والحمد لله .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ﴾ لمـا ذكر الله تعالى الرخصة فى هذه الأصناف وانجزمت الإباحة ، عطف بأمرهن بالتقوى عطف جملة . وهـذا فى غاية البلاغة والإيجاز ، كأنه قال : اقتصرن على هـذا واتقين الله فيـه أن تتعدينه إلى غيره . وخص النساء بالذكر وعينهن فى هذا الأمر ، لقلة تحفظهن وكثرة استرسالهن . والله أعلم . ثم توعّد تعالى بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ .

---

(١) فى بعض نسخ الأصل وابن العربى « منقطعة » .　(٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٨ طبعة ثانية .

(٣) راجع جـ ١٢ ص ٢٢٦

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

هذه الآية شرّف الله بها رسولَه عليه السلام حياتَه وموته ، وذكر منزلته منه ، وطهّر بها سوء فعل من استصحب فى جهته فكرة سوء، أو فى أمر زوجاته ونحو ذلك . والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره .

مسألة — واختلف العلماء فى الضمير فى قوله « يُصَلُّونَ » فقالت فرقة : الضمير فيه لله والملائكة ؛ وهذا قولٌ من الله تعالى شرّف به ملائكته ، فلا يصحبه الاعتراض الذى جاء فى قول الخطيب : من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصِهما فقد غوَى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بئس الخطيب أنت قل ومن يعص الله ورسوله " أخرجه الصحيح . قالوا : لأنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره فى ضمير، ولله أن يفعل فى ذلك ما يشاء . وقالت فرقة : فى الكلام حذف؛ تقديره إن الله يصلى وملائكته يصلون، وليس فى الآية اجتماع فى ضمير، وذلك جائز للبشر فعله . ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم " بئس الخطيب أنت " لهذا المعنى، و إنما قاله لأن الخطيب وقف على ومن يعصهما، وسكت سكتة. واستدلوا بما رواه أبو داود عن عدىّ بن حاتم أن خطيبا خطب عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : من يطع الله ورسوله ومن يعصهما . فقال : " قم — أو اذهب — بئس الخطيب أنت". إلا أنه يحتمل أن يكون لما خطأه فى وقفه وقال له : "بئس الخطيب" أصلح له بعد ذلك جميع كلامه، فقال : " قل ومن يعص الله ورسوله " كما فى كتاب مسلم . وهو يؤيّد القول الأول بأنه لم يقف على «ومن يعصهما» . وقرأ ابن عباس « وملائكتُه » بالرفع على موضع اسم الله قبل دخول « إنّ » . والجمهور بالنصب عطفا على المكتوبة .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا » أمر الله تعالى عباده بالصلاة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم دون أنبيائه تشريفا له ، ولا خلاف فى أن

الصلاة عليه فرض في العمر مرة ، وفي كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها ولا يغفلها إلا من لا خير فيه . الزَّمَخْشَرِيّ : فان قلت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة أم مندوب إليها ؟ قلت : بل واجبة . وقد اختلفوا في حال وجوبها ؛ فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره . وفي الحديث : "من ذُكرت عنده فلم يصل عليّ فدخل النار فأبعده الله" . ويروى أنه قيل له : يا رسول الله، أرأيت قول الله عز وجل : « إن الله وملائكته يصلّون على النبيّ » فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "هذا من العلم المكنون ولولا أنكم سألتموني عنه ما أخبرتكم به إن الله تعالى وكل بي ملكين فلا أذكر عند مسلم فيصلي عليّ إلا قال ذلك الملكان غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جوابا لذينك المَلَكين آمين . ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلّي عليّ إلا قال ذلك الملكان لا غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته لذينك الملكين آمين" . ومنهم من قال : تجب في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره ؛ كما قال في آية السجدة وتشميت العاطس . وكذلك في كل دعاء في أوله وآخره ومنهم من أوجبها في العمر . وكذلك قال في إظهار الشهادتين . والذي يقتضيه الاحتياط : الصلاة عند كل ذكر ؛ لما ورد من الأخبار في ذلك .

الثانية — واختلفت الآثار في صفة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ؛ فروى مالك عن أبي مسعود الأنصاريّ قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مجلس سعد ابن عبادة ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلّي عليك يا رسول الله، فكيف نصلّي عليك ؟ قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قولوا اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم" . ورواه النسائيّ عن طلحة مثله ، بإسقاط قوله : "في العالمين" وقوله : "والسلام كما قد علمتم" . وفي الباب عن كعب بن عُجْرة وأبي حميد الساعديّ وأبي سعيد الخُدْريّ وعليّ بن أبي طالب وأبي هريرة وبُريدة الخزاعيّ وزيد بن خارجة ،

ويقال ابن حارثة . أخرجها أئمة أهل الحديث فى كتبهم . وصحح الترمذىّ حديث كعب ابن عُجْرة . خرّجه مسلم فى صحيحه مع حديث أبى حميد الساعدىّ . قال أبو عمر : روى شُعبة والثورىّ عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن كعب بن عُجْرة قال : لما نزل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » جاء رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة؟ فقال : "قل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد" وهذا لفظ حديث الثورىّ لا حديث شعبة ، وهو يدخل فى التفسير المسند إليه لقول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » فبيّن كيف الصلاة عليه وعلمهم فى التحيات كيف السلام عليه ، وهو قوله : "السلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته" . وروى المسعودىّ عن عَوْن ابن عبد الله عن أبى فاختة عن الأسود عن عبد الله أنه قال : إذا صليتم على النبىّ صلى الله عليه وسلم فأحسنوا الصلاة عليه ، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه . قالوا فعلّمنا ، قال : " قولوا اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيّد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدِك ونبيِّك ورسولِك إمامِ الخير وقائد الخير ورسولِ الرحمة . اللهم ابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد" . وروينا بالإسناد المتصل فى كتاب (الشفا) للقاضى عياض عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : عدّهن فى يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " عدّهن فى يدى جبريل وقال هكذا أنزلت من عند رب العزة اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم وترحم على محمد وعلى آل محمد كما ترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم وتحنّن على محمد

وعلى آل محمد كما تحننت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ". قال ابن العربي : من هذه الروايات صحيح ومنها سقيم ؛ وأصحها ما رواه مالك فاعتمدوه . ورواية غير مالك من زيادة الرحمة مع الصلاة وغيرها لا يَقْوى ، وإنما على الناس أن ينظروا فى أديانهم نظرهم فى أموالهم ، وهم لا يأخذون فى البيع دينارا معيبا ، وإنما يختارون السالم الطيب ؛ كذلك لا يؤخذ من الروايات عن النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا ما صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم سنده ، لئلا يدخل فى حيّز الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فبينما هو يطلب الفضل إذا به قد أصاب النقص ، بل ربما أصاب الخسران المبين .

الثالثة — فى فضل الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من صلّى علىّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا " . وقال سهل بن عبد الله : الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم أفضل العبادات ؛ لأن الله تعالى تولاها هو وملائكته ، ثم أمر بها المؤمنين ؛ وسائر العبادات ليس كذلك . قال أبو سليمان الداراني : من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم يسأل الله حاجته ، ثم يختم بالصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإن الله تعالى يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يرد ما بينهما . وروى سعيد بن المسيّب عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : الدعاء يُحجب دون السماء حتى يصلّى على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فإذا جاءت الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم رفع الدعاء ، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من صلى علىّ فى كتاب لم تزل الملائكة يصلون عليه ما دام اسمى فى ذلك الكتاب " .

الرابعة — واختلف العلماء فى الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الصلاة ؛ فالذى عليه الجمّ الغفير والجمهور الكثير أن ذلك من سنن الصلاة ومستحباتها . قال ابن المنذر : يستحب ألا يصلى أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان ترك ذلك تارك فصلاته مجزية فى مذهب مالك وأهل المدينة وسفيان الثورىّ وأهل الكوفة من أصحاب الرأى وغيرهم . وهو قول جُلّ أهل العلم . وحكى عن مالك وسفيان أنها فى التشهّد الأخير

مستحبة ، وأن تاركها فى التشهد مسىء . وشذ الشافعىّ فأوجب على تاركها فى الصلاة الإعادة . وأوجب إسحاق الإعادة مع تعمّد تركها دون النسيان . وقال أبو عمر : قال الشافعىّ إذا لم يصلّ على النبىّ صلى الله عليه وسلم فى التشهد الأخير بعد التشهد وقبل التسليم أعاد الصلاة . قال : وإن صلّى عليه قبل ذلك لم تجزه . وهذا قول حكاه عنه حَرْملة بن يحيى ، لا يكاد يوجد هكذا عن الشافعىّ إلا من رواية حَرْملة عنه ، وهو من كبار أصحابه الذين كتبوا كتبه . وقد تقلّده أصحاب الشافعىّ ومالوا إليه وناظروا عليه ، وهو عندهم تحصيل مذهبه . وزعم الطحاوى أنه لم يقل به أحد من أهل العلم غيره . وقال الخطّابى وهو من أصحاب الشافعى : وليست بواجبة فى الصلاة ، وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعىّ ، ولا أعلم له فيها قدوة . والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة عمل السلف الصالح قبل الشافعىّ وإجماعهم عليه ، وقد شُنّع عليه فى هذه المسألة جدا . وهذا تشهّد ابن مسعود الذى اختاره الشافعىّ وهو الذى علّمه النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ليس فيه الصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وكذلك كل من روى التشهد عنه صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عمر : كان أبو بكر يعلّمنا التشهد على المنبر كما تعلّمون الصبيان فى الكتّاب . وعلمه أيضا على المنبر عمر ، وليس فيه ذكر الصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم .

قلت : قد قال بوجوب الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى الصلاة محمد بن المواز من أصحابنا فيما ذكر ابن القصّار وعبد الوهاب ، واختاره ابن العربىّ للحديث الصحيح : إن الله أمرنا أن نصلّى عليك فكيف نصلّى عليك ؟ فعلم الصلاة ووقتها فتعينت كيفية ووقتا . وذكر الدَّارَقُطْنِىّ عن أبى جعفر محمد بن علىّ بن الحسين أنه قال : لو صلّيتُ صلاة لم أصلّ فيها على النبىّ صلى الله عليه وسلم ولا على أهل بيته لرأيت أنها لا تتم . وروى مرفوعا عنه عن ابن مسعود عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . والصواب أنه قول أبى جعفر ؛ قاله الدَّارَقُطْنىّ .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ قال القاضى أبو بكر بن بكير: نزلت هذه الآية على النبى صلى الله عليه وسلم فأمر الله أصحابه أن يسلّموا عليه . وكذلك من بعدهم أُمِروا

أن يسلّموا عليه عند حضورهم قبره وعند ذكره . وروى النسائى عن عبد الله بن أبى طلحة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبِشر يرى فى وجهه ، فقلت : إنا لنرى البِشرى فى وجهك ! فقال : " إنه أتانى الملك فقال يا محمد إن ربّك يقول أما يُرضيك إنه لا يصلّى عليك أحد إلا صلّيتُ عليه عشرا ولا يسلّم عليك أحد إلا سلّمتُ عليه عشرا " . وعن محمد بن عبد الرحمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما منكم من أحد يسلم علىّ إذا مت إلا جاءنى سلامه مع جبريل يقول يا محمد هذا فلان بن فلان يقرأ عليك السلام فأقول وعليه السلام ورحمة الله وبركاته " وروى النسائى عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لله ملائكة سيّاحين فى الأرض يبلّغونى من أمّتى السلام ". قال القشيرى : والتسليم قولك سلام عليك .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — اختلف العلماء فى إذاية الله بماذا تكون ؛ فقال الجمهور من العلماء : معناه بالكفر ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه ، ووصفه بما لا يليق به ؛ كقول اليهود لعنهم الله : وقالت اليهود يد الله مغلولة . والنصارى : المسيح بن الله . والمشركون : الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه . وفى صحيح البخارى قال الله تعالى : " كذّبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك ... " الحديث . وقد تقدّم فى سورة «مريم»[1] . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال الله تبارك وتعالى : " يؤذينى ابن آدم يقول يا خيبة الدهر فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإن أنا الدهر أقلّب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما " . هكذا جاء هذا الحديث موقوفا على أبى هريرة فى هذه الرواية . وقد جاء مرفوعا عنه " يؤذينى ابن آدم

(١) راجع جـ ١١ ص ١٥٩

يَسُبّ الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار " أخرجه أيضا مسلم . وقال عكرمة : معناه بالتصوير والتعرّض لفعل مالا يفعله إلا الله بنحت الصور وغيرها ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لعن الله المصورين " . قلت : وهذا مما يقوى قول مجاهد فى المنع من تصوير الشجر وغيرها ؛ إذ كل ذلك صفة اختراع وتشبّه بفعل الله الذى انفرد به سبحانه وتعالى . وقد تقدّم هذا فى سورة « النمل »[1] والحمد لله . وقالت فرقة : ذلك على حذف مضاف، تقديره : يؤذون أولياء الله . وأما إذاية رسوله صلى الله عليه وسلم فهى كل ما يؤذيه من الأقوال فى غير معنًى واحد ، ومن الأفعال أيضا . أما قولهم : « فساحر شاعر كاهن مجنون . وأما فعلهم : فكسر رَبَاعِيته وشج وجهه يوم أحد ، و بمكة إلقاء السَّلَى على ظهره وهو ساجد » إلى غير ذلك . وقال ابن عباس : نزلت فى الذين طعنوا عليه حين اتخذ صفيّة بنت حُيَيّ . وأطلق إيذاء الله ورسوله وقيّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات ؛ لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبدا . وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ومنه .

الثانيــة — قال علماؤنا : والطعن فى تأمير أسامة بن زيد إذايةٌ له عليه السلام . روى الصحيح عن ابن عمر قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثًا وأمّر عليهم أسامة ابن زيد فطعن الناس فى إمرته فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إن تَطْعَنُوا فى إمرته فقد كنتم تطعنون فى إمرة أبيه من قبلُ وآيْمُ اللهِ إن كان لخليقا للإمارة و إن كان لَمِن أحبّ الناس إلىّ و إن هذا لمن أحب الناس إلىّ بعده " . وهذا البعث — والله أعلم — هو الذى جهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أسامة وأمّره عليهم وأمره أن يغزوَ « أُبْنَى » وهى القرية التى عند مُؤْتَة ، الموضع الذى قُتل فيه زيد أبوه مع جعفر بن أبى طالب وعبد الله ابن رَوَاحة . فأمره أن يأخذ بثأر أبيه فطعن مَن فى قلبه ريب فى إمْرته ؛ من حيث إنه كان من الموالى ، ومن حيث إنه كان صغير السنّ ؛ لأنه كان إذ ذاك ابن ثمان عشرة سنة ؛ فمات النبىّ صلى الله عليه وسلم وقد برز هذا البعث عن المدينة ولم ينفصل بعدُ عنها ، فنفذه أبو بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) راجع ج ١٣ ص ٢٢١

الثالثة — فى هذا الحديث أوضح دليل على جواز إمامة المَوْلَى والمفضول على غيرهما ما عدا الإمامة الكبرى . وقدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم سالما مولى أبى حُذيفة على الصلاة بقُبَاء ، فكان يؤمّهم وفيهم أبو بكر وعمر وغيرهم من كبراء قريش . وروى الصحيح عن عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقى عمر بعُسْفان ، وكان عمر يستعمله على مكة فقال : من استعملت على هذا الوادى ؟ قال : آبن أبزى . قال : ومن آبن أَبْزَى ؟ قال : مَوْلًى من موالينا . قال : فآستخلفت عليهم مَوْلًى ! قال : إنه لقارئ لكتاب الله و إنه لعالم بالفرائض — قال — أما إن نبيكم قد قال : "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما و يضع به آخرين" .

الرابعة — كان أسامة رضى الله عنه الحِب بن الحِبّ وبذلك كان يُدْعَى ، وكان أسودَ شديدَ السواد ، وكان زيد أبوه أبيض من القطن . هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح . وقال غير أحمد : كان زيد أزهرَ اللون وكان أسامة شديدَ الأُدْمَة . ويروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يُحسّن أسامة وهو صغير ويمسح مخاطه ، وينقّى أنفه ويقول : "لو كان أسامة جارية لزيّنّاه وجهزناه وحبّبناه إلى الأزواج" . وقد ذكر أن سبب ارتداد العرب بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أنه لما كان عليه السلام فى حجّة الوداع بجبل عرفة عشيّةَ عرفة عند النَّفْر ، آحتبس النبيّ صلى الله عليه وسلم قليلا بسبب أسامة إلى أن أتاه ؛ فقالوا : ما آحتبس إلا لأجل هذا ؛ تحقيرا له . فكان قولهم هذا سبب ارتدادهم . ذكره البخاريّ فى التاريخ بمعناه . والله أعلم .

الخامسة — كان عمر رضى الله عنه يفرض لأسامة فى العطاء خمسة آلاف ، ولابنه عبد الله ألفين ؛ فقال له عبد الله : فضّلت علىّ أسامة وقد شهدتُ مالم يشهد! فقال : إن أسامة كان أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، وأباه كان أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ؛ ففضل رضى الله عنه محبوبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على محبوبه . وهكذا يجب أن يُحَبّ ما أحبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُبْغَض مَن أبغض . وقد قابل مَرْوان هذا الحبّ بنقيضه ؛ وذلك أنه مرّ بأسامة بن زيد وهو يصلّى عند باب بيت

النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له مروان : إنما أردت أن نرى مكانك، فقد رأينا مكانك، فعل الله بك ! وقال قولا قبيحا (١) . فقال له أسامة : إنك آذيتنى ، وإنك فاحش متفحّش ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله تعالى يبغض الفاحش المتفحش ". فانظر ما بين الفعلين وقس ما بين الرجلين، فقد آذى بنو أمية النبيّ صلى الله عليه وسلم فى أحبابه وناقضوه فى محابّه .

قوله تعالى : ﴿ لَعَنَهُمُ اللهُ ﴾ معناه أبعدوا من كل خير . واللعن فى اللغة : الإبعاد؛ ومنه اللّعان . ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ تقدّم معناه فى غير موضع . والحمد لله ربّ العالمين .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨)

إذاية المؤمنين والمؤمنات هى أيضا بالأفعال والأقوال القبيحة ؛ كالبهتان والتكذيب الفاحش المختلق . وهذه الآية نظيرُ الآية التى فى النساء : « وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً (٢) » كما قال هنا . وقد قيل : إن من الإذاية تعييره بحسب مذموم، أو حرفة مذمومة، أو شىء يثقل عليه إذا سمعه ؛ لأن أذاه فى الجملة حرام . وقد ميّز الله تعالى بين أذاه وأذى الرسول وأذى المؤمنين فجعل الأول كفرا والثانى كبيرة ؛ فقال فى أذى المؤمنين ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴾ وقد بيّناه . وروى أن عمر بن الخطاب قال لأبيّ بن كعب : قرأت البارحة هذه الآية ففزعت منها « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا » الآية، والله إنى لأضربهم وأنهرهم . فقال له أُبَيّ : يا أمير المؤمنين ، لستَ منهم، إنما أنت معلّم ومقوّم . وقد قيل : إن سبب نزول هذه الآية أن عمر رأى جارية من الأنصار فضربها وكره ما رأى من زينتها ، فخرج أهلها فآذوا عمر باللسان ؛ فأنزل الله هذه الاية . وقيل : نزلت فى علىّ ؛ فإن المنافقين كانوا يؤذونه ويكذبون عليه . رضى الله عنه .

(١) فى الأصول : « وفعل قولا ... » . (٢) آية ١١٢

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾

فيـه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ ﴾ قد مضى الكلام فى تفضيل أزواجه واحدة واحدة[1] . قال قتادة : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تسع . خمس من قريش : عائشة، وحفصة، وأمّ حبيبة ، وسَوْدة ، وأمّ سلمة . وثلاث من سائر العرب : ميمونة، وزينب بنت جَحْش ، وجُوَيْرِيَة . وواحدة من بنى هارون : صفية . وأما أولاده فكان للنبىّ صلى الله عليه وسلم أولاد ذكور و إناث .

فالذكور من أولاده: القاسم ، أمّه خديجة، وبه كان يُكْنَى صلى الله عليه وسلم، وهو أوّل من مات من أولاده، وعاش سنتين . وقال عروة : ولدت خديجة للنبىّ صلى الله عليه وسلم القاسم والطاهر وعبد الله والطيب . وقال أبو بكر البرقى[2] : ويقال إن الطاهر هو الطيب وهو عبد الله . و إبراهيم أمّه مارية القبطية ، ولد فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة ، وتوفى ابن ستة عشر شهرا ، وقيل ثمانية عشر؛ ذكره الدّارَقُطْنِىّ . ودُفن بالبَقِيع . وقال صلى الله عليه وسلم : "إن له مرضعا تُتِم رضاعه فى الجنة" . وجميع أولاد النبىّ صلى الله عليه وسلم من خديجة سوى إبراهيم . وكل أولاده ماتوا فى حياته غير فاطمة .

وأما الإناث من أولاده فهنّ : فاطمة الزهراء بنت خديجة، ولدتها وقريش تبنى البيت قبل النبوّة بخمس سنين، وهى أصغر بناته ، وتزوجها علىّ رضى الله عنهما فى السنة الثانية من الهجرة فى رمضان ، وبَنَى بها فى ذى الحجة . وقيل : تزوجها فى رجب ، وتوفّيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بيسير، وهى أوّل من لحقه من أهل بيته . رضى الله عنها .

(١) راجع ص ١٦٢ وما بعدها من هذا الجزء . (٢) فى نسخة من الأصل : « الغرقى » .

ومنهنّ : زينب — أمّها خديجة — تزوّجها آبن خالتها أبو العاصى بن الربيع ، وكانت أمّ العاصى هالة بنت خويلد أخت خديجة . وآسم أبى العاصى لَقِيط . وقيل هاشم . وقيل هُشيم . وقيل مِقْسم . وكانت أكبر بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوفّيت سنة ثمان من الهجرة، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبرها .

ومنهنّ : رُقَيّة — أمّها خديجة — تزوّجها عتبة بن أبى لَهَب قبل النبوّة، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » قال أبو لهب لابنه : رأسى من رأسك حرام إن لم تطلّق آبنته ؛ ففارقها ولم يكن بَنَى بها . وأسلمت حين أسلمت أمّها خديجة ، وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم هى وأخواتها حين بايعه النساء ، وتزوّجها عثمان بن عفان، وكانت نساء قريش يقُلن حين تزوّجها عثمان :

أحسنُ شخصين رأى إنسانُ * رقيّـةٌ وبعلها عثمانُ

وهاجرت معه إلى أرض الحبشة الهجرتين، وكانت قد أسقطت من عثمان سقطا[1]، ثم ولدت بعد ذلك عبد الله ، وكان عثمان يُكْنَى به فى الإسلام ، وبلغ ستّ سنين فنقره ديك فى وجهه فمات ، ولم تلد له شيئا بعد ذلك . وهاجرت إلى المدينة ومرضت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهّز إلى بدر فخلف عثمانَ عليها ، فتوفّيت ورسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر، على رأس سبعة عشر شهرا من الهجرة . وقدم زيد بن حارثة بشيرا من بدر ، فدخل المدينة حين سوّى التراب على رُقَيّة . ولم يشهد دفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهن : أم كلثوم — أمها خديجة — تزوّجها عُتيبة بن أبى لهب — أخو عتبة — قبل النبوّة، وأمره أبوه أن يفارقها للسبب المذكور فى أمر رقيّة ، ولم يكن دخل بها، فلم تزل بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأسلمت حين أسلمت أمها ، وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أخواتها حين بايعه النساء، وهاجرت الى المدينة حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما توفّيت رقيّة تزوّجها عثمان، وبذلك سمى ذا النُّورَيْن . وتوفّيت

---

(١) السقط : بتثليث السين، والكسر أكثر .

فى حياة النبىّ صلى الله عليه وسلم فى شعبان سنة تسع من الهجرة . وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرها ، ونزل فى حفرتها علىّ والفضل وأسامة . وذكر الزبير بن بكار أن أكبر ولد النبىّ صلى الله عليه وسلم : القاسم ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، وكان يقال له الطيّب والطاهر ، وولد بعد النبوة ومات صغيرا . ثم أمّ كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية . فمات القاسم بمكة ثم مات عبد الله .

الثانية — لما كانت عادة العربيات التبذّل ، وكنّ يكشفْن وجوههن كما يفعل الإماء ، وكان ذلك داعية الى نظر الرجال إليهن ، وتشعّب الفكرة فيهن ، أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمرهن بإرخاء الجلابيب عليهن إذا أردن الخروج الى حوائجهن ، وكنّ يتبرّزن فى الصحراء قبل أن تتخذ الكُنُف — فيقع الفرق بينهن و بين الإماء ، فتعرف الحرائر بسترهن ، فيكفّ عن معارضتهن من كان عذَبا أو شابّا . وكانت المرأة من نساء المؤمنين قبل نزول هذه الآية تتبرّز للحاجة فيتعرّض لها بعض الفجّار يظن أنها أمة ، فتصيح به فيذهب ، فشكوا ذلك الى النبىّ صلى الله عليه وسلم . ونزلت الآية بسبب ذلك . قال معناه الحسن وغيره .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ الجلابيب جمع جلباب ، وهو ثوب أكبر من الخمار . وروى عن ابن عباس وابن مسعود أنه الرداء . وقد قيل : إنه القناع . والصحيح أنه الثوب الذى يستر جميع البدن . وفى صحيح مسلم عن أمّ عطيّة قلت : يا رسول الله ، إحدانا لا يكون لها جلباب ؟ قال : "لتُلْبِسْها أختُها من جلبابها" .

الرابعة — واختلف الناس فى صورة إرخائه ؛ فقال ابن عباس وعَبِيدة السَّلْمانىّ : ذلك أن تلوِيَه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تُبصر بها . وقال ابن عباس أيضا وقتادة : ذلك أن تلويه فوق الجبين وتشدّه ، ثم تعطِفه على الأنف ، وإن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه . وقال الحسن : تغطّى نصف وجهها .

الخامسة — أمر الله سبحانه جميع النساء بالسّتر ، وأن ذلك لا يكون إلا بما لا يصف جلدها ، إلا إذا كانت مع زوجها فلها أن تلبَس ما شاءت ؛ لأن له أن يستمتع بها كيف شاء ؛

ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ ليلة فقال : "سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن وماذا فتح من الخزائن من يوقظ صواحب الحجر رُبَّ كاسيةٍ فى الدنيا عاريةٌ فى الآخرة" . وروى أن دِحْيَة الكلبيّ لما رجع من عند هِرَقْل فأعطاه النبيّ صلى الله عليه وسلم قُبْطِيّة؛ فقال : "اجعل صديعًا لك قميصا وأعط صاحبتك صديعا تختمر به" . والصّديع النصف . ثم قال له : "مُرْها تجعل تحتها شيئا لئلا يصف" . وذكر أبو هريرة رقّة الثياب للنساء فقال : الكاسيات العاريات الناعمات الشقيّات[1] . ودخل نسوة من بنى تميم على عائشة رضى الله عنها عليهنّ ثياب رِقاق ، فقالت عائشة : إن كنتنّ مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات ، وإن كنتن غير مؤمنات فتمتعينه[2] . وأدخلت امرأة عروس على عائشة رضى الله عنها وعليها خمار قُبْطِىّ مُعَصْفَر ، فلما رأتها قالت : لم تؤمن بسورة « النور » امرأة تلبَس هذا . وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "نساء كاسيات عاريات مائلات مُميلات رءوسهن مثل أسنمة البُخْت لا يَدخلْنَ الجنة ولا يجدْنَ ريحها" . وقال عمر رضى الله عنه : ما يمنع المرأة المسلمة إذا كانت لها حاجة أن تخرج فى أطمارها[3] أو أطمار جارتها مستخفية ، لا يعلم بها أحد حتى ترجع إلى بيتها .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ ﴾ أى الحرائر ، حتى لا يختلطن بالإماء ؛ فإذا عرفن لم يقابلن بأدنى من المعارضة مراقبة لرتبة الحرّية ، فتنقطع الأطماع عنهن . وليس المعنى أن تُعرف المرأة حتى تُعلم من هى . وكان عمر رضى الله عنه إذا رأى أمَة قد تقنعت ضربها بالدِّرّة ، محافظة على زىّ الحرائر . وقد قيل : إنه يجب الستر والتقنّع الآن فى حق الجميع من الحرائر والإماء . وهذا كما أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا النساء المساجد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قوله : "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله" حتى قالت عائشة رضى الله عنها : لو عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا لمنعهنّ من الخروج إلى المساجد كما مُنعت نساء بنى إسرائيل . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ تأنيس للنساء فى ترك الجلابيب قبل هذا الأمر المشروع .

---

(١) فى بعض الأصول : « المتنعمات » . (٢) وردت هذه الكلمة محرّفة فى نسخ الأصل ، ولعلها « فتمتعن به » . (٣) الأطمار : جمع الطمر (بكسر الطاء وسكون الميم) وهو الثوب الخلق .

قوله تعالى : لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ ﴾ الآية . أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد؛ كما روى سفيان بن سعيد عن منصور عن أبي رزين قال : « المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرْجِفون فى المدينة » قال : هم شيء واحد؛ يعنى أنهم قد جمعوا هذه الأشياء . والواو مقحمة؛ كما قال :

إلى الملك القَرْمِ وابن الهمام * ولَيْثِ الكتيبة فى المُزْدحم

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة؛ وقد مضى فى « البقرة »[1] . وقيل : كان منهم قوم يُرجفون، وقوم يتبعون النساء للرِّيبة، وقوم يُشكّكون المسلمين . قال عكرمة وشَهْر ابن حَوْشَب : « الذين فى قلوبهم مرض » يعنى الذين فى قلوبهم الزنى . وقال طاوس : نزلت هذه الآية فى أمر النساء . وقال سلمة بن كُهَيل : نزلت فى أصحاب الفواحش؛ والمعنى متقارب . وقيل : المنافقون والذين فى قلوبهم مرض شيء واحد، عبّر عنهم بلفظين؛ دليله آية المنافقين فى أول سورة « البقرة »[2] . والمرجفون فى المدينة قوم كانوا يخبرون المؤمنين بما يسوءهم من عدوّهم، فيقولون إذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنهم قد قتلوا أو هزموا، وإن العدوّ قد أتاكم؛ قاله قتادة وغيره . وقيل كانوا يقولون : أصحاب الصُّفَّة قوم عزّاب، فهم الذين يتعرّضون للنساء . وقيل : هم قوم من المسلمين ينطقون بالأخبار الكاذبة حبًّا للفتنة . وقد كان فى أصحاب الإفك قوم مسلمون ولكنهم خاضوا حُبًّا

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٢ وما بعدها .

للفتنة . وقال ابن عباس : الإرجاف التماس الفتنة، والإرجاف : إشاعة الكذب والباطل للاغتنام به[1] . وقيل : تحريك القلوب؛ يقال : رَجَفت الأرض — أى تحركت وتزلزلت — ترجُف رَجْفا . والرَّجَفان : الاضطراب الشديد . والرَّجّاف : البحر؛ سمى به لاضطرابه . قال الشاعر :

المُطعِمون اللحمَ كلّ عشيّة * حتى تغيب الشمسُ فى الرَّجّاف[2]

والإرجاف : واحدُ أراجيف الأخبار . وقد أرجَفوا فى الشىء؛ أى خاضوا فيه . قال الشاعر :

فإنا وإن عيّرتمونا بقتله * وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسدُ

وقال آخر :

أبالأراجيف يابن اللؤم توعِدنى * وفى الأراجيف خِلت اللؤمُ والخوَرُ[3]

فالإرجاف حرام؛ لأن فيه إذاية . فدلّت الآية على تحريم الإيذاء بالإرجاف .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ أى لنسلطنّك عليهم فتستأصلهم بالقتل . وقال ابن عباس : لم ينتهوا عن إيذاء النساء وأن الله عز وجل قد أغراه بهم . ثم إنه قال عزّ وجلّ : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ »[4] وإنه أمره بلعنهم؛ وهذا هو الإغراء؛ وقال محمد بن يزيد : قد أغراه بهم فى الآية التى تلى هذه مع اتصال الكلام بها، وهو قوله عزّ وجلّ : «أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا» . فهذا فيه معنى الأمر

---

(١) فى نسخة : «الاهتمام» . (٢) قال ابن برى : البيت لمطرود بن كعب الخزاعى يرثى عبد المطلب جد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وقبله :

يأيها الرجل المحوّل رحله * هلا نزلت بآل عبد مناف

(٣) البيت للعين المنقرى يهجو به العجاج أو رؤبة . والرواية المعروفة فيه :

أبالأراجيز يابن اللؤم توعدنى * وفى الأراجيز خلت اللؤم والخور

والأراجيز : جمع أرجوزة بمعنى الرجز، وهو بحر من بحور الشعر . وجاء به علماء النحو شاهدا على أن « خلت » من الأفعال التى يلغى عملها لتوسطها بين مفعوليها . ولو نصبت قوله « اللؤم والخور » على المفعولية لجاز . (راجع كتاب سيبويه ج ١ ص ٦١ وباب ظن وأخواتها فى كتب النحو) . (٤) آية ٨٤ سورة التوبة .

بقتلهم وأخذهم ؛ أى هـذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف . وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : «خمس يُقتلن فى الحِلّ والحَرَم» . فهذا فيه معنى الأمر كالآية سواء . النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فى الآية . وقيل : إنهم قد انتهوا عن الإرجاف فلم يُغرِبهم . ولام «لَنُغْرِيَنَّكَ» لام القسم ، واليمين واقعة عليها ، وأدخلت اللام فى «إنْ» توطئة لها .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا ﴾ أى فى المدينة . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ نصب على الحال من الضمير فى « يجاورونك » ؛ فكان الأمر كما قال تبارك وتعالى ؛ لأنهم لم يكونوا إلا أقلاء . فهذا أحد جوابى الفرّاء ، وهو الأولى عنده ؛ أى لا يجاورونك إلا فى حال قلتهم . والجواب الآخر ــ أن يكون المعنى إلا وقتا قليلا ؛ أى لا يبقون معك إلا مدّة يسيرة ، أى لا يجاورونك فيها إلا جوارا قليلا حتى يهلكوا ؛ فيكون نعتا لمصدر أو ظرف محذوف . ودل على أن مَن كان معك ساكنا بالمدينة فهو جارٌ . وقد مضى فى « النساء »(١) .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ مَلْعُونِينَ ﴾ هذا تمام الكلام عند محمد بن يزيد ، وهـو منصوب على الحال . وقال ابن الأنبارى : « قليلا ملعونين » وقف حسن . النحاس : ويجوز أن يكون التمام « إلا قليلا » وتنصب « ملعونين » على الشتم . كما قـرأ عيسى بن عمـر « وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ » . وقد حكى عن بعض النحويين أنه قال : يكون المعنى أينما ثُقِفوا أُخذوا ملعونين . وهذا خطأ لا يَعمل ما [كان](٢) مع المجازاة فيما قبله . وقيل : معنى الآية إن أصرّوا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة إلا وهم مطرودون ملعونون . وقد فعل بهم هذا ؛ فإنه لما نزلت سورة « براءة » جمعوا ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " يا فلان قم فاخرج فإنك منافق ويا فلان قم " فقام إخوانهم من المسلمين وتولّوا إخراجهم من المسجد .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللهِ ﴾ نصب على المصدر ؛ أى سنّ الله جلّ وعزّ فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويُقتل . ﴿ وَلَنْ تَجِـدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا ﴾ أى تحويلا وتغييرا ؛ حكاه النقّاش . وقال السُّدّى : يعنى أن من قُتل بحق فلا دِية على قاتله .

(١) راجع جـ ٥ ص ١٨٣ وما بعدها .　　(٢) زيادة عن النحاس .

المهدوىّ : وفى الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد ؛ والدليل على ذلك بقاء المنافقين معه حتى مات . والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدهم وتأخير وعيدهم ؛ وقد مضى هذا فى « آل عمران[1] » وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ هؤلاء المؤذُون لرسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا تُوعِّدوا بالعذاب سألوا عن الساعة ، استبعادا وتكذيبا ، موهمين أنها لا تكون . ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ﴾ أى أجبهم عن سؤالهم وقل علمها عند الله ، وليس فى إخفاء الله وقتها عنى ما يبطل نبوّتى؛ وليس من شرط النبىّ أن يعلم الغيب بغير تعليم من الله جلّ وعزّ. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أى ما يعلمك . ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أى فى زمان قريب. وقال صلى الله عليه وسلم : "بُعثت أنا والساعةُ كهاتين" وأشار إلى السبّابة والوسطى؛ خرّجه أهل الصحيح . وقيل : أى ليست الساعة تكون قريبا ؛ فحذف هاء التأنيث ذهابا بالساعة إلى اليوم ؛ كقوله : «إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ المُحْسِنِينَ» ولم يقل قريبة ذهابا بالرحمة إلى العفو؛ إذ ليس تأنيثها أصليا . وقد مضى هذا مستوفًى[2] . وقيل : إنما أخفى وقت الساعة ليكون العبد مستعدا لها فى كل وقت .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ أى طردهم وأبعدهم. واللعن : الطرد والإبعاد عن الرحمة . وقد مضى فى « البقرة[3] » بيانه . ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ فأنّث السعير لأنها بمعنى النار . ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ينجيهم من عذاب الله والخلود فيه .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٠٣ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٢٧ (٣) راجع جـ ٢ ص ٢٥ طبعة ثانية .

قوله تعالى : يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ قراءة العامة بضم التاء وفتح اللام؛ على الفعل المجهول . وقرأ عيسى الهمدانى وابن إسحاق «نُقَلِّبُ» بنون وكسر اللام . «وُجُوهَهُمْ» نصبًا . وقرأ عيسى أيضا «تُقَلِّبُ» بضم التاء وكسر اللام على معنى تقلب السعيرُ وجوهَهم . وقرأ أبو حَيْوة باختلاف عنه وأبو جعفر وشيبة «تَقَلَّب» بفتح التاء واللام على معنى تتقلب . وهذا التقليب تغيير ألوانهم بلفح النار ، فتسودّ مرة وتخضرّ أخرى . وإذا بدّلت جلودهم بجلود أخر فحينئذ يتمنون أنهم ما كفروا ﴿ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا ﴾ . ويجوز أن يكون المعنى : يقولون يوم تقلّب وجوههم فى النار يا ليتنا . ﴿ أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾ أى لم نكفر فننجو من هذا العذاب كما نجا المؤمنون . وهذه الألف تقع فى الفواصل فيوقف عليها ولا يوصل بها . وكذا « السبيلا » وقد مضى فى أول السورة[1] . وقرأ الحسن « إِنَّا أَطَعْنَا سَادَاتِنَا » بكسر التاء ، جمع سادة . وكان فى هذا زجر عن التقليد . والسادة جمع السيّد ، وهو فَعَلة ؛ مثل كتبة وفجرة . وساداتنا جمع الجمع . والسادة والكبراء بمعنًى . وقال قتادة : هم المطعمون فى غزوة بدر . والأظهر العموم فى القادة والرؤساء فى الشرك والضلالة ؛ أى أطعناهم فى معصيتك وما دعونا إليه ﴿ فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ أى عن السبيل وهو التوحيد؛ فلما حذف الجار وصل الفعل فنصب . والإضلال لا يتعدّى إلى مفعولين من غير توسط حرف الجر؛ كقوله : « لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ »[2] .

قوله تعالى : رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

---

(١) راجع ص ١٤٥ من هذا الجزء . (٢) آية ٢٩ سورة الفرقان .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ قال قتادة : عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . وقيل : عذاب الكفر وعذاب الإضلال ؛ أى عذّبهم مثلَى ما تعذّبنا فإنهم ضلّوا وأضلّوا . ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ قرأ ابن مسعود وأصحابه ويحيى وعاصم بالباء. الباقون بالثاء، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد والنحاس ؛ لقوله تعالى : « أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ »[1] وهذا المعنى كثير . وقال محمد بن أبى السرى : رأيت فى المنام كأنى فى مسجد عسقلان وكأن رجلا يناظرنى فيمن يبغض أصحاب محمد فقال: والعنهم لعنا كثيرا، ثم كررها حتى غاب عنى؛ لا يقولها إلا بالثاء . وقراءة الباء ترجع فى المعنى إلى الثاء؛ لأن ما كبر كان كثيرا عظيم المقدار .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

لما ذكر الله تعالى المنافقين والكفار الذين آذَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، حذّر المؤمنين من التعرّض للإيذاء، ونهاهم عن التشبّه ببنى إسرائيل فى إذايتهم نبيهم موسى . واختلف الناس فيما أوذى به محمد صلى الله عليه وسلم وموسى ؛ فحكى النقّاش أن إذايتهم محمدا عليه السلام قولهم : زيد بن محمد . وقال أبو وائل : إذايته أنه صلى الله عليه وسلم قسم قَسْمًا فقال رجل من الأنصار : إن هذه القِسمة ما أريد بها وجه الله؛ فذكر ذلك للنبىّ صلى الله عليه وسلم فغضب وقال : " رحم الله موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر " . وأما إذاية موسى صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس وجماعة : هى ما تضمّنه حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وذلك أنه قال : "كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة وكان موسى عليه السلام يتستّر كثيرا ويخفى بدنه فقال قوم هو آدر[2] وأبرص أو به آفة ؛ فانطلق ذات يوم يغتسل فى عين بأرض الشأم وجعل ثيابه على صخرة ففر الحجر بثيابه واتبعه موسى عُريانا يقول ثَوْبِي حَجَرُ ثوبى حَجَر[3] حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فنظروا إليه وهو من

(١) آية ١٥٩ سورة البقرة . (٢) الأدره (وزان الغرفة) : انتفاخ الخصية .
(٣) أى دع ثوبى يا حجر .

أحسنهم خَلْقا وأعد لهم صورة وليس به الذى قالوا فهو قوله تبارك وتعالى « فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا » " أخرجه البخارى ومسلم بمعناه . ولفظ مسلم : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كانت بنوا إسرائيل يغتسلون عُراة ينظر بعضهم إلى سَوْءة بعض وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده فقالوا والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر قال فذهب يوما(١) يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففرّ الحجر بثوبه قال فجمح(٢) موسى عليه السلام بإثره يقول ثَوْبى حَجَرُ ثوبى حَجَرُ حتى نظرتْ بنو إسرائيل إلى سَوْءة موسى وقالوا والله ما بموسى من بأس فقام الحجر حتى نُظر إليه قال فأخذ ثوبه فطفِق بالحجر ضرْبا " قال أبو هريرة : والله إنه بالحجر نَدَبٌ(٣) ستةٌ أو سبعةٌ ضَرْبُ موسى بالحجر . فهذا قول . وروى عن ابن عباس عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال : آذوْا موسى بأن قالوا : قتل هارون؛ وذلك أن موسى وهرون خرجا من فَحْص(٤) التِّيه إلى جبل فمات هارون فيه ، فجاء موسى فقالت بنو إسرائيل لموسى : أنت قتلته ، وكان ألين لنا منك وأشد حبًّا . فآذوه بذلك فأمر الله تعالى الملائكة فحملته حتى طافوا به فى بنى إسرائيل ، ورأوا آية عظيمة دلّتهم على صدق موسى ، ولم يكن فيه أثر القتل . وقد قيل : إن الملائكة تكلمت بموته ولم يَعرف موضعَ قبره إلا الرَّخَم ، وأنه تعالى جعله أصم أبكم . ومات هارون قبل موسى فى التيه، ومات موسى قبل انقضاء مدّة التِّيه بشهرين . وحكى القشيرى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : أن الله تعالى أحيا هارون فأخبرهم أنه لم يقتله ، ثم مات . وقد قيل : إن إذاية موسى عليه السلام رميهم إياه بالسحر والجنون . والصحيح الأول . ويحتمل أن فعلوا كل ذلك فبرّأه الله من جميع ذلك .

مسألة — فى وضع موسى عليه السلام ثوبه على الحجر ودخوله فى الماء عُريانا دليل على جواز ذلك، وهو مذهب الجمهور . ومنعه ابن أبى ليْلَى واحتجّ بحديث لم يصحّ ؛ وهو

(١) فى مسلم : «مرة» . (٢) جرى أشد الجرى . (٣) الندب (بالتحريك) : أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد ، فشبه به أثر الضرب فى الحجر . (٤) قال ياقوت : الفحص كل موضع يسكن سهلا كان أو جبلا بشرط أن يزرع . والتيه : هو الموضع الذى ضل فيه موسى بن عمران عليه السلام وقومه . وهو أرض بين أيلة (العقبة) ومصر و بحر القلزم (البحر الأحمر) . وهو الآن قلب شبه جزيرة طورسينا .

قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تدخلوا الماء إلا بمئزر فإن للماء عامرا ". قال القاضي عياض : وهو ضعيف عند أهل العلم .

قلت : أما إنه يستحب التستر لما رواه إسرائيل عن عبد الأعلى أن الحسن بن عليّ دخل غَديرا وعليه بُرد له متوشحا به ، فلما خرج قيل له ، قال : إنما تسترت ممن يرانى ولا أراه ؛ يعنى من ربى والملائكة . فإن قيل : كيف نادى موسى عليه السلام الحجر نداء من يعقل؟ قيل : لأنه صدر عن الحجر فعل مَن يعقل . و « حَجَرُ » منادى مفرد محذوف حرف النداء ؛ كما قال تعالى : « يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » . و « ثوبى » منصوب بفعل مضمر ؛ التقدير: أعطنى ثوبى ، أو اترك ثوبى ؛ فحذف الفعل لدلالة الحال عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ أى عظيما . والوجيه عند العرب : العظيم القدر الرفيع المنزلة . ويروى أنه كان إذا سأل الله شيئا أعطاه إياه . وقرأ ابن مسعود «وكان عَبْدًا لِلّهِ» . وقيل : معنى « وجيها » أى كلمه تكليما . قال أبو بكر الأنباريّ فى (كتاب الرد) : زعم مَن طعن فى القرآن أن المسلمين صحّفوا « وكان عند الله وجيها » وأن الصواب عنده «وكان عَبْدًا لِلّه وَجِيهًا » وذلك يدلّ على ضعف مقصده ونقصان فهمه وقلة علمه ؛ وذلك أن الآية لو حملت على قوله وقرئت « وكان عبدا » نقص الثناء على موسى عليه السلام ؛ وذلك أن « وجيها » يكون عند أهل الدنيا وعند أهل زمانه وعند أهل الآخرة ، فلا يوقف على مكان المدح ؛ لأنه إن كان وجيها عند بنى الدنيا كان ذلك إنعاما من الله عليه لا يبين عليه معه ثناء من الله . فلما أوضح الله تعالى موضع المدح بقوله : «وكان عِند الله وجيهاً» استحق الشرف وأعظم الرفعة بأن الوجاهة عند الله ؛ فمن غيّر اللفظة صرف عن نبيّ الله أفخر الثناء وأعظم المدح.

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ أى قصدا وحقا . وقال ابن عباس : أى صوابا . وقال قتادة ومُقاتل : يعنى قولوا قولا سديدا فى شأن زينب وزيد، ولا تنسبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى ما لا يحل . وقال عِكرمة وابن عباس أيضا : القول السداد لا إله إلا الله . وقيل : هو الذى يوافق ظاهره باطنه . وقيل : هو ما أريد به وجه الله دون غيره . وقيل : هو الإصلاح بين المتشاجرين . وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض . والقول السداد يعم الخيرات، فهو عام فى جميع ما ذكر وغير ذلك .

وظاهر الآية يعطى أنه إنما أشار إلى ما يكون خلافا للأذى الذى قيل فى جهة الرسول وجهة المؤمنين . ثم وعد جل وعز بأنه يجازى على القول السداد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب ؛ وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة . ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى فيما أمر به ونهى عنه ﴿ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

لما بيّن تعالى فى هذه السورة من الأحكام ما بيّن، أمر بالتزام أوامره . والأمانة تعم جميع وظائف الدّين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور . روى الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله حدثنا إسماعيل بن نصر عن صالح بن عبد الله عن محمد بن يزيد[1] بن جوهر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله تعالى لآدم يا آدم إنى عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تطقها فهل أنت حاملها بما فيها فقال

(١) فى بعض الأصول : « محمد بن زيد » ولم نقف على تصويبه .

وما فيها يا رب قال إن حملتها أجِرت و إن ضيّعتها عُذّبت فاحتملها بما فيها فلم يلبث فى الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطان منها ". فالأمانة هى الفرائض التى ائتمن الله عليها العباد . وقد اختلف فى تفاصيل بعضها على أقوال؛ فقال ابن مسعود : هى فى أمانات الأموال كالودائع وغيرها . وروى عنه أنها فى كل الفرائض ، وأشدها أمانة المال . وقال أبىّ بن كعب : من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها . وقال أبو الدرداء : غسل الجنابة أمانة ، وأن الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شىء من دينه غيرها . وفى حديث مرفوع " الأمانة الصلاة " إن شئت قلت قد صلّيت وإن شئت قلت لم أصلّ . وكذلك الصيام وغسل الجنابة . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : أوّل ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجه وقال هذه أمانة استودعتكها ، فلا تلبسها[1] إلا بحق ، فان حفظتها حفظتك ؛ فالفرج أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة ، واللسان أمانة ، والبطن أمانة ، واليد أمانة ، والرجل أمانة ؛ ولا إيمان لمن لا أمانة له . وقال السُّدّى : هى ائتمان آدم ابنَه قابيل على ولده وأهله ، وخيانته إياه فى قتل أخيه . وذلك أن الله تعالى قال له : " يا آدم ، هل تعلم أن لى بيتا فى الأرض " قال : " اللهم لا " قال : " فإن لى بيتا بمكة فأته ؛ فقال للسماء : احفظى ولدى بالأمانة ؟ فأبت ، وقال للأرض : احفظى ولدى بالأمانة فأبت ؛ وقال للجبال كذلك فأبت . فقال لقابيل : احفظ ولدى بالأمانة ؛ فقال نعم ، تذهب وترجع فتجد ولدك كما يسرّك . فرجع فوجده قد قتل أخاه ؛ فذلك قوله تبارك وتعالى : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا » الآية . وروى معمر عن الحسن أن الأمانة عرضت على السموات والأرض والجبال ؛ قالت : وما فيها ؟ قيل لها : إن أحسنتِ جوزيتِ وإن أسأتِ عوقبتِ . فقالت لا . قال مجاهد : فلما خلق الله تعالى آدم عرضها عليه ؛ قال : وما هى ؟ قال : إن أحسنت أجرتك و إن

---

(١) كذا وردت هذه الجملة فى نسخ الأصل . والذى فى نوادر الأصول : « فلا تبسل منها شيئا إلا بحقها » والابسال هنا التضييع ؛ وهو رواية الدر المنثور؛ قال : « فلا تضيعها إلا فى حقها » . يقال : أبسلت فلانا إذا أسلمته للهلكة .

أسأتَ عذّبتك . قال : فقد تحملتها يا رب . قال مجاهد : فما كان بين أن تحملها إلى أن أخرج من الجنة إلا قدر ما بين الظهر والعصر . وروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ » قال : الأمانة الفرائض، عرضها الله عزّ وجلّ على السموات والأرض والجبال ، إن أدّوها أثابهم ، و إن ضيّعوها عذّبهم . فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيما لدين الله عز وجل ألا يقوموا به . ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها . قال النحاس : وهذا القول هو الذى عليه أهل التفسير . وقيل : لما حضرت آدمَ صلى الله عليه وسلم الوفاةُ أُمر أن يعرض الأمانة على الخلق، فعرضها فلم يقبلها إلا بنوه . وقيل : هذه الأمانة هى ما أودعه الله تعالى فى السموات والأرض والجبال والخلق، من الدلائل على ربو بيّته أن يظهروها فأظهروها؛ إلا الإنسان فإنه كتمها وجحدها؛ قاله بعض المتكلمين . ومعنى « عرضنا » أظهرنا ؛ كما تقول : عرضت الجارية على البيع . والمعنى إنا عرضنا الأمانة وتضييعها على أهل السموات وأهل الأرض من الملائكة والإنس والجن ﴿ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ﴾ أى أن يحملن وزرها ؛ كما قال جلّ وعزّ : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ »(1) . ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ قال الحسن : المراد الكافر والمنافق . ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا ﴾ لنفسه ﴿ جَهُولًا ﴾ بربّه . فيكون على هذا الجوابُ مجازا ؛ مثل « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » . وفيه جواب آخر على أن يكون حقيقة أنه عرض على السموات والأرض والجبال الأمانة وتضييعها وهى الثواب والعقاب ؛ أى أظهر لهن ذلك فلم يحملن وزرها ؛ وأشفقت وقالت : لا أبتغى ثوابا ولا عقابا، وكلٌّ يقول : هذا أمر لا نطيقه، ونحن لك سامعون ومطيعون فيما أُمرن به وسخّرن له ؛ قاله الحسن وغيره . قال العلماء : معلوم أن الجماد لا يفهم ولا يجيب، فلا بد من تقدير الحياة على القول الأخير . وهذا العرض عرض تخيير لا إلزام . والعرض على الإنسان إلزام . وقال القفّال وغيره : العرض فى هذه الآية ضرب مَثَل ؛ أى أن السموات والأرض على كبر أجرامها، لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها

---

(1) آية ١٣ سورة العنكبوت .

تقلد الشرائع، لما فيها من الثواب والعقاب؛ أى أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال؛ وقد كُلِّفه الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقَل . وهذا كقوله : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ » — ثم قال : — « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ »(١) . قال القفال : فإذا تقرّر فى أنه تعالى يضرب الأمثال، وورد علينا من الخبر مالا يخرج إلا على ضرب المثل، وجب حمله عليه . وقال قوم : إن الآية من المجاز؛ أى إنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال، رأينا أنها لا تطيقها، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت؛ فعبّر عن هذا المعنى بقوله . « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ » الآية . وهذا كما تقول : عرضت الحمل على البعير فأباه؛ وأنت تريد قايست قوته بثقل الحمل، فرأيت أنها تقصر عنه . وقيل : « عرضنا » بمعنى عارضنا الأمانة بالسموات والأرض والجبال فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة، ورجحت الأمانة بثقلها عليها . وقيل : إن عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال إنما كان من آدم عليه السلام؛ وذلك أن الله تعالى لما ٱستخلفه على ذرّيته، وسلّطه على جميع ما فى الأرض من الأنعام والطير والوحش، وعهِد إليه عهدا أمره فيه ونهاه وحرّم وأحلّ، فقبله ولم يزل عاملا به . فلما أن حضرته الوفاة سأل الله أن يعلمه مَن يستخلف بعده، ويقلده من الأمانة ماتقلده، فأمره أن يعرض ذلك على السموات بالشرط الذى أخذ عليه من الثواب إن أطاع ومن العقاب إن عصى ، فأبَيْن أن يقبلنه شفقا(٢) من عذاب الله . ثم أمره أن يعرض ذلك على الأرض والجبال كلها فأبياه . ثم أمره أن يعرض ذلك على ولده فعرضه عليه فقبله بالشرط، ولم يَهَب منه ما تهيبت السموات والأرض والجبال . «إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا» لنفسه «جَهُولًا» بعاقبة ما تقلّد لربه . قال الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله محمد بن علىّ : عجبت من هذا القائل من أين أتى بهذه القصة ! فإن نظرنا إلى الآثار وجدناها بخلاف ماقال، وإن نظرنا إلى ظاهره وجدناه بخلاف ما قال؛ وإن نظرنا إلى باطنه وجدناه بعيدا مما قال؛ وذلك أنه ردّد ذكر الأمانة ولم يذكر ما الأمانة ، إلا أنه يومئ فى مقالته إلى أنه سلّطه على

---

(١) آية ٢١ سورة الحشر . (٢) الشفق والاشفاق : الخوف .

جميع ما فى الأرض ، وعهد الله إليه عهدا فيه أمره ونهيه وحِله وحرامه ، وزعم أنه أمره أن يعرض ذلك على السموات والأرض والجبال ؛ فما تصنع السموات والأرض والجبال بالحلال والحرام ؟ وما تسليطه على الأنعام والطير والوحش ! وكيف إذا عرضه على ولده فقبله فى أعناق ذريته من بعده . وفى مبتدأ الخبر فى التنزيل أنه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال حتى ظهر الإباء منهم ، ثم ذكر أن الإنسان حملها ، أى من قِبَل نفسه الا أنه حمّل ذلك ، فسماه «ظلوما» أى لنفسه ، « جهولا » بما فيها . وأما الآثار التى هى بخلاف ماذكر ؛ فحدّثنى أبى رحمه الله قال حدثنا الفيض بن الفضل الكوفى حدثنا السّرِى بن إسماعيل عن عامر الشعبى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : لما خلق الله الأمانة مثّلها صخرة ، ثم وضعها حيث شاء ، ثم دعا لها السموات والأرض والجبال ليحملنها ، وقال لهن : إنّ هذه الأمانة ، ولها ثواب وعليها عقاب ؛ قالوا : يا رب ، لا طاقة لنا بها ؛ وأقبل الإنسان من قَبْل أن يدعى فقال للسموات والأرض والجبال : ما وقوفكم ؛ قالوا : دعانا ربنا أن نحمل هذه فأشفقن منها ولم نطقها ؛ قال : فحركها بيده وقال : والله لو شئت أن أحملها لحملتها ؛ فحملها حتى بلغ بها إلى ركبتيه ، ثم وضعها وقال : والله لوشئت أن أزداد لازددت ؛ قالوا : دونك ! فحملها حتى بلغ بها حِقْوَيه[1] ، ثم وضعها وقال : والله لو شئت أن أزداد لازددت ؛ قالوا : دونك ، فحملها حتى وضعها على عاتقه ، فلما أهوى ليضعها ، قالوا : مكانك ! إن هذه الأمانة ولها ثواب وعليها عقاب ، وأمرنا ربنا أن نحملها فأشفقن منها ، وحملتها أنت من غير أن تدعى لها ، فهى فى عنقك وفى أعناق ذريتك إلى يوم القيامة ، إنك كنت ظلوما جهولا . وذكر أخبارا عن الصحابة والتابعين تقدم أكثرها . ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ أى التزم القيام بحقها ، وهو فى ذلك ظلوم لنفسه . وقال قتادة : للأمانة ، جهول لقدر ما دخل فيه . وهذا تأويل ابن عباس وابن جبير . وقال الحسن : جهول بربه . قال : ومعنى حملها خان فيها . وقال الزجاج : والآية فى الكافر والمنافق والعصاة على قدرهم على هذا التأويل . وقال ابن عباس وأصحابه

(١) الحقو (بفتح الحاء وكسرها) : الخاصرة .

والضحاك وغيره : الإنسان آدم، تحمل الأمانة فما تمّ له يوم حتى عصى المعصية التى أخرجته من الجنة . وعن ابن عباس أن الله تعالى قال له : أتحمل هذه الأمانة بما فيها . قال وما فيها ؟ قال : إن أحسنتَ جُزيتَ و إن أسأت عوقبت . قال : أنا أحملها بما فيها بين أذنى وعاتق . فقال الله تعالى له : إنى سأعينك، قد جعلت لبصرك حجابا فأغلقه عما لا يحل لك، ولفرجك لباسا فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك . وقال قوم : الإنسان النوع كله . وهذا حسن مع عموم الأمانة كما ذكرناه أولا . وقال السدّى : الإنسان قابيل . فالله أعلم . ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ﴾ اللام فى « ليعذّب » متعلقة بـ « حمل » أى حملها ليعذب العاصى ويثيب المطيع؛ فهى لام التعليل؛ لأن العذاب نتيجة حمل الأمانة . وقيل بـ « عرضنا » ؛ أى عرضنا الأمانة على الجميع ثم قلّدناها الإنسان ليظهر شركُ المشرك ونفاقُ المنافق ليعذبَهم الله ، وإيمانُ المؤمن ليثيبه الله . ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ ﴾ قراءة الحسن بالرفع، يقطعه من الأول؛ أى يتوب الله عليهم بكل حال .﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ خبر بعد خبر لـ « كان » . ويجوز أن يكون نعتا لغفور، ويجوز أن يكون حالا من المضمر . والله أعلم بالصواب .

سورة سبأ

مكية فى قول الجميع ، إلا آية واحدة اختلف فيها ، وهى قوله تعالى: «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ»[(١)] الآية . فقالت فرقة : هى مكية ، والمراد المؤمنون أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم؛ قاله ابن عباس . وقالت فرقة : هى مدنيّة ، والمراد بالمؤمنين من أسلم بالمدينة؛ كعبد الله بن سلام وغيره؛ قاله مقاتل . وقال قتادة : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنون به كائنا من كان . وهى أربع وخمسون آية .

(١) آية ٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ «الذى» فى موضع خفض على النعت أو البدل . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على إضمار مبتدأ ، وأن يكون فى موضع نصب بمعنى أعنى . وحكى سيبويه «الحمد لله أهل الحمد» بالرفع والنصب والخفض . والحمد الكامل والثناء الشامل كلّه لله ؛ إذ النعم كلها منه . وقد مضى الكلام فيه فى أول الفاتحة . ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ ﴾ قيل : هو قوله تعالى : «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ»(١) . وقيل : هو قوله « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »(٢) فهو المحمود فى الآخرة كما أنه المحمود فى الدنيا ، وهو المالك للآخرة كما أنه المالك للاولى . ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ فى فعله . ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بأمر خلقه .

قوله تعالى : يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى ما يدخل فيها من قطر وغيره ؛ كما قال : « فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الْأَرْضِ »(٣) من الكنوز والدفائن والأموات وما هى له كِفات(٤) . ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من نبات وغيره . ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من الأمطار والثلوج والبَرَد والصواعق والأرزاق والمقادير والبركات . وقرأ علىّ بن أبى طالب « وما نُنَزِّل » بالنون والتشديد . ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ من الملائكة وأعمال العباد ؛ قاله الحسن وغيره . ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ .

---

(١) آية ٧٤ سورة الزمر . (٢) آية ١٠ سورة يونس . (٣) آية ٢١ سورة الزمر .
(٤) الكفات : الموضع الذى يضم اليه الشىء و يقبض .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ قيل : المراد أهل مكة . قال مقاتل : قال أبو سفيان لكفار مكة : واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبدا ولا نبعث ؛ فقال الله : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ وروى هارون عن طَلْق المعلم قال : سمعت أشياخنا يقرءون « قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَيَأْتِيَنَّكُمْ » بياء، حملوه على المعنى ؛ كأنه قال : ليأتينكم البعث أو أمره . كما قال : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ »(1) . فهؤلاء الكفار مقرّون بالابتداء منكرون الإعادة، وهو نقض لما اعترفوا بالقدرة على البعث، وقالوا : وإن قدر لا يفعل . فهذا تحكّم بعد أن أخبر على ألسنة الرسل أنه يبعث الخلق . وإذا ورد الخبر بشيء وهو ممكن فى الفعل مقدور، فتكذيب من وجب صدقه محال . ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ بالرفع قراءة نافع وابن كثير على الابتداء، وخبره « لَا يَعْزُبُ عَنْهُ » . وقرأ عاصم وأبو عمرو « عالِمِ » بالخفض؛ أى الحمد لله عالم ؛ فعلى هذه القراءة لا يحسن الوقف على قوله : « لَتَأْتِيَنَّكُمْ » . وقرأ حمزة والكسائى « علّام الغيب » على المبالغة والنعت . ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ أى لا يغيب عنه، « ويعزِب » أيضا . قال الفراء : والكسر أحبّ إلىّ . النحاس : وهى قراءة يحيى بن وثّاب ، وهى لغة معروفة . يقال : عزَب يعزُب ويعزِب إذا بعد وغاب . ﴿ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ أى قدر نملة صغيرة . ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ ﴾ وفى قراءة الأعمش « وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ » بالفتح فيهما عطفا على « ذَرَّةٍ » . وقراءة العامّة

(1) آية ٣٣ سورة النحل .

بالرفع عطفا على « مثقال » . ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ فهو العالم بما خلق ولا يخفى عليه شيء .
﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ منصوب بلام كي، والتقدير : لتأتينكم ليجزى . ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾
بالثواب، والكافرين بالعقاب . ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ يعنى المؤمنين . ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم .
﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو الجنة .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا ﴾ أى فى إبطال أدلتنا والتكذيب بآياتنا .
﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا، وأن الله لا يقدر على بعثهم فى الآخرة، وظنوا
أنا نهملهم ؛ فهؤلاء ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ يقال : عاجزه وأعجزه إذا غالبه وسبقه .
و « أليم » قراءة نافع بالكسر نعتا للرجز؛ فإن الرجز هو العذاب؛ قال الله تعالى : « فَأَنْزَلْنَا عَلَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ »[1] . وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم « عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ »
برفع «الميم» هنا وفى «الجاثية»[2] نعتا للعذاب . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد بن قيس ومجاهد
وأبو عمرو « معجّزين » مثبّطين؛ أى ثبطوا الناس عن الإيمان بالمعجزات وآيات القرآن .

قوله تعالى : وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾

لما ذكر الذين سعوا فى إبطال النبوة بيّن أن الذين أوتوا العلم يرون أن القرآن حق .
قال مقاتل : « الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » هم مؤمنو أهل الكتاب . وقال ابن عباس : هم أصحاب
محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل جميع المسلمين؛ وهو أصح لعمومه . والرؤية بمعنى العلم ، وهو
فى موضع نصب عطفا على « لِيَجْزِيَ » أى ليجزى وليرى ؛ قاله الزجاج والفراء . وفيه نظر؛

---

(١) آية ٥٩ سورة البقرة .   (٢) آية ١١

لأن قوله : « لِيجزِى » متعلق بقوله : « لَتَأْتِيَنَّكُمُ الساعة » ، ولا يقال : لتأتينكم الساعة ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق ؛ فإنهم يرون القرآن حقا وإن لم تأتهم الساعة . والصحيح أنه رفع على الاستئناف ؛ ذكره القشيرى .

قلت : وإذا كان « ليجزى » متعلقا بمعنى أثبت ذلك فى كتاب مبين ، فيحسن عطف « ويرى » [عليه] ؛ أى وأثبت أيضا ليرى[1] الذين أوتوا العلم أن القرآن حق . ويجوز أن يكون مستأنفا . ﴿ الَّذِى ﴾ فى موضع نصب على أنه مفعول أول لـ « يرى » ﴿ هُوَ الْحَقَّ ﴾ مفعول ثان ، و « هو » فاصلة . والكوفيون يقولون « هو » عماد . ويجوز الرفع على أنه مبتدأ . و « الحق » خبره ، والجملة فى موضع نصب على المفعول الثانى ، والنصب أكثر فيما كانت فيه الألف واللام عند جميع النحويين ، وكذا ما كان نكرة لا يدخله الألف واللام فيشبه المعرفة . فإن كان الخبر اسما معروفا نحو قولك : كان أخوك هو زيد ؛ فزعم الفراء أن الاختيار فيه الرفع . وكذا كان محمد هو عمرو . وعلّته فى اختياره الرفع أنه لما لم تكن فيه الألف واللام أشبه النكرة فى قولك : كان زيد هو جالس ؛ لأن هذا لا يجوز فيه إلا الرفع . ﴿ وَيَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ أى يهدى القرآن إلى طريق الإسلام الذى هو دين الله . ودل بقوله : « العزيز » على أنه لا يغالب . وبقوله : « الحميد » على أنه لا يليق به صفة العجز .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ ﴾ وإن شئت أدغمت اللام فى النون لقربها منها . ﴿ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ هذا إخبار عمن قال : « لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ » أى هل نرشدكم إلى رجل ينبئكم ؛ أى يقول لكم : إنكم تبعثون بعد البِلى فى القبور . وهذا صادر عن فرط إنكارهم . الزَّمَخْشَرِى : « فإن قلت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهورا علما فى قريش ، وكان إنباؤه بالبعث شائعا عندهم ، فما معنى قولهم : « هَلْ نَدُلُّكُمْ

(١) فى الأصل : « وأثبت أيضا رؤية الذين ... » .

عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ » فنكّروه لهم وعرضوا عليهم الدلالة عليه؛ كما يُدَلّ على مجهول فى أمر مجهول. قلت : كانوا يقصدون بذلك الطّنْز(١) والهزؤ والسخرية ، فأخرجوه مخرج التحكى(٢) ببعض الأحاجى التى يتحاجى بها للضحك والتلهى ، متجاهلين به وبأمره » . و « إذا » فى موضع نصب والعامل فيها « مُزِّقْتُمْ » قاله النحاس . ولا يجوز أن يكون العامل فيها « يُنَبِّئُكُمْ » ؛ لأنه ليس يخبرهم ذلك الوقت . ولا يجوز أن يكون العامل فيها ما بعد « إِنَّ » ؛ لأنه لا يعمل فيما قبله ، وألا يتقدّم عليها ما بعدها ولا معمولها . وأجاز الزجاج أن يكون العامل فيها محذوفا؛ والتقدير : إذا مزقتم كل ممزق بعثتم ، أو ينبئكم بأنكم تبعثون إذا مزقتم . المهدوى : ولا يعمل فيه « مُزِّقْتُمْ » ؛ لأنه مضاف إليه ، والمضاف إليه لا يعمل فى المضاف . وأجازه بعضهم على أن يجعل « إذا » للجازاة ، فيعمل فيها حينئذ ما بعدها لأنها غير مضافة إليه . وأكثر ما تقع « إذا » للجازاة فى الشعر . ومعنى ﴿ مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ فرقتم كل تفريق . والمَزْق خرق الأشياء؛ يقال : ثوب مَزِيق وممزوق ومتمزّق وممزّق .

قوله تعالى : أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ لما دخلت ألف الاستفهام استغنيت عن ألف الوصل فحذفتها ، وكان فتح ألف الاستفهام فرقا بينها وبين ألف الوصل . وقد مضى هذا فى سورة « مريم » عند قوله تعالى : « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ » مستوفًى(٣) . ﴿ أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ هذا مردود على ما تقدّم من قول المشركين؛ والمعنى : قال المشركون « أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً » . والافتراء الاختلاق . « أَمْ بِهِ جِنَّةٌ » أى جنون؛ فهو يتكلم بما لا يدرى . ثم ردّ عليهم فقال : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ أى ليس الأمر كما قالوا ، بل هو أصدق الصادقين ، ومن ينكر البعث فهو غدًا فى العذاب ، واليوم فى الضلال عن الصواب ؛ إذ صاروا إلى تعجيز الإله ونسبة الافتراء إلى من أيده الله بالمعجزات .

(١) الطنز : السخرية .	(٢) فى الكشاف والبحر : « التحلى » باللام .	(٣) راجع جـ ١١ ص ١٤٧

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

أعلم الله تعالى أن الذى قدر على خلق السموات والأرض وما فيهن قادر على البعث وعلى تعجيل العقوبة لهم؛ فاستدل بقدرته عليهم، وأن السموات والأرض ملكه، وأنهما محيطتان بهم من كل جانب، فكيف يأمنون الخسف والكسف كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة. وقرأ حمزة والكسائي « إِنْ يَشَأْ يَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يُسْقِطْ » بالياء فى الثلاث؛ أى إن يشأ الله أمر الأرض فتنخسف بهم، أو السماء فتسقط عليهم كِسَفًا. الباقون بالنون على التعظيم. وقرأ السُّلَمِيّ وحفص « كِسَفًا » بفتح السين. الباقون بالإسكان. وقد تقدّم بيانه فى « سبحان »[1] وغيرها. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أى فى هذا الذى ذكرناه من قدرتنا « لآية » أى دلالة ظاهرة. ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ أى تائب رجّاع إلى الله بقلبه. وخص المنيب بالذكر لأنه المنتفع بالفكرة فى حجج الله وآياته.

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ بيّن لمنكرى نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم أن إرسال الرسل ليس أمرًا بِدْعًا، بل أرسلنا الرسل وأيدناهم بالمعجزات، وأحللنا بمن خالفهم العقاب. ﴿ آتَيْنَا ﴾ أعطينا. ﴿ فَضْلًا ﴾ أى أمرًا فضلناه به على غيره. واختلف فى هذا الفضل على تسعة أقوال: الأوّل — النبوّة. الثانى — الزبور. الثالث — العلم؛ قال الله تعالى: « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا »[2]. الرابع — القوّة؛ قال الله تعالى: « وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ »[3]. الخامس — تسخير

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٠ . (٢) آية ١٥ سورة النمل . (٣) آية ١٧ سورة ص .

الجبال والناس؛ قال الله تعالى: «يا جبالُ أوّبي معه»[1]. السادس — التوبة؛ قال الله تعالى: «فغفرنا له ذلك»[2]. السابع — الحكم بالعدل؛ قال الله تعالى: «يا داودُ إنا جعلناك خليفة في الأرض»[3] الآية. الثامن — إلانة الحديد؛ قال تعالى: «وألنّا له الحديد». التاسع — حسن الصوت، وكان داود عليه السلام ذا صوت حسن ووجه حسن. وحسن الصوت هبة من الله تعالى وتفضل منه، وهو المراد بقوله تبارك وتعالى: «يزيدُ في الخلقِ ما يشاءُ»[4] على ما يأتي إن شاء الله تعالى. وقال صلى الله عليه وسلم لأبي موسى: "لقد أوتيتَ مزمارا من مزامير داود". قال العلماء: المزمار والمزمور الصوت الحسن، وبه سمّيت آلة الزمر مزمارا. وقد استحسن كثير من فقهاء الأمصار القراءة بالتزيين والترجيع، وقد مضى هذا في مقدّمة الكتاب[5] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ يا جبالُ أوّبي معه ﴾ أي وقلنا يا جبال أوّبي معه، أي سبّحي معه؛ لأنه قال تبارك وتعالى: «إنّا سخّرنا الجبالَ معه يسبّحنَ بالعشيِّ والإشراقِ»[6]. قال أبو ميسرة: هو التسبيح بلسان الحبشة؛ ومعنى تسبيح الجبال هو أن الله تعالى خلق فيها تسبيحا كما خلق الكلام في الشجرة، فيُسمع منها ما يُسمع من المسبّح معجزةً لداود عليه الصلاة والسلام. وقيل: المعنى سِيري معه حيث شاء؛ من التأويب الذي هو سير النهار أجمع وينزل الليل. قال ابن مقبل:

لحقنا بحيّ أوّبوا السير بعد ما * دفعنا شُعاع الشمس والطرف يجنح

وقرأ الحسن وقتادة وغيرهما «أُوبي معه» أي ارجعي معه؛ من آب يؤوب إذا رجع، أوْبًا وأوْبة وإيابًا. وقيل: المعنى تصرفي معه على ما يتصرف عليه داود بالنهار؛ فكان إذا قرأ الزبور صوتت الجبال معه، وأصغت إليه الطير، فكأنها فعلت ما فعل. وقال وهب ابن منبّه: المعنى نوحي معه والطير تساعده على ذلك، فكان إذا نادى بالنياحة أجابته الجبال

---

(١) آية ١٠ سورة سبأ. (٢) آية ٢٥ سورة ص. (٣) آية ٢٦ سورة ص.
(٤) أول سورة فاطر. (٥) راجع جـ١ ص١١ طبعة ثانية أو ثالثة. (٦) آية ١٨ سورة ص.

بصداها ، وعكفت الطير عليه من فوقه ؛ فصَدَى الجبالِ الذى يسمعه الناس إنما كان من ذلك اليوم إلى هذه الساعة ، فأيّد بمساعدة الجبال والطير لئلا يجد فترة[(١)] ، فإذا دخلت الفترة اهتاج ، أى ثار وتحرّك ، وقوى بمساعدة الجبال والطير . وكان قد أعطى من الصوت ما يتزاحم الوحوش من الجبال على حسن صوته ، وكان الماء الجارى ينقطع عن الجرى وقوفا لصوته .

« والطيرُ » بالرفع قراءة ابن أبى إسحاق ونصر عن عاصم وابن هُرْمُز ومسلمة بن عبد الملك ، عطفا على لفظ الجبال ، أو على المضمر فى « أوِّبى » وحسّنه الفصل بمع . الباقون بالنصب عطفا على موضع « ياجبالُ » أى نادينا الجبال والطير ؛ قاله سيبويه . وعند أبى عمرو ابن العلاء بإضمار فعل على معنى وسخرنا له الطير . وقال الكسائى : هو معطوف ، أى وآتيناه الطير ، حملا على « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا » . النحاس : ويجوز أن يكون مفعولا معه ؛ كما تقول : استوى الماء والخشبة . وسمعت الزجاج يجيز : قمت وزيدا ؛ فالمعنى أوّبى معه ومع الطير . ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيد ﴾ قال ابن عباس : صار عنده كالشمع . وقال الحسن : كالعجين ، فكان يعمله من غير نار . وقال السدّى : كان الحديد فى يده كالطين المبلول والعجين والشمع ، يصرفه كيف شاء ، من غير إدخال نار ولا ضرب بمِطْرَقة . وقاله مقاتل . وكان يفرغ من الدّرع فى بعض اليوم أو بعض الليل ، ثمنها ألف درهم . وقيل : أعطى قوّةً يَثْنِى بها الحديد ؛ وسبب ذلك أن داود عليه السلام ، لما ملك بنى إسرائيل لقِىَ مَلَكا وداود يظنه إنسانا ، وداود متنكر خرج يسأل عن نفسه وسيرته فى بنى إسرائيل فى خفاء ؛ فقال داود لذلك الشخص الذى تمثل له : "ما قولك فى هذا الملِك داود" ؟ فقال له الملَك : "نِعم العبد لولا خَلّة فيه" قال داود : "وما هى" ؟ قال : "يرتزق من بيت المال ولو أكل من عمل يده لتمت فضائله" . فرجع فدعا الله فى أن يعلّمه صنعة ويسهلها عليه ، فعلّمه صنعةَ لَبُوسٍ كما قال جلّ وعزّ فى سورة الأنبياء[(٢)] ، فألان له الحديد فصنع الدروع ، فكان يصنع الدرع فيما بين يومه وليلته يساوى ألف درهم ، حتى ادّخر منها كثيرا وتوسعت

---

(١) الفترة : الضعف . (٢) فى قوله تعالى : «وعلمناه صنعة لبوس لكم» آية ٨٠ راجع جـ ١١ ص ٣٢٠

معيشة منزله، ويتصدّق على الفقراء والمساكين، وكان ينفق ثلث المال فى مصالح المسلمين، وهو أوّل من اتخذ الدروع وصنعها وكانت قبل ذلك صفائح. ويقال: إنه كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف. والدرع مؤنثة إذا كانت للحرب. ودرع المرأة مذكّر.

مسألة — فى هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرّف بها لاينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة فى فضلهم وفضائلهم؛ إذ يحصل لهم التواضع فى أنفسهم والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخلى عن الامتنان. وفى الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إن خير ما أكل المرء من عمل يده وإن نبيّ الله داود كان يأكل من عمل يده". وقد مضى هذا فى «الأنبياء» مُجَوّدا والحمد لله.

قوله تعالى: أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ أى دروعًا سابغات، أى كوامل تامات واسعات؛ يقال: سبغ الدرعُ والثوب وغيرهما إذا غطّى كل ماهو عليه وفضل منه. ﴿وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ﴾ قال قتادة: كانت الدروع قبله صفائح فكانت ثقالا؛ فلذلك أمِر هو بالتقدير فيما يجمع من الخفة والحصانة. أى قدّر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه. أى لا تقصد الحصانة فتثقل، ولا الخفة فتزيل المنعة. وقال ابن زيد: التقدير الذى أمر به هو فى قدر الحَلْقة؛ أى لاتعملها صغيرة فتضعف فلا تقوى الدروع على الدفاع، ولا تعملها كبيرة فينال لابسها. وقال ابن عباس: التقدير الذى أمر به هو فى المسمار؛ أى لا تجعل مسمار الدرع رقيقا فيقْلق[1]، ولا غليظا فَيَفصِم الحلَق. روى «يقصم» بالقاف، والفاء أيضا رواية. ﴿فِى السَّرْدِ﴾ السّرْد نسج حلَق الدروع؛ ومنه قيل لصانع حلق الدروع: السرّاد والزرّاد؛ تبدل من السين الزاى؛ كما قيل: سرّاط وزرّاط. والسّرْد: الخَرْز؛ يقال: سرد يسرد إذا خرز. والمِسْرَد: الإشفى؛ ويقال سراد. قال الشّماخ:

---

(١) القلق: ألا يستقر فى مكان واحد.

فظلت تباعا خيلنا فى بيوتكم (١) * كما تابعت سرْدَ العِنان الخوارِزُ

والسِّراد : السير الذى يخرز به ؛ قال لَبِيد :

يشك صِفاحها بالرَّوْق شَزْراً * كما خرج السِّراد من النقّال (٢)

ويقال : قد سرد الحديث والصوم ؛ فالسرد فيهما أن يجيء بهما (٣) وِلاء فى نسق واحد ، ومنه سرد الكلام . وفى حديث عائشة : لم يكن النبىّ صلى الله عليه وسلم يَسْرُدُ الحديث كسردكم ، وكان يحدّث الحديث لو أراد العادّ أن يعدّه لأحصاه . قال سيبويه : ومنه رجل سَرَنْدَى أى جرىء ؛ قال : لأنه يمضى قُدُماً (٤) . وأصل ذلك فى سرد الدرع ، وهو أن يُحكمها و يجعل نظام حلقها وِلاء غير مختلف . قال لبيد :

صنع الحديدَ مضاعفاً أسراده * لينال طول العيش غير مَرُوم

وقال أبو ذؤيب :

وعليهما مَسْرُودتانِ قضاهما * داودُ أو صَنَعُ السوابغ تُبَّعُ (٥)

﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ أى عملا صالحا . وهذا خطاب لداود وأهله ؛ كما قال : «اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا» . ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى : وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ﴾ قال الزجاج : التقدير وسخرنا لسليمان الريح . وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر عنه «الرِّيحُ» بالرفع على الابتداء ، والمعنى له تسخير الريح ، أو بالاستقرار ؛

---

(١) رواية البيت كما فى ديوانه :

شككن بأحشاء الذنابي على هدى * كما تابعت ... ... الخ

(٢) الروق : القرن . والنقال : جمع النقل (بالتحريك) والنقل ، وهو الخف الخلق . (٣) فى الأصول : «به» .

(٤) أى لم يعترج ولم ينثن ؛ يوصف به الذكر والأنثى . (٥) قضاهما : أحكمهما ، أو فرغ منهما . والصنع (بالتحريك) : الحذق فى العمل . والصنع ها هنا تبع ، وهو ملك من ملوك حمير . ويروى : «أو صَنِعُ السوابغ» .

أى ولسليمان الريح ثابتة ، وفيه ذلك المعنى الأول . فإن قال قائل : إذا قلت أعطيت زيدا درهما ولعمرو دينار، فرفعته فلم يكن فيه معنى الأول، وجاز أن يكون لم تعطه الدينار. وقيل: الأمر كذا ولكن الآية على خلاف هذا من جهة المعنى ؛ لأنه قد علم أنه لم يسخرها أحد إلا الله عزّ وجلّ . ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ أى مسيرة شهر . قال الحسن : كان يغدو من دمشق فيَقِيل بإصْطَخْر، وبينهما مسيرة شهر للسرع ، ثم يروح من إصْطَخر ويبيت بكابُل، وبينهما شهر للسرع . قال السُّدّى : كانت تسير به فى اليوم مسيرة شهرين . وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: كان سليمان إذا جلس نصبت حواليه أربعمائة ألف كرسىّ، ثم جلس رؤساء الإنس مما يليه، وجلس سِفْلة الإنس مما يليهم ، وجلس رؤساء الجن مما يلى سِفْلة الإنس، وجلس سِفْلة الجن مما يليهم، ومُوكّل بكل كرسىّ طائر لعمل قد عرفه ؛ ثم تقلّهم الريح ، والطير تظلهم من الشمس، فيغدو من بيت المقدس إلى إصْطَخْر ، فيبيت ببيت المقدس ؛ ثم قرأ ابن عباس « غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ » . وقال وهب بن منبّه : ذُكر لى أن منزلا بناحية دِجْلة مكتوبا فيه — كتبه بعض صحابة سليمان ، إمّا من الجن وإما من الأنس — : نحن نزلنا وما بنيناه ، ومبنيا وجدناه ، غُدوّنا من إصْطَخْر فقِلْناه ، ونحن رائحون منه إن شاء الله تعالى فبائتون فى الشام . وقال الحسن : شغلت سليمانَ الخيلُ حتى فاتته صلاة العصر، فعقر الخيل فأبدله الله خيرا منها وأسرع ؛ أبدله الريح تجرى بأمره حيث شاء ، غُدُوّها شهر ورواحها شهر . وقال ابن زيد : كان مستقر سليمان بمدينة تَدْمُر، وكان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشام إلى العراق ، فبنوها له بالصُّفّاح (١) والعمد والرخام الأبيض والأصفر . وفيه يقول النابغة :

إلّا سليمانَ إذ قال الإله له * قُمْ فى البريّة فاحدُدْها (٢) عن الفَنَد

وَخيِّس (٣) الجن إنى قد أذنت لهم * يبنون تَدْمُر بالصُّفّاح والعَمَد

(١) الصفاح (كرمان) : حجارة عريضة رقيقة .   (٢) الحد : المنع . والفند : الخطأ .

(٣) خيس : ذلل .

فمن أطاعك فانفعه بطاعته * كما أطاعك وادْلُلْه على الرشَد
ومن عصاك فعاقِبْه معاقبةً * تَنْهَى الظَّلومَ ولا تَقْعُد على ضَمَد (١)

ووجدت هذه الأبيات منقورة فى صخرة بأرض يَشْكُر، أنشأهن بعض أصحاب سليمان عليه الصلاة والسلام :

ونحن ولا حولٌ سوى حولِ ربّنا * نروح إلى الأوطان من أرض تَدْمُرِ
إذا نحن رُحْنا كان رَيْثُ رواحنا * مسيرةَ شهرٍ والغُدُوُّ لآخَرِ
أناسٌ شَرَوْا لله طَوْعًا نفوسَهم * بنصر ابنِ داودَ النبيِّ المطهَّرِ
لهم فى معالى الدِّين فضلٌ ورفعة (٢) * وإن نُسِبُوا يوما فمن خير مَعْشَرِ
متى يركبوا الريح المطيعةَ أسرعتْ * مبادِرةً عن شَهْرِها لم تُقَصِّرِ
تظلّهمُ طيرٌ صفوفٌ عليهمُ * متى رَفْرَفَتْ من فوقهم لم تُنَفَّرِ

قوله تعالى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ القِطْر : النُّحاس؛ عن ابن عباس وغيره . أُسيلت له مسيرة ثلاثة أيام كما يسيل الماء، وكانت بأرض اليمن، ولم يذب النحاس فيما روى لأحد قبله، وكان لا يذوب، ومن وقته ذاب؛ وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرج الله تعالى لسليمان . قال قتادة : أسال الله عينا يستعملها فيما يريد . وقيل لعكرمة : إلى أين سالت ؟ فقال : لا أدرى ! وقال ابن عباس ومجاهد والسُّدّى : أجريت له عين الصُّفْر ثلاثة أيام بلياليهن . قال القشيرى : وتخصيص الإسالة بثلاثة أيام لا يُدرَى ما حدّه، ولعله وهم من الناقل؛ إذ فى رواية عن مجاهد أنها سالت من صنعاء ثلاث ليال مما يليها؛ وهذا يشير إلى بيان الموضع لا إلى بيان المدّة . والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان فى معدنه عينا تسيل كعيون المياه، دلالة على نبوّته . وقال الخليل : القِطْر : النحاس المذاب .

قلت : دليله قراءة من قرأ « مِن قِطرٍ آنٍ ». ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أى بأمره ﴿ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ الذى أمرناه به من طاعة سليمان . ﴿ نُذِقْهُ مِن

(١) الضمد : الحقد . (٢) فى الأصول : « رأفة » والتصويب عن البحر وروح المعانى .

﴿ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى فى الآخرة ؛ قاله أكثر المفسرين . وقيل ذلك فى الدنيا ؛ وذلك أن الله تعالى وكل بهم — فيما روى عن السُّدّى — ملكا بيده سوط من نار ، فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة من حيث لا يراه فأحرقته . و « مَن » فى موضع نصب بمعنى وسخرنا له من الجن من يعمل . ويجوز أن يكون فى موضع رفع ؛ كما تقدّم فى الريح .

قوله تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

فيه ثمانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ ﴾ المحراب فى اللغة : كل موضع مرتفع . وقيل للذى يصلَّى فيه : محراب ؛ لأنه يجب أن يرفع ويعظّم . وقال الضحاك : « مِنْ مَحَارِيبَ » أى من مساجد . وكذا قال قتادة . وقال مجاهد : المحاريب دون القصور . وقال أبو عبيدة : المحراب أشرف بيوت الدار . قال :

وماذا عليه أن ذكرتُ أوانسًا * كغِزلان رَمْل فى محاريبِ أقيالِ [1]

وقال عدى بن زيد :

كدُمَى العاج فى المحاريب أو كالـ * ـبَيْض فى الروْض زهره مستنيرُ

وقيل : هو ما يرقى إليه بالدرج كالغرفة الحسنة ؛ كما قال : « إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » [2] وقوله : « فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ » [3] أى أشرف عليهم . وفى الخبر " أنه أمر أن يعمل حول كرسيّه ألف محراب فيها ألف رجل عليهم المسوح يصْرُخون إلى الله دائبا ، وهو على الكرسى فى موكبه والمحاريب حوله ، ويقول لجنوده إذا ركب : سبّحوا الله إلى ذلك العَلَم ، فإذا بلغوه قال : هلّلوه إلى ذلك العَلَم ، فإذا بلغوه قال : كبّروه إلى ذلك العَلَم الآخر ؛ فتلجّ الجنود بالتسبيح والتهليل لجّةً واحدة .

(١) البيت لامرئ القيس . والأقيال : جمع قيل ، وهو الملك (٢) آية ٢١ سورة ص . (٣) آية ١١ سورة مريم .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ وَتَمَاثِيلَ ﴾ جمع تمثال . وهو كل ما صُوِّر على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان . وقيل : كانت من زجاج ونحاس ورخام تماثيل أشياء ليست بحيوان . وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنَوْا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تلك الصّوَر " . أي ليتذكروا عبادتهم فيجتهدوا في العبادة . وهذا يدل على أن التصوير كان مباحا في ذلك الزمان ، ونسخ ذلك بشرع محمد صلى الله عليه وسلم . وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة « نوح » عليه السلام . وقيل : التماثيل طِلَّسْمات كان يعملها ، ويحرم على كل مصوّر أن يتجاوزها فلا يتجاوزها ، فيعمل تمثالا للذباب أو للبعوض أو للتماسيح في مكان ، ويأمرهم ألا يتجاوزوه فلا يتجاوزه واحد أبدا مادام ذلك التمثال قائما . وواحد التماثيل تمثال بكسر التاء . قال :

ويا رُبَّ يومٍ قد لَهَوْتُ وليلةٍ * بآنسةٍ كأنها خطّ تِمثالِ (1)

وقيل : إن هذه التماثيل رجال اتخذهم من نحاس وسأل ربه أن ينفخ فيها الروح ليقاتلوا في سبيل الله ولا يَحِيك (2) فيهم السلاح . ويقال : إن اسفنديار كان منهم ؛ والله أعلم . وروى أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما ، وإذا قعد أطلق النّسران أجنحتهما .

الثالثـة — حكى مكيّ في الهداية له : أن فرقة تجوّز التصوير ، وتحتج بهذه الآية . قال ابن عطية : وذلك خطأ ، وما أحفظ عن أحد من أئمة العلم من يجوّزه .

قلت : ما حكاه مكيّ ذكره النحاس قبله ، قال النحاس : قال قوم عمل الصور جائز لهذه الآية ، ولما أخبر الله عز وجل عن المسيح . وقال قوم : قد صح النهي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم عنها ، والتوعد لمن عملها أو اتخذها ، فنسخ الله عز وجل بهذا ما كان مباحا قبله ، وكانت الحكمة في ذلك لأنه بُعث عليه السلام والصور تُعبد ، فكان الأصلح إزالتها .

---

(1) البيت لامرئ القيس . (2) حاك السيف حيكا : أثر وعمل .

الرابعــة — التمثال على قسمين : حيوان وموات . والموات على قسمين : جماد ونامٍ ؛ وقد كانت الجن تصنع لسليمان جميعه ؛ لعموم قوله : « وَتَمَاثِيلَ » . وفى الإسرائيليات : أن التماثيل من الطير كانت على كرسى سليمان . فإن قيل : لا عموم لقوله « وَتَمَاثِيلَ » فإنه إثبات فى نكرة ، والإثبات فى النكرة لا عموم له ، إنما العموم فى النفى فى النكرة . قلنا : كذلك هو ، بَيْدَ أنه قد اقترن بهذا الإثبات فى النكرة ما يقتضى حمله على العموم ، وهو قوله : « مَا يَشَاءُ » فاقتران المشيئة به يقتضى العموم له . فإن قيل : كيف استجاز الصور المنهى عنها؟ قلنا : كان ذلك جائزا فى شرعه ونسخ ذلك بشرعنا كما بينا ؛ والله اعلم . وعن أبى العالية : لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرما .

الخامســة — مقتضى الأحاديث يدل على أن الصور ممنوعة ، ثم جاء "إلا ما كان رَقْمًا[1] فى ثوب" فخص من جملة الصور ، ثم ثبتت الكراهية فيه بقوله عليه السلام لعائشة فى الثوب : "أخّريه عنى فإنى كلما رأيته ذكرت الدنيا" . ثم بهتكه[2] الثوب المصور على عائشة منع منه ، ثم بقطعها له وسادتين حتى تغيرت الصورة وخرجت عن هيئتها ؛ فإن جواز ذلك إذا لم تكن الصورة فيه متصلة الهيئة ، ولو كانت متصلة الهيئة لم يجز ؛ لقولها فى النُّمْرُقة[3] المصورة : اشتريتها لك لتقعد عليها وتَوَسّدها ، فمنع منه وتوعّد عليه . وتبين بحديث الصلاة إلى الصور أن ذلك جائز فى الرقم فى الثوب ثم نسخه المنع منه . فهكذا استقر الأمر فيه والله أعلم ؛ قاله ابن العربى .

السادســة — روى مسلم عن عائشة قالت : كان لنا ستر فيه تمثال طائر وكان الداخل إذا دخل استقبله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حوّلى هذا فإنى كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا" . قالت : وكانت لنا قطيفة كنا نقول علَمُها حرير ، فكنا نلبسها . وعنها قالت : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مستترة بقِرام[4] فيه صورة ، فتلوّن وجهه ،

---

(١) الرقم : النقش والوشى . (٢) الهتك : الخرق والشق . (٣) النمرقة (بضم النون والراء بكسرهما و بغير هاء) : الوسادة . (٤) القرام : الستر الرقيق .

ثم تناول الستر فهتكه ، ثم قال : " إن من أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يُشَبِّهُونَ بخلق الله عز وجل " . وعنها : أنه كان لها ثوب فيه تصاوير ممدود إلى سَهْوة [١] ، فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلى إليه فقال : " أَخّريه عنى " قالت : فأخرته فجعلته وسادتين . قال بعض العلماء : ويمكن أن يكون تهتيكه عليه السلام الثوب وأمره بتأخيره ورَعًا ، لأن محل النبوة والرسالة الكمال . فتأمله .

السابعة — قال المُزَنى عن الشافعى : إن دعى رجل إلى عرس فرأى صورة ذات روح أو صورا ذات أرواح ، لم يدخل إن كانت منصوبة . وإن كانت توطأ فلا بأس ، وإن كانت صور الشجر . ولم يختلفوا أن التصاوير فى الستور المعلقة مكروهة غير محرمة . وكذلك عندهم ما كان خرطا أو نقشا فى البناء . واستثنى بعضهم " ما كان رقما فى ثوب "؛ لحديث سهل بن حُنيف .

قلت : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المصوِّرين ولم يستثن . وقوله : " إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة و يقال لهم أَحيُوا ما خلقتم " ولم يستثن . وفى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يخرج عُنُق [٢] من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول إنى وُكّلت بثلاث بكل جبار عنيد و بكل من دعا مع الله إلهًا آخر و بالمصوِّرين " قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وفى البخارى ومسلم عن عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أشد الناس عذابا يوم القيامة المصوِّرون " . يدل على المنع من تصوير شىء ، أى شىء كان . وقد قال جل وعزّ : « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا [٣] » على ما تقدّم بيانه فاعلمه .

الثامنة — وقد استثنى من هذا الباب لُعَب البنات ، لما ثبت عن عائشة رضى الله عنها أن النبىّ صلى الله عليه وسلم تزوّجها وهى بنت سبع سنين ، وزُفّت إليه وهى بنت تسع

---

(١) السهوة : بيت صغير منحدر فى الأرض قليلا شبيه بالمخدع والخزانة . وقيل : هو كالصفة تكون بين يدى البيت . وقيل : شبيه بالرف أو الطاق يوضع فيه الشىء . (٢) العنق : القطعة . (٣) آية ٦٠ سورة النمل .

ولُعَبُها معها، ومات عنها وهى بنت ثمان عشرة سنة. وعنها أيضا قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان لى صواحب يلعبن معى، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل ينقمعن(١) منه فيسرِّبُهن(٢) إلىّ فيلعبن معى. خرجهما مسلم. قال العلماء: وذلك للضرورة إلى ذلك وحاجة البنات حتى يتدرّبن على تربية أولادهنّ. ثم إنه لا بقاء لذلك، وكذلك ما يصنع من الحلاوة أو من العجين لا بقاء له؛ فرخّص فى ذلك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ قال ابن عرفة: الجوابى جمع الجابية، وهى حُفَيرة كالحوض. وقال مجاهد: لحياض الإبل. وقال ابن القاسم عن مالك: كالجَوْبة من الأرض؛ والمعنى متقارب. وكان يقعد على الجَفْنة الواحدة ألف رجل. النحاس: «وجفان كالجواب» الأَوْلى أن تكون بالياء، ومن حذف الياء قال سبيل الألف واللام أن تدخل على النكرة فلا يغيرها عن حالها؛ فلما كان يقال جوابٍ ودخلت الألف واللام أقرّ على حاله فحذف الياء. وواحد الجوابى جابية، وهى القِدر العظيمة، والحوض العظيم الكبير الذى يُجْبَى فيه الشىء أى يجمع؛ ومنه جَبيت الخَراج؛ وجَبيت الجراد أى جعلت الكساء فجمعته فيه. إلا أن لَيْثاً روى عن مجاهد قال: الجوابى جمع جَوبة، والجوبة الحفرة الكبيرة تكون فى الجبل فيها ماء المطر. وقال الكسائى: جَبَوْت الماء فى الحوض وجبيته أى جمعته، والجابية: الحوض الذى يجبى فيه الماء للإبل، قال:

تروح على آلِ المُحَلَّق جَفْنَةٌ * كجابية الشيخ العراقىّ تَفْهَقُ(٣)

ويروى أيضا:

نفى الذمَّ عن آل المُحلّق جفنةٌ * كجابية السيح(٤) ... ...

ذكره النحاس.

---

(١) أى يتغيبن ويدخلن فى بيت أو من وراء ستر، حياء وهيبة له عليه السلام. (٢) أى يرسلهنّ ويبعثهنّ.
(٣) البيت للأعشى. والفهق: الامتلاء. وخص العراقى لجهله بالمياه لأنه حضرى؛ فاذا وجدها ملأ جابيته وأعدها ولم يدر متى يجد المياه، وأما البدوى فهو عالم بالمياه فهو لا يبالى ألا يعدّها. (٤) السيح: الماء الظاهر الجارى على وجه الأرض.

قوله تعالى : ﴿ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ قال سعيد بن جُبير : هى قدور النحاس تكون بفارس . وقال الضحاك : هى قدور تعمل من الجبال . غيره : قد نحتت من الجبال الصُّم مما عملت له الشياطين؛ أثافيها[1] منها منحوتة هكذا من الجبال . ومعنى « راسيات » ثوابت، لا تُحمل ولا تحرّك لعظمها . قال ابن العربىّ : وكذلك كانت قدور عبد الله بن جُدْعان، يصعد إليها فى الجاهلية بسُلّم . وعنها عبّر طَرَفة بن العبد بقوله :

كالجوابى لا تنِي مُترَعةً * لِقِرَى الأضياف أو للمحتضِرْ

قال ابن العربىّ : ورأيت برِباط أبى سعيد قدور الصوفية على نحو ذلك، فإنهم يطبخون جميعا ويأكلون جميعا من غير استئثار واحد منهم على أحد .

قوله تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ قد مضى معنى الشكر فى «البقرة»[2] وغيرها . وروى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم صعِد المنبر فتلا هذه الآية ثم قال : "ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود" قال فقلنا : ما هن ؟ فقال : "العدل فى الرضا والغضب، والقصد فى الفقر والغنى، وخشية الله فى السر والعلانية". خرّجه الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة . وروى أن داود عليه السلام قال : "يا ربّ كيف أطيق شكرك على نعمك، وإلهامى وقدرتى على شكرك نعمةٌ لك" فقال : "يا داود الآن عرفتنى" . وقد مضى هذا المعنى فى سورة «إبراهيم»[3] . وأن الشكر حقيقته الاعتراف بالنعمة للمنعم واستعمالها فى طاعته، والكفران استعمالها فى المعصية . وقليل من يفعل ذلك؛ لأن الخير أقلّ من الشر، والطاعة أقل من المعصية؛ بحسب سابق التقدير . وقال مجاهد : لما قال الله تعالى «ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا» قال داود لسليمان : إن الله عزّ وجلّ قد ذكر الشكر فاكفنى صلاة النهار أكفك صلاة الليل؛ قال : لا أقدر . قال : فاكفنى — قال الفاريابى : أراه قال إلى صلاة الظهر — قال نعم؛ فكفاه . وقال الزهرى : « ٱعملوا

---

(١) الأثافى (جمع الأثفية) : ما يوضع عليه القدر . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) راجع جـ ٩ ص ٣٤٣ .

آل داود شكرا » أى قولوا الحمد لله . و« شُكْرًا » نصب على جهة المفعول ؛ أى اعملوا عملا هو الشكر. وكأن الصلاة والصيام والعبادات كلها هى فى نفسها الشكر إذ سدّت مسدّه؛ ويبيّن هذا قوله تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ»(١) وهو المراد بقوله « وقليل من عبادِىَ الشكور» . وقد قال سفيان بن عُيَيْنة فى تأويل قوله تعالى « أَنِ اشكر لى » أنّ المراد بالشكر الصلوات الخمس . وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تَفَطَّر(٢) قدماه ؛ فقالت له عائشة رضى الله عنها : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ماتقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: "أفلا أكون عبدا شكورا". انفرد بإخراجه مسلم . فظاهر القرآن والسنة أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان؛ فالشكر بالأفعال عمل الأركان، والشكر بالأقوال عمل اللسان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ ﴾ يحتمل أن يكون مخاطبة لآل داود، ويحتمل أن يكون مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن عطية : وعلى كل وجه ففيه تنبيه وتحريض. وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رجلا يقول: اللهم اجعلنى من القليل ؛ فقال عمر : ما هذا الدعاء ؟ فقال الرجل : أردت قوله تعالى «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ» . فقال عمر رضى الله عنه : كل الناس أعلم منك يا عمر ! وروى أن سليمان عليه السلام كان يأكل الشعير ويطعم أهله الخشكار(٣) ويطعم المساكين الدَّرْمَك(٤). وقد قيل: إنه كان يأكل الرماد ويتوسده؛ والأول أصح، إذ الرماد ليس بقوت . وروى أنه ما شبع قطّ ، فقيل له فى ذلك فقال : أخاف إن شبعت أن أنسى الجياع. وهذا من الشكر ومن القليل، فتأمّله ، والله أعلم .

قوله تعالى : فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

---

(١) آية ٢٤ سورة ص   (٢) تفطر : تتشقق.   (٣) الخشكار: ما خشن من الطحين (فارسية).
(٤) الدرمك : دقيق الحوارى . وهو الدقيق الأبيض .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾ أى فلما حكمنا على سليمان بالموت حتى صار كالأمر المفروغ منه ووقع به الموت ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ﴾ وذلك أنه كان متكئا على المِنْسأة (وهى العصاة بلسان الحبشة ، فى قول السُّدى . وقيل : هى بلغة اليمن ؛ ذكره القشيرى) فمات كذلك وبقى خافى الحال إلى أن سقط ميتا لانكسار العصا لأكل الأَرَضة إياها ، فعُلم موته بذلك ، فكانت الأَرَضة دالّة على موته ، أى سببا لظهور موته ، وكان سأل الله تعالى ألّا يعلموا بموته حتى تمضى عليه سنة . واختلفوا فى سبب سؤاله لذلك على قولين : أحدهما ما قاله قتادة وغيره ، قال : كانت الجن تدّعى علم الغيب ، فلما مات سليمان عليه السلام وخفى موته عليهم ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ . ابن مسعود : أقام حولا والجن تعمل بين يديه حتى أكلت الأَرَضة مِنْسأته فسقط . ويروى أنه لما سقط لم يعلم منذ مات ؛ فوُضعت الأَرَضة على العصا فأكلت منها يوما وليلة ثم حسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة . وقيل : كان رؤساء الجن سبعة ، وكانوا منقادين لسليمان عليه السلام ، وكان داود عليه السلام أسّس بيت المقدس فلما مات أوصى إلى سليمان فى إتمام مسجد بيت المقدس ، فأمر سليمان الجن به ؛ فلما دنا وفاته قال لأهله : لا تخبروهم بموتى حتى يتموا بناء المسجد ، وكان بقى لإتمامه سنة . وفى الخبر أن ملَك الموت كان صديقه فسأله عن آية موته فقال : أن تخرج من موضع سجودك شجرةٌ يقال لها الخَرُّوبة ، فلم يكن يوم يصبح فيه إلا تنبت فى بيت المقدس شجرة فيسألها : ما اسمك ؟ فتقول الشجرة : اسمى كذا وكذا ؛ فيقول : ولأى شىء أنت ؟ فتقول : لكذا ولكذا ؛ فيأمر بها فتقطع ، ويغرسها فى بستان له ، ويأمر بكتب منافعها ومضارّها واسمها وما تصلح له فى الطب ؛ فبينما هو يصلّى ذات يوم إذ رأى شجرة نبتت بين يديه فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخروبة ؛ قال : ولأى شىء أنت ؟ قالت : لخراب هذا المسجد ؛ فقال سليمان : ما كان الله ليخربه وأنا حىّ ، أنتِ التى على وجهك هلاكى وهلاك بيت المقدس ! فنزعها وغرسها فى حائطه ثم قال : اللهم عمّ عن الجن موتى حتى تعلم الإنس أن

الجن لا يعلمون الغيب . وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ، وأنهم يعلمون ما فى غد؛ ثم لبس كفنه وتحنّط ودخل المحراب وقام يصلى واتكأ على عصاه على كرسيّه، فمات ولم تعلم الجن إلى أن مضت سنة وتم بناء المسجد . قال أبو جعفر النحاس : وهذا أحسن ما قيل فى الآية ؛ ويدل على صحته الحديث المرفوع، روى إبراهيم بن طُهمان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كان نبيّ الله سليمان بن داود عليهما السلام إذا صلّى رأى شجرة نابتة بين يديه فيسألها ما اسمك ؟ فإن كانت لغرس غُرست وإن كانت لدواء كتبت ؛ فبينما هو يصلّى ذات يوم إذا شجرة نابتة بين يديه قال ما اسمك ؟ قالت الخرنوبة؛ فقال : لأى شىء أنت ؟ فقالت : لخراب هذا البيت ؛ فقال : اللّهُمّ عَمّ عن الجن موتى حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب؛ فنحتها عصًا فتوكأ عليها حولا لا يعلمون فسقطت، فعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب فنظروا مقدار ذلك فوجدوه سنة . وفى قراءة ابن مسعود وابن عباس « تَبَيَّنَتِ الإِنْسُ أَنْ لَوْ كَانَ الْجِنُّ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ » . وقرأ يعقوب فى رواية رُوَيْس « تُبُيِّنَتِ الْجِنُّ » غير مسمى الفاعل . ونافع وأبو عمرو « تأكل مِنْساتَه » بألف بين السين والتاء من غير همز . والباقون بهمزة مفتوحة موضع الألف ، لغتان ؛ إلا أن ابن ذَكْوان أسكن الهمزة تخفيفا؛ قال الشاعر فى ترك الهمزة :

إذا دَبَبْتَ على المِنْساة من كِبَرٍ * فقد تباعد عنك اللّهْوُ والغَزَلُ

وقال آخر فهمَز وفتح :

ضربنا بمِنْسأَة وجهه * فصار بذاك مهينا ذليلا

وقال آخر :

أمن أجل حَبْل لا أباك ضربتَه * بمنسأة قد جرّ حبلُك أَحْبُلَا

وقال آخر فسكن همزها :

وقائم قد قام من تُكَأَتِهْ * كقومة الشيخ إلى مِنْسَأْتِهْ

وأصلها من : نسأت الغنم أى زجرتها وسقتها ؛ فسمّيت العصا بذلك لأنه يزجر بها الشيء ويساق . وقال طَرَفة :

أمُونٍ كألواح الإران نَسَأتها * على لاحِبٍ كأنه ظَهْرُ بُرْجُدِ (١)

قال النحاس : واشتقاقها يدل على أنها مهموزة ؛ لأنها مشتقة من نسأته أى أخرته ودفعته فقيل لها مِنْسَأة لأنها يدفع بها الشيء ويؤخر . وقال مجاهد وعكرمة : هى العصا ، ثم قرأ « منساته » أبدل من الهمزة ألفا ؛ فإن قيل : البدل من الهمزة قبيح جدا وإنما يجوز فى الشعر على بُعْد وشذوذ ، وأبو عمرو بن العلاء لا يغيب عنه مثل هذا لا سيما وأهل المدينة على هذه القراءة ؛ فالجواب على هذا أن العرب استعملت فى هذه الكلمة البدل ونطقوا بها هكذا كما يقع البدل فى غير هذا ولا يقاس عليه حتى قال أبو عمرو : ولست أدرى ممن هو إلا أنها غير مهموزة لأن ما كان مهموزا فقد يترك همزه وما لم يكن مهموزا لم يجز همزه بوجه . المهدوِىّ : ومن قرأ بهمزة ساكنة فهو شاذّ بعيد ؛ لأن هاءِ التأنيث لا يكون ما قبلها إلا متحركا أو ألفا ، لكنه يجوز أن يكون ماسكن من المفتوح استخفافا ، ويجوز أن يكون لما أبدل الهمزة ألفا على غير قياس قلب الألف همزة كما قلبوها فى قولهم العألم والخأتم ، وروى عن سعيد بن جُبير « مِن » مفصولة « سأتِه » مهموزة مكسورة التاء ؛ فقيل : إنه من سئة القوس فى لغة من همزها ؛ وقد روى همزِ سِيَةَ القوس عن رُؤبة . قال الجوهرى : سية القوس ما عطف من طرفيها ، والجمع سِيَات ، والهاء عوض من الواو ، والنسبة إليها سِيَوِىّ . قال أبو عبيدة : كان رؤبة يهمز « سية القوس » وسائر العرب لا يهمزونها . وفى دابة الأرض قولان : أحدهما — أنها الأَرَضة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقد قرئ « دابة الأَرَض » بفتح الراء ، وهو جمع الأَرَضة (٢) ؛ ذكره الماوردى ، الثانى — أنها دابة تأكل العيدان . قال الجوهرى : والأَرَضة (بالتحريك) : دُوَيّبة تأكل الخشب ؛ يقال : أُرِضت الخشبة تُؤرض أرْضا (بالتسكين) فهى مأروضة إذا أكلتها .

(١) الأمون : التى يؤمن عثارها . والإران : تابوت الموتى . واللاحب : الطريق الواضح . والبرجد : كساء مخطط . وقد ورد بعد هذا البيت فى بعض نسخ الأصل : « فسكن همزها » وهو غير ظاهر . (٢) فى نسخ الأصل : « وهو واحد » .

قوله تعـالى ﴿ فَلَمَّـا خَرَّ ﴾ أى سـقط ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ ﴾ قال الزجاج : أى تبينت الجن موته . وقال غيره : المعنى تبين أمر الجن ؛ مثـل : واسأل القرية . وفى التفسير بالأسانيد الصحاح عن ابن عباس قال : أقام سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام حولا لا يُعلم بموته وهو متكئ على عصاه، والجن منصرفة فيما كان أمَرَها به، ثم سقط بعد حول ؛ فلما خَرَّ تبيّنت الإنس أن لو كان الجن يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين. وهذه القراءة من ابن عباس على جهـة التفسير . وفى الخبر : أن الجن شكرت ذلك للأَرَضة فأينما كانت يأتونها بالماء . قال السُّدِّى : والطين، ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب فإنه مما يأتيها[1] به الشياطين شـكرا ؛ وقالت : لو كنت تأكلين الطعام والشراب لأتيناك بهما . و « أنْ » فى موضـع رفع على البدل من الجن، والتقدير : تبين أمر الجن، فحذف المضاف، أى تبين وظهر للإنس وانكشف لهم أمر الجن أنهم لا يعلمون الغيب . وهـذا بدل الاشتمال . ويجوز أن تكون فى موضـع نصب على تقدير حذف اللام . و « لَبِثُـوا » أقاموا . و « العـذاب المُهِين » السُّخرة والحمل والبنيان وغير ذلك . وعمّر سليمان ثلاثا وخمسين سـنة ، ومدّة ملكه أربعون سنة ؛ فملك وهو ٱبن ثلاث عشرة سـنة ، وابتدأ فى بنيان بيت المقدس وهو ٱبن سبع عشرة سنة . وقال السُّـدِّى وغيره : كان عمر سليمان سبعا وستين سنة ، وملك وهو ٱبن سبع عشرة سنة . وٱبتدأ فى بنيان بيت المقدس وهو ٱبن عشرين سـنة ، وكان ملكه خمسين سـنة .

وحكى أن سليمان عليه السلام ٱبتدأ بنيان بيت المقدس فى السنة الرابعة من ملكه، وقرّب بعد فراغه منه ٱثنى عشر ألف ثور ومائة وعشرين ألف شاة، واتخذ اليوم الذى فرغ فيه من بنائه عيدا ، وقام على الصخرة رافعا يديه إلى الله تعالى بالدعاء فقال : اللّهُمّ أنت وهبت لى هـذا السلطان وقوّيتنى على بناء هذا المسجد ، اللّهُمّ فأوزعنى شكرك على ما أنعمت علىّ وتوفّنى على مِلّتك ولا تُزغ قلبى بعد إذ هديتنى، اللّهُمّ إنى أسألك لمن دخل هذا المسجد خمس خصال : لا يدخله مذنب دخل للتـوبة إلا غفرتَ له وتبت عليه . ولا خائفٌ إلا أمّنته . ولا سقيمٌ

---

(١) فى الأصل : « فانها مما يأتيها بها » .

إلا شفيته . ولا فقير إلا أغنيته . والخامس - ألا تصرف نظرك عمن دخله حتى يخرج منه؛ إلا من أراد إلحادًا أو ظلما ، يارب العالمين؛ ذكره الماوردى .

قلت : وهذا أصح مما تقدّم أنه لم يفرغ بناؤه إلا بعد موته بسنة، والدليل على صحة هذا ماخرّجه النسائى وغيره بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم "أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلالا ثلاثة : حكما يصادف حكمه فأوتيه وسأل الله تعالى ملكا لا ينبغى لأحد من بعده فأوتيه وسأل الله تعالى حين فرغ من بنائه المسجد ألا يأتيه أحد لا يَنْهَزه[1] إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه" وقد ذكرنا هذا الحديث فى «آل عمران[2]» وذكرنا بناءه فى «سبحان[3]» .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسَاكِنِهِمْ[4] آيَةٌ ﴾ قرأ نافع وغيره بالصرف والتنوين على أنه اسم حىّ ، وهو فى الأصل اسم رجل؛ جاء بذلك التوقيف عن النبى صلى الله عليه وسلم . روى الترمذى قال : حدّثنا أبو كُرَيب وعبد بن حُميد قالا حدّثنا أبو أسامة عن الحسن بن الحكم النّخعى قال حدّثنا أبو سَبْرة النخعى عن فَروة بن مُسيك المرادى قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله، ألا أقاتل من أدبر من قومى بمن أقبل منهم؛ فأذِن لى فى قتالهم وأمرنى ، فلما خرجت من عنده سأل عنى : "مافعل الغُطَيفى[5]" ؟ فأخبِر أنى قد سِرْت، قال : فأرسل فى أثرى فردّنى فأتيته وهو فى نفر من أصحابه فقال : "أُدع القوم فمن أسلم منهم فاقبل منه ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك ؛ قال : وأنزل فى سبأ ما أنزل؛ فقال رجل: يارسول الله، وما سبأ؟ أرضٌ أو امرأة؟ قال : ليس بأرض ولا بامرأة

---

(١) أى لا يحركه . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٣٧ (٣) راجع جـ ١٠ ص ٢١١

(٤) « فى مساكنهم » قراءة نافع وبها كان يقرأ المؤلف رحمة الله عليه . (٥) فى الأصول والترمذى : « القطيفى » بالقاف بدل الغين وهو تحريف .

ولكنه رجل وَلد عشرة من العرب فتيامَن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة فأما الذين تشاءموا فلخم وجُذام وغَسّان وعاملة وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وحِمْير وكِنْدة ومَذْحِج وأنمار. فقال رجل: يارسول الله وما أنمار؟ قال: "الذين منهم خَثْعم وبَجِيلة". وروى هذا عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «لِسَبَأَ» بغير صرف، جعله اسما للقبيلة، وهو اختيار أبي عبيد، واستدل على أنه اسم قبيلة أن بعده «في مساكنهم». النحاس: ولو كان كما قال لكان في مساكنها. وقد مضى في «النمل»(١) زيادة بيان لهذا المعنى. وقال الشاعر في الصرف:

الواردون وتَيْمٌ في ذُرا سبأ * قد عضّ أعناقهم جِلدُ الجواميس

وقال آخر في غير الصرف:

من سَبَأَ الحاضرين مأرِبَ إذ * يَبْنُون من دون سَيْلها العَرِما

وقرأ قُنبُل وأبو حَيْوَة والجَحْدَرِيّ «لسبأ» بإسكان الهمزة. «فِي مَسَاكِنِهِمْ» قراءة العامة على الجمع، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ لأن لهم مساكن كثيرة وليس بمسكن واحد. وقرأ إبراهيم وحمزة وحفص «مسكنِهم» موحّدا؛ إلا أنهم فتحوا الكاف. وقرأ يحيى والأعمش والكسائيّ موحّدا كذلك؛ إلا أنهم كسروا الكاف. قال النحاس: ومساكن في هذا أبين؛ لأنه يجمع اللفظ والمعنى، فإذا قلت «مسكنهم» كان فيه تقديران: أحدهما ـ أن يكون واحدا يؤدي عن الجمع. والآخر ـ أن يكون مصدرا لا يثنى ولا يجمع؛ كما قال الله تعالى: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ»(٢) فجاء بالسمع موحّدا. وكذا «مَقْعَدِ صِدْقٍ»(٣) و«مَسْكِن» مثل مسجد، خارج عن القياس، ولا يوجد مثله إلا سماعا. ﴿آيَةٌ﴾ اسم كان؛ أي علامة دالة على قدرة الله تعالى على أن لهم خالقا خلقهم، وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يُخرجوا من الخشبة ثمرة لم يمكنهم ذلك، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها، وفي ذلك ما يدل على أنها لا تكون إلا من عالم قادر. ﴿جَنَّتَانِ﴾ يجوز

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٨١　(٢) آية ٧ سورة البقرة.　(٣) آية ٥٥ سورة القمر.

أن يكون بدلا من « آية » ، ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف ، فيوقف على هـذا الوجه على «آية» وليس بتمام . قال الزجاج : أى الآية جنتان ، بجنتان رفع لأنه خبر ابتداء محذوف . وقال الفراء : رفع تفسيرا للآية ، ويجوز أن تنصب « آية » على أنها خبر كان ، ويجوز أن تنصب الجنتين على الخبر أيضا فى غير القرآن . وقال عبـد الرحمن بن زيد : إن الآية التى كانت لأهل سبأ فى مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة قطّ ولا ذبابا ولا بُرغوثا ولا قملة ولا عقربا ولا حية ولا غيرها من الهوام ، وإذا جاءهم الركب فى ثيابهم القمل والدواب فإذا نظروا إلى بيوتهم ماتت الدواب . وقيـل : إن الآية هى الجنتان كانت المـرأة تمشى فيهما وعلى رأسها مِكْتَل[1] فيمتلئ من أنواع الفواكه من غير أن تمسّها بيـدها ؛ قاله قتادة . وروى أن الجنّتين كانتا بين جبلين باليمن . قال سفيان : وجد فيهما قصران مكتوب على أحدهمـا نحن بنينا سَلْحِين فى سبعين خريفا دائبين ، وعلى الآخر مكتوب : نحن بنينا صِرْواح ، مقَيل ومَراح ؛ فكانت إحدى الجنتين عن يمين الوادى والأخرى عن شماله . قال القشيرى : ولم يرد جنتين اثنتين بل أراد من الجنتين يَمنة ويَسرة ؛ أى كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار ؛ تستر النـاس بظلالها . ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ أى قيـل لهم كلوا ، ولم يكن ثَمّ أمر ، ولكنهم تمكّنوا من تلك النعم . وقيل : أى قالت الرسل لهم قد أباح الله تعالى لكم ذلك ؛ أى أباح لكم هذه النعم فاشكروه بالطاعة . ﴿ مِن رِزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ أى من ثمار الجنتين . ﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ يعنى على ما رزقكم . ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ هـذا كلام مستأنف ؛ أى هـذه بلدة طيّبة أى كثيرة الثمار . وقيل : غير سبخة . وقيل : طيّبة ليس فيها هوامّ لطيب هوائها . قال مجاهد : هى صنعاء . ﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ أى والمنعم بها عليكم ربّ غفور يسـتر ذنوبكم ؛ فجمع لهم بين مغفرة ذنوبهم وطيب بلدهم ولم يجمع ذلك لجميع خلقه . وقيـل : إنما ذكر المغفرة مشيرا إلى أن الرزق قـد يكون فيه حرام . وقد مضى القول فى هذا فى أوّل «البقرة»[2] . وقيل : إنما امتنّ عليهم بعفوه عن عذاب الاستئصال بتكذيب من كذبوه من سالف الأنبياء إلى أن استداموا الإصرار فآستؤصلوا .

---

(١) المكتل : شبه الزنبيل . (٢) راجع جـ ١ ص ١٧٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى : ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ يعنى عن أمره واتباع رسله بعد أن كانوا مسلمين . قال السّدّى ووهب : بعث إلى أهل سبأ ثلاثة عشر نبيا فكذّبوهم . قال القُشيرِى : وكان لهم رئيس يلقّب بالحمار، وكانوا فى زمن الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم . وقيل : كان له ولد فمات فرفع رأسه إلى السماء فبزق وكفر ؛ ولهذا يقال : أكفر من حمار . وقال الجوهرى : وقولهم « أكفر من حمار » هو رجل من عاد مات له أولاد فكفر كفرا عظيما فلا يمرّ بأرضه أحد إلا دعاه إلى الكفر، فإن أجابه وإلا قتله . ثم لما سال السيل بجنتيهم تفرّقوا فى البلاد ؛ على ما يأتى بيانه . ولهذا قيل فى المثل : « تفرّقوا أيادى سبأ » . وقيل : الأوس والخزرج منهم . ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ والعَرِم فيما روى عن ابن عباس : السّدّ ؛ فالتقدير : سَيْل السد العرِم . وقال عطاء : العرم اسم الوادى . قتادة : العرم وادى سبأ ؛ كانت تجتمع إليه مسايل من الأودية ، قيل من البحر وأودية اليمن ؛ فردموا ردما بين جبلين وجعلوا فى ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، فكانوا يسقون من الأعلى ثم من الثانى ثم من الثالث على قدر حاجاتهم ؛ فأخصبوا وكثرت أموالهم ، فلما كذّبوا الرسل سلّط الله عليهم الفأر فنقب الردم . قال وهب : كانوا يزعمون أنهم يجدون فى علمهم وكهانتهم أنه يخرّب سدّهم فأرة فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا إلى جانبها هرّة ؛ فلما جاء ما أراد الله تعالى بهم أقبلت فأرة حمراء إلى بعض تلك الهرر فساورتها حتى استأخرت عن الصخرة ثم وثبت ودخلت فى الفرجة التى كانت عندها ونقبت السّدّ حتى أوهنته للسيل وهم لا يدرون ؛ فلما جاء السيل دخل تلك الخلل حتى بلغ السد وفاض الماء على أموالهم فغرّقها ودفن بيوتهم . وقال الزجاج : العَرِم اسم الجُرَذ الذى نقب السِّكْر عليهم ، وهو الذى يقال له الخُلْد — وقاله قتادة أيضا — فنسب السيل إليه لأنه بسببه . وقد قال ابن الأعرابىّ أيضا : العَرِم من

أسماء الفأر . وقال مجاهد وابن أبي نجيح : العَرِم ماء أحمر أرسله الله تعالى فى السد فشقه وهدمه . وعن ابن عباس أيضا أن العرم المطر الشديد . وقيل العَرْم بسكون الراء . وعن الضحاك كانوا فى الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام . وقال عمرو بن شُرحبيل : العرم المُسَنَّاة ؛ وقاله الجوهرىّ ، قال : ولا واحد لها من لفظها ، ويقال واحدها عَرِمة . وقال محمد بن يزيد : العرم كل شيء حاجز بين شيئين ، وهو الذى يسمى السِّكْر ، وهو جمع عرمة . النحاس : وما يجتمع من مطر بين جبلين وفى وجهه مُسَنّاة فهو العرم ، والمسناة هى التى يسميها أهل مصر الجسر[1] ؛ فكانوا يفتحونها إذا شاءوا فإذا رَويت جنتاهم سدّوها . قال الهَرَوِىّ : المسنّاة الضفيرة تبنى للسيل تردّه ؛ سُمّيت مسناة لأن فيها مفاتح الماء . وروى أن العرم سدّ بنته بِلْقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام ، وهو المسناة بلغة حِمير ، بنته بالصخر والقار ، وجعلت له أبوابا ثلاثة بعضها فوق بعض ؛ وهو مشتق من العَرامة وهى الشدّة ؛ ومنه : رجل عارم ، أى شديد ، وعَرَمت العظم أعْرِمه وأعْرُمه عَرْما إذا عَرَقته ، وكذلك عَرَمت الإبل الشجرَ أى نالت منه . والعُرام بالضم : العراق من العظم والشجر . وتعرّمت العظم تعرّقته . وصبىّ عارم بيّن العُرام (بالضم) أى شَرِس . وقد عرم يعرم ويعرم عرامة (بالفتح) . والعَرِم العارم ؛ عن الجوهرىّ .

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ وقرأ أبو عمرو (أُكُلِ خَمْطٍ) بغير تنوين مضافا . قال أهل التفسير والخليل : الخمط الأراك . الجوهرى : الخمط ضرب من الأراك له حمل يؤكل . وقال أبو عبيدة : هو كل شجر ذى شوك فيه مرارة . الزجاج : كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله . المبرّد : الخمط كل ما تغيّر إلى ما لا يشتهى . واللبن خَمْط إذا حَمُض . والأوْلى عنده فى القراءة « ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ » بالتنوين على أنه نعت لـ « أُكُل » أو بدل منه ؛ لأن الأكل هو الخمط بعينه عنده ، فأما الإضافة فباب جوازها أن يكون

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : « الحبس » ، والحبس (بكسر الحاء) : حجارة أو خشب تبنى فى مجرى الماء لتحبسه كى يشرب القوم ويسقوا أموالهم ، والجمع أحباس .

تقديرها ذواتى أكل حموضة أو أكل مرارة . وقال الأخفش : والإضافة أحسن فى كلام العرب؛ نحو قولهم : ثوبُ خَزٍّ . والخمط : اللبن الحامض. وذكر أبو عبيد أن اللبن إذا ذهب عنه حلاوة الحَلَب ولم يتغير طعمه فهو سامط، وإن أخذ شيئا من الريح فهو خامط وخميط، فإن أخذ شيئا من طعمٍ فهو مُمَحَّل، فإذا كان فيـه طعم الحلاوة فهو فُوهة[1] . وتخمّط الفحل : هَـدَر . وتخمّط فلان أى غضب وتكبّر . وتخمّط البحر أى التطم . وخَمَطت الشاة أخمِطها خَمْطًا، إذا نزعت جلدها وشويتها فهى [خميط، فإن نزعت شعرها وشويتها فهى][2] سَميط . والخَمْطة : الخمر التى قـد أخذت رِيح الإدراك كرِيح التفاح ولم تُدْرِك بعـدُ . ويقال هى الحامضة؛ قاله الجوهرىّ . وقال القُتَبىّ فى أدب الـكاتب : يقال للحامضة خمطة، ويقال : الخمطة التى قد أخذت شيئا من الرِيح؛ وأنشد :

عُقـارٌ كماء النِّىءِ ليست بخمطـة * ولا خَلّةٍ يَكْوِى الشُّروبَ شِهابُها[3]

﴿ وَأَثْلٍ ﴾ قال الفرّاء: هو شبيه بالطرْفاء إلا أنه أعظم منه طولا؛ ومنه اتخذ مِنبر النبىّ صلى الله عليه وسـلم، وللأثل أصول غليظة يتخذ منه الأبواب، وورقه كورق الطرفاء، الواحدة أثلة والجمع أثَلات . وقال الحسن : الأثل الخشب. قتادة : هو ضرب من الخشب يشبه الطرْفاء رأيته بفَيْد . وقيل هو السَّمُر . وقال أبو عبيدة : هـو شجر النُّضار . [النضار : الذهب . والنضار : خشب يعمل منـه قصاع؛ ومنـه : قدح نضار][4] . ﴿ وَشَىْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ قال الفرّاء : هو السَّـمُر؛ ذكره النحاس . وقال الأزهرى : السِّدْر من الشجر سِدْران : بَرِّىّ لاينتفع به ولا يصلح ورقه للغَسُول وله ثمر عَفِص لا يؤكل، وهو الذى يسمى الضّال. والثانى ـــ سِدْر ينبت على المـاء وثمره النَّبق وورقه غَسول يشبه شجر العُنّاب . قال قتادة : بينما شجر القوم من خير شجر إذ صيرّه الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم، فأهلك أشجارهم المثمرة

(١) فى المخصص لابن سـيده : « ... فهو فوهة صاحب العين : فوهة بالفاء » . وفى كتب اللغـة « القوهة بالضم » : اللبن تغير قليلا وفيه حلاوة . والفوهة (كقبرة) : اللبن فيه طعم الحلاوة . (٢) ما بين المربعين ساقط فى نسخ الأصل . وهو من كتب اللغة . (٣) الخلة : التى جاوزت القدر فخرجت من حال الخمر إلى حال الحموضة والخل . والشروب : الندامى . يقول : هى فى لون اللحم النيء . (٤) ما بين المربعين ساقط فى بعض نسخ الأصـــل .

وأنبت بدلها الأراك والطرفاء والسدر . القشيري : وأشجار البوادي لا تسمى جنة وبستانا ولكن لما وقعت الثانية في مقابلة الأولى أطلق لفظ الجنة ؛ وهو كقوله تعالى : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا »(١) . ويحتمل أن يرجع قوله « قَلِيلٍ » إلى جملة ما ذكر من الخمط والأثل والسدر .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾ أي هذا التبديل جزاء كفرهم . وموضع «ذلك» نصب ؛ أي جزيناهم ذلك بكفرهم . ﴿وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورُ﴾ قراءة العامة « يُجَازَى » بياء مضمومة وزاى مفتوحة ، « الكَفُورُ » رفعا على ما لم يسم فاعله . وقرأ يعقوب وحفص وحمزة والكسائي : «نُجَازِي» بالنون وكسر الزاى ، « الكَفُورَ » بالنصب ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، قالا : لأن قبله « جَزَيْنَاهُمْ » ولم يقل جُوزوا . النحاس : والأمر في هذا واسع ، والمعنى فيه بيّن ، ولو قال قائل : خلق الله تعالى آدم صلى الله عليه وسلم من طين ، وقال آخر : خُلق آدم من طين ، لكان المعنى واحدا .

مسألة — في هذه الآية سؤال ليس في هذه السورة أشد منه ، وهو أن يقال : لم خص الله تعالى المجازاة بالكفور ولم يذكر أصحاب المعاصي ؟ فتكلم العلماء في هذا ؛ فقال قوم : ليس يُجازَى بهذا الجزاء الذي هو الاصطلام(٢) والإهلاك إلا من كفر . وقال مجاهد : يجازى بمعنى يعاقب ؛ وذلك أن المؤمن يكفّر الله تعالى عنه سيئاته ، والكافر يجازَى بكل سوء عمله ؛ فالمؤمن يُجْزى ولا يُجازَى لأنه يثاب(٣) . وقال طاوس : هو المناقشة في الحساب ، وأما المؤمن فلا يناقش الحساب . وقال قُطْرُب : خلاف هذا ؛ فجعلها في أهل المعاصي غير الكفار ، وقال : المعنى على من كفر بالنعم وعمل بالكبائر . النحاس : وأولى ما قيل في هذه الآية وأجلّ ما روى فيها أن الحسن قال مِثْلا بمثل . وعن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) آية ٤٠ سورة الشورى . (٢) الاصطلام : الاستئصال . (٣) في نسخ الأصل : «لا يثاب» .

يقول : "من حوسب هلك" فقلت : يا نبيّ الله ، فأين قوله جلّ وعزّ « فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا » ؟ قال : "إنما ذلك العرض ومن نوقش الحساب هلك" . وهذا إسناد صحيح ، وشرحه : أن الكافر يكافأ على أعماله ويحاسب عليها ويحبط ما عمِل من خير ؛ ويبيّن هذا قوله تعالى فى الأول « ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا » وفى الثانى « وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورُ » ومعنى « يُجازَى » يكافأ بكل عمَل عمِله ، ومعنى « جزيناهم » وفيناهم ؛ فهذا حقيقة اللغة ، وإن كان «جازى» يقع بمعنى «جزى» مجازا .

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ قال الحسن : يعنى بين اليمن والشأم . والقُرَى التى بورك فيها : الشام والأُرْدُن وفِلَسْطين . والبركة : قيل إنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية ، بورك فيها بالشجر والثمر والماء . ويحتمل أن يكون « بَارَكْنَا فِيهَا » بكثرة العدد . ﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ قال ابن عباس : يريد بين المدينة والشام . وقال قتادة : معنى « ظاهرة » متصلة على الطريق ، يغدون فيَقيلون فى قرية ويروحون فيبيتون فى قرية . وقيل : كان على كل مِيل قريةٌ بسوق ، وهو سبب أمن الطريق . قال الحسن : كانت المرأة تخرج معها مغزلها وعلى رأسها مِكْتَلُها ثم تلتهى بمغزلها فلا تأتى بيتها حتى يمتلئ مِكْتَلها من كل الثمار ؛ فكان ما بين الشام واليمن كذلك . وقيل «ظاهرةً» أى مرتفعة ؛ قاله المبرّد . وقيل : إنما قيل لها « ظاهرة » لظهورها ؛ أى إذا خرجْتَ من هذه ظهرت لك الأخرى ؛ فكانت قرى ظاهرة أى معروفة ؛ يقال : هذا أمر ظاهر أى معروف . ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ أى جعلنا السير بين قراهم وبين القرى التى باركنا فيها سَيْرًا مقدّرا من منزل إلى منزل ، ومن قرية إلى قرية ؛ أى جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيل فى قرية والمبيت فى قرية أخرى . وإنما يبالغ الإنسان فى السير لعدم الزاد والماء

ولخوف الطريق، فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل على نفسه المشقة ونزل أينما أراد . ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ أى وقلنا لهم سيروا فيها ، أى فى هذه المسافة فهو أمر تمكين ؛ أى كانوا يسيرون فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا آمنين ؛ فهو أمر بمعنى الخبر، وفيه إضمار القول . ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ ظرفان ﴿آمِنِينَ﴾ نصب على الحال. وقال «ليالى وأياما» بلفظ النكرة تنبيها على قصر أسفارهم؛ أى كانوا لا يحتاجون إلى طول السفر لوجود ما يحتاجون إليه . قال قتادة : كانوا يسيرون غير خائفين ولا جياع ولا ظِماء ، وكانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر فى أمان لا يحرك بعضهم بعضا، ولو لقى الرجلُ قاتلَ أبيه لا يحركه .

قوله تعالى : فَقَالُوا رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ لما بطِروا وطغَوْا وسئموا الراحة ولم يصبروا على العافية تمنوْا طول الأسفار والكَدْح فى المعيشة ؛ كقول بنى إسرائيل « فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا » الآية[(١)] . وكالنضر بن الحارث حين قال « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ[(٢)] » فأجابه الله تبارك وتعالى ، وقُتل يوم بدر بالسيف صَبْرا[(٣)]؛ فكذلك هؤلاء تبدّدوا فى الدنيا ومُزّقوا كل ممزّق ، وجُعل بينهم وبين الشام فلوات ومفاوز يركبون فيها الرواحل و يتزودون الأزواد . وقراءة العامة « رَبَّنَا » بالنصب على أنه نداء مضاف ، وهو منصوب لأنه مفعول به ؛ لأن معناه : ناديْتُ ودعوْتُ. «بَاعِدْ» سألوا المباعدة فى أسفارهم . وقرأ ابن كَثير وأبو عمرو وابن مُحَيْصِن وهشام عن ابن عامر « ربَّنا » كذلك على الدعاء « بعِّد » من التبعيد . النحاس : و باعد و بعّد واحد فى المعنى؛ كما تقـول : قارب وقرّب . وقرأ أبو صالح ومحمـد بن الحنفية وأبو العاليـة ونصر بن عاصم

(١) آية ٦١ سورة البقرة . (٢) آية ٣٢ سورة الأنفال . (٣) يقال للرجل إذا شدت يداه ورجلاه أو أمسكه رجل آخر حتى يضرب عنقه أو حبس على القتل حتى يقتل : قتل صبرا .

ويعقوب ويروى عن ابن عباس «رَبُّنَا» رفعًا «باعَدَ» بفتح العين والدال على الخبر، تقديره : لقد باعد ربّنا بين أسفارنا ؛ كأن الله تعالى يقول قرّبْنا لهم أسفارهم فقالوا أَشَرًا وبَطَرًا لقد بُوعدت علينا أسفارنا . واختار هذه القراءة أبو حاتم قال : لأنهم ما طلبوا التبعيد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب بَطَرًا وعجبا مع كفرهم . وقراءة يحيى بن يعمر وعيسى بن عمر وتروى عن ابن عباس « ربنا بعّد بين أسفارنا » بشدّ العين من غير ألف ، وفسرها ابن عباس قال : شكَوْا أن ربهم باعد بين أسفارهم . وقراءة سعيد بن أبي الحسن أخي الحسن البصري « ربّنا بَعَدَ بَيْنُ أسفارنا » . « ربّنا » نداء مضاف ، ثم أخبروا بعد ذلك فقالوا : « بَعُدَ بينُ أسفارنا » ورفع «بين» بالفعل؛ أي بعدما يتصل بأسفارنا . وروى الفراء وأبو إسحاق قراءة سادسة مثل التي قبلها في ضم العين إلا أنك تنصب «بين» على أنه ظرف، وتقديره في العربية: بعد سيرنا بين أسفارنا . النحاس : وهذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجز أن يقال أحدها أجود من الأخرى؛ كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها ، ولكن خبّر عنهم أنهم دعَوْا ربهم أن يبعد بين أسفارهم بَطَرا وأَشَرا ، وخبّر عنهم أنهم لما فعل ذلك بهم خبروا به وشكَوْا ، كما قال ابن عباس . ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي بكفرهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي يُتحدّث بأخبارهم؛ وتقديره في العربية : ذوي أحاديث . ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي لما لحقهم ما لحقهم تفرقوا وتمزقوا . قال الشعبي: فلحقت الأنصار بيَثْرِب وغسّان بالشام، والأَسْد بعُمَان ، وخزاعة بتهامة؛ وكانت العرب تضرب بهم المثل فتقول : تفرقوا أيدي سبا وأيادي سبأ ؛ أي مذاهب سبأ وطرقها . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ الصبار الذي يصبر عن المعاصي؛ وهو تكثير صابر يمدح بهذا الاسم. فإن أردت أنه صَبَرَ عن المعصية لم يستعمل فيه إلا صبار عن كذا . ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمه؛ وقد مضى هذا المعنى في « البقرة »[1] .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧١ و ٣٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ فيه أربع قراءات : قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر ويروى عن مجاهد « وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ » بالتخفيف « إبليسُ » بالرفع « ظَنَّهُ » بالنصب ؛ أى فى ظنه . قال الزجاج : وهو على المصدر ؛ أى صدق عليهم ظنا ظنه إذ صدق فى ظنه ؛ فنصب على المصدر أو على الظرف . وقال أبو علىّ : « ظَنَّه » نصب لأنه مفعول به ؛ أى صدق الظن الذى ظنه إذ قال : « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ » وقال : « لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » ؛ ويجوز تعدية الصدق إلى المفعول به ، ويقال : صدق الحديثَ ، أى فى الحديث . وقرأ ابن عباس ويحيى بن وثّاب والأعمش وعاصم وحمزة والكسائىّ « صدّق » بالتشديد « ظنَّه » بالنصب بوقوع الفعل عليه . قال مجاهد : ظن ظنا فكان كما ظن فصدق ظنه . وقرأ جعفر بن محمد وأبو الهجهاج[1] « صدَق عليهم » بالتخفيف « إبليسَ » بالنصب « ظنُّه » بالرفع . قال أبو حاتم : لا وجه لهذه القراءة عندى ، والله تعالى أعلم . وقد أجاز هذه القراءة الفرّاء وذكرها الزجاج وجعل الظن فاعل « صدق » « إبليسَ » مفعول به ؛ والمعنى : أن إبليس سوّل له ظنه فيهم شيئا فصدق ظنه ؛ فكأنه قال : ولقد صدّق عليهم ظن إبليسَ و « على » متعلقة بـ « صدق » ؛ كما تقول : صدقت عليك فيما ظننته بك ، ولا تتعلق بالظن لاستحالة تقدم شىء من الصلة على الموصول . والقراءة الرابعة « وَلَقَدْ صدَق عليهم إبليسُ ظنُّه » برفع إبليس والظن ، مع التخفيف فى « صدق » على أن يكون ظنه بدلا من إبليس وهو بدل الاشتمال . ثم قيل : هذا فى أهل سبأ ؛ أى كفروا وغيّروا وبدّلوا بعد أن كانوا مسلمين إلا قوما منهم آمنوا برسلهم . وقيل : هذا عام ؛ أى صدق إبليس ظنه على الناس كلهم إلا من أطاع الله تعالى ؛ قاله مجاهد . وقال الحسن : لما أهبط آدم عليه السلام من الجنة ومعه حوّاء وهبط إبليس قال إبليس : أمّا إذ أصبتُ من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف ! فكان ذلك ظنا من إبليس ؛ فأنزل الله تعالى : « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه » . وقال ابن عباس : إن إبليس قال : خُلقت من نار وخلق آدم من طين

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل وكتاب إعراب القرآن للنحاس . وفى البعض الآخر : « أبو الهياج » . وفى روح المعانى والبحر المحيط : « أبو الجهجاه » .

والنار تحرق كل شيء « لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا » فصدق ظنه عليهم. وقال زيد بن أسلم : إن إبليس قال يا رب أرأيت هؤلاء الذين كرمتهم وشرّفتهم وفضلتهم عليّ لا تجد أكثرهم شاكرين؛ ظنا منه فصدق عليهم إبليس ظنه . وقال الكلبي : إنه ظن أنه إن أغواهم أجابوه وإن أضلهم أطاعوه؛ فصدق ظنه . ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ قال الحسن : ما ضربهم بسوط ولا بعصا وإنما ظن ظنا فكان كما ظن بوسوسته. ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ نصب على الاستثناء؛ وفيه قولان : أحدهما أنه يراد به بعض المؤمنين، لأن كثيرا من المؤمنين من يذنب وينقاد لإبليس فى بعض المعاصى؛ أى ماسلم من المؤمنين أيضا إلا فريق وهو المعنىّ بقوله تعالى: « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » . فأما ابن عباس فعنه أنه قال : هم المؤمنون كلهم ؛ فـ« مِن » على هذا للتبيين لا للتبعيض ؛ فإن قيل كيف علم إبليس صدق ظنه وهو لا يعلم الغيب ؟ قيل له : لما نفذ له فى آدم ما نفذ غلب على ظنه أنه ينفذ له مثل ذلك فى ذريته ، وقد وقع له تحقيق ما ظن. وجواب آخر وهو ما أجيب من قوله تعالى: « وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ »[1] فأعطى القوة والاستطاعة ، فظن أنه يملكهم كلهم بذلك، فلما رأى أنه تاب على آدم وأنه سيكون له نسل يتبعونه إلى الجنة وقال « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » علم أن له تبعا ولآدم تبعا، فظن أن تبعه أكثر من تبع آدم؛ لما وُضع فى يديه من سلطان الشهوات، ووضعت الشهوات فى أجواف الآدميين ، نخرج على ما ظن حيث نفخ فيهم وزيّن فى أعينهم تلك الشهوات، ومدّهم إليها بالأمانى والخدائع، فصدق عليهم الظن الذى ظنه ، والله أعلم .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أى لم يقهرهم إبليس على الكفر، وإنما كان منه الدعاء والتزيين. والسلطان: القوّة . وقيل الحجة؛ أى لم تكن له حجة يستتبعهم

(١) آية ٦٤ سورة الإسراء .

بها، وإنما اتبعوه بشهوة وتقليد وهوى نفس؛ لا عن حجة ودليل. ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ﴾ يريد علم الشهادة الذى يقع به الثواب والعقاب، فأما الغيب فقد علمه تبارك وتعالى. ومذهب الفرّاء أن يكون المعنى: إلا لنعلم ذلك عندكم؛ كما قال: «أين شركائى» على قولكم وعندكم، وليس قوله «إِلَّا لِنَعْلَمَ» جوابَ «وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِنْ سُلْطَانٍ» فى ظاهره إنما هو محمول على المعنى؛ أى وما جعلنا له سلطانا إلا لنعلم؛ فالاستثناء منقطع، أى لا سلطان له عليهم ولكنا ابتليناهم بوسوسته لنعلم؛ فـ«إلا» بمعنى لكن. وقيل هو متصل؛ أى ما كان له عليهم من سلطان، غير أنّا سلّطناه عليهم ليتم الابتلاء. وقيل: «كَانَ» زائدة؛ أى وماله عليهم من سلطان؛ كقوله: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ» أى أنتم خير أمّة. وقيل: لما اتصل طرف منه بقصة سبأ قال: وما كان لإبليس على أولئك الكفار من سلطان. وقيل: وما كان له فى قضائنا السابق سلطان عليهم. وقيل: «إِلَّا لِنَعْلَمَ» إلا لنظهر؛ وهو كما تقول: النار تحرق الحطب، فيقول آخر لا بل الحطب يحرق النار، فيقول الأول تعال حتى نجرّب النار والحطب لنعلم أيهما يحرق صاحبه؛ أى لنظهر ذلك وإن كان معلوما لهم ذلك. وقيل: إلا لتعلموا أنتم. وقيل: أى ليعلم أولياؤنا والملائكة؛ كقوله «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ» أى يحاربون أولياء الله ورسوله. وقيل: أى ليميز؛ كقوله «لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ» وقد مضى هذا المعنى فى «البقرة»[1] وغيرها. وقرأ الزهرىّ «إِلَّا لِيُعْلَمَ» على ما لم يسم فاعله. ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أى أنه عالم بكل شىء. وقيل: يحفظ كل شىء على العبد حتى يجازيه عليه.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٥٦ طبعة ثانية.

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أى هذا الذى مضى ذكره من أمر داود وسليمان وقصة سبأ من آثار قدرتى ، فقل يا محمد لهؤلاء المشركين هل عند شركائكم قدرة على شىء من ذلك . وهذا خطاب توبيخ، وفيه إضمار : أى ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة لكم من دون الله لتنفعكم أو لتدفع عنكم ما قضاه الله تبارك وتعالى عليكم ؛ فإنهم لا يملكون ذلك ، و ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ أى ما لله من هؤلاء من معين على خلق شىء ، بل الله المنفرد بالإيجاد؛ فهو الذى يُعبَد ، وعبادة غيره محال .

قوله تعالى : وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ ﴾ أى شفاعة الملائكة وغيرهم . ﴿ عِنْدَهُ ﴾ أى عند الله . ﴿ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ قراءة العامة « أَذِنَ » بفتح الهمزة؛ لذكر الله تعالى أولا . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى « أُذِنَ » بضم الهمزة على ما لم يسم فاعله . والآذن هو الله تعالى . و « مَن » يجوز أن ترجع إلى الشافعين، ويجوز أن ترجع إلى المشفوع لهم . ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : خُلّى عن قلوبهم الفزع . قُطْرُب : أخرج ما فيها من الخوف . مجاهد : كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة؛ أى إن الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام ؛ إلا أن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة فى الشفاعة وهم على غاية الفزع من الله؛ كما قال : « وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ »[1] . والمعنى : أنه إذا أذن لهم فى الشفاعة وورد عليهم كلام الله فزعوا؛ لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل والخوف أن يقع فى تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصير ، فإذا سُرِّىَ عنهم قالوا للملائكة فوقهم وهم الذين يوردون عليهم الوحى بالإذن : ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ أى ماذا أمر الله به؛ فيقولون لهم ﴿ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ وهو أنه أذن لكم فى الشفاعة للمؤمنين . ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ فله أن يحكم فى عباده بما

(١) آية ٢٨ سورة الأنبياء .

يريد . ثم يجوز أن يكون هـذا إذنًا لهم فى الدنيا فى شفـاعة أقوام، ويجوز أن يكون فى الآخرة . وفى الكلام إضمـار ، أى ولا تنفـع الشفاعة عنـده إلا لمن أذن له ففزع لمـا ورد عليه من الإذن تهيبًـا لكلام الله تعالى، حتى إذا ذهب الفزع عن قلوبهم أجاب بالانقياد . وقيل : هـذا الفزع يكون اليوم للملائكة فى كل أمر يأمر به الرب تعـالى؛ أى لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم اليوم فزعون، مطيعون لله تعـالى دون الجمادات والشياطين . وفى صحيح الترمذى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اذا قضى الله فى السماء أمرا ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانا لقوله كأنها سلسلة على صَفْوانٍ[1] فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير — قال — والشياطين بعضهم فوق بعض" قال : حديث حسن صحيح . وقال النوّاس بن سِمْعان قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله إذا أراد أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى أخذت السموات منه رجفة أو رِعدة شديدة خوفا من الله تعالى فإذا سمع أهل السموات ذلك صعِقوا وخرّوا لله تعالى سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله تعالى ويقول له من وحيه ما أراد ثم يمرّ جبريل بالملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل فيقول جبريل قال الحق وهو العلى الكبير — قال — فيقول كلهم كما قال جبريل فينتهى جبريل بالوحى حيث أمره الله تعـالى" . وذكر البيهقي عن ابن عباس فى قوله تعالى « حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم » قال : كان لكل قبيل من الجن مقعد من السماء يستمعون منـه الوحى ، وكان إذا نزل الوحى سمع له صوت كإمرار السلسلة على الصَّفْوان ، فلا ينزل على أهل سماء إلا صَعِقوا فإذا فزّع عن قلوبهـم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير ، ثم يقول يكون العام كذا ويكون كذا فتسمعه الجن فيخبرون به الكهنةَ والكهنةُ الناسَ [يقولون] يكون العـام كذا وكذا فيجدونه كذلك ؛ فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم دُحِروا بالشُّهب فقالت العرب حين لم تخبرهم الجن بذلك : هلك من فى السماء ؛ فجعـل صاحب الابل ينحر كل يوم بعـيرا ، وصاحب البقر ينحـر كل يوم بقرة ،

(١) الصفوان : الصخر الأملس .

وصاحب الغنم ينحر كل يوم شاة؛ حتى أسرعوا فى أموالهم فقالت ثقيف وكانت أعقلَ العرب: أيها الناس! أمسكوا على أموالكم، فإنه لم يمت من فى السماء، وإن هذا ليس بانتثار، ألستم ترون معالمكم من النجوم كما هى والشمس والقمر والليل والنهار! قال فقال إبليس: لقد حدث فى الأرض اليوم حَدَث، فأتونى من تربة كل أرض فأتوه بها، فجعل يَشُمّها فلما شم تربة مكة قال من ها هنا جاء الحَدَث؛ فنصتوا فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث. وقد مضى هذا المعنى مرفوعا مختصرا فى سورة «الحجر»(١)، ومعنى القول أيضا فى رميهم بالشهب وإحراقهم بها، ويأتى فى سورة «الجن» بيان ذلك إن شاء الله تعالى. وقيل: إنما يفزعون من قيام الساعة. وقال الكلبى وكعب: كان بين عيسى ومحمد عليهما السلام فَتْرة خمسمائة وخمسون سنة لا يجىء فيها الرسل؛ فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم كلم الله تعالى جبريل بالرسالة، فلما سمعت الملائكة الكلام ظنوا أنها الساعة قد قامت، فصَعِقوا مما سمعوا، فلما انحدر جبريل عليه السلام جعل يمر بكل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رءوسهم ويقول بعضهم لبعض ما ذا قال ربكم فلم يدروا ما قال ولكنهم قالوا قال الحق وهو العلى الكبير؛ وذلك أن محمدا عليه السلام عند أهل السموات من أشراط الساعة. وقال الضحاك: إن الملائكة المعقِّبات الذين يختلفون إلى أهل الأرض يكتبون أعمالهم، يرسلهم الرب تبارك وتعالى، فاذا انحدروا سمع لهم صوت شديد فيحسب الذين هم أسفل من الملائكة أنه من أمر الساعة، فيخرون سُجّدًا ويَصْعقون حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة. وهذا تنبيه من الله تعالى وإخبار أن الملائكة مع اصطفائهم ورفعتهم لا يمكنهم أن يشفعوا لأحد حتى يؤذن لهم، فاذا أذن لهم وسمعوا صَعِقوا، وكان هذه حالهم، فكيف تشفع الأصنام أو كيف تؤمّلون أنتم الشفاعة ولا تعترفون بالقيامة. وقال الحسن وابن زيد ومجاهد: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين. قال الحسن ومجاهد وابن زيد: فى الآخرة عند نزول الموت، إقامة للحجة عليهم قالت الملائكة لهم: ماذا قال ربكم فى الدنيا قالوا الحق وهو العلي الكبير؛ فأقروا

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠.

حين لا ينفعهم الإقرار؛ أى قالوا قال الحق . وقراءة العامة « فُزِّع عن قلوبهم » . وقرأ ابن عباس « فَزَّع عن قلوبهم » مسمّى الفاعل وفاعله ضمير يرجع إلى اسم الله تعالى . ومن بناه للفعول فالجار والمجرور فى موضع رفع ، والفعل فى المعنى لله تبارك وتعالى . والمعنى فى القراءتين : أزيل الفزع عن قلوبهم؛ حسبما تقدم بيانه . ومثله : أشكاه، إذا أزال عنه ما يشكوه . وقرأ الحسن « فُزِع » مثل قراءة العامة ؛ إلا أنه خفّف الزاى ، والجار والمجرور فى موضع رفع أيضا ؛ وهو كقولك : انصرف عن كذا إلى كذا . وكذا معنى « فُرِغَ » بالراء والغين المعجمة والتخفيف غير مسمى الفاعل؛ رويت عن الحسن أيضا وقتادة . وعنهما أيضا « فَرَغَ » بالراء والغين المعجمة مسمى الفاعل؛ والمعنى : فرغ الله تعالى قلوبهم أى كشف عنها؛ أى فرغها من الفزع والخوف ؛ وإلى ذلك يرجع البناء للفعول على هذه القراءة . وعن الحسن أيضا « فرّغ » بالتشديد .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لما ذكر أن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرّة مما يقدر عليه الرّب قرّر ذلك فقال : قل يا محمد للشركين « مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من يخلق لكم هذه الأرزاق الكائنة من السموات ؛ أى عن المطر والشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع . «والأرض» أى الخارجة من الأرض عن الماء والنبات — أى لا يمكنهم أن يقولوا هذا فِعْلُ آلهتنا — فيقولون لا ندرى ، فقل إن الله يفعل ذلك الذى يعلم ما فى نفوسكم . وإن قالوا : إن الله يرزقنا فقد تقررت الحجة بأنه الذى ينبغى أن يعبد . ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ هذا على وجه الإنصاف فى الحجة ؛ كما يقول القائل : أحدنا كاذب ، وهو يعلم أنه صادق وأن صاحبه كاذب . والمعنى : ما نحن وأنتم على أمر واحد ، بل على أمرين متضادّين ، وأحد الفريقين مهتدٍ وهو نحن والآخر ضالٌ وهو أنتم ؛

فكذبهم بأحسن من تصريح التكذيب ؛ والمعنى : أنتم الضالون حين أشركتم بالذى يرزقكم من السموات والأرض . « أو إياكم » معطوف على اسم « إنّ » ولو عطف على الموضع لكان « أو أنتم » ويكون « لعلى هدى » للاول لا غير . واذا قلت : « أو إياكم » كان للثانى أولى ، وحذفت من الأول ، ويجوز أن يكون للاول ، وهو اختيار المبرد ، قال : ومعناه معنى قول المستبصر لصاحبه على صحة الوعيد والاستظهار بالحجة الواضحة : أحدنا كاذب ، وقد عرف المعنى ؛ كما تقول : أنا أفعل كذا وتفعل أنت كذا وأحدنا مخطئ ، وقد عرف أنه هو المخطئ ، فهكذا « و إنا أو إياكم لعلى هُدًى أو فى ضلال مبين » . و « أو » عند البصريين على بابها وليست للشك ، لكنها على ما تستعمله العرب فى مثل هذا إذا لم يرد المخبر أن يبين وهو عالم بالمعنى . وقال أبو عبيدة والفراء : هى بمعنى الواو ؛ وتقديره : و إنا على هدى وإياكم فى ضلال مبين . وقال جرير :

أثعلبةَ الفوارس أو رياحاً * عَدلْتَ بهم طُهَيَّةَ والرِّبابا[1]

يعنى : أثعلبة و رياحا . وقال آخر :

فلما اشتد أمر الحرب فينا * تأمّلنا رياحا أو رِزاما

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ﴾ أى اكتسبنا ، ﴿ وَلَا نُسْأَلُ ﴾ نحن أيضا ﴿ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى إنما أقصد بما أدعوكم إليه الخير لكم ، لا أنه ينالنى ضرر كفركم ؛ وهذا كما قال : « لَكُمْ دِينُكُم وَلِيَ دِينِ » والله مجازى الجميع . فهذه آية مهادنة ومتاركة ، وهى منسوخة بالسيف . وقيل : نزل هذا قبل آية السيف .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾

---

(١) رواية الديوان وكتاب سيبويه : « والخشابا » .

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يريد يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أى يقضى فيثيب المهتدى و يعاقب الضال ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ ﴾ أى القاضى بالحق ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوال الخلق . وهذا كله منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ يكون « أرونى » هنا من رؤية القلب ، فيكون «شركاء» المفعول الثالث ؛ أى عرّفونى هذه الأصنام والأوثان التى جعلتموها شركاء لله عز وجل ، وهل شاركت فى خلق شىء ، فبينوا ما هو؟ و إلا فلم تعبدونها . ويجوز أن تكون من رؤية البصر، فيكون « شركاء » حالا . ﴿ كلا ﴾ أى ليس الأمر كما زعمتم . وقيل : إن « كلا » ردّ لجوابهم المحذوف ؛ كأنه قال : أرونى الذين ألحقتم به شركاء . قالوا : هى الأصنام . فقال كلا ؛ أى ليس له شركاء ﴿ بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى وما أرسلناك إلا للناس كافة أى عامة ؛ ففى الكلام تقديم وتأخير . وقال الزجاج : أى وما أرسلناك إلا جامعا للناس بالإنذار والإبلاغ . والكافة بمعنى الجامع . وقيل : معناه كافًّا للناس، تكفهم عما هم فيه من الكفر وتدعوهم إلى الإسلام . والهاء للمبالغة . وقيل : أى إلا ذا كافة ؛ فحذف المضاف ، أى ذا منع للناس من أن يشذوا عن تبليغك ، أو ذا منع لهم من الكفر ؛ ومنه :

كف الثوب ، لأنه ضم طرفيه . ﴿ بَشِيراً ﴾ أى بالجنة لمن أطاع . ﴿ ونذيرا ﴾ من النار لمن كفر . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما عند الله وهم المشركون ، وكانوا فى ذلك الوقت أكثر من المؤمنين عددا . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَـذَا الْوَعْدُ ﴾ يعنى موعدكم لنا بقيام الساعة . ﴿ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فقال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد : ﴿ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ فلا يغرّنكم تأخيره . والميعاد الميقات . ويعنى بهذا الميعاد وقت البعث . وقيل وقت حضور الموت ؛ أى لكم قبل يوم القيامة وقت معيّن تموتون فيه فتعلمون حقيقة قولى . وقيل : أراد بهذا اليوم يوم بدر ؛ لأن ذلك اليوم كان ميعاد عذابهم فى الدنيا فى حكم الله تعالى . وأجاز النحويون « ميعادُ يومٌ » على أن يكون « ميعادٌ » ابتداء و « يومٌ » بدل منه ، والخبر « لكم » . وأجازوا « ميعادُ يومًا » يكون ظرفًا ، وتكون الهاء فى « عنه » ترجع إلى « يوم » . ولا يصح « ميعادُ يومَ لا تستأخرون » بغير تنوين ، وإضافة « يوم » الى ما بعده اذا قدّرت الهاء عائدة على اليوم ؛ لأن ذلك يكون من إضافة الشيء إلى نفسه من أجل الهاء التى فى الجملة . ويجوز ذلك على أن تكون الهاء للميعاد لا لليوم .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يريد كفار قريش . ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال سعيد عن قتادة : « ولا بالذى بين يديه » من الكتب والأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقيل من الآخرة . وقال ابن جُريج : قائل ذلك أبو جهل بن هشام . وقيل : إن أهل الكتاب قالوا للشركين صفة محمد فى كتابنا فسلوه ، فلما سألوه فوافق ما قال أهل الكتاب قال المشركون : لن نؤمن بهـذا القرآن ولا بالذى أنزل قبله من التوراة والإنجيل بل نكفر بالجميع ؛ وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويحتجون بقولهم ، فظهر بهذا تناقضهم وقلة علمهم . ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن حالهم فيما لهم فقال ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا محمد ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أى محبوسون فى موقف الحساب ، يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب بعـد أن كانوا فى الدنيا أخلاء متناصرين . وجواب « لو » محـذوف ؛ أى لرأيت أمرا هائلا فظيعا . ثم ذكر أىّ شىء يرجع من القول بينهم فقال : ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ فى الدنيا من الكافرين ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم القادة والرؤساء ﴿لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أى أغويتمونا وأضللتمونا . واللغـة الفصيحة « لولا أنتم » ومن العرب من يقول « لولاكم » حكاها سيبويه ؛ تكون « لولا » تخفض المضمر ويرتفع المظهر بعدها بالابتداء ويحذف خبره . ومحمـد بن يزيد يقول : لا يجوز « لولاكم » لأن المضمر عقيب المظهر ، فلما كان المظهر مرفوعا بالإجماع وجب أن يكون المضمر أيضا مرفوعا . ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ﴾ هو استفهام بمعنى الإنكار؛ أى ما رددناكم نحن عن الهدى ، ولا أكرهناكم . ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أى مشركين مصرّين على الكفر . ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ المكر أصله فى كلام العرب الاحتيال والخديعة ، وقد مكر به يمكُر فهو ماكر ومكّار . قال الأخفش : هو على تقدير : هذا مكر الليل والنهار . قال النحاس : والمعنى — والله أعلم — بل مكركم فى الليـل والنهار ، أى مسارّتكم إيانا ودعاؤكم لنـا إلى الكفر حملنا على هـذا . وقال سفيان الثـورى : بل عملكم فى الليل والنهار . قتادة : بل مكركم بالليل والنهار صدّنا ، فأضيف المكر إليهما لوقوعه فيهما ؛

وهو كقوله تعالى : « إنّ أجَلَ الله إذا جاءَ لا يُؤَخَّر » [1] فأضاف الأجل إلى نفسه ، ثم قال : « فإذا جاءَ أجَلُهُمْ لا يستأخِرُونَ ساعةً » [2] إذ كان الأجل لهم . وهذا من قبيل قولك : ليله قائم ونهاره صائم . قال المبرّد : أى بل مكركم الليل والنهار ؛ كما تقول العرب : نهاره صائم وليله قائم . وأنشد لجرير :

لقد لُمْتِنا يا أمَّ غَيْلان فى السُّرَى * ونمتِ وما ليـلُ المَطِىّ بنـائم

وأنشد سيبويه : * فنام ليلى وتجلّى همى *

أى نمت فيه . ونظيره : «والنّهارَ مُبْصِرًا» . وقرأ قتادة «بل مكرٌ الليلَ والنهارَ» بتنوين «مكر» ونصب « الليـل والنهار » ، والتقـدير : بل مكرٌ كائن فى الليل والنهـار ، فحذف . وقـرأ سعيد بن جبير « بل مَكَرُّ » بفتح الكاف وشـدّ الراء بمعنى الكرور ، وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف . ويجوز أن يرتفع بفعل مضمر دل عليـه « أنحن صددناكم » كأنهم لما قالوا لهم أنحن صددناكم عن الهدى قالوا بل صدّنا مكَرُّ الليـل والنهار . وروى عن سـعيد بن جبير «بل مكر الليل والنهار» قال : مرّ الليلُ والنهار عليهم فغفلوا . وقيل : طول السلامة فيهما ؛ كقوله « فطال عليهمُ الأَمَدُ » [3] . وقرأ راشد « بل مَكَرَّ الليلِ والنهار » بالنصب ؛ كما تقول : رأيته مَقْدَمَ الحاج ؛ وإنما يجوز هذا فيما يعرف ، لو قلت : رأيته مقدمَ زيد ، لم يجز ؛ ذكره النحاس . ﴿ إذْ تَأْمُرُونَنَا أنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ أى أشباها وأمثالا ونظراء . قال محمد بن يزيد : فلانٌ نِدُّ فلانٍ ؛ أى مثله . ويقال نَدِيد ؛ وأنشد :

أيمـا تجعلون الىّ نِـدّا * وما أنتم لذى حسب نَدِيد

وقد مضى هذا فى « البقرة » [4] . ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ ﴾ أى أظهروها ، وهو من الأضداد يكون بمعنى الإخفاء والإبداء . قال امرؤ القيس :

تجـاوزت أحراسا وأهوال مَعْشِرٍ * علىّ حِـراصا لو يُسِرُّون مَقْتَـلِى [5]

(١) آية ٤ سورة نوح . (٢) آية ٣٤ سورة الأعراف . (٣) آية ١٦ سورة الحديد .
(٤) راجع جـ١ ص ٢٣٠ طبعة ثانية أو ثالثة . (٥) هذه رواية البيت كما فى نسخ الأصل والديوان . وروايته كما فى المعلقات : تجاوزت أحراسا اليها ومعشرا * على حراصا لو يشرون مقتلى
« يشرون » بالشين المعجمة : يظهرون .

وروى « يُشِرون » . وقيل : « وأسروا الندامة » أى تبينت الندامة فى أسرار وجوههم . وقيل : الندامة لا تظهر، وإنما تكون فى القلب، وإنما يظهر ما يتولّد عنها؛ حسبما تقدّم بيانه فى سورة « يونس، وآل عمران »[1] . وقيل : إظهارهم الندامة قولهم : « فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ »[2] . وقيل : أسروا الندامة فيما بينهم ولم يجهروا القول بها؛ كما قال : «وأسرّوا النّجوى»[3] . ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَالَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الأغلال جمع غُلّ؛ يقال : فى رقبته غُلّ من حديد . ومنه قيل للمرأة السيئة الخُلُق : غُلّ قَمِل ؛ وأصله أن الغُلّ كان يكون من قدّ وعليه شعر فيَقْمَل . وغَللتُ يده إلى عنقه؛ وقد غُلّ فهو مغلول؛ يقال : ماله أُلّ وغُلّ[4] . والغُلّ أيضا والغُلّة : حرارة العطش، وكذلك الغليل ؛ يقال منه : غُلّ الرجلُ يُغَلّ غَلَلاً فهو مغلول ؛ على ما لم يسم فاعله ؛ عن الجوهرى . أى جعلت الجوامع فى أعناق التابعين والمتبوعين . قيل من غير هؤلاء الفريقين . وقيل يرجع « الذين كفروا » اليهم . وقيل : تم الكلام عند قوله «لما رأوا العذاب» ثم ابتدأ فقال «وجعلنا الأغلال» بعد ذلك فى أعناق سائر الكفار . ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فى الدنيا .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُولَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٥٢ (٢) آية ١٠٢ سورة الشعراء . (٣) آية ٦٢ سورة طه .
(٤) أل : دفع فى قفاه . وغل : جن؛ فوضع فى عنقه الغل .

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ قال قتادة : أى أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها وقادة الشر للرسل ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ أى فُضّلنا عليكم بالأموال والأولاد، ولو لم يكن ربكم راضيا بما نحن عليه من الدّين والفضل لم يخوّلنا ذلك . ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لأن من أحسن إليه فلا يعذّبه، فرد الله عليهم قولهم وما احتجّوا به من الغنى فقال لنبيّه صلى الله عليه وسلم : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أى يوسّعه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أى يقتّر ، أى إن الله هو الذى يفاضل بين عباده فى الأرزاق امتحانا لهم، فلا يدل شيء من ذلك على ما فى العواقب ، فسَعة الرزق فى الدنيا لا تدل على سعادة الآخرة، فلا تظنوا أموالكم وأولادكم تغنى عنكم غدًا شيئا . ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا لأنهم لا يتأملون . ثم قال تأكيدا : ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ قال مجاهد : أى قُرْبى . والزُّلْفة القربة . وقال الأخفش : أى إزلافا، وهو اسم المصدر، فيكون موضع « قُرْبَى » نصبا، كأنه قال بالتى تقربكم عندنا تقريبا . وزعم الفراء أن « التى » تكون للأموال والأولاد جميعا. وله قول آخر وهو مذهب أبى إسحاق الزجاج ؛ يكون المعنى: وما أموالكم بالتى تقربكم عندنا، ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى، ثم حذف خبر الأول لدلالة الثانى عليه . وأنشد الفراء :

نحن بما عندنا وأنت بما * عندك راضٍ والرأيُ مختلِفُ

ويجوز فى غير القرآن: باللتين و باللاتى و باللواتى و باللّذَين وبالّذين؛ للأولاد خاصة؛ أى لا تزيدكم الأموال عندنا رفعة ودرجة، ولا تقرّبكم تقريبا . ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ قال سعيد بن جبير : المعنى إلا من آمن وعمل صالحا فلن يضره مالُه وولدُه فى الدنيا . وروى لَيث عن طاوس أنه كان يقول : اللّهُمّ ارزقنى الإيمان والعمل، وجنّبنى المالَ والولد؛ فإنى سمعتُ فيما أُوحيَ « وما أموالُكم ولا أولادُكم بالتى تقربكم عندنا زُلْفَى إلا مَن آمنَ وعَمِل صالحا » .

قلت : قول طاوس فيه نظر، والمعنى والله أعلم : جنّبنى المالَ والولد المطْغِيين أو اللذين لا خير فيهما ؛ فأما المال الصالح والولد الصالح للرجل الصالح فنِعِم هذا ! وقد مضى هذا فى « آل عمران »

ومريم ، والفرقان »[1] . و « مَن » فى موضع نصب على الاستثناء المنقطع ؛ أى لكن من آمن وعمل صالحا فإيمانه وعمله يقربانه منى . وزعم الزجاج أنه فى موضع نصب بالاستثناء على البدل من الكاف والميم التى فى « تقربكم » . النحاس : وهذا القول غلط ؛ لأن الكاف والميم للمخاطب فلا يجوز البدل ، ولو جاز هذا لجاز : رأيتك زيدا . وقول أبى إسحاق هذا هو قول الفراء ، إلا أن الفراء لا يقول بدل لأنه ليس من لفظ الكوفيين ، ولكن قوله يئول إلى ذلك ، وزعم أن مثله « إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » يكون منصوبا عنده بـ « ينفع » . وأجاز الفراء أن يكون « من » فى موضع رفع بمعنى : ماهو إلا من آمن ، كذا قال ، ولست أحصل معناه . ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ﴾ يعنى قوله « مَن جاءَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أمثالِهَا » فالضعف الزيادة ؛ أى لهم جزاء التضعيف ، وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول . وقيل : لهم جزاء الأضعاف ، فالضعف فى معنى الجمع ، وإضافة الضعف إلى الجزاء كإضافة الشىء إلى نفسه ؛ نحو : حق اليقين ، وصلاة الأولى . أى لهم الجزاء المضعّف ؛ للواحد عشرة إلى ما يريد الله من الزيادة .

وبهذه الآية استدل من فضل الغنى على الفقر . وقال محمد بن كعب : إن المؤمن إذا كان غنيًّا تقيًّا آتاه الله أجره مرتين بهذه الآية . ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ قراءة العامة « جزاءُ الضعفِ » بالإضافة . وقرأ الزُّهرِىّ ويعقوب ونصر بن عاصم « جزاءً » منوّناً منصوبا « الضعفُ » رفعا ؛ أى فأولئك لهم الضعف جزاءً ، على التقديم والتأخير . « وجزاءُ الضعفِ » على أن يجازوا الضعف . و « جزاءٌ الضعفُ » مرفوعان ، الضعفُ بدل من جزاء . وقرأ الجمهور أيضا « فى الغرفات » على الجمع ، وهو اختيار أبى عبيد ؛ لقوله « لَنُبَوِّئَنَّهُم مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا »[2] . الزمخشرىّ : وقرئ « فى الغـرفات » بضم الراء وفتحها وسكونها . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب وحمزة وخلف « فى الغرفة » على التوحيد ؛ لقوله تعالى « أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ » . والغرفة قد يراد بها اسم الجمع واسم الجنس . قال ابن عباس : هى غرف

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٢ وجـ ١١ ص ٨٠ وجـ ١٣ ص ٨٢ (٢) آية ٥٨ سورة العنكبوت .

من ياقوت وزبرجد ودُرّ . وقد مضى بيان ذلك[1] . ﴿ آمِنُونَ ﴾ أى من العذاب والموت والأسقام والأحزان. ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا ﴾ فى إبطال أدلتنا وحجتنا وكتابنا. ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ معانِدين ، يحسبون أنهم يفوتوننا بأنفسهم . ﴿ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أى فى جهنم تُحضرهم الزبانية فيها .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٣٩)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ كرر تأكيدا . ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء المغترّين بالأموال والأولاد إن الله يوسّع على من يشاء ويضيّق على من يشاء، فلا تغترّوا بالأموال والأولاد بل أنفقوها فى طاعة الله ، فإن ما أنفقتم فى طاعة الله فهو يخلفه . وفيه إضمار ، أى فهو يخلفه عليكم؛ يقال : أخلف له وأخلف عليه ؛ أى يعطيكم خلفه وبدله ، وذلك البدل إما فى الدنيا وإما فى الآخرة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللّهُمّ أعط منفقا خلفاً وأعط ممسكا تَلَفاً " . وفيه أيضا عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله قال لى أَنفق أنفق عليك ... " الحديث . وهذه إشارة إلى الخلف فى الدنيا بمثل المنفَق فيها إذا كانت النفقة فى طاعة الله . وقد لا يكون الخلف فى الدنيا فيكون كالدعاء — كما تقدّم[2] — سواء فى الإجابة أو التكفير أو الادخار؛ والادّخار هاهنا مثله فى الأجر .

مسألة — روى الدَّارَقُطْنِيّ وأبو أحمد بن عَدِىّ عن عبد الحميد الهلالى عن محمد بن المُنْكَدِر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كلّ معروف صدقة وما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وَقَى به الرجل عرضَه فهو صدقة وما أنفق الرجل

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٠٤ و جـ ١٣ ص ٨٣ و ٣٥٩   (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٠٨ وما بعدها .

من نفقة فعلى الله خلفها إلا ما كان من نفقة فى بنيان أو معصية ". قال عبد الحميد : قلت لابن المنكدر « ما وَقَى الرجل عرضه » ؟ قال : يعطى الشاعر وذا اللسان . عبد الحميد وثقه ابن معين .

قلت : أما ما أنفق فى معصية فلا خلاف أنه غير مثاب عليه ولا مخلوف له . وأما البنيان فما كان منه ضروريا يكنّ الانسانَ ويحفظه فذلك مخلوف عليه ومأجور ببنيانه . وكذلك كحفظ بنيته وستر عورته ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " ليس لابن آدم حقٌّ فى سِوَى هذه الخصال : بيت يسكنه وثوب يُوارِى عورته وجِلْف الخبز والماء " . وقد مضى هذا المعنى فى « الأعراف »[1] مستوفًى .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ لما كان يقال فى الإنسان : إنه يرزق عياله ، والأمير جنده ؛ قال « وهو خير الرازقين » والرازق من الخلق يرزق ؛ لكن ذلك من مال يملك عليهم ثم ينقطع ، والله تعالى يرزق من خزائن لا تفنى ولا تتناهى . ومن أخرج من عدم إلى الوجود فهو الرازق على الحقيقة ؛ كما قال : « إن الله هو الرزاق ذو القُوّةِ المتِينُ »[2] .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ[3] جَمِيعًا ﴾ هذا متصل بقوله «وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ»[4] . أى لو تراهم فى هذه الحالة لرأيت أمرا فظيعا . والخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم، والمراد هو وأمته . ثم قال ولو تراهم أيضا « يوم نحشرهم جميعاً » العابدين والمعبودين ، أى نجمعهم للحساب ﴿ ثُمَّ نَقُولُ[3] لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ . قال سعيد عن قتادة : هذا

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٩ (٢) آية ٥٨ سورة الذاريات . (٣) قوله : « نحشرهم ، نقول » بالنون قراءة نافع . (٤) آية ٣١ من هذه السورة .

آستفهام؛ كقوله عز وجل لعيسى « أأنت قلت للناس ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ » .
قال النحاس : فالمعنى أن الملائكة صلوات الله عليهم إذا كذبتهم كان فى ذلك تبكيت لهم ؛ فهو آستفهام توبيخ للعابدين . ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ أى تنزيها لك . ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ أى أنت ربنا الذى نتولاه ونطيعه ونعبده ونخلص فى العبادة له . ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ أى يطيعون إبليس وأعوانه . وفى التفاسير : أن حَيًّا يقال لهم بنو مُلَيح من خُزاعة كانوا يعبدون الجن ، ويزعمون أن الجن تتراءى لهم ، وأنهم ملائكة ، وأنهم بنات الله ؛ وهو قوله : « وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا[(١)] » .

قوله تعالى : فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا ﴾ أى شفاعة ونجاة . ﴿ وَلَا ضَرًّا ﴾ أى عذابا وهلاكا . وقيل : أى لا تملك الملائكة دفع ضُرّ عن عابديهم ؛ فحذف المضاف . ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ يجوز أن يقول الله لهم أو الملائكة : ذوقوا .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ ﴾ يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم . ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ أى أسلافكم من

(١) آية ١٥٨ سورة الصافات .

الآلهة التى كانوا يعبدونها . ﴿ وَقَالُوا مَا هَـٰذا إلا إِفْكٌ مُفْتَرًى ﴾ يعنون القرآن ؛ أى ما هـو إلا كذب مختلَق . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ فتـارةً قالوا سحر ، وتارةً قالوا إفك . ويحتمل أن يكون منهم من قال سحر ومنهم من قال إفك .

قوله تعـالى : وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ أى لم يقرءوا فى كتاب أوتوه بطلانَ ما جئت به ، ولا سمعوه من رسـول بُعث إليهم ، كما قال « أم آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ »(١) فليس لتكذيبهم وجه يتشبّث به ولا شبهة متعلق كما يقول أهل الكتاب و إن كانوا مبطلين : نحن أهل كتاب وشرائع ومستندون إلى رسل من رسل الله، ثم توعّدهم على تكذيبهم بقوله الحق ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى كذّب قبلهم أقوام كانوا أشـدّ من هؤلاء بطشا وأكثرَ أموالا وأولادا وأوسع عيشا ، فأهلكتهم كثمود وعاد . ﴿ وَمَا بَلَغُوا ﴾ أى ما بلغ أهل مكة ﴿ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ تلك الأمم . والمعشار والعشر سـواء، لغتان . وقيـل : المعشار عشر العشر . الجوهرى : ومعشار الشىء عشره ، ولا يقولون هـذا فى شىء سوى العشر . وقيل : ما بلغ الذين من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم ؛ حكاه النقاش . وقيل : ما أعطى الله تعالى من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان . قال ابن عباس : فليس أمة أعلمَ من أمته ، ولا كتاب أبين من كتابه . وقيل : المعشار هو عشر العشير، والعشير هو عشر العشر فيكون جزءا من ألف جزء . الماوردى : وهو الأظهر؛ لأن المراد به المبالغة فى التقليل . ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى عقابى فى الأمم؛ وفيه محذوف وتقديره : فأهلكناهم فكيف كان نكيرى .

(١) آية ٢١ سورة الزخرف .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾ تمّم الحجة على المشركين ؛ أى قل لهم يا محمد : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ ﴾ أى أذكّركم وأحذّركم سوء عاقبة ما أنتم فيه . ﴿ بِوَاحِدَةٍ ﴾ أى بكلمة واحدة مشتملة على جميع الكلام ، تقتضى نفى الشرك و إثبات الإله . قال مجاهد : هى لا إله إلا الله ؛ وهذا قول ابن عباس والسُّدِّى . وعن مجاهد أيضا : بطاعة الله . وقيل : بالقرآن ؛ لأنه يجمع كل المواعظ . وقيل : تقديره بخصلة واحدة ، ثم بينها بقوله ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ فتكون «أنْ» فى موضع خفض على البدل من «واحدة» ، أو فى موضع رفع على إضمار مبتدأ ؛ أى هى أن تقوموا . ومذهب الزجاج أنها فى موضع نصب بمعنى لأن تقوموا . وهذا القيام معناه القيام إلى طلب الحق لا القيام الذى هو ضد القعود ؛ وهو كما يقال : قام فلان بأمر كذا ؛ أى لوجه الله والتقرب إليه . وكما قال تعالى : « وأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ »[1] . ﴿ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ أى وُحدانًا ومجتمعين ؛ قاله السُّدّى . وقيل : منفردا برأيه ومشاورا لغيره ؛ وهذا قول مأثور . وقال القُتَبِىّ : مناظرا مع غيره ومفكرا فى نفسه ؛ وكلّه متقارب . و يحتمل رابعا أن المَثْنَى عمل النهار والفُرَادى عمل الليل ؛ لأنه فى النهار معانٌ وفى الليل وحيد ؛ قاله الماوردى . وقيل : إنما قال « مثنى وفرادى » لأن الذهن حجة الله على العباد وهو العقل ؛ فأوفرهم عقلا أوفرهم حظًّا من الله ؛ فإذا كانوا فُرَادَى كانت فكرة واحدة ، و إذا كانوا مَثْنَى تقابل الذهنان فتراءى من العلم لهما ما أضعف على الانفراد ؛ والله أعلم . ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ الوقف عند أبى حاتم وابن الأنبارى على « ثم تتفكروا » . وقيل : ليس هو بوقف ؛ لأن المعنى : ثم تتفكروا هل جربتم على صاحبكم كذبا ، أو رأيتم فيه جنة ، أو فى أحواله من

(١) آية ١٢٧ سورة النساء .

فساد ، أو اختلاف إلى أحد ممن يدّعى العلم بالسحر ، أو تعلّم الأقاصيص وقرأ الكتب ، أو عرفتموه بالطمع فى أموالكم ، أو تقدرون على معارضته فى سورة واحدة ؛ فإذا عرفتم بهذا الفكر صدقه فما بال هذه المعاندة . ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَرَهْطَكَ مِنْهُم الْمُخْلَصِينَ »(1) خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصَّفا فهتف : ياصباحاه؟(2) فقالوا : من هـذا الذى يهتِف ! ؟ قالوا محمد ؛ فاجتمعوا إليـه فقال : " يابنى فلان يابنى فلان يابنى عبدمناف يابنى عبد المطلب ـ فاجتمعوا إليه فقال ـ أرأيتم لو أخبرتكم أن خَيْلًا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِىّ " ؟ قالوا : ماجرّبنا عليك كذبا . قال : " فإنى نذيرلكم بين يدى عذاب شـديد " . قال فقال أبولهب : تبًّا لك ! أمَا جمعتنا إلا لهذا ؟ ثم قال فنزلت هـذه السورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَقَد تَبَّ » كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة .

قوله تعالى : قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى جُعْل على تبليغ الرسالة ﴿ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أى ذلك الجُعْل لكم إن كنت سألتكموه ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى رقيب وعالم وحاضر لأعمالى وأعمالكم ، لا يخفى عليه شىء فهو يجازى الجميع .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْـذِفُ بِالْحَقِّ ﴾ أى يبيّن الحجة ويظهرها . قال قتادة : بالحق بالوحى . وعنه : الحق القرآن . وقال ابن عباس : أى يقذف الباطل بالحق علامُ الغيوب .

(1) قال القسطلانى فى قوله « ورهطك منهم المخلصين » : هو من عطف الخاص على العام ، وكان قرآنا فنسخت تلاوته .

(2) قوله : « ياصباحاه » بسكون الهاء ، وهى كلمة يقولها المستغيث ؛ وأصلها إذا صاحوا للغارة لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ، ويسمون الغارة يوم الصباح .

وقرأ عيسى بن عمر « علّامَ الغيوب » على أنه بدل، أى قل إن ربى علام الغيوب يقذف بالحق . قال الزجاج : والرفع من وجهين على الموضع ؛ لأن الموضع موضع رفع ، أو على البدل مما فى يقذف . النحاس : وفى الرفع وجهان آخران : يكون خبرا بعد خبر، ويكون على إضمار مبتدأ . وزعم الفراء أن الرفع فى مثل هذا أكثر فى كلام العرب إذا أتى بعد خبر « إنّ » ومثله « إنّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ »(١) . وقرئ « الغُيوب » بالحركات الثلاث، فالغُيوب كالبيوت، والغَيوب كالصبور، وهو الأمر الذى غاب وخَفِىَ جدًّا(٢) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُل جَاءَ الْحَقُّ ﴾ قال سعيد عن قتادة : يريد القرآن . النحاس : والتقدير جاء صاحب الحق ؛ أى الكتاب الذى فيه البراهين والحجج . ﴿ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ ﴾ قال قتادة : الشيطان؛ أى ما يخلق الشيطان أحدا . ﴿ وَمَا يُعِيدُ ﴾ فـ« ـما » نَفْىٌ . ويجوز أن يكون استفهاما بمعنى أىّ شىء؛ أى جاء الحق فأىّ شىء بقى للباطل حتى يعيده ويبدئه؛ أى فلم يبق منه شىء؛ كقوله « فهل تَرَى لهم مِن باقِيَةٍ »(٣) أى لا ترى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى ﴾ وذلك أن الكفار قالوا تركتَ دين آبائك فضللت . فقال له قل يا محمد إن ضللت كما تزعمون فإنما أضل على نفسى . وقراءة العامة « ضَلَلْت » بفتح اللام . وقرأ يحيى بن وَثّاب وغيره « قل إن ضَلِلت » بكسر اللام وفتح الضاد من « أَضَلّ » ؛ والضلال والضلالة ضدّ الرشاد . وقد ضَلَلْت (بفتح اللام) أَضِل

(١) آيه ٦٤ سورة ص (٢) عبارة روح المعانى : « ...الغيوب (بالكسر) كالبيوت » . وعبارة البحر : « ... أما الضم فجمع غيب ، وأما الكسر فكذلك استثقلوا ضمتين والواو فكسروا لتناسب الكسر مع الياء والضمة التى على الياء مع الواو، وأما الفتح ففعول للمبالغة كالصبور » . (٣) آية ٨ سورة الحاقة .

(بكسر الضاد) ؛ قال الله تعالى «قل إن ضَلَلت فإنما أضِل على نفسى» فهذه لغة نجد وهى الفصيحة . وأهل العالية يقولون « ضَلِلت » بالكسر «أَضَل»(١) ؛ أى إثم ضلالتى على نفسى . ﴿ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ﴾ من الحكمة والبيان ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أى سميع ممن دعاه قريب الإجابة . وقيل وجه النظم : قل إن ربى يقذف بالحق ويبين الحجة ، وضلالُ من ضل لا يبطل الحجة ، ولو ضللت لأضررت بنفسى ، لا أنه يبطل حجة الله ، وإذا اهتديت فذلك فضل الله إذ ثبتنى على الحجة إنه سميع قريب .

قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ ذكر أحوال الكفار فى وقت ما يضطرون فيه إلى معرفة الحق . والمعنى : لو ترى إذ فزعوا فى الدنيا عند نزول الموت أو غيره من بأس الله تعالى بهم ؛ روى معناه عن ابن عباس . الحسن : هو فزعهم فى القبور من الصيحة . وعنه أن ذلك الفزع إنما هو إذا خرجوا من قبورهم ؛ وقاله قتادة . وقال ابن مُغَفَّل : إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة . السُّدى : هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة فلم يستطيعوا فرارا ولا رجوعا إلى التوبة . سعيد بن جُبير : هو الجيش الذى يخسف بهم فى البيداء فيبقى منهم رجل فيخبر الناس بما لقى أصحابه فيفزعوا ؛ فهذا هو فزعهم . ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا نجاة ؛ قاله ابن عباس . مجاهد : فلا مهرب . ﴿ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أى من القبور . وقيل : من حيث كانوا ؛ فهم من الله قريب لا يَعزُبون عنه ولا يفوتونه . وقال ابن عباس : نزلت فى ثمانين ألفا يغزون فى آخر الزمان الكعبة ليَخْرِبوها ، وكما يدخلون البيداء يخسف بهم ؛ فهو الأخذ من مكان قريب .

قلت : وفى هذا المعنى خبر مرفوع عن حُذيفة وقد ذكرناه فى كتاب التَّذكرة ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وذكر فتنةً تكون بين أهل المشرق والمغرب — : " فبيناهم

(١) فى مختار الصحاح : « بالكسر فيهما » والذى فى اللسان : « ضللت بالكسر أضل » .

كذلك إذ خرج عليهم السُّفيانى من الوادى اليابس فى فورة ذلك حتى ينزل دمشق فيبعث جيشين جيشا إلى المشرق وجيشا إلى المدينة فيصير الجيش نحو المشرق حتى ينزلوا بأرض بابل فى المدينة الملعونة والبقعة الخبيثة — يعنى مدينة بغداد ، قال — فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف ويفتضّون أكثر من مائة امرأة ويقتلون بها ثلاثمائة كبش (١) من ولد العباس ثم يخرجون متوجهين إلى الشام فتخرج راية هدى من الكوفة فتلحق ذلك الجيش منها على ليلتين (٢) فيقتلونهم لا يفلِت منهم مخبر ويستنقذون ما فى أيديهم من السّبى والغنائم ويَحُلّ جيشه الثانى بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيام ولياليها ثم يخرجون متوجهين إلى مكة حتى إذا كانوا بالبيداء بعث الله جبريل عليه السلام فيقول ياجبريل آذهب فأبِدْهم فيضربها برجله ضربة يخسف الله بهم؛ وذلك قوله تعالى « وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا من مكانٍ قريبٍ » فلا يبقى منهم إلا رجلان أحدهما بشير والآخر نذير وهما من جُهينة؛ ولذلك جاء القول : وعند جُهينة الخبر اليقين . وقيل : « أُخِذوا من مكان قريب » أى قبضت أرواحهم فى أماكنها فلم يمكنهم الفرار من الموت ؛ وهذا على قول من يقول : هذا الفزع عند النزع . ويحتمل أن يكون هذا من الفزع الذى هو بمعنى الإجابة ؛ يقال : فزِع الرجل أى أجاب الصارخ الذى يستغيث به إذا نزل به خوف . ومنه الخبر إذ قال للأنصار : "انكم لَتقِلّون عند الطمع وتكثرون عند الفزع" . ومن قال : أراد الخسف أو القتل فى الدنيا كيوم بدر قال : أخذوا فى الدنيا قبل أن يؤخذوا فى الآخرة . ومن قال : هو فزع يوم القيامة قال : أخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها . وقيل : « أخذوا من مكان قريب » من جهنم فألقوا فيها .

قوله تعالى : وَقَالُوٓا ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ أى بالقرآن . وقال مجاهد : بالله عز وجل . الحسن : بالبعث . قتادة : بالرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال

(١) كبش القوم : رئيسهم، وسيدهم، وحاميتهم، والمنظور إليه فيهم . (٢) فى كتاب التذكرة « على ميلين » .

ٱبن عباس والضحاك : التناوش الرجعة ؛ أى يطلبون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا، وهيهات من ذلك ! ومنه قول الشاعر :

تمـنَّى أن تؤوب إلىّ مىٌّ * وليس إلى تناوشها سبيل

وقال السُّدّى : هى التوبة؛ أى طلبوها وقد بَعُدت؛ لأنه إنما تقبل التوبة فى الدنيا . وقيل : التناوش التناول ؛ قال ٱبن السِّكيت : يقال للرجل إذا تناول رجلا ليأخذ برأسه ولحيته : ناشه ينوشه نَوْشًا . وأنشد :

فهى تنوش الحوض نَوْشًا مِن عَلَا * نَوْشًا به تَقْطع أجـوازَ الفَـلا [(١)]

أى تتناول ماء الحوض من فوق وتشرب شربا كثيرا ، وتقطع بذلك الشرب فلوات فلا تحتاج إلى ماء آخر . قال : ومنه المناوشـة فى القتال ؛ وذلك إذا تدانى الفريقان . ورجل نَوُوش أى ذو بطش . والتناوش : التناول . والانتياش مثله . قال الراجز :

* كانت تنوش العنَق انتياشا *

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يقول : أنَّى لهم تناول الإيمان فى الآخرة وقد كفروا به فى الدنيا. وقرأ أبو عمرو والكسائى والأعمش وحمزة « وأنى لهم التناؤش » بالهمز . النحاس : وأبو عبيدة يستبعد هذه القراءة؛ لأن « التناؤش » بالهمز البعد، فكيف يكون : وأنى لهم البعد من مكان بعيد . قال أبو جعفر : والقراءة جائزة حسنة، ولها وجهان فى كلام العرب ، ولا يتأول بها هـذا المتأول البعيد؛ فأحد الوجهين أن يكون الأصـل غير مهموز، ثم همزت الواو لأن الحركة فيها خفية، وذلك كثير فى كلام العرب . وفى المصحف الذى نقلته الجماعة عن الجماعة « وإذَا الرُّسُـلُ أُقِّتَتْ » والأصل « وُقِّتت » لأنه مشتق من الوقت . ويقال فى جمع دار: أدؤر . والوجه الآخر ذكره أبو إسحاق قال : يكون مشتقا من النئيش وهو الحركة فى إبطاء؛ أى من أين لهم الحركة فيما قد بَعُد؛ يقال : نأشت الشىء أخذته

(١) البيت لغيلان بن حريث . والضمير فى قوله « فهى » للابل . وتنوش الحوض : تتناول ملاءه . وقوله : « من علا » أى من فوق . يريد أنها عالية الأجسام طوال الأعناق ؛ وذلك النوش الذى تناله هو الذى يعينها على قطع الفلوات . والأجواز : جمع جوز وهو الوسط .

من بُعْد . والنئيش : الشيء البطيء . قال الجوهري : التناؤش (بالهمز) التأخر والتباعد . وقد نأشت الأمر أنأشه نأشا أخرته ؛ فانتأش . ويقال : فعله نئيشا أي أخيرا . قال الشاعر :

تمنّى نئيشا أن يكون أطاعني * وقد حدثت بعد الأمور أمور(1)

وقال آخر :

قعدت زمانا عن طلابك للعلا * وجئت نئيشا بعد ما فاتك الخبر(2)

وقال الفراء : الهمز وترك الهمز في التناوش متقارب ؛ مثل : ذِمْتُ(3) الرجلَ وذَأَمْته أي عبته . ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي من الآخرة . وروى أبو إسحاق عن التميمي عن ابن عباس قال « وأنّى لهم » قال : الردّ ؛ سألوه وليس بحين ردّ .

قوله تعالى : وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ ﴾ أي بالله عز وجل . وقيل بمحمد ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعني في الدنيا . ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ العرب تقول لكل من تكلم بما لا يحقّه(4) : هو يقذف ويرجُم بالغيب . ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ على جهة التمثيل لمن يرجم ولا يصيب ؛ أي يرمون بالظن فيقولون : لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ؛ رَجْمًا منهم بالظن ؛ قاله قتادة . وقيل : « يقذفون » أي يرمون في القرآن فيقولون : سحر وشعر وأساطير الأولين . وقيل : في محمد فيقولون ساحر شاعر كاهن مجنون . ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي إن الله بعّد لهم أن يعلموا صدق محمد . وقيل : أراد البعد عن القلب ؛ أي من مكان بعيد عن قلوبهم . وقرأ مجاهد « ويُقذَفون بالغيب » غير مسمّى الفاعل ؛ أي يُرمون به . وقيل يقذف به إليهم من يغويهم ويضلهم .

(1) في اللسان مادة نأش : « ويحدث من بعد ... » . (2) كذا في بعض نسخ الأصل وكتاب الفراء . وفي بعض النسخ « المخبر » بالياء المثناة . (3) في اللسان : ذامه يذيمه ذيما وذاما عابه ، وذمته أذيمه وذأمته وذممته ، كله بمعنى . (4) حق الأمر يحقه وأحقه : كان منه على يقين .

قوله تعالى : وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ قيل : حيل بينهم وبين النجاة من العذاب . وقيل : حيل بينهم وبين ما يشتهون فى الدنيا من أموالهم وأهليهم . ومذهب قتادة أن المعنى أنهم كانوا يشتهون لما رأوا العذاب أن يقبل منهم أن يطيعوا الله جل وعز وينتهوا إلى ما يأمرهم به الله فحيل بينهم وبين ذلك؛ لأن ذلك إنما كان فى الدنيا وقد زالت فى ذلك الوقت . والأصل « حُوِل » فقلبت حركة الواو على الحاء فانقلبت ياء ثم حذفت حركتها لثقلها . ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم ﴾ الأشياع جمع شِيَع ، وشِيَع جمع شيعة . ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى بمن مضى من القرون السالفة الكافرة . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ ﴾ أى من أمر الرسل والبعث والجنة والنار . وقيل : فى الدِّين والتوحيد؛ والمعنى واحد . ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أى يستراب به؛ يقال : أراب الرجل أى صار ذا ريبة ، فهو مريب . ومن قال هو من الرَّيْب الذى هو الشك والتُّهَمة قال : يقال شكٌّ مريب؛ كما يقال : عَجَبٌ عجيب وشعر شاعر؛ فى التأكيد .

ختمت السورة ، والحمد لله رب العالمين .

سورة فاطر

مكية فى قول الجميع ، وهى خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُولِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

قوله تعـالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يجوز فى « فاطر » ثلاثة أوجه : الخفض على النعت ، والرفع على إضمار مبتدأ ، والنصب على المدح . وحكى سيبويه : الحمد لله أهل الحمد [مثله][1] وكذا « جاعِلِ الملائكةِ » . والفاطر : الخالق . وقد مضى فى « يوسف »[2] وغيرها . والفَطْر . الشق عن الشيء ؛ يقال : فطرته فآنفطر . ومنه : فَطَر نابُ البعير طلع ؛ فهو بعير فاطر . وتفطّر الشيء تشقق . وسيف فُطار ؛ أى فيه تشقق . قال عنترة :

وسيفى كالعقيقة فهو كِمْعِى * سـلاحى لا أَفَـلّ ولا فُطَارا[3]

والفطر : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : كنت لا أدرى ما « فاطر السموات والأرض » حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ؛ فقال أحدهما : أنا فطرتها ؛ أى أنا ابتدأتها . والفَطْر : حلب الناقة بالسبابة والإبهام . والمراد بذكر السموات والأرض العالَم كله ، ونبّه بهذا على أن من قدر على الابتداء قادر على الإعادة . ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ ﴾ لا يجوز فيه التنوين ؛ لأنه لِما مضى . ﴿ رُسُلًا ﴾ مفعول ثان ، ويقال على إضمار فعـل ؛ لأن « فاعلا » إذا كان لِما مضى لم يعمل فيـه شيئا ، وإعماله على أنه مستقبل حذف التنوين منـه تخفيفا . وقـرأ الضحاك « الحمد لله فطر السمواتِ والأرض » على الفعل المـاضى . « جاعِلِ الملائكةِ رسلا » الرسل منهـم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، صـلى الله عليهم أجمعـين . وقرأ الحسن « جاعِلُ الملائكة » بالرفع . وقرأ خُليد بن نشيط « جعـل الملائكة » وكله ظاهر . ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾ نعت ؛ أى أصحـاب أجنحة . ﴿ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾[4] أى اثنين اثنـين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة . قال قتادة : بعضهم له جناحان ، وبعضهم ثلاثة ، وبعضهم أربعة ؛ ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون من الأرض إلى السماء ، وهى مسيرة كذا فى وقت واحد ؛ أى جعلهم رسلا . قال يحيى بن سـلام : إلى الأنبياء . وقال السدّى : إلى العباد برحمة أو نقمة . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه

---

(١) زيادة عن كتاب النحاس يقتضيها السياق .		(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٧٠ ، جـ ٦ ص ٣٩٧

(٣) عقيقة البرق : شعاعه . والكمع (بكسر فسكون) والكميع : الضجيع .		(٤) فى كتاب البحر : « وقيل أولى أجنحة » معترض ، و « مثنى » حال ، والعامل فعل محذوف يدل عليه « رسلا » ؛ أى يرسلون مثنى وثلاث ورباع » .

السلام له ستمائة جناح . وعن الزهرى أن جبريل عليه السلام قال له : "يا محمد، لو رأيت إسرافيل إن له لاثنى عشر ألف جناح منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب وإن العرش لعلى كاهله وإنه فى الأحايين ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود مثل الوَصْع — والوصع عصفور صغير — حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته" . و «أُولُو» اسم جمع لذو، كما أن هؤلاء اسم جمع لذا، ونظيرهما فى المتمكنة : المخاض والخَلِفة[1] . وقد مضى الكلام فى «مثنى وثلاث ورباع» فى «النساء»[2] وأنه غير منصرف . ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أى فى خلق الملائكة، فى قول أكثر المفسرين؛ ذكره المهدوى . وقال الحسن : «يزِيدُ فِي الخلْقِ» أى فى أجنحة الملائكة ما يشاء . وقال الزهرى وابن جُريج : يعنى حسن الصوت . وقد مضى القول فيه فى مقدّمة الكتاب[3] . وقال الهيثم الفارسى : رأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فى منامى؛ فقال : "أنت الهيثم الذى تُزين القرآن بصوتك جزاك الله خيرا" . وقال قتادة : «يزِيدُ فِي الخلقِ ما يشاء» الملاحة فى العينين والحسن فى الأنف والحلاوة فى الفم . وقيل : الخط الحسن . وقال مهاجر الكَلاعِىّ قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "الخط الحسن يزيد الكلام وضوحا" . وقيل : الوجه الحسن . وقيل فى الخبر فى هذه الآية : هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن؛ ذكره القشيرى . النقاش : هو الشعر الجعْد[4] . وقيل : العقل والتمييز . وقيل : العلوم والصنائع . ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من النقصان والزيادة . الزمخشرى : والآية مطلقة تتناول كل زيادة فى الخلق؛ من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام فى الأعضاء، وقوة فى البطش، وحصافة فى العقل، وجزالة فى الرأى، وجُرأة فى القلب، وسماحة فى النفس، وذلاقة فى اللسان، ولباقة فى التكلم، وحسن تأتٍّ[5] فى مزاولة الأمور؛ وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف .

---

(١) المخاض : الحوامل من النوق ، واحدتها خلفة على غير قياس ولا واحد لها من لفظها ؛ كما قالوا لواحدة النساء : امرأة، ولواحدة الإبل : ناقة أو بعير .

(٢) راجع جـ ٥ ص ١٥ وما بعدها .

(٣) راجع (باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى) .

(٤) ما فيه التواء وتقبض . أو القصير منه .

(٥) تأتى فلان لحاجته : إذا ترفق لها وأتاها من وجهها .

قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ وأجاز النحويون في غير القرآن « فلا ممسك له » على لفظ « ما » و « لها » على المعنى . وأجازوا « وما يُمْسِكْ فلا مُرْسِلَ لها » . وأجازوا « ما يفتحُ الله للناس من رحمة » (بالرفع) تكون « ما » بمعنى الذى . أى إن الرسل بعثوا رحمة للناس فلا يقدر على إرسالهم غير الله . وقيل : ما يأتيهم به الله من مطر أو رزق فلا يقدر أحد أن يمسكه ، وما يمسك من ذلك فلا يقدر أحد على أن يرسله . وقيل : هو الدعاء ؛ قاله الضحاك . ابن عباس : من توبة . وقيل : من توفيق وهداية .

قلت : ولفظ الرحمة يجمع ذلك ؛ إذ هى منكّرة للإشاعة والإبهام ، فهى متناولة لكل رحمة على البدل ؛ فهو عام فى جميع ما ذكر . وفى موطأ مالك أنه بلغه أن أبا هريرة كان يقول إذا أصبح وقد مُطر الناس : مطرنا بنَوْء الفتح ، ثم يتلو هذه الآية « مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا » . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [1] تقدم .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ معنى هذا الذكر الشكر . ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ يجوز [2] فى « غير » الرفع والنصب والخفض ؛ فالرفع من وجهين : أحدهما — بمعنى هل من خالق إلا الله ، بمعنى ما خالق إلا الله . والوجه الثانى — أن يكون نعتا على الموضع ؛ لأن المعنى : هل خالق غير الله ، و « من » زائدة . والنصب على الاستثناء .

(١) راجع ج ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية . (٢) فى بعض نسخ الأصل : « يجوز فى القرآن الرفع ... » الخ وفى البعض الآخر : « يجوز فى غير القرآن » .

والخفض على اللفظ . قال حُميد الطويل : قلت للحسن : من خلق الشر ؟ فقال سبحان الله ! هل من خالق غير الله جل وعز، خلق الخير والشر. وقرأ حمزة والكسائى : « هل مِن خالِقٍ غيرِ اللهِ » بالخفض . الباقون بالرفع . ﴿ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى المطر . ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ أى النبات . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ من الأَفْك (بالفتح) وهو الصرف ؛ يقال : ما أَفَكَكَ عن كذا ، أى ما صرفك عنه . وقيل : من الإفك (بالكسر) وهو الكذب ، ويرجع هذا أيضا إلى ما تقدم؛ لأنه قول مصروف عن الصدق والصواب ؛ أى من أين يقع لكم التكذيب بتوحيد الله . والآية حجة على القدرية لأنه نفى خالقا غير الله وهم يثبتون معه خالقين، على ما تقدم فى غير موضع .

قوله تعالى : وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ﴾ يعنى كفار قريش . ﴿ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يعزّى نبيّه ويُسلّيه صلى الله عليه وسلم، وليتأسّى بمن قبله فى الصبر . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ قرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حَيْوة وابن مُحَيْصِن وحُميد والأعمش وحمزة ويحيى والكسائى وخَلَف (بفتح التاء) على أنه مسمى الفاعل . واختاره أبو عبيد لقوله تعالى: « أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ »[1] الباقون « تُرْجَعُ » على الفعل المجهول .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ هذا وعظ للمكذبين للرسول بعد إيضاح الدليل على صحة قوله : إن البعث والثواب والعقاب حق . ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ قال سعيد بن جبير : غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة،

(١) آخر سورة الشورى .

حتى يقول : يا ليتنى قدمت لحياتى . ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ قال ابن السكيت وأبو حاتم : « الغَرور » الشيطان . وغَرور جمع غَرّ، وغَرّ مصدر . ويكون « الغرور » مصدرا وهو بعيد عند غير أبى إسحاق؛ لأن « غررته » متعدّ، والمصدر المتعدّى إنما هو على فَعْل؛ نحو : ضربته ضربا؛ إلا فى أشياء يسيرة لا يقاس عليها؛ قالوا : لزمته لُزوما، ونَهكه المرض نُهوكا . فأما معنى الحرف فأحسن ما قيل فيه ما قاله سعيد بن جبير، قال : الغَرور بالله أن يكون الإنسان يعمل بالمعاصى ثم يتمنّى على الله المغفرة . وقراءة العامة « الغرور » (بفتح الغين) وهو الشيطان؛ أى لا يغرّنكم بوساوسه فى أنه يتجاوز عنكم لفضلكم . وقرأ أبو حَيْوة وأبو السّمّال العدوىّ ومحمد بن السَّمَيْقع « الغُرور » (برفع الغين) وهو الباطل؛ أى لا يغرّنكم الباطل . وقال ابن السِّكّيت : والغرور (بالضم) ما اغترّ به من متاع الدنيا . قال الزجاج : ويجوز أن يكون الغرور جمع غارّ؛ مثل قاعد وقعود . النحاس : أو جمع غَرّ، أو يُشبّه بقولهم : نهكه المرض نهوكا ولزمه لزوما . الزمخشرىّ : أو مصدر « غرّه » كاللزوم والنهوك .

قوله تعالى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ أى فعادوه ولا تطيعوه . ويدلّكم على عداوته إخراجه أباكم من الجنة، وضمانه إضلالكم فى قوله : « وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ »[1] الآية . وقوله : « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ »[2] الآية . فأخبرنا جلّ وعزّ أن الشيطان لنا عدوّ مبين، واقتص علينا قصته، وما فعل بأبينا آدم صلى الله عليه وسلم، وكيف انتدب لعداوتنا وغرورنا من قبل وجودنا وبعده، ونحن على ذلك نتولّاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا . وكان الفضيل بن عِياض يقول : يا كذاب

(١) آية ١١٩ سورة النساء . (٢) آية ١٦ سورة الأعراف .

يا مُفْتَرٍ، اتق الله ولا تسب الشيطان فى العلانية وأنت صديقه فى السر . وقال ابن السماك : يا عجبًا لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه، وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته . وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة » مجودا (١) . و « عدُو » فى قوله : « إن الشيطان لكم عَدُوٌّ » يجوز أن يكون بمعنى معادٍ، فيثنى ويجمع ويؤنث . ويكون بمعنى النسب فيكون موحّدا بكل حال؛ كما قال جل وعز : « فإنهم عدُوٌّ لى (٢) » . وفى المؤنث على هـذا أيضا عدو . النحاس : فأما قول بعض النحويين إن الواو خفيـة فجاءوا بالهاء فخطأ، بل الواو حرف جلد . ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ ﴾ كفّت « ما » « إنّ » عن العمل فوقع بعـدها الفعل . ﴿ حِزْبَهُ ﴾ أى أشياعه . ﴿ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ فهذه عداوته . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ يكون « الذين » بدلا « من أصحاب » فيكون فى موضـع خفض، أو يكون بدلا من « حِزْبَهُ » فيكون فى موضع نصب، أو يكون بدلا من الواو فيكون فى موضع رفـع . وقول رابع وهو أحسنها — يكون فى موضع رفع بالابتداء ويكون خبره « لهم عذابٌ شديد »؛ وكأنه سبحانه بين حال موافقته ومخالفته، ويكون الكلام قد تمّ فى قوله : « مِن أصحاب السعير » ثم ابتدأ فقال : « الذين كفروا لهم عذابٌ شديدٌ » . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فى موضع رفع بالابتداء أيضا، وخبره ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ أى لذنوبهم . ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وهو الجنة .

قوله تعالى : أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ (٨)

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ « مَن » فى موضـع رفع بالابتداء، وخبره محذوف . قال الكسائىّ : والذى يدلّ عليه قوله تعالى : «فلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عليهم حَسَرَاتٍ» فالمعنى : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ذهبت نفسك عليهم حسرات . قال : وهذا كلام

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٠٩ طبعة ثانية . (٢) آية ٧٧ سورة الشعراء .

عربيّ طريف لا يعرفه إلا قليل . وذكره الزمخشريّ عن الزجاج . قال النحاس : والذى قاله الكسائىّ أحسن ما قيل فى الآية ؛ لما ذكره من الدلالة على المحذوف ، والمعنى أن الله جل وعز نهى نبيّه عن شدة الاغتمام بهم والحزن عليهم ؛ كما قال جل وعز : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ » قال أهل التفسير : قاتل . قال نصر بن علىّ : سألت الأصمعىّ عن قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فى أهل اليمن : "هم أرقّ قلوبا وأبخع طاعةً" مامعنى أبخع ؟ فقال : أنصح . فقلت له : إن أهل التفسير مجاهدا وغيره يقولون فى قول الله عز وجل : « لعلك باخِعٌ نفسك » : معناه قاتِل نفسك . فقال: هو من ذاك بعينه ؛ كأنه من شدة النصح لهم قاتل نفسه . وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير ، مجازه : أفمن زُيّن له سوءُ عمله فرآه حسنا ، فلا تَذهب نفسُك عليهم حسرات ، فإن الله يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء . وقيل : الجواب محذوف ؛ المعنى أفمن زُيّن له سوءُ عمله كمن هدى ، ويكون يدل على هذا المحذوف « فإنّ الله يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء » . وقرأ يزيد بن القَعْقاع « فلا تُذْهِب نفسَك » . وفى « أفمنْ زُيّن له سُوءُ عمله » أربعة أقوال : أحدها — أنهم اليهود والنصارى والمجوس ؛ قاله أبو قِلابة . ويكون « سوء عمله » معاندة الرسول عليه الصلاة والسلام . الثانى — أنهم الخوارج ؛ رواه عمر بن القاسم . فيكون « سوء عمله » تحريف التأويل . الثالث — الشيطان ؛ قاله الحسن . ويكون « سوء عمله » الإغواء . الرابع — كفار قريش ؛ قاله الكلبى . ويكون « سوء عمله » الشرك . وقال : إنها نزلت فى العاص بن وائل السَّهْمى والأسود بن المطلب . وقال غيره : نزلت فى أبى جهل بن هشام . ﴿ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ أى صوابا ؛ قاله الكلبىّ . وقيل : جميلا .

قلت : والقول بأن المراد كفار قريش أظهر الأقوال ؛ لقوله تعالى : « ليس عليك هداهم »[(١)] ، وقوله : « وَلَا يَحْزُنْكَ الذين يُسارِعُونَ فِى الكفرِ »[(٢)] ، وقوله : « فلَعلّك باخِعٌ نفسَك على آثارِهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا »[(٣)] ، وقوله : « لعلك باخِعٌ نفسك ألّا يكونوا مؤمنين »[(٤)] ،

(١) آية ٢٧٢ سورة البقرة . (٢) آية ١٧٦ سورة آل عمران . (٣) آية ٦ سورة الكهف .
(٤) آية ٣ سورة الشعراء .

وقوله فى هذه الآية : «فلا تَذْهَبْ نفسُك عليهم حسراتٍ» . وهذا ظاهر بيّن؛ أى لا ينفع تأسفك على مقامهم على كفرهم ، فإن الله أضلهم . وهـذه الآية تردّ على القـدرية قولهم على ما تقدم؛ أى أفمن زُيّن له سوءُ عمله فرآه حسنا تريد أن تهديه ، و إنما ذلك إلى الله لا إليك ، والذى إليك هو التبليغ . وقرأ أبو جعفر وشيبة وابن مُحَيْصِن « فلا تُذهِب » بضم التاء وكسر الهاء « نفسَـك » نصبا على المفعول ؛ والمعنيان متقاربان . « حسراتٍ » منصوب مفعول من أجله؛ أى فلا تذهب نفسك للحسرات . و «عليهم» صلة «تذهب» ؛ كما تقول : هلك عليه حُبًّا ومات عليه حزنا . وهو بيان للتحسر عليه . ولا يجوز أن يتعلق بالحسرات ؛ لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته. ويجوز أن يكون حالا كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسّر؛ كما قال جرير :

مَشَقَ الهواجِرُ لَحمَهنّ مع السُّرَى * حتى ذَهبْنَ كَلاكِلًا وصُدورَا

يريد : رجعن كلاكلا وصدورا؛ أى لم يبق إلا كلا كلها وصدورها . ومنه قول الآخر :

فعلى إثرهم تساقط نفسى * حسرات وذكرهم لى سقام

أو مصدرا . ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ ميّت وميْت واحد ، وكذا ميّتة وميْتة؛ هذا قول الحُذّاق من النحويين . وقال محمد بن يزيد : هذا قول البصريين ، ولم يستثن أحدا ، واستدل على ذلك بدلائل قاطعة . وأنشد :

ليس من مات فاستراح بمَيْتٍ * إنما الميْت ميّت الأحياء

إنما الميْت من يعيش كئيبًا * كاسفًا باله قليلَ الرجاء

قال : فهل ترى بين ميّت وميْت فرقا، وأنشد :

هَيْنون لَيْنون أَيسارُ بنـو يَسَر * سُـواس مَكْرُمة أبناء أَيْسار

قال : فقـد أجمعوا على أن هَيْنون ولَيْنون واحد، وكذا ميّت وميْت وسيّد وسَيْد . قال : « فَسُقْنَاه » بعـد أن قال : « واللهُ الذِى أرْسَـل الرياحَ » وهو من باب تلوين الخطاب . وقال أبو عبيدة : سبيله « فَتَسُوقُه » ؛ لأنه قال : « فَتُثِيرُ سَحَاباً » . الزمخشرى : فإن قلت : لم جاء « فتثير » على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟ قلت : لتحكى الحال التى تقع فيها إثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب، أو تهم المخاطب أو غير ذلك . كما قال تأبّط شرا :

بأنى قـد لقيت الغول تهوى * بسَهْب[1] كالصحيـفة صحصحان

فأضربها بلا دَهَش فخـرت * صريعا لليـدين وللجران[2]

لأنه قصد أن يصوّر لقومه الحالة التى تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، كأنه يُبصرهم إياها، ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هَول، وثباته عند كل شدّة . وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت ، لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : « فسقنا » و « أحيينا » معـدولا بهما عن لفظة الغيبة إلى ما هو أدخل فى الاختصاص وأدلّ عليـه . وقراءة العـامة « الرياح » . وقرأ ابن مُحَيْصن وابن كثير والأعمش ويحيى وحـمزة والكسائى « الريح » توحيدا . وقد مضى بيان هـذه الآية والكلام فيها مستوفى[3] . ﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ أى كذلك تُحيوْن بعـد ما متم؛ من نشر الإنسان نشورا . فالكاف فى محل الرفع ؛ أى مثـل إحياء الموات نشر الأموات . وعن أبى رزين العقيلى قال : قلت يا رسول الله ، كيف يحيى الله الموتى ، وما آية ذلك فى خلقـه ؟ قال : " أمَا مررتَ بوادى أهلك مُمْحِلًا ثم مررت به يهتز خَضِرا " قلت : نعم يا رسول الله . قال : " فكذلك يحيى الله الموتى وتلك آيته فى خلقه " وقد ذكرنا هذا الخبر فى « الأعراف[4] » وغيرها .

(١) السهب (بالفتح) : الفضاء المستوى البعيد الأطراف . والصحيفة : الكتاب . والصحصحان (بالفتح) : المستوى من الأرض . (٢) الجران (بالكسر) : مقدم العنق من مذبح البعير الى منحره .
(٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٨ طبعة ثانية . (٤) راجع جـ ٧ ص ٢٣٠

قوله تعالى : مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠)

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ التقدير عند الفراء : من كان يريد علم العزة . وكذا قال غيره من أهل العلم . أى من كان يريد علم العزة التى لا ذلة معها؛ لأن العزة إذا كانت تؤدى إلى ذلة فإنما هى تعرض للذلّة، والعزةُ التى لا ذُلّ معها لله عز وجل . ﴿ جميعًا ﴾ منصوب على الحال . وقدّر الزجاج معناه : من كان يريد بعبادته الله عز وجل العزّة — والعزة له سبحانه — فإن الله عز وجل يُعزه فى الآخرة والدنيا .

قلت : وهذا أحسن، وروى مرفوعا على ما يأتى . ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ ظاهر هذا إيئاس السامعين من عزته، وتعريفهم أن ما وجب له من ذلك لا مطمع فيه لغيره؛ فتكون الألف واللام للعهد عند العالمين به — سبحانه — وبما وجب له من ذلك، وهو المفهوم من قوله الحق فى سورة يونس : « وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ »[١] . ويحتمل أن يريد سبحانه أن ينبه ذوى الأقدار والهمم من أين تنال العزة ومن أين تُستحق ؛ فتكون الألف واللام للاستغراق ، وهو المفهوم من آيات هذه السورة . فمن طلب العزة من الله وصدقه فى طلبها بافتقار وذل ، وسكون وخضوع ، وجدها عنده — إن شاء الله — غير ممنوعة ولا محجوبة عنه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " من تواضع لله رفعه الله " . ومن طلبها من غيره وَكَله إلى من طلبها عنده . وقد ذكر قوما طلبوا العزة عند من سواه فقال : « الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا »[٢] . فأنبأك صريحا لا إشكال فيه أن العزة له يُعزّ بها من يشاء ويُذل من يشاء . وقال صلى الله عليه وسلم مفسرا لقوله « من كان يريد

---

(١) آية ٦٥ (٢) آية ١٣٩ سورة النساء .

العزّة فلله العزّةُ جميعا » : ”من أراد عز الدارين فليطع العزيز“ . وهذا معنى قول الزجاج.
ولقد أحسن من قال :

و إذا تذلّلت الرقاب تواضعا * منا إليك فعـزّها فى ذلّها

فمن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر، و يدخل دار العزة — ولله العزة — فليقصد بالعزة الله سبحانه والاعتزاز به ؛ فإنه من اعتز بالعبد أذله الله، ومن اعتز بالله أعزه الله .

قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ وتمّ الكلام، ثم تبتدئ ﴿ وَالْعَمَلُ الصالحُ يَرْفَعُهُ ﴾ على معنى : يرفعه الله ، أو يرفع صاحبه . و يجوز أن يكون المعنى : والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب ؛ فيكون الكلام متصلا على ما يأتى بيانه . والصعود هو الحركة إلى فوق ، وهو العروج أيضا . ولا يتصور ذلك فى الكلام لأنه عرَض ، لكن ضرب صعوده مثلا لقبوله ؛ لأن موضع الثواب فوق ، وموضع العذاب أسفل . وقال الزجاج : يقال ارتفع الأمر إلى القاضى أى علمه؛ فهو بمعنى العلم . وخص الكلام الطيب بالذكر لبيان الثواب عليه . وقوله : « إليه » أى إلى الله يصعد . وقيل : يصعد إلى سمائه والمحل الذى لايجرى فيه لأحد غيره حكم . وقيل : أى يحمل الكتاب الذى كتب فيه طاعات العبد إلى السماء . و « الكَلِمُ الطَّيِّبُ » هو التوحيد الصادر عن عقيدة طيبة . وقيل : هو التحميد والتمجيد وذكر الله ونحوه . وأنشدوا :

لا ترض من رجل حلاوةَ قوله * حتى يُزيّن ما يقول فعالُ
فإذا وزنت فَعاله بمقاله * فتوازنا فإخاء ذاك جمالُ

وقال ابن المُقَفَّع : قول بلا عمل ، كثريد بلا دَسَم ، وسحاب بلا مطر ، وقوس بلا وتر .
وفيه قيل :

لا يكون المقال إلا بفعلٍ * كلُّ قولٍ بلا فعالٍ هَباءُ
إنّ قولًا بلا فعالٍ جميل * ونِكاحًا بلا وَلِىّ سواء

وقرأ الضحاك «يصعد» بضم الياء[1]. وقرأ جمهور الناس «الكلم» جمع كلمة. وقرأ أبو عبدالرحمن «الكلام».

قلت: فالكلام على هذا قد يطلق بمعنى الكلم و بالعكس؛ وعليه يخرج قول أبي القاسم: أقسام الكلام ثلاثة؛ فوضع الكلام موضع الكلم، والله أعلم. ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: المعنى والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب. وفي الحديث "لا يقبل الله قولا إلا بعمل ولا يقبل قولا وعملا إلا بنية ولا يقبل قولا وعملا ونية إلا بإصابة السُّنة". قال ابن عباس: فإذا ذكر العبد الله وقال كلاما طيبا وأدّى فرائضه، ارتفع قوله مع عمله، و إذا قال ولم يؤدّ فرائضه ردّ قوله على عمله. قال ابن عطية: وهذا قول يرده معتقد أهل السنة ولا يصح عن ابن عباس، والحق أن العاصي التارك للفرائض إذا ذكر الله وقال كلاما طيبا فإنه مكتوب له متقبل منه، وله حسناته وعليه سيئاته؛ والله تعالى يتقبل من كل من اتقى الشرك. وأيضا فإن الكلام الطيب عمل صالح، وإنما يستقيم قول من يقول: إن العمل هو الرافع للكلم، بأن يتأول أنه يزيده في رفعه وحسن موقعه إذا تعاضد معه. كما أن صاحب الأعمال من صلاة وصيام وغير ذلك، إذا تخلل أعماله كَلِمٌ طيِّب وذكر الله تعالى كانت الأعمال أشرف؛ فيكون قوله: «والعَمَلُ الصالحُ يرفعه» موعظةً وتذكرة وحَضًّا على الأعمال. وأما الأقوال التي هي أعمال في نفوسها؛ كالتوحيد والتسبيح فمقبولة.

قال ابن العربيّ: «إن كلام المرء بذكر الله إن لم يقترن به عمل صالح لم ينفع؛ لأن من خالف قوله فعله فهو وبال عليه، وتحقيق هذا: أن العمل إذا وقع شرطا في قبول القول أو مرتبطا، فإنه لا قبول له إلا به، و إن لم يكن شرطا فيه فإن كلمه الطيب يكتب له، وعمله السّيئ يكتب عليه، وتقع الموازنة بينهما، ثم يحكم الله بالفوز والربح والخسران».

قلت: ما قاله ابن العربيّ تحقيق. والظاهر أن العمل الصالح شرط في قبول القول الطيب. وقد جاء في الآثار "أن العبد إذا قال: لا إله إلا الله بنية صادقة نظرت الملائكة

---

(1) في روح المعاني: «وقال ابن عطية: وقرأ الضحاك «يصعد» بضم الياء ولم يذكر مبنيا للفاعل ولا مبنيا للمفعول، ولا إعراب ما بعده».

إلى عمله، فإن كان العمل موافقا لقوله صعدا جميعا ، و إن كان عمله مخالفا وقف قوله حتى يتوب من عمله" . فعلى هذا العمل الصالح يرفع الكلمَ الطيب إلى الله . والكناية فى « يرفعه » ترجع إلى الكلم الطيب . وهذا قول ابن عباس وشَهْر بن حَوْشَب وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وأبى العالية والضحاك . وعلى أن « الكلم الطيب » هو التوحيد ، فهو الرافع للعمل الصالح ؛ لأنه لا يقبل العمل الصالح إلا مع الإيمان والتوحيد . أى والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب ؛ فالكناية تعود على العمل الصالح . وروى هذا القول عن شَهْر بن حَوْشَب قال : « الكلم الطيب » القرآن « والعمل الصالح يرفعه » القرآن . وقيل : تعود على الله جل وعز ؛ أى أن العمل الصالح يرفعه الله على الكَلِم الطيب ؛ لأن العمل تحقيق الكَلِم ، والعامل أكثر تعباً من القائل ، وهذا هو حقيقة الكلام ؛ لأن الله هو الرافع الخافض . والثانى والأول مجاز ، ولكنه سائغ جائز . قال النحاس : القول الأول أَوْلاها وأصحها لعلو من قال به ، وأنه فى العربية أَوْلى ؛ لأن القراء على رفع العمل . ولو كان المعنى : والعملَ الصالح يرفعه الله ، أو العمل الصالح يرفعه[1] الكلم الطيب ، لكان الاختيار نصب العمل . ولا نعلم أحدا قرأه منصوبا إلا شيئا رُوى عن عيسى بن عمر أنه قال : قرأه أناس « والعملَ الصالحَ يرفعه الله » . وقيل : والعمل الصالح يرفع صاحبه ، وهو الذى أراد العزة وعلم أنها تُطلب من الله تعالى ؛ ذكره القشيرى .

الثانيـــة — ذكروا عند ابن عباس أن الكلب يقطع الصلاة ، فقرأ هذه الآية « إِليهِ يَصْعَدُ الكلمُ الطيِّبُ والعملُ الصالحُ يرفعه » . وهذا استدلال بعموم على مذهب السلف فى القول بالعموم ، وقد دخل فى الصلاة بشروطها ، فلا يقطعها عليه شىء إلا بثبوت ما يوجب ذلك ؛ من مثل ما انعقدت به من قرآن أو سنة أو إجماع . وقد تعلّق من رأى ذلك بقوله عليه السلام : " يقطع الصلاةَ المرأةُ والحمارُ والكلب الأسود " فقلت : ما بال الكلب الأسود من الكلب الأبيض من الكلب الأحمر؟ فقال : " إن الأسود شيطان " خرجه مسلم[2] . وقد

---

(١) فى الاصول : يرفع . (٢) أورد المؤلف هذا الحديث بمعناه لا بلفظه .

جاء ما يعارض هـذا ، وهو ما خرّجه البخارى عن ابن أخى ابن شهـاب أنه سأل عمـه عن الصلاة يقطعها شئ ؟ فقال : لا يقطعها شئ ، أخبرنى عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : لقد كان رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يقوم فيصلى من الليل، وإنى لمعترضة بينه وبين القبلة على فراش أهله .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ذكر الطبرى فى (كتاب آداب النفوس) : حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال حدّثنا سـفيان عن ليث بن أبى سليم عن شَهْر بن حَوْشب الأشعرى فى قوله عز وجل : « والذين يَمْكُرُون السيِّئَاتِ لهم عذابٌ شـديدٌ ومَكْرُ أولئك هو يَبُورُ » قال : هم أصحاب الرياء ؛ وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتـادة . وقال أبو العالية : هم الذين مكروا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا اجتمعوا فى دار النَّدْوَة . وقال الكلبى : يعنى الذين يعملون السيئات فى الدنيا. مقاتل: يعنى الشرك؛ فتكون «السيئات» مفعولة. ويقال: بار يبور إذا هـلك وبطل . وبارت السوق أى كسدت ؛ ومنه : نعـوذ بالله من بَوار الأيِّم [1] . وقوله : « وكُنْتُم قَـوْمًا بُورًا [2] » أى هَلْكَى . والمكر ما عمـل على سبيل احتيال وخديعـة . وقد مضى فى « سـبأ [3] » .

قوله تعـالى : وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ قال سعيد عن قتادة قال : يعنى آدم عليه السلام؛ والتقدير على هذا : خلق أصلكم من تراب . ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ قال : أى التى أخرجها من ظهور آبائكم . ﴿ ثم جعلكم أزواجا ﴾ قال : أى زوّج بعضكم بعضـا ؛ فالذكر زوج الأنثى ليـتم البقاء فى الدنيا إلى انقضاء مدّتها . ﴿ وَمَا تَحْمِـلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ

(١) الأيم : التى لا زوج لها. (٢) آية ١٢ سورة الفتح. (٣) راجع ص ٣٠٢ من هذا الجزء.

﴿ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ أى جعلكم أزواجا فيتزوج الذكر بالأنثى فيتناسلان بعـلم الله ، فلا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به ، فلا يخرج شيء عن تدبيره . ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ سماه معمّرا بما هـو صائر إليه . قال سـعيد بن جبير عن ابن عباس : « وما يُعَمَّر من مُعَمَّر » إلا كتب عمـره ، كم هو سنة كم هو شهرا كم هو يوما كم هو ساعة ؛ ثم يكتب فى كتاب آخر : نقص من عمـره يوم ، نقص شهر ، نقص سـنة ، حتى يستوفى أجله . وقاله سـعيد بن جبير أيضا ، قال : فما مضى من أجله فهو النقصان ، وما يستقبل فهو الذى يعمره ؛ فالهاء على هـذا للعمّر . وعن سعيد أيضا : يكتب عمره كذا وكذا سنة ، ثم يكتب فى أسفل ذلك : ذهب يوم ، ذهب يومان ، حتى يأتى على آخره . وعن قتادة : المعمّر من بلغ ستين سـنة ، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة . ومذهب الفرّاء فى معنى « وما يُعَمَّر مِن مُعَمَّرٍ » أى ما يكون من عمره « ولا يُنْقَص مِن عُمُرِهِ » بمعنى معمر آخر ؛ أى ولا ينقص الآخر من عمره إلا فى كتاب . فالكناية فى « عمره » ترجع إلى آخر غير الأول . وكنّى عنه بالهاء كأنه الأول ؛ ومثله قولك : عندى درهم ونصفه ؛ أى نصف آخر . وقيل : إن الله كتب عمر الإنسان مائة سنة إن أطاع ، وتسعين إن عصى ، فأيهما بلغ فهو فى كتاب . وهذا مثل قوله عليه الصلاة والسـلام : "من أحب أن يُبْسَط له فى رزقه ويُنْسأ له فى أثره[1] فليصل رحمه" أى أنه يكتب فى اللوح المحفوظ : عمر فـلان كذا سنة ، فإن وصل رحمـه زيد فى عمره كذا سنة . فبيّن ذلك فى موضع آخر من اللوح المحفوظ ، إنه سيصل رحمـه ، فمن آطلع على الأول دون الثانى ظن أنه زيادة أو نقصان . وقد مضى هـذا المعنى عند قوله تعـالى : « يَمْحُـو اللهُ ما يشاء ويُثْبِت »[2] والكناية على هذا ترجع إلى العمر . وقيل : المعنى وما يعمّر من معمّر أى هرم ، ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا فى كتاب ؛ أى بقضاء من الله جل وعز . روى معناه عن الضحاك واختاره النحاس ، قال : وهو أشبهها بظاهر التنزيل . وروى نحوه عن ابن عباس . فالهاء على هـذا يجوز أن تكون للعمر ، ويجوز أن تكون لغير

(١) ينسأ : يؤخر . والأثر : الأجل ؛ لأنه تابع للحياة فى أثرها .   (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٢٩

المعمر . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى كتابة الأعمال والآجال غير متعذر عليه . وقراءة العامة « يُنْقَصُ » بضم الياء وفتح القاف . وقرأت فرقة منهم يعقوب « يَنْقُصُ » بفتح الياء وضم القاف؛ أى لا ينقص من عمره شىء . يقال : نَقَصَ الشىءُ بنفسه ونقصه غيرُه، وزاد بنفسه وزاده غيره ، متعدّ ولازم . وقرأ الأعرج والزهرىّ « مِنْ عُمْرِه » بتخفيف الميم . وضمها الباقون . وهما لغتان مثل السُّحْق والسُّحُق . و « يَسِيرٌ » أى إحصاءُ طويلِ الأعمار وقصيرِها لا يتعذّر عليه شىء منها ولا يعزب . والفعل منه : يَسُر . ولو سميت به إنسانا انصرف؛ لأنه فعيل .

قوله تعالى : وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قال ابن عباس : «فُرَاتٌ» حلو، و «أُجَاجٌ» مُرٌّ . وقرأ طلحة « هذا مَلِحٌ أجاج » بفتح الميم وكسر اللام بغير ألف . وأما المالح فهو الذى يجعل فيه الملح . وقرأ عيسى وابن أبى إسحاق «سيغ شرابه» مثل سيد وميت . ﴿ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ لا اختلاف فى أنه منهما جميعا . وقد مضى فى « النحل » الكلام فيه [(١)] .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ مذهب أبى إسحاق أن الحلية إنما تستخرج من الملح ، فقيل منهما لأنهما مختلطان . وقال غيره : إنما تستخرج الأصداف التى فيها الحليـة من الدُّر وغيره من المواضع التى فيها العـذب والملح نحو العيون ، فهو مأخوذ منهما ؛ لأن فى البحر عيونا عذبة ، و بينهما يخرج اللؤلؤ عند التمازج . وقيل :

(١) راجع جـ ١٠ ص ٨٥

من مطر السماء . وقال محمد بن يزيد قولا رابعا، قال : إنما تستخرج الحلية من الملح خاصة. النحاس : وهذا أحسنها وليس هذا عنده؛ لأنهما مختلطان، ولكن جمعا ثم أخبر عن أحدهما كما قال جل وعز : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ »(١) . وكما تقول : لو رأيت الحسن والحجاج لرأيت خيرا وشرًّا . وكما تقول : لو رأيت الأَصْمَعِىّ وسيبويه لملأت يدك لغة ونحوًا . فقد عرف معنى هذا ، وهو كلام فصيح كثير؛ فكذا « وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا » فاجتمعا فى الأول وانفرد الملح بالثانى .

الثالثــة — وفى قوله : « تَلْبَسُونَهَا » دليـل على أن لباس كل شىء بحسبه ؛ فالخاتم يجعل فى الإصبع، والسوار فى الذراع، والقلادة فى العنق، والخلخال فى الرِّجل . وفى البخارى والنسائى عن ابن سيرين قال قلت لعبيدة : افتراش الحرير كلبسه ؟ قال نعم . وفى الصحاح عن أنس " فقمت على حصير لنا قد اسودّ من طول ما لبس " . الحديث .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ قال النحاس : أى ماء الملح خاصة، ولولا ذلك لقال فيهما . وقد مخرت السفينة تَمْخُر إذا شقّت المـاء . وقد مضى هذا فى « النحل »(٢) . ﴿ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ قال مجاهـد : التجارة فى الفلك إلى البلدان البعيدة فى مدّة قريبة ؛ كما تقدم فى « البقرة »(٣) . وقيل : ما يستخرج من حليته ويصاد من حيتانه . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ على ما آتاكم من فضله . وقيل : على ما أنجاكم من هوله .

قوله تعـالى : يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ﴾ تقدّم فى « آل عمران »(٤) وغيرها . ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ تقـدّم فى « لقمان »(٥) بيـانه .

(١) آية ٧٣ سورة القصص .　(٢) راجع جـ ١٠ ص ٨٩　(٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ وما بعدها طبعة ثانية .　(٤) راجع جـ ٤ ص ٥٦　(٥) راجع ص ٧٨ من هذا الجزء .

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ أى هـذا الذى من صنعه ما تقرر هو الخالق المدبر، والقادر المقتدر؛ فهو الذى يعبد . ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ يعنى الأصنام . ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ أى لا يقدرون عليـه ولا على خلقه . والقِطمير : القشرة الرقيقة البيضاء التى بين التمرة والنواة؛ قاله أكثر المفسرين . وقال ابن عباس : هو شِق النواة؛ وهو اختيار المبرد، وقاله قتادة . وعن قتادة أيضا : القِطمير القِمْع الذى على رأس النواة . الجوهرى : ويقال هى النكتة البيضاء التى فى ظهر النواة، تنبت منها النخلة .

قوله تعالى : إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ أى إن تستغيثوا بهم فى النوائب لا يسمعوا دعاءكم؛ لأنها جمادات لا تبصر ولا تسمع . ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ إذ ليس كل سامع ناطقا . وقال قتادة : المعنى لو سمعوا لم ينفعوكم . وقيـل : أى لو جعلنا لهم عقـولا وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم ، ولما استجابوا لكم على الكفر . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أن يجحدون أنكم عبدتموهم، ويتبرءون منكم . ثم يجوز أن يرجع هذا إلى المعبودين مما يعقل؛ كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين؛ أى يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقا، وأنهم أمروكم بعبادتهم؛ كما أخبر عن عيسى بقوله : « مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ »[1] . ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضا؛ أى يحييها الله حتى تخبر أنها ليست أهـلا للعبادة . ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ هو الله جل وعز؛ أى لا أحد أخبر بخلق الله من الله، فلا ينبئك مثله فى عمله[2] .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

(١) آية ١١٦ سورة المائدة . (٢) فى بعض النسخ : «علمه» .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى المحتاجون إليه فى بقائكم وكل أحوالكم . الزمخشرى : « فإن قلت لم عرّف الفقراء ؟ قلت : قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدّة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء ، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم ؛ لأن الفقر مما يتبع الضعف ، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر ؛ وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف فى قوله : « وخُلِق الإنسانُ ضعيفًا »(1) ، وقال : « اللهُ الذى خلقكم من ضَعْف »(2) ولو نكر لكان المعنى : أنتم بعض الفقراء . فإن قلت : قد قوبل « الفقراء » بـ « الغنى » فما فائدة « الحميد » ؟ قلت : لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم ، وليس كل غنى نافعا بغناه إلا إذا كان الغنى جوادا منعما ، وإذا جاد وأنعم حمده المنعَم عليهم واستحق عليهم الحمد — ذكر « الحميد » ليدل به على أنه الغنى النافع بغناه خلقه ، الجواد المنعم عليهم ، المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه » . وتخفيف الهمزة الثانية أجود الوجوه عند الخليل ، ويجوز تخفيف الأولى وحدها وتخفيفهما وتحقيقهما جميعا . ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ تكون « هو » زائدة ، فلا يكون لها موضع من الإعراب ، وتكون مبتدأة فيكون موضعها رفعا .

قوله تعالى : إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ فيه حذف ؛ المعنى إن يشأ [أن](3) يذهبكم ؛ أى يفنيكم . ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى أطوع منكم وأزكى . ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أى ممتنع عسير متعذر . وقد مضى هذا فى « إبراهيم »(4) .

قوله تعالى : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

(1) آية ٢٨ سورة النساء . (2) آية ٥٤ سورة الروم . (3) زيادة عن النحاس . (4) راجع جـ ٩ ص ٣٥٤

تقدم الكلام فيه [1]، وهو مقطوع مما قبله . والأصل « تَوْزَر » حذفت الواو اتباعا ليزر . ﴿ وَازِرَةٌ ﴾ نعت لمحذوف ؛ أى نفس وازرة . وكذا ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا ﴾ قال الفرّاء : أى نفس مثقلة أودابة . قال : وهـذا يقع للذكر والمؤنث . قال الأخفش : أى و إن تدع مثقلة إنسانا إلى حِملها وهو ذنوبها . والحِمْل ما كان على الظهر ، والحَمْل حمل المرأة وحمل النخلة ؛ حكاهما الكسائىّ بالفتح لا غير . وحكى ابن السِّكيت أن حمل النخلة يفتح ويكسر . ﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ التقدير على قول الأخفش : ولو كان الإنسان المدعوّ ذا قربى . وأجاز الفرّاء ولو كان ذو قربى . وهذا جائز عند سيبويه ؛ ومثله « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ » فتكون « كان » بمعنى وقع ، أو يكون الخبر محذوفا ؛ أى و إن كان فيمن تطالبون ذو عسرة . وحكى سيبويه : الناس مجزيّون بأعمالهم إن خير فخير ؛ على هذا . وخيرا فخير ؛ على الأوّل . وروى عن عكرمة أنه قال : بلغنى أن اليهودىّ والنصرانىّ يرى الرجل المسلم يوم القيامة فيقول له : ألم أكن قد أسديت إليك يدًا ، ألم أكن قد أحسنت إليك؟ فيقول بلى . فيقول : انفعنى ؛ فلا يزال المسلم يسأل الله تعالى حتى ينقص من عذابه . وأن الرجل ليأتى إلى أبيه يوم القيامة فيقول : ألم أكن بك بارا ، وعليك مشفقا ، و إليك محسنا ، وأنت ترى ما أنا فيه ؛ فهب لى حسنة من حسناتك ، أو احمل عنى سيئة ؛ فيقول : إن الذى سألتنى يسير ؛ ولكنى أخاف مثل ما تخاف . وأن الأب ليقول لابنه مثلَ ذلك فيرد عليه نحوًا من هـذا . وأن الرجل ليقول لزوجته : ألم أكن أحسن العشرة لكِ ، فاحملى عنى خطيئة لعلى أنجو ؛ فتقول : إن ذلك ليسير ولكنى أخاف مما تخاف منه . ثم تلا عكرمة : « وإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » . وقال الفضيل بن عياض : هى المرأة تلق ولدها فتقول : يا ولدى ، ألم يكن بطنى لك وعاء ، ألم يكن ثديى لك سقاء ، ألم يكن حجرى لك وطاء ؛ فيقول : بلى يا أماه ؛ فتقول : يا بنىّ ، قد أثقلتنى ذنوبى فاحمل عنى منها ذنبا واحدا ؛ فيقول : إليكِ عنى يا أماه ، فإنى بذنبى عنكِ مشغول .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٧

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ أى إنما يقبل إنذارك من يخشى عقاب الله تعالى، وهو كقوله تعالى : « إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ »(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ﴾ أى من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه . وقرئ « وَمَنِ ازَّكَّى فَإِنَّمَا يَزَّكَّى لِنَفْسِهِ » . ﴿ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى إليه مرجع جميع الخلق .

قوله تعالى : وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ أى الكافر والمؤمن والجاهل والعالم . مثل : « قل لَا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ »(٢) . ﴿ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴾ قال الأخفش سعيد : « لا » زائدة، والمعنى ولا الظلمات والنور ، ولا الظل والحرور . قال الأخفش : والحَرور لا يكون إلا مع شمس النهار، والسَّموم يكون بالليل ؛ وقيل بالعكس . وقال رُؤْبة ابن العَجّاج : الحرور تكون بالنهار خاصة، والسموم يكون بالليل خاصة؛ حكاه المهدوِىّ . وقال الفرّاء : السموم لا يكون إلا بالنهار، والحرور يكون فيهما . النحاس : وهـذا أصح ؛ لأن الحرور فعول من الحرّ، وفيه معنى التكثير، أى الحرّ المؤذى .

قلت : وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قالت النار رَبِّ أكل بعضى بعضا فأذن لى أتنفس فأذِن لها بنَفَسين نَفَسٍ فى الشتاء ونفس فى الصيف فما وجدتم من برد أو زمهرير فمن نَفَس جهنم وما وجدتم من حَرّ أو حَرور فمن نفس جهنم" . وروى من حديث الزهرىّ عن سعيد عن أبى هريرة : " فما تجدون من الحرّ فمن

(١) آية ١١ سورة يس . (٢) آية ١٠٠ من سورة المائدة :

سمومها و شدّة ما تجدون من البرد فمن زمهريرها " وهـذا يجمع تلك الأقوال ، وأن السموم والحرور يكون بالليل والنهار ؛ فتأمله . وقيل : المراد بالظل والحرور الجنة والنار ؛ فالجنة ذات ظل دائم ؛ كما قال تعـالى : « أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا »(١) والنارُ ذات حَرور ، وقال معناه السُّدّى . وقال ابن عباس : أى ظل الليـل ، وحَرّ السموم بالنهار . قُطْرُب : الحرور الحر ، والظـل البرد . ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ قال ابن قُتيبة : الأحياء العقلاء ، والأموات الجهال . قال قتادة : هـذه كلها أمثال ؛ أى كما لا تستوى هـذه الأشياء كذلك لا يسـتوى الكافر والمؤمن . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى يُسـمع أولياءه الذين خلقهم لجنته . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ أى الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم ؛ أى كما لا تسمع من مات ، كذلك لا تسمع من مات قلبـه . وقرأ الحسن وعيسى الثقفى وعمرو بن مَيْمون « بِمُسْمِعِ مَن فِي القبورِ » بحذف التنوين تخفيفا ؛ أى هم بمنزلة [أهل] القبور فى أنهم لا ينتفعون بمـا يسمعونه ولا يقبلونه .

قوله تعـالى : إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾

أى رسول منـذر ؛ فليس عليك إلا التبليغ ، ليس لك من الهدى شىء ، إنمـا الهدى بيد الله تبارك وتعالى .

قوله تعالى : إِنَّا أَرْسَلْنَٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى بشيرا بالجنة أهل طاعته ، ونذيرا بالنار أهل معصيته . ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أى سلف فيها نبى . قال ابن جريج : إلا العرب .

(١) آية ٣٥ سورة الرعد .

قوله تعالى : وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦)

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ﴾ يعنى كفار قريش . ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أنبياءهم ؛ يسلّى رسوله صلى الله عليه وسلم . ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالمعجزات الظاهرات والشرائع الواضحات . ﴿ وَبِالزُّبُرِ ﴾ أى الكتب المكتوبة . ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أى الواضح . وكرر الزبر والكتاب وهما واحد لاختلاف اللفظين . وقيل : يرجع البينات والزبر والكتاب إلى معنًى واحد، وهو ما أنزل على الأنبياء من الكتب . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى كيف كان عقوبتى لهم . وأثبت ورش عن نافع وشيبة الياء فى « نكيرى » حيث وقعت فى الوصل دون الوقف . وأثبتها يعقوب فى الحالين وحذفها الباقون فى الحالين . وقد مضى هذا كله، والحمد لله .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ هذه الرؤية رؤية القلب والعلم؛ أى ألم ينته علمك ورأيت بقلبك أن الله أنزل؛ فـ «أنّ» واسمها وخبرها سدّت مسدّ مفعولى الرؤية . ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ ﴾ هو من باب تلوين الخطاب . ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ نصبت « مختلفا » نعتا لـ « ثمرات » . ﴿ أَلْوَانُهَا ﴾ رفع بمختلف، وصلح أن يكون نعتا لـ « ثمرات » لما عاد عليه من ذكره . ويجوز فى غير القرآن رفعه؛ ومثله رأيت رجلا خارجا أبوه .

﴿ به ﴾ أى بالمـاء وهـو واحد ، والثمرات مختلفة . ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ الجُدَد جمع جُدّة، وهى الطرائق المختلفـة الألوان، و إن كان الجميع حجرا أو ترابا. قال الأخفش : ولو كان جمـع جديد لقال : جدد (بضم الجيم والدال) نحو سرير وسرر . وقال زهير :

كأنه أسـفع الخـدّين ذو جُدُدٍ * طاوٍ ويرتع بعد الصيف عريانا

وقيـل : إن الجُدَد القِطَع ، مأخوذ من جددت الشيء إذا قطعتـه ؛ حكاه ابن بحر . قال الجوهرىّ : والجُدّة الخُطّة التى فى ظهر الحمار تخالف لونه . والجُدّة الطريقة ، والجمع جُدَد ؛ قال تعـالى : « وِمنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا » أى طرائق تخالف لون الجبل . ومنه قولهم : ركب فلان جُدّةً من الأمر؛ إذا رأى فيه رأيا . وكساء مجدّد فيه خطوط مختلفـة . الزمخشرى : وقرأ الزهرىّ « جدد » بالضم جمع جديدة، وهى الجـدّة ؛ يقال : جديدة وجُدُد وجدائد ؛ كسفينة وسفن وسفائن . وقد فسّر بها قول أبى ذُؤيب :

* جَوْنُ السَّراةِ له جدائد أربعُ *(1)

وروى عنه «جَدَد» بفتحتين، وهو الطريق الواضح المسفر، وضعه موضع الطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض . ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ ﴾ وقرِئ « و الدواب » مخففا . ونظير هـذا التخفيف قراءة من قرأ « ولا الضالين » لأن كل واحد منهما فرّ من التقاء الساكنين ، فحرّك ذلك أوّلها وحذف هذا آخرهما؛ قاله الزمخشرىّ . ﴿ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ أى فيهم الأحمر والأبيض والأسود وغير ذلك ، وكل ذلك دليل على صانع مختار . وقال « مختلفٌ ألوانُه » فذكّر الضمير مراعاة لـ«من» ؛ قاله المؤرّج. وقال أبو بكر بن عياش : إنّمـا ذكر الكناية لأجل أنها مردودة إلى «ما» مضمرة؛ مجازه : ومن الناس ومن الدواب ومن الأنعام ما هو مختلف ألوانه ؛ أى أبيض وأحمر وأسـود . ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ قال أبو عبيدة : الغِربيب الشـديد السواد ؛ ففى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : ومن الجبال

---

(1) صدر البيت : * والدهر لا يبقى على حدثانه *

سود غرابيب . والعرب تقول للشديد السواد الذى لونه كلون الغراب : أسود غربيب . قال الجوهرى : وتقول هذا أسود غربيب ؛ أى شديد السواد . و إذا قلت : غرابيب سود ، تجعل السود بدلا من غرابيب لأن توكيد الألوان لا يتقدم . وفى الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله يبغض الشيخ الغربيب" يعنى الذى يخضب بالسواد . قال امرؤ القيس :

العين طامحة واليد سابحة * والرِّجْل لافحة والوجه غربيب[1]

وقال آخر يصف كرما :

ومن تعاجيب خلق الله غاطيةٌ * يُعصَر منها مُلاحِيٌّ وغِربيب[2]

﴿كذلِك﴾ هنا تمام الكلام؛ أى كذلك تختلف أحوال العباد فى الخشية، ثم استأنف فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ يعنى بالعلماء الذين يخافون قدرته؛ فمن علم أنه عز وجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية؛ كما روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماءُ» قال : الذين علموا أن الله على كل شىء قدير . وقال الربيع بن أنس : من لم يخش الله تعالى فليس بعالِم . وقال مجاهد : إنما العالِم من خشى الله عز وجل . وعن ابن مسعود : كفى بخشية الله تعالى علما و بالاغترار جهلا . وقيل لسعد ابن إبراهيم: مَن أفقه أهل المدينة؟ قال أتقاهم لربه عز وجل . وعن مجاهد قال : إنما الفقيه من يخاف الله عز وجل . وعن على رضى الله عنه قال : إن الفقيه حقّ الفقيه من لم يُقنط

---

(١) هذه رواية الأصول . والبيت كما ورد فى ديوانه طبع مطبعة الاستقامة :

والبد سابحة والرجل ضارحة * والعين قادحة والمتن سلحوب

والماء منهمر والشدّ منحدر * والقصب مضطمر واللون غربيب

قوله « سابحة » يعنى إذا جرى فرسه ومد يديه فكأنه سابح فى الماء . وضرحت الدابة برجلها : رمحت . وقدحت العين : غارت . والمتن : الظهر . وقوله « سلحوب » بالسين ، وفسر بأنه أملس قليل اللحم . وهذا التفسير لم نجده لهذه الكلمة فى المظان التى بين أيدينا . والرواية فيه «ملحوب» بالميم . ولحب متن الفرس وعجزه : املاس فى حدور؛ ومتن لحوب . و « والشدّ » العَدْو . و « القصب » بالضم : الخصر . و « مضطمر » ضامر .

(٢) الغاطية : الشجرة التى طالت اغصانها وانبسطت على الأرض . و « ملاحىّ » : أبيض .

الناس من رحمة الله ، ولم يرخّص لهم فى معاصى الله تعالى ، ولم يؤمّنهم من عذاب الله ، ولم يدع القرآن رغبةً عنه إلى غيره ، إنه لا خير فى عبادة لا علم فيها ، ولا علم لا فقه فيه ، ولا قراءة لا تدبر فيها . وأسند الدارمىّ أبو محمد عن مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فضل العالِم على العابد كفضلى على أدنا كم — ثم تلا هذه الآية — إنما يخشى الله من عِبادِهِ العلماءُ . إن الله وملائكته وأهلَ سمواته وأهلَ أرضيه والنون فى البحر يصلون على الذين يعلمون الناس الخير " الخبر مرسل . قال الدارمى : وحدثنى أبو النعمان حدثنا حماد ابن زيد عن يزيد بن حازم قال حدثنى عمى جرير بن زيد[(1)] أنه سمع تُبيعًا يحدّث عن كعب قال : إنى لأجد نعت قوم يتعلمون لغير العمل ، و يتفقهون لغير العبادة ، و يطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، و يلبسون جلود الضأن ، قلوبهم أمرّ من الصبر ، فبى يغترّون ، و إياى يخادعون ، فبى حلفت لأتيحنّ لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران . خرّجه الترمذىّ مرفوعا من حديث أبى الدرداء . وقد كتبناه فى مقدّمة الكتاب[(2)] . الزمخشرىّ : فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ « إنما يخشى اللهُ » بالرفع « مِن عِبادِهِ العلماءَ » بالنصب ، وهو عمر بن عبد العزيز، وتُحكى عن أبى حنيفة . قلت : الخشية فى هذه القراءة استعارة، والمعنى : إنما يجلّهم و يعظمهم كما يُجَلّ المهيب المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده . ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية ؛ لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم ، و إثابة أهل الطاعة والعفو عنهم . والمعاقِب والمثيب حقّه أن يخشى .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

---

(1) فى الأصول : « جرير بن يزيد » وهو تحريف راجع تهذيب التهذيب وسنن الدارمى .

(2) راجع جـ ١ ص ١٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْـلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّـلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ هـذه آية القراء العاملين العالمين الذين يقيمون الصـلاة الفرض والنفـل ، وكذا فى الإنفاق . وقد مضى فى مقدّمة الكتاب ما ينبغى أن يَتحلّق به قارئ القرآن (١) . ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ﴾ قال أحمـد بن يحيى : خبر « إن » « يرجون » . ﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ قيل : الزيادة الشفاعة فى الآخرة . وهذا مِثل الآية الأخرى : « رِجالٌ لا تُلْهِيهِم تِجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكرِ اللهِ — إلى قوله — ويزِيدَهُم مِن فضلِهِ » (٢) ، وقوله فى آخر النساء : « فَأَمّا الذين آمنـوا وعَمِلوا الصّالحاتِ فيُوَفِّيهم أجُـورَهم ويزِيدُهم مِنْ فضلِهِ » وهناك بيّناه (٣) . ﴿ إِنَّهُ غَفُـورٌ ﴾ للذنوب . ﴿ شَكُورٌ ﴾ يقبل القليل من العمل الخالص ، ويثيب عليه الجزيل من الثواب .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى من الكتب . ﴿ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ .

قوله تعـالى : ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٣٧ سورة النور . راجع جـ ١٢ ص ٢٧٩

(٣) آية ١٧٣ راجع جـ ٦ ص ٢٦

فيه أربع مسائل :

الأولى — هذه الآية مشكلة؛ لأنه قال جل وعز : ﴿ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ثم قال : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ وقد تكلم العلماء فيها من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم . قال النحاس : فمن أصح ما روى فى ذلك ما روى عن عباس « فَمِنْهُم ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ » قال الكافر ؛ رواه ابن عُيينة عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس . وعن ابن عباس أيضا « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مُقْتَصِدٌ ومنهم سابِقٌ بالخيراتِ » قال : نجت فرقتان ؛ ويكون التقدير فى العربية : فمنهم من عبادنا ظالم لنفسه ؛ أى كافر . وقال الحسن : أى فاسق . ويكون الضمير الذى فى « يدخلونها » يعود على المقتصد والسابق لا على الظالم . وعن عكرمة وقتادة والضحاك والفرّاء أن المقتصد المؤمن العاصى ، والسابق التقىّ على الإطلاق . قالوا : وهذه الآية نظير قوله تعالى فى سورة الواقعة : « وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً » الآية . قالوا وبعيد أن يكون ممن يصطفى ظالم . ورواه مجاهد عن ابن عباس . قال مجاهد : « فَمِنْهُم ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ » أصحاب المشأمة ، « ومنهم مقتصد » أصحاب الميمنة ، « ومنهم سابِقٌ بالخيراتِ » السابقون من الناس كلهم . وقيل : الضمير فى « يدخلونها » يعود على الثلاثة الأصناف ، على ألا يكون الظالم هاهنا كافرا ولا فاسقا . وممن روى عنه هذا القول عمر وعثمان وأبو الدرداء ، وابن مسعود وعقبة بن عمرو وعائشة ، والتقدير على هذا القول أن يكون الظالم لنفسه الذى عمل الصغائر . و(المقتصد) قال محمد بن يزيد : هو الذى يعطى الدنيا حقها والآخرة حقها ؛ فيكون «جنّاتُ عَدْنٍ يدخلونها» عائدا على الجميع على هذا الشرح والتبيين ؛ و روى عن أبى سعيد الخُدْرِى . وقال كعب الأحبار : استوت مناكبهم — ورب الكعبة — وتفاضلوا بأعمالهم . وقال أبو إسحاق السَّبِيعى : أما الذى سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناجٍ . وروى أسامة بن زيد أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال : "كلهم فى الجنة" . وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سابِقُنا سابق ومُقْتَصِدُنا ناجٍ وظالمنا مغفور له" . فعلى هذا القول يقدّر مفعول الاصطفاء من قوله : « أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الذين

ٱصْطَفَينا مِن عِبادِنا » مضافا حذف كما حذف المضاف فى « وٱسألِ القـرْية » أى اصطفينا دينهم، فبقى اصطفيناهم؛ فحذف العائد إلى الموصول كما حذف فى قوله : « وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ [(١)] » أى تزدريهم؛ فالاصطفاء إذًا موجه إلى دينهم؛ كما قال تعـالى : « إِنّ اللهَ اصْطَفَى لَكُم الدِّينَ [(٢)] » . قال النحاس : وقول ثالث — يكون الظالم صاحبَ الكبائر، والمقتصد الذى لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته ؛ فيكون « جناتُ عَدنٍ يدخلونهـا » للذين سـبقوا بالخيرات لا غير، وهـذا قول جماعة من أهل النظر ؛ لأن الضمير فى حقيقة النظر لمـا يليه أولى .

قلت : القول الوسط أوْلاها وأصحها إن شاء الله ؛ لأن الكافر والمنافق لم يصطَفوا بحمد الله، ولا اصطفى دينهم، وهذا قول ستة من الصحابة، وحسبك . وسنزيده بيانا وإيضاحا فى باقى الآية .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ ﴾ أى أعطينا . والميراث عطاء حقيقة أو مجازا ؛ فإنه يقال فيما صار للإنسان بعد موت آخر . و « الكتابَ » هاهنا يريد به معانى الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده، وكأن الله تعالى لمـا أعطى أمة محمد صلى الله عليه وسلم القرآن، وهو قد تضمن معانى الكتب المنزلة ، فكأنه ورّث أمة محمد عليه السلام الكتاب الذى كان فى الأمم قبلنا . ﴿ ٱصْطَفَيْنَا ﴾ أى اخترنا . واشتقاقه من الصفو ، وهو الخلوص من شوائب الكدر . وأصله اصتفوْنا ، فأبدلت التاء طاء والواو ياء . ﴿ مِنْ عِبادِنَا ﴾ قيل المراد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ٱبن عباس وغيره . وكان اللفظ يحتمل جميع المؤمنين من كل أمة ، إلا أن عبارة توريث الكتاب لم تكن إلا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، والأُوَل لم يرثوه . وقيل : المصطفَوْن الأنبياء ، توارثوا الكتاب بمعنى أنه انتقل عن بعضهم إلى آخر ؛ قال الله تعالى : « وَوَرِثَ سليمانُ داودَ [(٣)] » ، وقال : « يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِن آلِ يعقوبَ [(٤)] » فإذا جاز أن تكون النبوة موروثة فكذلك الكتاب . ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ من وقع فى صغيرة . قال ٱبن عطية : وهذا

---

(١) آية ٣١ سورة هود .   (٢) آية ١٣٢ سورة البقرة .   (٣) آية ١٦ سورة النمل .
(٤) آية ٦ سورة مريم .

قول مردود من غير ما وجه . قال الضحاك : معنى « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ » أى من ذريتهم ظالم لنفسه وهو المشرك . الحسن : من أممهم، على ما تقدّم ذكره من الخلاف فى الظالم . والآية فى أمّة محمد صلى الله عليه وسلم . وقد آختلفت عبارات أرباب القلوب فى الظالم والمقتصد والسابق ؛ فقال سهل بن عبد الله : السابق العالم ، والمقتصد المتعلم ، والظالم الجاهل . وقال ذو النون المصرى : الظالم الذاكر الله بلسانه فقط ، والمقتصد الذاكر بقلبه ، والسابق الذى لا ينساه . وقال الأنطاكى : الظالم صاحب الأقوال ، والمقتصد صاحب الأفعال ، والسابق صاحب الأحوال . وقال آبن عطاء : الظالم الذى يحب الله من أجل الدنيا ، والمقتصد الذى يحبه من أجل العقبى ، والسابق الذى أسقط مراده بمراد الحق . وقيل : الظالم الذى يعبد الله خوفا من النار ، والمقتصد الذى يعبد الله طمعا فى الجنة ، والسابق الذى يعبد الله لوجهه لا لسبب . وقيل : الظالم الزاهد فى الدنيا ؛ لأنه ظلم نفسه فترك لها حظا وهى المعرفة والمحبة ، والمقتصد العارف ، والسابق المحب . وقيل : الظالم الذى يجزع عند البلاء ، والمقتصد الصابر على البلاء ، والسابق المتلذذ بالبلاء . وقيل : الظالم الذى يعبد الله على الغفلة والعادة ، والمقتصد الذى يعبده على الرغبة والرهبة ، والسابق الذى يعبده على الهيبة . وقيل : الظالم الذى أُعطِىَ فمنع ، والمقتصد الذى أعطى فبذل ، والسابق الذى مُنع فشكر وآثر . يروى أن عابدَيْن التقيا فقال : كيف حال إخوانكم بالبَصْرة؟ قال : بخير، إن أُعطوا شكروا و إن مُنعوا صبروا . فقال : هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ ! عُبّادنا إن مُنعوا شكروا و إن أُعطوا آثروا . وقيل : الظالم من آستغنى بماله ، والمقتصد من آستغنى بدينه ، والسابق من آستغنى بربه . وقيل : الظالم التالى للقرآن ولا يعمل به ، والمقتصد التالى للقرآن ويعمل به ، والسابق القارئ للقرآن العامل به والعالِم به . وقيل : السابق الذى يدخل المسجد قبل تأذين المؤذن ، والمقتصد الذى يدخل المسجد وقد أُذّن ، والظالم الذى يدخل المسجد وقد أقيمت الصلاة ؛ لأنه ظلم نفسه الأجر فلم يحصل لها ما حصله غيره . وقال بعض أهل العلم فى هذا : بل السابق الذى يدرك الوقت والجماعة فيدرك الفضيلتين ، والمقتصد الذى إن فاتته الجماعة لم يفرط

فى الوقت، والظالم الغافل عن الصلاة حتى يفوت الوقت والجماعة، فهو أولى بالظلم . وقيل: الظالم الذى يحب نفسه ، والمقتصد الذى يحب دينه، والسابق الذى يحب ربه . وقيـل : الظالم الذى ينتصف ولا ينصِف، والمقتصد الذى ينتصف و ينصف، والسابق الذى ينصف ولا ينتصف . وقالت عائشة رضى الله عنها : السابق الذى أسلم قبل الهجرة، والمقتصد من أسلم بعد الهجرة، والظالم من لم يسلم إلا بالسيف؛ وهم كلهم مغفور لهم .

قلت : ذكر هـذه الأقوال وزيادةً عليها الثعلبي في تفسـيره . وبالجملة فهم طرفان وواسطة، وهو المقتصد الملازم للقصد وهو ترك الميل . ومنه قول جابر بن حُنَيّ التغْلَبي :

نعاطى الملوك السّلم ما قصدوا لنا * وليس علينا قتلُهم بمحرّم

أى نعاطيهم الصلح ما ركبوا بنا القصد، أى ما لم يجوروا، وليس قتلهم بمحرّم علينا إن جاروا؛ فلذلك كان المقتصد منزلة بين المنزلتين، فهو فوق الظالم لنفسه ودون السابق بالخيرات . ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ يعنى إتياننا الكتاب لهم . وقيـل : ذلك الاصطفاء مع علمنا بعيوبهم هو الفضل الكبير . وقيل : وعدُ الجنة لهؤلاء الثلاثة فضل كبير .

الثالثـة — وتكلم الناس فى تقـديم الظالم على المقتصد والسابق فقيل : التقـديم فى الذكر لا يقتضى تشريفا؛ كقوله تعالى : « لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ »(1) . وقيل : قدم الظالم لكثرة الفاسقين منهم وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم ، والسابقين أقلّ من القليل؛ ذكره الزمخشرى ولم يذكره غيره . وقيـل : قدّم الظالم لتأكيد الرجاء فى حقه؛ إذ ليس له شىء يتكل عليه إلا رحمة ربه . واتكل المقتصد على حسن ظنه، والسابقُ على طاعته . وقيل : قدّم الظالم لئلا ييئس من رحمة الله، وأخّر السابق لئلا يعجب بعمله . وقال جعفر بن محمد بن على الصادق رضى الله عنه : قدّم الظالم ليخبر أنه لا يتقرب إليه إلا بصرف رحمته وكرمه ، وأن الظلم لا يؤثر فى الاصطفائية إذا كانت ثَمّ عناية ، ثم ثنّى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكر الله ؛ وكلهم فى الجنة

(1) آية ٢٠ سورة الحشر .

بحرمة كلمة الإخلاص : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وقال محمد بن على الترمذى : جمعهم فى الاصطفاء إزالةً للعلل عن العطاء؛ لأن الاصطفاء يوجب الإرث لا الإرث يوجب الاصطفاء، ولذلك قيل فى الحكمة : صحح النسبة ثم ادّع فى الميراث . وقيل : أخّر السابق ليكون أقرب إلى الجنات والثواب؛ كما قدّم الصوامع والبِيَع فى « سورة الحج »[1] على المساجد؛ لتكون الصوامع أقربَ إلى الهدم والخراب ، وتكونَ المساجد أقربَ إلى ذكر الله . وقيل : إن الملوك إذا أرادوا الجمع بين الأشياء بالذكر قدّموا الأدنى؛ كقوله تعالى : «لَسَرِيعُ العِقَابِ وَإِنّه لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»[2] وقوله : « يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ »[3] ، وقوله : « لا يَسْتَوِى أَصْحابُ النارِ وأصحابُ الجنةِ »[4] .

قلت : ولقد أحسن من قال :

وغاية هذا الجود أنت وإنما * يوافى إلى الغايات فى آخر الأمر

الرابعة — قوله : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ جمعهم فى الدخول لأنه ميراث ، والعاقّ والبارّ فى الميراث سواء إذا كانوا معترفين بالنسب ؛ فالعاصى والمطيع مقرون بالرب . وقرئ «جَنّةُ عَدْنٍ» على الإفراد، كأنها جنة مختصة بالسابقين لقلتهم؛ على ما تقدّم . و«جنّاتِ عَدْنٍ» بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر؛ أى يدخلون جنات عدن يدخلونها . وهذا للجميع، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى . وقرأ أبو عمرو «يُدْخَلونها» بضم الياء وفتح الخاء. قال: لقوله «يُحَلَّوْنَ» . وقد مضى فى «الحج» الكلام فى قوله تعالى : « يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ»[5] .

﴿ وَقَالُوا الحَمْدُ لِلهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ ﴾ قال أبو ثابت : دخل رجل المسجد فقال اللهم ارحم غُرْبتى وآنس وحدتى ويسّر لى جليسا صالحا . فقال أبو الدَّرْداء : لئن كنت صادقا فلأنا أسعد بذلك منك، سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول: «ثم أورثنا الكتاب

(١) راجع ج ١٢ ص ٦٨ (٢) آية ١٦٧ سورة الأعراف . (٣) آية ٤٩ سورة الشورى .
(٤) آية ٢٠ سورة الحشر . (٥) راجع ج ١٢ ص ٢٨

الذين آصطفينا مِن عِبادِنا فمِنهم ظالمٌ لِنفسِهِ ومِنهم مقتصِدٌ ومِنهم سابِقٌ بِالخيراتِ» — قال — فيجىء هذا السابق فيدخل الجنة بغير حساب وأما المقتصد فيحاسَب حسابا يسيرا وأما الظالم لنفسه فيحبس فى المقام و يوبخ ويقرّع ثم يدخل الجنة فهم الذين قالوا «الحمد لله الذِى أذهب عنا الحَزَن إن ربّنا لغفور شكور» ". وفى لفظ آخر " وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون فى طول المحشر ثم هم الذين يتلقاهم الله[1] برحمته فهم الذين يقولون « الحمدُ لله الذِى أذهب عنا الحَزَن إن ربّنا لغفور شكور — إلى قوله — ولا يَمَسُّنَا فِيها لُغُوبٌ »". وقيل: هو الذى يؤخذ منه فى مقامه؛ يعنى يكفر عنه بما يصيبه من الهمّ والحَزَن؛ ومنه قوله تعالى: « مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ »[2] يعنى فى الدنيا . قال الثعلبىّ : وهذا التأويل أشبه بالظاهر؛ لأنه قال : « جنـاتُ عَدْنٍ يدخلونها » ولقوله : « الذين آصطفينا مِن عِبادِنا » والكافر والمنافق لم يصطفَوْا .

قلت : وهذا هو الصحيح، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " ومَثَل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ، ريحها طيّب وطعمها مُرّ" . فأخبر أن المنافق يقرؤه، وأخبر الحق سبحانه وتعالى أن المنافق فى الدَّرْك الأسفل من النار ، وكثير من الكفار اليهود والنصارى يقرءونه فى زماننا هذا . وقال مالك : قد يقرأ القرآن من لا خير فيه . والنَّصَب : التعب . واللُّغوب : الإعياء .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

(١) فى بعض النسخ : «يتلاقاهم» . (٢) آية ١٢٣ سورة النساء .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ لما ذكر أهل الجنة وأحوالهم ومقالتهم . ذكر أهل النار وأحوالهم ومقالتهم . ﴿ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ مثل « لا يموت فيها ولا يحيا »[١] . ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ مثل « كُلَّمَا نَضِجَتْ جلودُهم بدّلناهم جُلودًا غَيْرَها ليَذُوقوا العذاب »[٢] . ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أى كافر بالله ورسوله . وقرأ الحسن « فيموتون » بالنون ، ولا يكون للنفى حينئذ جواب ، ويكون « فيموتون » عطفا على « يُقْضَى » تقديره لا يقضى عليهم ولا يموتون ؛ كقوله تعالى : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ »[٣] . قال الكسائى : « ولا يؤذن لهم فيعتذرون » بالنون فى المصحف لأنه رأس آية و « لا يُقْضَى عليهم فَيَمُوتُوا » لأنه رأس آية . ويجوز فى كل واحد منهما ما جاز فى صاحبه . ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أى يستغيثون فى النار بالصوت العالى . والصراخ الصوت العالى ، والصارخ المستغيث ، والمُصْرِخ المغيث . قال :

كنا إذا ما أتانا صارخ فَـزِعٌ * كان الصراخُ له قرعُ الظَّنابيب[٤]

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا ﴾ أى يقولون ربنا أخرجنا من جهنم وردّنا إلى الدنيا . ﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ قال ابن عباس : نقل : لا إله إلا الله . وهو معنى قولهم : ﴿ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أى من الشرك ؛ أى نؤمن بدل الكفر ، ونطيع بدل المعصية ، ونمتثل أمر الرسل . ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ هذا جواب دعائهم ؛ أى فيقال لهم ، فالقول مضمر . وترجم البخارى : ﴿ بَابُ من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه فى العمر لقوله عز وجل « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يتذكَّرُ فِيهِ مَن تذكَّر وجاءكم النَّذِيرُ » يعنى الشيب ﴾ حدّثنا عبد السلام بن مُطَهَّر قال حدّثنا عمر بن على قال حدّثنا مَعْن بن محمد الغِفارى عن سعيد بن أبى سعيد المَقْبُرِىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "أعذر الله إلى آمرئ أخّر أجله حتى بلّغه ستين سنة" . قال الخَطّابى : « أعذر إليه » أى بلغ به أقصى العذر ، ومنه قولهم : قد

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٢٧ (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٥٣ (٣) آية ٣٦ سورة المرسلات .

(٤) البيت لسلامة بن جندل . والظنابيب (جمع الظنبوب) وهو مسمار يكون فى جبة السنان .

أعذر من أنذر ؛ أى أقام عذر نفسه فى تقديم نذارته . والمعنى : أن من عمره الله ستين سنة لم يبق له عذر ؛ لأن الستين قريب من معترك المنايا ، وهو سن الإنابة والخشوع وترقب المنيّة ولقاء الله تعالى ؛ ففيه إعذار بعد إعذار ، الأوّل بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، والمُوْتان[1] فى الأربعين والستين . قال على وابن عباس وأبو هريرة فى تأويل قوله تعالى « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ » : إنه ستون سنة . وقد روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال فى موعظته : " ولقد أبلغ فى الإعذار من تقدّم فى الإنذار وإنه لينادى منادٍ من قِبل الله تعالى أبناء الستين « أوَلم نعمركم ما يتذكّر فِيهِ من تذكّر وجاءكم النذير » " . وذكر الترمذى الحكيم من حديث عطاء بن أبى رَباح عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة نودى أبناء الستين وهو العمر الذى قال الله « أوَلم نُعَمِّرْكم ما يتذكّر فيهِ من تذكّر » " . وعن ابن عباس أيضا أنه أربعون سنة . وعن الحسن البصرى ومسروق مثله . ولهذا القول أيضا وجه ، وهو صحيح ؛ والحجة له قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً[2] » الآية . ففى الأربعين تناهى العقل ، وما قبل ذلك وما بعده منتقص عنه ، والله أعلم . وقال مالك : أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلم ويخالطون الناس ، حتى يأتى لأحدهم أربعون سنة ، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيهم الموت . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « الأعراف[3] » . وخرج ابن ماجه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أعمار أمّتى ما بين الستين إلى السبعين وأقلّهم من تجاوز ذلك " .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ وقرئ « وجاءتكم النُّذُر » واختلف فيه ؛ فقيل القرآن . وقيل الرسول ؛ قاله زيد بن على وابن زيد . وقال ابن عباس وعكرمة وسفيان ووَكيع والحسين ابن الفضل والفرّاء والطبرى : هو الشيب . وقيل : النذير الحُمَّى . وقيل : موت الأهل والأقارب . وقيل : كمال العقل . والنذير بمعنى الإنذار .

(١) الموتان (بضم الميم وفتحها وسكون الواو) : الموت . (٢) آية ١٥ سورة الأحقاف .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٧٦

قلت : فالشيب والحمى وموت الأهل كله إنذار بالموت ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " الحمى رائد الموت " . قال الأزهرى : معناه أن الحمى رسول الموت ، أى كأنها تشعر بقدومه وتنذر بمجيئه . والشيب نذير أيضا ؛ لأنه يأتى فى سنّ الاكتهال ، وهو علامة لمفارقة سنّ الصبا الذى هو سن اللهو واللعب . قال :

رأيت الشيب من نذر المنايا * لصاحبه وحسبك من نذير

وقال آخر :

فقلت لها المشيب نذير عمرى * ولست مسوّدا وجه النذير

وأما موت الأهل والأقارب والأصحاب والإخوان فإنذار بالرحيل فى كل وقت وأوان ، وحين وزمان . قال :

وأراك تحملهم ولستَ تردّهم * فكأننى بك قد حُمِلت فلم تُرَدّ

وقال آخر :

الموت فى كل حين ينشر الكفنا * ونحن فى غفلة عما يراد بنا

وأما كمال العقل فبه تعرف حقائق الأمور و يفصل بين الحسنات والسيئات ، فالعاقل يعمل لآخرته و يرغب فيما عند ربه ؛ فهو نذير . وأما محمد صلى الله عليه وسلم فبعثه الله بشيرا ونذيرا إلى عباده قطعا لحججهم ؛ قال الله تعالى : « لِئلا يكون لِلناسِ على اللهِ حُجّةٌ بعد الرسلِ »(١) ، وقال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »(٢) .

قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا ﴾ يريد عذاب جهنم ؛ لأنكم ما اعتبرتم ولا اتعظتم . ﴿ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ أى مانع من عذاب الله .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

(١) آية ١٦٥ سورة النساء . (٢) آية ١٥ سورة الإسراء .

تقدّم معناه فى غير موضع. والمعنى: علم أنه لو ردّكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحا، كما قال: « ولو رُدُّوا لعادُوا لِمَا نُهُوا عنه»(١). و﴿ عالِمُ ﴾ إذا كان بغير تنوين صلح أن يكون للماضى والمستقبل، وإذا كان منوّنا لم يجز أن يكون للماضى.

قوله تعالى: هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ ﴾ قال قتادة: خلفًا بعد خلف وقرنا بعد قرن. والخلف هو التالى للتقدّم، ولذلك قيل لأبى بكر: ياخليفة الله؛ فقال: لست بخليفة الله، ولكنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا راض بذلك. ﴿ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أى جزاء كفره وهو العقاب والعذاب. ﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾ أى بغضا وغضبا. ﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أى هلاكا وضلالا.

قوله تعالى: قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ « شركاءكم » منصوب بالرؤية، ولا يجوز رفعه، وقد يجوز الرفع عند سيبويه فى قولهم: قد علمت زيدا أبو من هو؟ لأن زيدا فى المعنى مستفهم عنه. ولو قلت: أرأيت زيدا أبو مَن هو؟ لم يجز الرفع. والفرق بينهما أن معنى هذا أخبرنى عنه، وكذا معنى هذا أخبرونى عن شركائكم الذين تدعون من

(١) آية ٢٨ سورة الأنعام.

دون الله، أعبدتموهم لأن لهم شركة فى خلق السموات ، أم خلقوا من الأرض شيئا !
﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ أى أم عندهم كتاب أنزلناه إليهم بالشركة . وكان فى هذا ردّ على من عبد غير الله عز وجل؛ لأنهم لا يجدون فى كتاب من الكتب أن الله عز وجل أمر أن يُعبد غيره.
﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم « على بيّنة » بالتوحيد، وجمع الباقون . والمعنيان متقاربان إلا أن قراءة الجمع أولى ؛ لأنه لا يخلو من قرأه « على بيّنة » من أن يكون خالف السواد الأعظم، أو يكون جاء به على لغة من قال : جاءنى طلحت ، فوقف بالتاء ، وهذه لغة شاذة قليلة ؛ قاله النحاس . وقال أبو حاتم وأبو عبيد : الجمع أولى لموافقته الخط ؛ لأنها فى مصحف عثمان « بينات » بالألف والتاء .
﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أى أباطيل تغُرّ، وهو قول السادة للسّفلة : إن هذه الآلهة تنفعكم وتقرّبكم . وقيل : إن الشيطان يَعِد المشركين ذلك . وقيل : وعدهم بأنهم ينصرون عليهم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ لما بيّن أن آلهتهم لا تقدر على خلق شىء من السموات والأرض بيّن أن خالقهما وممسكهما هو الله، فلا يوجد حادث إلا بإيجاده، ولا يبقى إلا ببقائه . و « أنْ » فى موضع نصب بمعنى كراهة أن تزولا ، أو لئلا تزولا ، أو يحمل على المعنى ؛ لأن المعنى أن الله يمنع السموات والأرض أن تزولا ، فلا حاجة على هذا إلى إضمار ، وهذا قول الزجاج . ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ قال الفرّاء : أى ولو زالتا ما أمسكهما من أحد . و « إنْ » بمعنى ما . قال : وهو مثل قوله : « وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ »[1] . وقيل : المراد زوالها

(١) آية ٥١ سورة الروم .

يوم القيامة . وعن إبراهيم قال : دخل رجل من أصحاب ابن مسعود إلى كعب الأحبار يتعلم منـه العلم ، فلما رجع قال له ابن مسـعود : ما الذى أصبت من كعب ؟ قال سمعت كعباً يقول : إن السماء تدور على قطب مثل قطب الرَّحَى ، فى عمود على منكب مَلَك ؛ فقال له عبد الله : وددت أنك انقلبت براحلتك ورحلها ، كذب كعب، ما ترك يهوديّتـه ! إن الله تعـالى يقول : « إن الله يُمْسِكُ السموات والارض أن تَزُولَا » إن السـموات لا تدور ، ولو كانت تدور لكانت قد زالت . وعن ابن عباس نحوه، وأنه قالٓ لرجل مقبل من الشام : من لَقِيت به ؟ قال كعبا . قال : وما سمعتـه يقول ؟ قال : سمعته يقـول : إن السموات على منكب مَلَك . قال : كذب كعب، أما ترك يهوديته بعـدُ ! إن الله تعـالى يقول : « إن الله يُمْسِكُ السمواتِ والأرضَ أن تَزُولا » والسموات سبع والأرضَـون سبع ، ولكن لما ذكرهما أجراهما مجرى شيئين، فعادت الكناية إليهما؛ وهو كقوله تعالى: « أَن السمواتِ والأرضَ كَانَتَا رَتْقًا ففتقناهما » [1] ثم ختم الآية بقوله : ﴿ إِنَّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ لأن المعنى فيما ذكره بعض أهل التأويل : إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا من كفر الكافرين، وقولِهم اتخذ الله ولدا. قال الكلبى : لما قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله، كادت السـموات والأرض أن تزولا عن أمكنتهما ، فمنعهما الله ، وأنزل هـذه الآية فيه؛ وهو كقوله تعالى : « لقد جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنه » [2] الآية .

قوله تعـالى : وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِـمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

---

(١) آية ٣٠ سورة الأنبياء . (٢) آية ٨٩ سورة مريم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِم لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم، حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم ، فلعنوا مَن كذّب نبيّه منهم، وأقسموا بالله جل اسمه ﴿ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ أى نبيّ ﴿ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ يعنى ممن كذب الرسل من أهل الكتاب . وكانت العرب تتمنى أن يكون منهم رسول كما كانت الرسل من بنى إسرائيل، فلما جاءهم ما تمنوه وهو النذير من أنفسهم ، نفروا عنه ولم يؤمنوا به . ﴿ اسْتِكْبَارًا ﴾ أى عُتُوًّا عن الإيمان ﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ أى مكر العمل السيئ وهو الكفر وخَدْع الضعفاء ، وصدّهم عن الإيمان ليكثر أتباعهم . وأنث « مِن إحدى الأمَم » لتأنيث أُمَّة ؛ قاله الأخفش . وقرأ حمزة والأعمش « ومكر السَّيِّئْ ولا يَحِيق المكرُ السَّيِّئُ » فحذف الإعراب من الأول وأثبته فى الثانى . قال الزجاج : وهو لحن، وإنما صار لحنا لأنه حذف الإعراب منه . وزعم المبرّد أنه لا يجوز فى كلام ولا فى شعر؛ لأن حركات الإعراب لا يجوز حذفها، لأنها دخلت للفرق بين المعانى . وقد أعظم بعض النحويين أن يكون الأعمش على جلالته ومحله يقرأ بهذا ، قال : إنما كان يقف عليه، فغلط من أدّى عنه، قال : والدليل على هذا أنه تمام الكلام، وأن الثانى لما لم يكن تمام الكلام أعرب باتفاق ، والحركة فى الثانى أثقل منها فى الأول لأنها ضمة بين كسرتين . وقد احتجّ بعض النحويين لحمزة فى هذا بقول سيبويه، وأنه أنشد هو وغيره :

* إذا آعوججْن قلتُ صاحبْ قَوِّمِ * [(١)]

وقال الآخر :

فاليوم أشْربْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ * إثماً مِن الله ولا واغِلِ [(٢)]

---

(١) تمامه : * بالدوّ أمثال السفين العوّم *

الدوّ : الصحراء . وأمثال السفين : رواحل محملة تقطع الصحراء قطع السفين البحر .

(٢) البيت لامرئ القيس . والمستحقب : المكتسب للإثم الحامل له . والواغل الداخل على القوم يشربون ولم يدع . قال هذا حين قتل أبوه ونذر ألا يشرب الخمر حتى يثأر به ، فلما أخذ ثأره حلت له بزعمه فلا يأثم فى شربها إذ قد وفى بنذره فيها .

وهذا لا حجة فيه؛ لأن سيبويه لم يجزه، وإنما حكاه عن بعض النحويين، والحديث إذا قيل فيه عن بعض العلماء لم يكن فيه حجة، فكيف وإنما جاء به على وجه الشذوذ ولضرورة الشعر وقد خولف فيه . وزعم الزجاج أن أبا العباس أنشده :

* إذا اعوججن قلت صاح قوم *

وأنه أنشد :

* فاليوم اْشربْ غير مستحقِبِ *

بوصل الألف على الأمر؛ ذكر جميعه النحاس . الزمخشري : وقرأ حمـزة « ومكر السَّيِّئْ » بسكون الهمزة، وذلك لاستثقاله الحركات، ولعـله اختلاس فظن سكونا، أو وقف وقفـة خفيفة ثم ابتدأ «ولا يحيق» . وقرأ ابن مسعود «ومَكْرًا سيئًا» . وقال المهدوي : ومن سكن الهمزة من قوله : « ومكر السيئ» فهو على تقدير الوقف عليه، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف، أو على أنه أسكن الهمزة لتوالى الكسرات والياءات . كما قال :

* فاليوم اشرب غير مستحقب *

قال القشيري : وقرأ حمزة «ومكر السيئ» بسكون الهمزة ، وخطأه أقوام . وقال قوم : لعله وقف عليه لأنه تمام الكلام، فغلط الراوي وروى ذلك عنه في الإدراج، وقد سـبق الكلام فى أمثال هذا، وقلنا : ما ثبت بالاستفاضة أو التواتر أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأه فلا بد من جوازه، ولا يجـوز أن يقال : إنه لحن ، ولعـل مراد من صار إلى التخطئـة أن غيره أفصح منه، وإن كان هو فصيحا . ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أى لا ينزل عاقبة الشرك إلا بمن أشرك . وقيل : هذا إشارة إلى قتلهم ببدر .

وقال الشاعر :

وقد دفعوا المنيـة فاستقلت * ذراعا بعـد ما كانت تحيق

أى تنزل؛ وهذا قول قُطْرُب . وقال الكلبي : « يَحِيق » بمعنى يُحيط . والحَوْق الإحاطة؛ يقال : حاق به كذا أى أحاط به . وعن ابن عباس أن كعبًا قال له : إنى أجد فى التـوراة «من حفر لأخيه حفرة وقع فيها» ؟ فقال ابن عباس فإنى أوجِدُك فى القرآن ذلك . قال : وأين؟ قال : فاقرأ «ولا يحِيق المـكر السيئ إلا بِأهلِهِ» . وفى أمثال العرب «من حفر لأخيه

جُبًّا وقع فيه مُنْكَبًّا » وروى الزهرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تمكر ولا تُعِن ماكرا فإن الله تعالى يقول : « ولا يَحِيق المكر السيئُ إلا بِأهلِهِ » ولا تَبْغِ ولا تُعن باغيًا فإن الله تعالى يقول : « فمن نَكَثَ فإنما ينْكُثُ على نفسِهِ » وقال تعالى : « إنما بَغْيُكُمْ على أنفسِكم ".
وقال بعض الحكماء :

يأيها الظـالم فى فعـله * والظلم مردود على من ظلم

إلى متى أنت وحتّى متى * تحصى المصائب وتنسى النعم

وفى الحديث " المكر والخديعة فى النار " . فقوله : " فى النار " يعنى فى الآخرة تدخل أصحابها فى النار؛ لأنها من أخلاق الكفار لا من أخلاق المؤمنين الأخيار ؛ ولهـذا قال عليه الصلاة والسلام فى سياق هذا الحديث : " وليس من أخلاق المؤمن المكر والخديعة والخيانة " . وفى هذا أبلغ تحذير عن التخلق بهذه الأخلاق الذميمة ، والخروج عن أخلاق الإيمان الكريمة .

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى إنما ينتظرون العذاب الذى نزل بالكفار الأولين . ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أى أجرى الله العذاب على الكفار ، ويجعل ذلك سنة فيهم ، فهو يعذب بمثله من استحقه ، لا يقدر أحد أن يبدّل ذلك ، ولا أن يحوّل العذاب عن نفسه إلى غيره . والسُّنّة الطريقة ، والجمع سُنَن . وقد مضى فى « آل عمران »[(١)] وأضافها إلى الله عز وجل . وقال فى موضع آخر : « سُنَّةَ من قد أرسلنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا »[(٢)] فأضاف إلى القـوم لتعلّق الأمر بالجانبين؛ وهو كالأجل ، تارة يضاف إلى الله ، وتارة إلى القوم ؛ قال الله تعالى : « فإن أجَلَ اللهِ لآتٍ »[(٣)] وقال : « فإذا جاء أجلهم » .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

(١) جـ ٤ ص ٢١٦ (٢) آية ٧٧ سورة الإسراء (٣) آية ٥ سورة العنكبوت .

بين السنة التى ذكرها ؛ أى أولم يروا ما أنزلنا بعاد وثمود ، و بمَدْيَنَ وأمثالهم لما كذبوا الرسل ، فتدّبروا ذلك بنظرهم إلى مسا كنهم ودورهم ، و بما سمعوا على التواتر بما حل بهم ، أفليس فيه عبرة و بيان لهم ؛ ليسوا خيرا من أولئك ولا أقوى ، بل كان أولئك أقوى ؛ دليله قوله : ﴿ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى إذا أراد إنزال عذاب بقوم لم يعجزه ذلك . ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ .

قوله تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا ﴾ يعنى من الذنوب . ﴿ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ قال ابن مسعود : يريد جميع الحيوان مما دبّ ودَرَج . قال قتادة : وقد فُعل ذلك زمنَ نوح عليه السلام . وقال الكلبيّ : « مِن دابةٍ » يريد الجنّ والإنس دون غيرهما ؛ لأنهما مكلفان بالعقل . وقال ابن جرير والأخفش والحسين بن الفضل : أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دون غيرهم .

قلت : والأوّل أظهر ؛ لأنه عن صحابيّ كبير . قال ابن مسعود : كاد الجُعَل أن يعذب فى جحره بذنب ابن آدم . وقال يحيى بن أبى كثير : أمر رجل بالمعروف ونهى عن المنكر ، فقال له رجل : عليك بنفسك ؛ فإن الظالم لا يضر إلا نفسه . فقال أبو هريرة : كذبت ، والله الذى لا إله إلا هو — ثم قال — والذى نفسى بيده إن الحبارى لتموت هزلا فى وَكرها بظلم الظالم . وقال الثُّمَالى و يحيى بن سلام فى هذه الآية : يحبس الله المطر فيهلك كل شىء . وقد مضى فى «البقرة» نحو هذا عن عكرمة ومجاهد فى تفسير «ويَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ»[1] هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجَدْب بذنوب علماء السوء الكاتمين فيلعنونهم . وذكرنا هناك حديث البراء

(١) راجع ج ٢ ص ١٨٦ طبعة ثانية .

ابن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « ويلعنهم اللاعنون » قال : "دواب الأرض" . ﴿ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قال مقاتل : الأجل المسمّى هو ما وعدهم فى اللوح المحفوظ . وقال يحيى : هو يوم القيامة . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ ﴾ أى بمن يستحق العقاب منهم ﴿ بَصِيرًا ﴾ . ولا يجوز أن يكون العامل فى « إذا » « بصيرا » كما لا يجوز اليوم إن زيدا خارج . ولكن العامل فيها « جاء » لشبهها بحروف المجازاة ، والأسماء التى يجازَى بها يعمل فيها ما بعدها . وسيبويه لا يرى المجازاة بـ « إذا » إلا فى الشعر، كما قال :

إذا قَصُرت أسيافنا كان وصلها * خطانا إلى أعدائنا فنضارب (١)

ختمت سورة فاطر والحمد لله

---

(١) البيت لقيس بن الخطيم الانصارى راجع جـ ١ ص ٢٠١ طبعة ثانية أو ثالثة .

⁂

تم بعون الله تعالى الجزء الرابع عشر من تفسير القرطبي ،
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الخامس عشر ، وأوله :
« سورة يس »

⁂

من الأصول التى راجعنا عليها هذا الجزء والذى قبله نسخة خطية فى مكتبة حضرة الأستاذ أحمد خيرى نجل المرحوم خيرى باشا ، تفضل حضرته فأعارنا إياها .

وقد كان لهذه النسخة فضل كبير فى تيسير السبيل أمامنا ، فجزاه الله خير الجزاء ؟

أحمد عبد العليم البردونى
المصحح بالقسم الأدبى

استدراك

تقدم فى الجزء الثالث ص ٩٣ عند الكلام على قوله تعالى « نساؤكم حرث لكم » :

إنما الأرحام أرضون لنا محترثات * فعلينا الزرع فيها وعلى الله النبات

وصواب إنشاده :

إنما الأرحام أر * ضون لنا محترثات

فعلينا الزرع فيها * وعلى الله النبات

وأورد المؤلف فى الجزء العاشر ص ٢١٧ عند الكلام على قوله تعالى « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم » شاهدا هو :

* نخر صريعا لليدين وللفم *

وعلقنا عليه أن صدر البيت :

* وهتكت بالرمح الطويل إهابه *

وذكرنا أنه لربيعة بن مكدّم، والصواب أن صدره :

* ضممت إليه بالسنان قميصه *

وهذا البيت من الطويل، أما بيت ربيعة فهو من الكامل، وروايته :

وهتكت بالرمح الطويل إهابه * فهوى صريعا لليدين وللفم

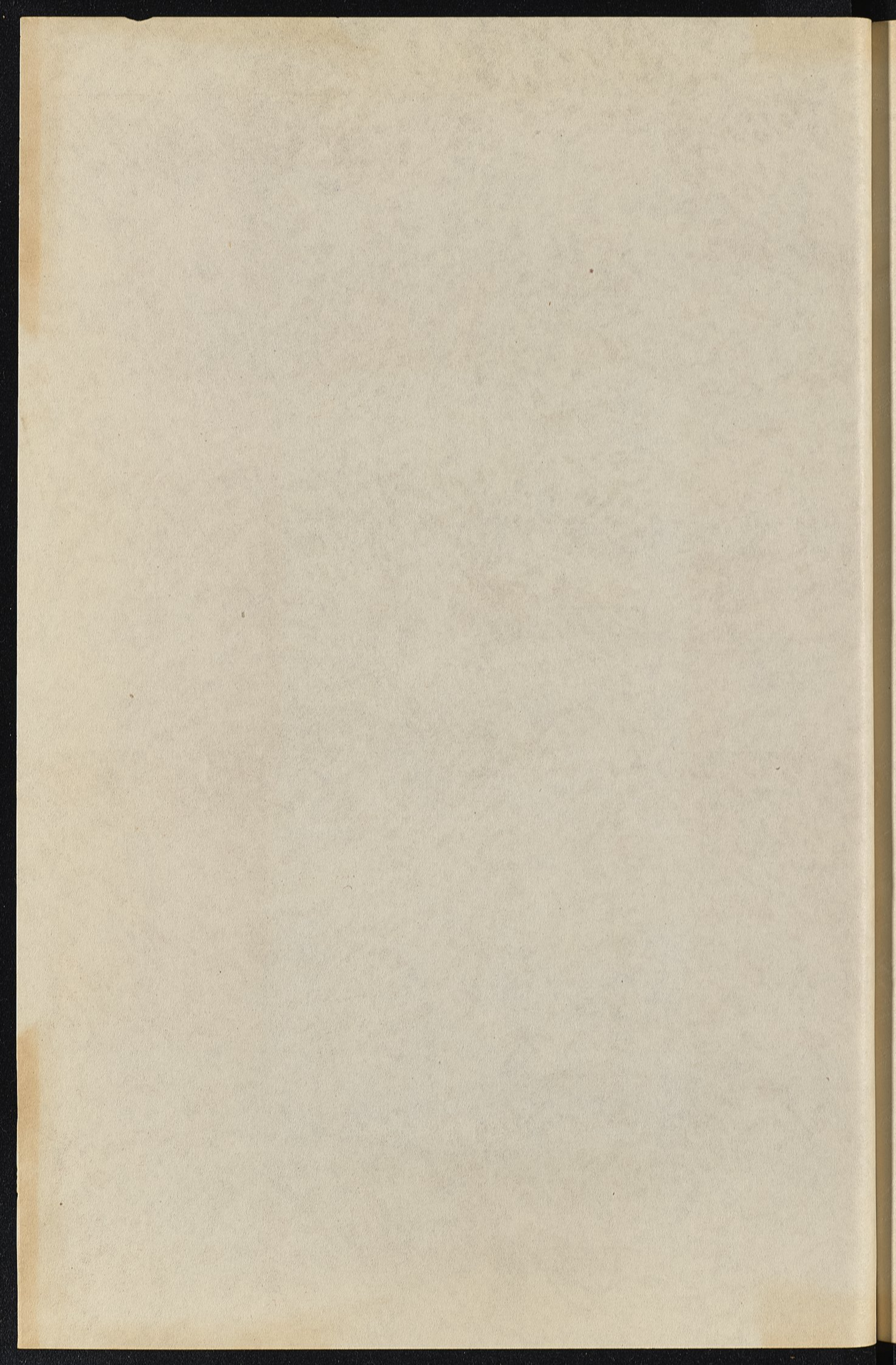
راجع مغنى اللبيب حرف « اللام » ، وأمالى القالى ج ٢ ص ٢٧٢ ، طبع دار الكتب المصرية ٥١

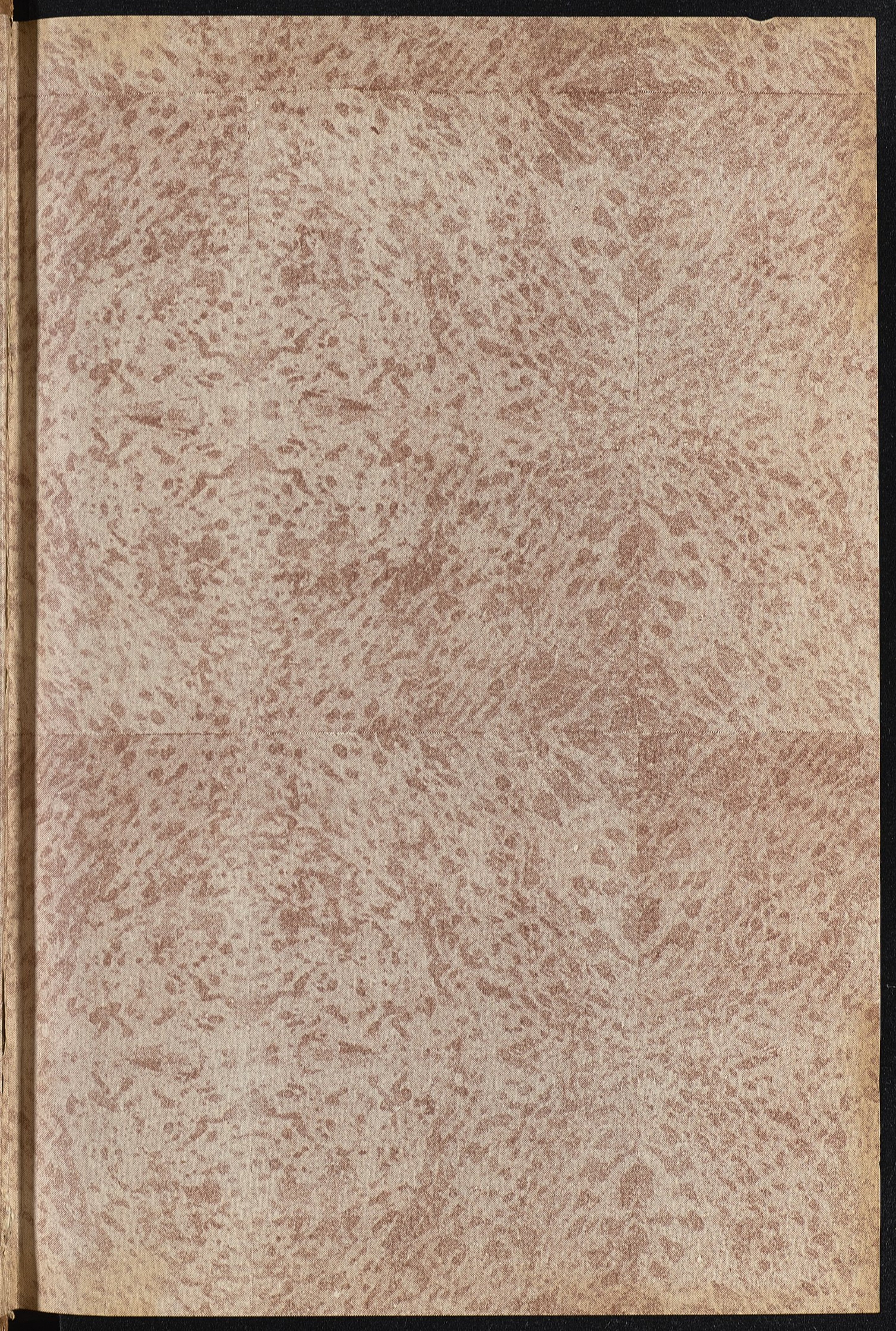
أحمد عبد العليم البردونى
المصحح بالقسم الأدبى
بدار الكتب المصرية

كَمُلَ طبع "الجزء الرابع عشر من كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ٣ شعبان سنة ١٣٦٤
(١٢ يوليه سنة ١٩٤٥) م

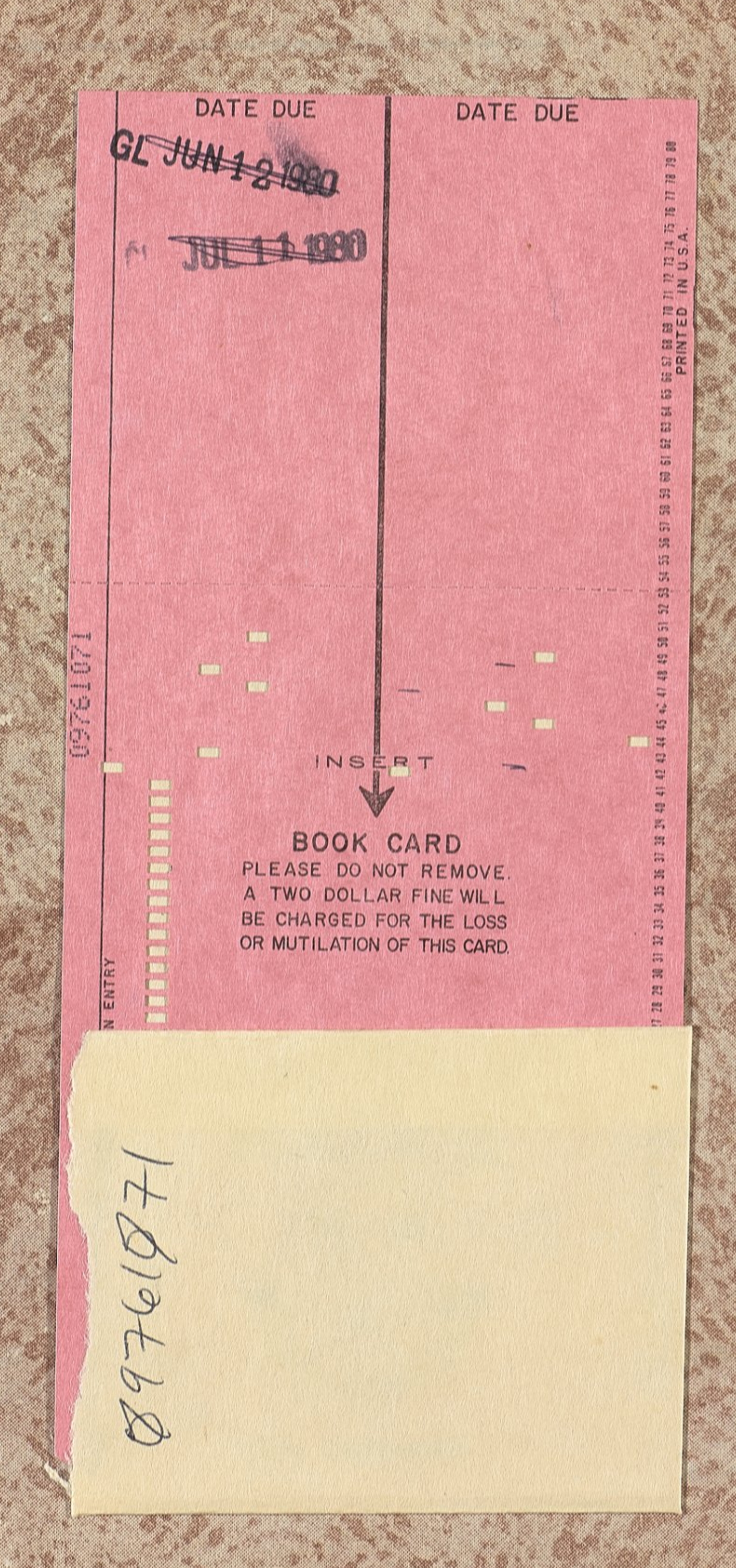
محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤/٥/٣٠٠٠)








DATE DUE
DATE DUE
GL JUN 12 1980
JUL 11 1980
INSERT
BOOK CARD
PLEASE DO NOT REMOVE.
A TWO DOLLAR FINE WILL
BE CHARGED FOR THE LOSS
OR MUTILATION OF THIS CARD.
PRINTED IN U.S.A.
09761071
09761071

